

الزاوية الدلائية

ودورها الديني والعلمي والسياسي

يؤلف هذا الكتاب أمام الجمهور في 8 أبريل 1985 مكتبة الآداب
بالبطاطة فقال به المؤلف د. محمد المرابطي مدير
مدرسة الآداب

تأليف

محمد حجي

أستاذ مساعد بكلية الآداب بالرباط

المطبعة الوطنية بالرباط

1384 - 1964

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

تقدير واعتراف ⁽³⁾

بسم الله الرحمن الرحيم

أرى لزاما على قبل كل شيء أن أتقدم الى أستاذي
الكبير الدكتور حسن ابراهيم حسن بأخلص عبارات الشكر
والامتنان لما أولانيه سيادته من عناية واهتمام ، ولما أسداه الى
من معونة ثمينة وتوجيه سديد . فقد كنت أجده فيه طيلة
الستين اللتين قضيتهما في اعداد هذه الرسالة تحت اشرافه
الاستاذ الخبير المحنك الذي لا ييخل على بكل ما أطلب من
ارشادات ومساعدات ، والعالم المتواضع الصبور الذي يتسع
صدره لاستفساراتي المتكررة ، ويفتح بابيه في وجهي
باستمرار . كما أشكر كلا من الاستاذ محمد ابراهيم
الكتاني الذي كان أول من أوحى الى بموضوع الزاوية
الدلائية وظل يمدني بما لديه من معلومات وامراجع ،
وصديقي الاستاذ محمد المنوني الذي أفدت كثيرا من خبرته
الواسعة واطلاعه الكبير على خبايا المخطوطات المغربية ،
والاستاذ عبد الله الرجراجي الذي وضع رهن اشارتي كل
ما احتجت اليه في بحثي من مصادر مخطوطة ومطبوعة ؛
فاليهم جميعا والى سائر العاملين في المكتبة الوطنية ، والزملاء
الذين لم ييخلوا على بما لديهم من معلومات ووثائق أصدق
عبارات التقدير والاعتراف بالجميل .

سلا في 8 أبريل 1963

محمد حجي

4

فهرس موضوعات الرسالة

3	تقدير واعتراف
5	فهرس موضوعات الرسالة
18	المقدمة

الباب الاول

نشأة الزاوية الدلائية

21	1 - لمحة عن عصر الدلائيين
23	2 - الزاوية والرباط والرابطة
26	3 - أصل الدلائيين
30	4 - تأسيس الزاوية الدلائية
34	5 - موقع الزاوية الدلائية

الباب الثاني

تعاليم الزاوية الدلائية

43	1 - الزاوية الدلائية كمركز ديني
43	(أ) الشيخ أبوبكر مؤسس الزاوية الدلائية
45	(ب) اطعام الطعام في الزاوية الدلائية
47	(ج) احتفال الدلائيين بعيد المولد النبوي الشريف
48	2 - طريقة الزاوية الدلائية
48	(أ) سند الدلائيين في الشاذلية
52	(ب) اذكار الزاوية الدلائية
54	(ج) مريدو الزاوية الدلائية
56	3 - علاقة الزاوية الدلائية بغيرها من الزوايا
57	(أ) الزاوية الناصرية
61	(ب) الزاوية الفاسية
64	(ج) الزاوية العياشية

الباب الثالث

الزاوية الدلائية باعتبارها مركزا علميا

- 71 1 - الاهمية العلمية للزاوية الدلائية
- 72 (أ) العلوم التي كان يدرسها الدلائيون
- 74 (ب) تفوق الدلائيين في اللغة وقواعدها
- 75 2 - أساتذة الزاوية الدلائية من أبنائها
- 76 (أ) محمد بن أبي بكر الدلائى
- 81 (ب) بقية أساتذة الزاوية الدلائية من أبنائها
- 86 3 - أساتذة الزاوية الدلائية من غير أبنائها
- 86 (أ) أحمد بن القاضي
- 94 (ب) أساتذة آخرون درسوا في الزاوية الدلائية
- 97 4 - تلاميذ الزاوية الدلائية
- 97 (أ) الحسن اليوسى
- 108 (ب) أحمد المقرئ
- 113 (ج) العربى القاسى
- 114 (د) علماء آخرون تخرجوا في الزاوية الدلائية

الباب الرابع

الدلائيون والسياسة

- 131 1 - موقف الدلائيين من الاضطرابات الداخلية
- 131 (أ) علاقة الدلائيين بالملوك السعديين
- 132 (ب) موقف الدلائيين من ابن أبى محلى وأبى زكريا الحاحى
- 138 (ج) موقف الدلائيين من أبى حسون السملالى
- 143 (د) علاقة الدلائيين بالمجاهد العياشى
- 149 2 - زعامة محمد الحاج السياسية
- 149 (أ) من هو محمد الحاج ؟
- 150 (ب) لزوع محمد الحاج الى الحكم
- 153 (ج) تأسيس مدينة الدلاء
- 153 (د) بيعة أهل المغرب لمحمد الحاج

- 3 - أعمال محمد الحاج الحربية 154
- (أ) الحملتان الدلائيتان الاوليان (وقعة أبي عقبة) 154
- (ب) مهاجمة المجاهد العياشي 155
- (ج) غزو شرفاء سجلماسة (وقعة القاعة) 158
- (د) الجهاد ضد الاسبانيين في المعمورة 159
- (هـ) حملات تأديبية في بلاد زعير والحياينة 163

الباب الخامس

انتشار نفوذ الدلائيين السياسى

- 1 - الموريسكيون ينضمون تحت لواء الدلائيين 167
- (أ) المدجنون والموريسكيون 167
- (ب) الموريسكيون في تطوان 168
- (ج) الموريسكيون في الرباط 170
- (د) أسطول الجهاد أو القرصنة السلاوية 174
- (هـ) عبد الله الدلائى أمير سلا 175
- 2 - علاقات الدلائيين بأوروبا 177
- (أ) الدلائيون وفرنسا 179
- (ب) الدلائيون وأنجلترا 181
- (ج) الدلائيون والاراضى الواطئة (هولاندا) 184
- (د) السفارة المغربية في لاهاي 197
- (هـ) قضية تنصر أمير دلائى 203
- 3 - الدلائيون في فاس 208
- (أ) أحمد بن محمد الحاج الدلائى أمير فاس 209
- (ب) محمد الدلائى يخلف أخاه في امارة فاس 210
- 4 - آثار الدلائيين 211
- (أ) المباني في الدلا وفاس 211
- (ب) النقود الاشقوبية 212

الباب السادس

(8)

نهاية الزاوية الدلائية

- 217 I - بدء انتفاض الاطراف على الدلائيين
- 217 (ا) ثورة الخضر غيلان في الشمال
- 219 (ب) زوال نفوذ الدلائيين من فاس
- 221 (ج) قضية البلديين بفاس
- 223 2 - الثورة ضد الدلائيين في سلا والرباط
- 223 (ا) عوامل الثورة
- 224 (ب) حصار عبد الله الدلائي في القصبة
- 224 (ج) هل حاول الدلائيون تسليم القصبة الى دولة أوربية ؟
- 226 3 - القضاء على الزاوية الدلائية - تخريبها
- 226 (ا) ظهور السلطان الرشيد بن الشريف العلوي
- 228 (ب) استيلاء الرشيد على فاس
- 230 (ج) معركة (بطن الرمان) - تخريب الزاوية الدلائية

الباب السابع

أثر الدلائيين في خارج زاويتهم

- 235 I - خروج الدلائيين الى فاس
- 235 (ا) تغريب الدلائيين الى تلمسان
- 238 (ب) ثورة أحمد الدلائي على السلطان اسماعيل
- 240 2 - العلماء الدلائيون في فاس ومكناس
- 243 (ا) محمد المسناوي الدلائي شيخ الجماعة بفاس
- 247 (ب) تلاميذ الدلائيين في فاس
- 249 3 - الكتب التي ألفها الدلائيون
- 251 (ا) جدول مؤلفات الدلائيين
- 254 (ب) جدول الكتب التي ألفت في الدلائيين

257 بقايا البيت الدلائلى	4 -
257 (أ) مساكن قبيلة مجاط اليوم	
258 (ب) أحفاد الدلائيين فى فاس والدار البيضاء والرباط	
265 الخاتمة	

الملاحق

269 ملحق رقم 1
270 ملحق رقم 2
273 ملحق رقم 3
275 ملحق رقم 4
277 ملحق رقم 5
278 ملحق رقم 6
280 ملحق رقم 7
282 ملحق رقم 8
285 ملحق رقم 9
287 ملحق رقم 10

مصادر الرسالة

289 المصادر العربية
297 المصادر الاجنبية
299 فهرس اللوحات المصورة
300 جدول الخطأ والصواب



حرجة تواجه القادم الى الدلاء
وتستر بقايا مسجد ابي بكر بالزاوية الدلائية القديمة

تصوير المؤلف

المقدمة

اخترت (الزاوية الدلائية) موضوعا لبحثي نظرا لما قامت به هذه الزاوية من أدوار هامة في تاريخ المغرب ، في ميادين الدين والعلم والسياسة ، ولاسيما في القرن الحادي عشر الهجري (السابع عشر الميلادي) في تلك الفترة المضطربة التي تقع بين الدولتين السعدية والعلوية . ولما كان الدلائيون قد حاربوا العلويين وناقسواهم في السلطان الى أن قضى الملك الرشيد بن الشريف العلوي على زاويتهم ، فإن المؤرخين الذين عاصروا تلك الاحداث قد أحجموا عن تدوينها ، وبخاصة ما يتعلق منها بمجد الدلائيين والجوانب الحسنة في حياتهم السياسية ، وبذلك لم تحظ الزاوية الدلائية بما تستحقه من الاهتمام ، اللهم الا ما كان هنالك من أخبار يسيرة جاءت متفرقة في كتب التاريخ والتراجم .

وفي القرن الماضي بدأ الاهتمام بالدلائيين يكثر ، وألفت فيهم ثلاثة كتب أولها أرجوزة تشتمل على 275 بيت لمحمد بن أبي بكر اليازغي سماها **حدائق الازهار الندية في التعريف بأهل الزاوية الدلائية البكرية** . تكلم فيه - كما سمح له النظم - عن أصلهم ، وأتى بتراجم كثير منهم مستعملا حروف الجمل كرموز لسنى الولادة والوفاة . وثاني الكتب المؤلفة في الدلائيين هو **نزهة الاخيار المرضيين في مناقب العلماء الدلائيين البكرين** ، لعبد الودود بن عمر التازي ، اهتم فيه بأنساب الدلائيين وذكر الآباء منهم وما خلفوه من أبناء . على أن أهم كتاب ألف في الدلائيين هو **البدور الضاوية في التعريف بالسادات أهل الزاوية الدلائية** ، لأبي الربيع سليمان الحوات ، وهو أجمع كتاب لأخبار الدلائيين يقع في أكثر من ستمائة صفحة استقى مؤلفه أخبار الزاوية وأهلها من والده الذي تتلمذ للدلائيين ، وأحاط بكل ما قيل فيهم أو كتب عنهم . لكن عيب البدور الضاوية أن مؤلفه لم يأت ببحث موضوعي كمؤرخ محايد يستهدف الحقيقة لذاتها حسنة كانت أم قبيحة ، ولا يتردد في الحكم على من يؤرخ لهم متى استلزمت نتائج البحث ذلك . وإنما كان يعنيه أن يذكر محاسن الدلائيين

دون مساوئهم ، فهم جميعا عنده علماء صلحاء نزهاء الخ ، وأى بشر سليم من النقص والخطأ ؟ هذا بالإضافة الى حشو الكتاب بكثير من الاساطير وكراعات الاولياء المبالغ فيها ، والسير على نهج المؤلفين القدماء فى التحلية بالالقاب الرفيعة الرتيبة التى قد تستغرق نصف صفحة أو أكثر بحيث يصنع العثور على اسم الشخص الذى يترجم له ، ثم لا يقيد الباحث شيئا من عبارات الاطراء المستمرة التى تتكرر فى كل ترجمة ولا يتبدل فيها غالبا الا الترتيب والسجع .

وهكذا وجدت أن تاريخ الدلائيين قد بقى غامضا مبعثرا بالرغم عن هذه الكتب الخاصة ، فحاولت أن أكتب عن الزاوية الدلائية بحثا نزيها أذكر فيه ما للدلائيين وما عليهم ، وأحلل - ما استطعت - بعض الجوانب الغامضة فى تاريخهم ، وأعالج هذا الموضوع من نواحيه الدينية والعلمية والسياسية . وقد رجعت فى بحثى الى كثير من الكتب التى عرضت لعصر الدلائيين ، وأقمت من أكثر من مائة مرجع عربى وفرنجى ، أكثرها مخطوط ؛ منها الكتب الثلاثة المتقدمة وبخاصة البدور الضاوية التى اخترت منها مادة هامة فيما انفرد به مؤلفها من الروايات الخاصة ، أو من النقول عن بعض المصادر التى لم يتيسر الوقوف عليها . ورجعت الى المظان فى كتب التاريخ والتراجم ، والرحلات ، والتصوف ، والنوازل ، والدواوين الادبية ، أخص بالذكر منها كتاب **مباحث الانوار فى أخبار بعض الاخيار** لاحمد بن يعقوب الولاى الذى عاش طالبا فى الزاوية الدلائية فترة طويلة من حياته ، ووصفها عن حس ومشاهدة . **والمحاضرات ، والفهرست** للحسن اليوسى أشهر تلاميذ الزاوية الدلائية ، وقد أتى فى هذين الكتابين بكثير من أخبار الدلائيين وتراجم أعيانهم . كما اعتمدت على كتاب **مرآة المحاسن من أخبار الشيخ أبى المحاسن** ، ولابى حامد محمد العربى الفاسى الذى أقام هو أيضا مدة فى الزاوية الدلائية ، وتعرض فى كتابه لبعض أخبارها ، وترجم لشيخه محمد بن أبى بكر الدلائى . وكتاب **الاحياء والانتعاش فى تراجم سادات زاوية آيت عياش** ، لعبدالله العياشى . وتعتبر الزاوية العياشية أو الحمزاوية كما تسمى اليوم ربيعة الزاوية الدلائية ، اذ كان مؤسسها محمد بن أبى بكر العياشى من تلاميذ الشيخ أبى بكر الدلائى ، وهذا الأخير هو الذى هباه للمشيخة وأمره أن يتخذ زاوية فى آيت عياش بالسفح الجنوبى الشرقى للاطلس الكبير . ويشتمل كتاب **الاحياء** على معلومات عامة عن موقع الزاوية الدلائية القديمة ومدينة محمد الحاج التى تفرعت عنها . ورجعت كذلك الى كتاب **الجواهر المختارة فيما وقفت عليه من النوازل** بجمال غمارة لعبد العزيز بن الحسن مهدي الزياتى الذى عاش فى العصر

الاول للزاوية الدلائية وذكر كثيرا من فتاوى العلماء فى موضوع الاضطرابات

التي دعت الدلائيين الى التدخل في شئون البلاد السياسية ، ولاسيما مايتعلق منها بجهاد الرئيس محمد العياشي وحصاره المورسكيين في الرباط والقصبة . ونزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي ، وصفوة من انتشر من أخبار صلحاء القرن الحادي عشر ، لتلميذ الدلائيين محمد الصغير اليفراني الذي عرض في مواضع كثيرة من كتابيه لأخبار الزاوية الدلائية وأهلها والى كتابي التحفة القادرية ، و تقايد تاريخية لعبد السلام بن عبد الله الخياط القادري الذي يروي بواسطة عن عم والده أحمد بن عبد القادر القادري تلميذ الدلائيين وصهرهم الذي عاش معهم في الزاوية الى أن وقع تخريبها . وينفرد هذان الكتابان بأخبار هامة ودقيقة عن الزاوية الدلائية ، وعن الفترة الاخيرة لنفوذ الدلائيين في فاس . وأفدت أيضا من كتاب نشر المثاني لاهل القرن الحادي عشر والثاني ، و نشر المثاني الكبير الخطي لمحمد بن الطيب القادري الذي أخذ عن تلاميذ الدلائيين ، وترجم لعدد كثير من علماء هذه الاسرة وصلحاتها ، وعرض في حوادث السنين المتسلسلة لأهم الاحداث التي وقعت أيام الامارة الدلائية .

ولم أغفل ما كتبه الاجانب عن الدلائيين ، وأفدت بالخصوص من ليفي بروفنسال في كتابه « Les Historiens des Choria » وعن الكونت دو كاستري في سلسلة وثائقه القيمة « Les sources inédites de l'Histoire du Maroc » ومما نشرته في هذا الموضوع مجلة هسبيريس « Hespéris » ومجلة وثائق مغربية « Archives marocaines »

قسمت الموضوع الى سبعة أبواب . بحثت في الباب الاول منها نشأة الزاوية الدلائية وأطوارها الاولى أيام الشيخ أبي بكر الدلائي ، وتحدثت في الباب الثاني عن تعاليم الزاوية الدلائية وطريقتها الشاذلية ، وعلاقتها بغيرها من الزوايا الكبرى التي عاصرتها ولاسيما الفاسية ، والناصرية ، والعياشية . وعالجت في الباب الثالث أهمية الزاوية الدلائية من الناحية العلمية ، وترجمت لطائفة من أشهر المتخرجين منها ، كالحسن اليوسفي ، وأحمد المقرئ ، والعربي القاسي ، والاخوين العكاريين محمد وعلي وغير هؤلاء من فطاحل العلماء .

وتناولت في الباب الرابع الناحية السياسية ، وموقف الدلائيين من الاضطرابات التي انتشرت في المغرب على اثر وفاة السلطان أحمد المنصور الذهبي . وأشارت الى علاقات الدلائيين بالملوك السعديين المتأخرين ، وبالشوار زكريا الحاحي ، وأبي حسون السملالي ، والمجاهد العياشي السلاوي . وعرضت لزعامه محمد الحاج السياسية ، وتأسيسه مدينة الدلاء او الزاوية الدلائية

الحديثة ، وبيعة أهل المغرب له ، وقيامه ببعض الاعمال الحربية الداخلية ، وجهاده ضد الاسبانيين في حصن المعمورة المحتل . وألمت في الباب الخامس ببعض مظاهر انتشار النفوذ السياسى للدلائين ، فذكرت ما كان من انضواء المورسكيين في تطوان والرباط تحت لوائهم ، وسيطرتهم على أسطول الجهاد أو القرصنة السلاوية ، وعلاقاتهم بالدول الاوروبية البحرية ، كهلاندا ، وأنجلترا ، وفرنسا التي عقدوا معها معاهدات ساعدت على ازدهار التجارة في الموانئ المغربية ، وعملت على تزويد الخزينة الدلائية بأموال ضخمة من الضرائب الجمركية المفروضة على الصادرات والواردات وسمحت كذلك باستجلاب العتاد الحربى الحديث من مدافع وبنادق ومسحوق البارود لتسليح الجيش النظامى الدلائى .

وأفردت الباب السادس لذكر مراحل تقهقر الدلائين ، فعرضت لبدء انتفاض الاطراف عليهم بسبب ثورة الخضر غيلان في الشمال ، وانهزام محمد الحاج الدلائى في معركة (وادي بوحريرة) تلك الهزيمة التي أدت الى قيام الثورة ضد الدلائين في فاس وسلا والرباط وسائر بلاد الغرب ، وحصار الامير عبد الله الدلائى في قصبة سلا . ثم ألمت بمسألة ظهور السلطان الرشيد بن الشريف العلوى في المغرب الشرقى ، وتمكن أمره في الشمال والجنوب ثم زحفه الى مواطن الدلائين وتغلبه عليهم في معركة (بطن الرمان) أوائل عام 1079/1668 واقصائه اياهم عن الزاوية الدلائية التي أصبحت حصيدا كان لم تغن بالامس .

أما الباب السابع فقد تناولت فيه أثر الدلائين في خارج زاويتهم ، وألمت الى ثورة أحمد الدلائى الكبرى ضد السلطان اسماعيل ، ثم تحدثت عن مركز العلماء الدلائين في فاس ومكناس ، وبخاصة شيخ الجماعة الامام محمد السنائى الدلائى الذى انتهت اليه رئاسة التدريس والتأليف والافتاء في فاس ، وكاد يكون جميع علماء المغرب في عصره من تلاميذه . واعدت بعض مشاهير تلاميذ الدلائين في العاصمة العلمية ، والكتب التي ألفها الدلائين في مختلف الفنون ، من حديث وسيرة ، وفقه وأصول ، ولغة ونحو وصرف وبلاغة ، وأدب وأنساب . ويقع بعض هذه الكتب في عدة مجلدات مثل نتائج التحصيل في شرح التسهيل لمحمد المرباط الدلائى ، وهو في أربعة أجزاء ، طبعت شهرته المغرب والشرق ، وبيعت منه في حياة المؤلف نسخ في مصر بأثمان مرتفعة ، وأعجب به علماء الازهر وقرطوه . وأخيرا تكلمت على بقايا البيت الدلائى ومساكن قبيلة مجاط اليوم

انه لا يكاد يخلو كتاب من الكتب التاريخية المغربية التي ألقت بعد القرن العاشر الهجري من ذكر الدلائيين وزاويتهم ، لكنه ذكر عابر لا يجاوز السطر أو السطرين ، وقد يطول صفحة أو أكثر ، ويتكرر أحيانا ليتحدث عن جزئيات خاصة ، وأحداث معينة مجردة من الاسباب والتفاصيل في الغالب . وحتى الكتب التي ألقت في الدلائيين لم تكن الا بجمع الاخبار والروايات على علاقتها ، وكيل المديح للدلائيين جزافا . فجاءت هذه الرسالة لتأخذ (الزاوية الدلائية) موضوعا تعنى بالبحث فيه بدقة ، وتدرسه دراسة نقدية شاملة للتواحي الدينية والعلمية والسياسية ، وتعرف اخواننا المؤرخين المحدثين في المشرق بالاسرة الدلائية المغربية حتى لا يعود بعضهم يكتب كلمة (كذا) اذا ورد ذكر الدلاء والدلائيين في النصوص القديمة التي يطلعون عليها ، وحتى يعرف (المفلسون منهم) ان الدلائيين هم من صميم المغاربة لا يمتون بأية صلة الى مدينة (دلالية) الاندلسية .

تضع هذه الرسالة حدا للافتراضات والتخرصات حول موقع الزاوية الدلائية الذي ظل المؤرخون المغاربة والاوربيون يختلفون فيه حتى اليوم ، وتبين أن هناك زاويتين دلائيتين قديمة جبلية ، وحديثة أسست في سفح الاطلس لتكون عاصمة الامارة الدلائية ، ما تزال أطلالهما معا ماثلة للعيان . وقد زودت الرسالة بعدة صور شمسية التقطتها بنفسى أثناء زياراتي للزاويتين أو اقتبستهما من بعض الكتب . ومن ناحية أخرى عرضت لتعاليم الزاوية الدلائية ، ووضعت جدولا يوضح الشيوخ الذين أخذ عنهم الدلائيون وتسلسلهم الى الامام أبي الحسن الشاذلي ، مشيرا الى ما كان من تفاعل بين الزاوية الدلائية وغيرها من الزوايا المهمة التي عاصرتها .

وتعمل الرسالة أيضا على ابراز الزاوية الدلائية كمركز علمي هام في الاطلس المتوسط ، كاشفة القناع عن المادة التي كانت تدرس في هذا المركز ، معرفة بالاساتذة الذين اضطلعوا فيه بالتدريس ، سواء كانوا من أبناء الزاوية أو من العلماء الطارئين عليها من فاس ومراكش وغيرها من المراكز الثقافية المغربية الاخرى . كما تلقي الرسالة بعض الاضواء على جانب من الحياة الاجتماعية لطلبة الزاوية الدلائية وتقدم أرقاما تتعلق بالمدارس الداخلية العظيمة الملحقة بها وبالكتب التي احتوت عليها خزائنها ، اعتمادا على مصادر خطية أصيلة نادرة .

ومن الناحية السياسية تهتم الرسالة بتحليل الاحداث التي جرت للدلائيين وربطها بعضها ببعض لتكون منها وحدة متصلة يمكن وضعها في

إطارها الحقيقي على الصعيد الوطنى . وتعرض الرسالة لأول مرة باللغة العربية إلى جانب مهم من نشاط الدلائيين السياسى وهو علاقاتهم بالدول الأوروبية الكبرى ، وعملهم التجارى فى أقطار الشمال الأفريقى ، كما تنشر نص معاهدات ومراسلات ووثائق أخرى مما تبادله الدلائيون مع الأجانب . وأخيرا تعنى الرسالة بالنهضة العلمية التى ظهرت فى المغرب صدر الدولة العلوية مبرزة مدى اسهام الدلائيين فيها ، وتأتى بإحصاء أولى للكتب التى ألفها الدلائيون أو ألفها الناس فيهم ، فى جدول يشتمل على أسماء الكتب ومؤلفيها والمكتبات التى أودعت فيها .

لقد أثبت فى المرامش تنبيهها على المراجع لمن أراد مزيد التوسع ، وأتى فى الأخير بثبت للمصادر العربية والأجنبية مرتبة على أسماء المؤلفين بحسب حروف الهجاء ، وذيلت الرسالة بعدة ملاحق تشتمل على نصوص هامة لم أثبتها فى الصلب - لطولها - حتى لا تقطع تسلسل الأفكار على القارئ .

وأرجو أن يكون بحثى المتواضع هذا قد أسهم بنصيب فى توضيح فترة غامضة معقدة من تاريخنا القومى ، ومهد السبيل أمام الباحثين لدراسة التراث الأدبى الضخم الذى خلفه الدلائيون .

الباب الاول

نشأة الزاوية الدلالية

- 1 - لمحة عن عصر الدلائيين
- 2 - الزاوية والرباط والرابطة
- 3 - أصل الدلائيين
- 4 - تأسيس الزاوية الدلالية
- 5 - موقع الزاوية الدلالية

1 - لمحة عن عصر الدلائين

تسبب الشرفاء السعديون عرش المغرب خلال النصف الاول من القرن العاشر الهجرى (القرن 16م) فانتعشت بهم الآمال ، وبدأ استرداد الشغور التى سبق أن استولى عليها الاوربيون . وعرف المغرب فى أيام واسطة عقد هذه الدولة أحمد المنصور الذهبى (986 - 1012 / 1578 - 1603) (I) عهد استقرار وازدهار فى السياسة الداخلية والخارجية على السواء . اذ كان من نتائج معركة وادى المخازن الشهيرة فى عام 1578/986 والانتصار المغربى على البرتغاليين ، ان طارت للبلاد شهرة فى جميع الاقطار ، أخذت معها الدول الاجنبية تخطب ود عاهل مراكش وتتقرب اليه بالسفارات والهدايا ، رغبة فى ربط أواصر الصداقة معه ، كما تناقل الناس فى الداخل أخبار هذه المعركة الفاصلة وأحاطوا شخصية بطلها المنصور بنالة من التقدير والاجلال وازدادت منزلة أحمد المنصور رفعة فى أعين الشعب بعد أن احتلت جيوشه بلاد السودان فى مطلع القرن الحادى عشر للهجرة (أواخر القرن السادس عشر للميلاد) وتدفقت منها على المغرب سيول الذهب والرقيق . ذلك الى ما كان عليه هذا الملك العظيم من الحرص والحفظ النظام وعدم التردد فى انزال أقسى العقوبات بالمشاغبيين الذين يسعون فى الارض فسادا . فساد الامن فى البلاد وعاش الناس فى دعة وطمأنينة ، وأخذوا يتنقلون من أقصى المملكة الى أقصاها دون أن يعترض طريقهم أحد أو يلحق أموالهم وأمتعتهم ضياع .

غير أنه لم تكد تخدم أنفاس المنصور الذهبى عام 1603/1012 حتى انقلبت الاحوال فى المغرب وظهرت فى الجو سحب الفتنة والاضطراب . فقد كانت وفاة المنصور فجأة وهو يتهيأ للخروج من فاس ليعود الى عاصمة ملكه مراكش ، فأصيب بالوباء الذى أخذ يكتسح اذ ذاك أطراف البلاد . ولم يكن قد بت بعد فى أمر ولاية العهد ، بعد أن ثار عليه ولده البكر محمد الشيخ المامون خليفته بفاس وولى عهده السابق ، فقبض عليه وأودعه السجن . وقد بادر أهل فاس الى مبايعة زيدان بن المنصور بمجرد ما انتهوا من دفن الملك الراحل . وكان زيدان عاملا على اقليم تادلا ، استصحبه أبوه معه الى فاس ثم استخلفه عليها قبيل وفاته . ولما بلغ خبر الوفاة والبيعة الى مراكش ثارت ثائرة أهلها وراوا فى تصرف الفاسيين واستبدادهم بالامر دونهم استخفافا بشأنهم فبايعوا أبا فارس

(1) الأرقام التى تاتى بعد ذكر الملوك ، ترمز الى المدة التى ظلوا فيها مترشحين على العرش .

ابن المنصور لانه كان الخليفة الرسمي لوالده بحاضرة ملكه . وبدلاً من أن يسعى ذوو المكانة والنفوذ في تلافى الامر وحل المشكل تسرع علماء فاس فافتوا بوجوب قتال المراكشيين عملاً بحدیث : اذا بویع لخليفتين فاقتلوا الآخر منهما . والتقى جيش الملكين الاخيرين على ضفة نهر أم الربيع ، وكان أبو فارس لم يحضر القتال بنفسه ، وانما أناب عنه أخاه الشيخ المامون بعد اخراجه من السجن . واسفرت المعركة عن انهزام زيدان وفراره الى تلمسان ، ووجد المامون نفسه في عزة ومنعة . بعد أن انضم اليه جند أخيه المهزوم فقلب ظهر المجن لأبي فارس وأعلن نفسه ملكاً على فاس .

ظل الاخوة الثلاثة زيدان ، وأبو فارس ، والشيخ المامون يتنازعون الملك مدة طويلة ، دون أن يتم الامر لواحد منهم ، وعمت الاضطرابات أرجاء البلاد كلها ، وانتهى أمر الشيخ المامون بتسليم مدينة العرائش الى الاسبانيين عام 1610/1019 طمعاً في مساعدتهم له ، فغضب عليه الشعب وقتله في ضواحي تطوان عام 1613/1022 . كما قتل أخوه أبو فارس خنقاً قبله . وقبّع زيدان أخيراً في مراكش صارفاً نظره عما وراء نهر أم الربيع ، تاركاً أمر فاس وغيرها لعبد الله بن الشيخ المامون ومنافسيه من التوار . وقد انقرض أمر السعديين في فاس بموت عبد الملك بن الشيخ المامون في أواخر عام 1627/1036 (1) وبقي أبناء زيدان يتوارثون إمارة مراكش الى أن قتل آخرهم أبو العباس أحمد بن الشيخ بن زيدان عام 1658/1069 (2) . وعرفت هذه الفترة الحالكة من تاريخ المغرب أواخر الدولة السعدية الى جانب المجاهد العياشي السلاوي كثيراً من أسباب الزوايا المتزعمين الذين استغلوا فرصة اضطراب الاحوال لتحقيق مطامعهم في الحكم والرئاسة ، أمثال ابن أبي محلي السجلماسي ، وأبي زكريا الحاحي ، وأبي حسون السملالي .

(1) تولى الشيخ المامون إمارة فاس في فترات متقطعة الى أن قتل عام 1613/1022 ، وتولى من بعده ابنه عبد الله كذلك الى أن توفي عام 1623/1032 ثم عبد الملك بن المامون الى أن توفي في أواخر عام 1627/1036 . وقد دخل بعد ذلك الى فاس أحمد بن زيدان السعدي وادعى الإمارة فلم يتم له الامر .

(2) مات زيدان بن المنصور عام 1627/1037 فتولى إمارة مراكش ابنه عبد الملك الى أن قتل عام 1631/1040 ثم الوليد بن زيدان الى أن قتل عام 1636/1045 ثم محمد الشيخ بن زيدان الى أن قتل عام 1653/1063 ثم ابنه أبو العباس أحمد الى أن قتل عام 1658/1069 فانقرض بذلك أمر السعديين بالمغرب واستبد عرب القبائل بإمارة مراكش الى أن انتزع الامر من يدهم السلطان الرشيد العلوي عام 1668/1079 .

وقد شاهدت الزاوية الدلائلية في بداية عهدها العصر الذهبي للسعديين ، ثم أدركت زمن الفسقة والتدهور ، غير أنها نظرا لمناعة موقعها في جبال الاطلس ولمكانة رجالها الصالحين ، استطاعت أن تحتضن الثقافة الاسلامية في عصر عصفت فيه الاضطرابات بالراكز العلمية التقليدية مثل فاس ومراكش ، وعمرت الزاوية الدلائلية زحاه فرن ظلت فيه مركز اشعاع بالعلم والدين .

2 - الزاوية والرباط والرابطة

لم تظهر الزاوية في تاريخ المسلمين كمركز ديني وعلمي الا بعد الرباط والرابطة . والرباط لغة مصدر رباط يرابط بمعنى أقام ولازم المكان . ويطلق في اصطلاح الفقهاء والصوفية على شيئين أولهما البقعة التي يجتمع فيها المجاهدون لحراسة البلاد ورد هجوم العدو عنها . والثاني عبارة عن المكان الذي يلتقي فيه صالحو المؤمنين لعبادة الله وذكره ، والتفقه في أمور الدين . وجاء في القرآن الكريم : «وَأَعِدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْحَيْلِ» (1) «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ» (2) وقال الرسول عليه السلام : رباط يوم وليلة في سبيل الله خير من صيام شهر وقيامه . وقد عرف المغرب الرباط مع الفتح الاسلامي وورد ذكر الرباط عاصمة بالسوس الاقصى في أخبار عقبة بن نافع الفهري ، وموسى بن نصير ، وادريس الاول . ويذكر المؤرخون أن «رباط شاكرا» المعروف اليوم بسيدي شيكر على ضفة وادي نفيس بحوز مراكش ، هو مدفن المجاهد العربي شاكرا من أصحاب عقبة بن نافع وفد بنى هذا الرباط يعلى بن مصلين أحد رجال رجالة السبعة الذين يقال انهم وفدوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم بركة ، فأسلموا ورجعوا الى المغرب دعاة للدين الحنيف .

كان يعلى يقيم في هذا الرباط لقتال كفار برغواطة (3) ثم صار رباط شاكرا «مجمعا للصالحين من قديم ولاسيما في رمضان يفدون اليه من كل حذب» (4) . كذلك أقام المسلمون رباطا آخر في شمال تامسنا ، على ضفة نهر

(1) سورة الانفال . الآية 60

(2) سورة آل عمران . الآية 200

(3) برغواطة بطن من رابطة مصودة كانوا يسكنون بلاد تامسنا فيما بين نهر أم الربيع شمالا ووادي أبي زرقاق جنوبا . ولم يحسن اسلام البورغواطيين في بادى الامر ثم كانوا من اصحاب ميسرة الطغرى الحقر الذي ثار على العرب عام 122 هـ وانتحل مذهب الخوارج الصفرية وأعلن نفسه خليفة . وبعد هلاك ميسرة تزعم أحد قواد جيشه أبو صبيح طريف أمر برغواطة وأقصد عليهم دينهم . ثم خلعه ابنه صالح الذي ادعى النبوة وشرع للبورغواطيين ديانة جديدة . وقد لقي المسلمون عنقا كبيرا من البورغواطيين خلال عدة قرون الى أن غلبه شوكتهم المرابطون .

(4) يوسف بن الزيات ، التشويق . 20 .

أبي رقرق ، أو وادي سلا كما يسميه ابن حوقل في كتابه **المسالك والممالك** . وكانت مدينة سلا القديمة قد خربت في أوائل القرن الرابع الهجري «والناس يسكنون ويرابطون برباط يحف بها . وربما اجتمع في هذا المكان من المرابطين مائة ألف إنسان يزيدون وينقصون ورباطهم على برغواطة ...» (1) وتكاثرت الربط في المغرب ولاسيما على السواحل إلى أن صارت تعد بالعشرات .

وخصص الخطيب ابن مرزوق التلمساني المتوفى عام 1379/781 الباب التاسع والثلاثين من كتاب **المسند الصحيح الحسن** للكلام على الربط التي أنشأها السلطان أبو الحسن المريني (731 - 1331/752 - 1351) على السواحل المغربية والجزائرية ، إذ كان القراصنة الأوربيون كثيرا ما يأتون يسفّنهم إلى هذه السواحل ويختطفون منها أهل البوادي ليستعبدوهم في بلادهم . فكانت الربط التي أسسها أبو الحسن المريني تمتد من آسفي جنوبا إلى آخر المغرب الأوسط وأول بلاد إفريقية - تونس - «إذا وقعت النيران في أعلاها تنصل في الليلة الواحدة أو في بعض ليلة . وذلك في مسافة تسير فيها القوافل نحو من شهرين ، وفي كل محرس منها رجال مرتبون نظار وطلّاع يكشفون البحر فلا تظهر في البحر قطعة تقصد ساحل بلاد المسلمين إلا والتنقير يبدو في المحارس فأمنت السواحل في أيامه السعيدة ...» (2) .

وتأتي الرابطة بمعنى الرباط سواء في الإطلاق على مكان الجهاد أو مكان العبادة ، وإن كان بعضهم يسمي الجيش المقيم في الربط رابطة . (3) وقد سمي المؤرخون «رابطة» المكان الذي أقام فيه عبد الله بن ياسين وجماعة من اللمتونيين الصنهاجيين في إحدى الجزر الساحلية بأقصى الجنوب الغربي ، وذلك في أوائل القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) . وتلاحق الصنهاجيون برباط ابن ياسين لينقطعوا معه فيه إلى عبادة الله تعالى ، وليتعلموا منه أمور دينهم إلى أن بلغ عددهم نحو ألف رجل فدعاهم لجهاد القبائل الزائغة عن تعاليم الإسلام ، وتطور أمرهم إلى أن كونوا دولة المرابطين . وقد ذكر ابن الزيات التادلي المتوفى عام 1230/627 في كتابه **التشوف** أحد عشر رباطا وتسع رابطات ، أكثر أسمائها بربرية . مثل رباط (تيطنطر) - عين القطر - الذي يقع على ساحل المحيط الأطلسي جنوبي مدينة الجديدة ،

(1) ابن حوقل ، **المسالك والممالك** ، ص 56 .

(2) الخطيب ابن مرزوق ، **المسند الصحيح الحسن** ، ص 49/157 .

(3) محمد بن علي الدكالي ، **كتاب في الرباطات** ، ص 2 .

على بعد نحو II كلم ، وهو اليوم خراب ويسمى تيط . وكرباط (تينمل)
بالاطلس الكبير ، الذى هو دار المهدي بن تومرت ، ورباط (ثانوتن) من بلاد
دكالة ، ورباط (تاسماطت) من عمالة مراكش ، وكرابطة (آنبدور) خارج
سجلماسة ، ورباطة (تامنغاطت) بالقرب من ساحل آفلا : الدار البيضاء .
أما الزاوية فهي عبارة عن مكان معد للعبادة ، وإيواء الواردين المحتاجين
وأطعمهم . وتسمى في الشرق خانقاة وهو لفظ أعجمي يجمع على خانقاهات
أو خانقاوات أو خوانق . وقيل في تعريف الزاوية المغربية أنها : «مدرسة
دينية ودار مجانية للضيافية . وهي بهذين الوصفين تشبه كثيرا الدير في
العصور الوسطى» (I) ولم تعرف الزاوية في المغرب إلا بعد القرن الخامس
الهجرى ، وسميت في بادىء الامر (دار الكرامة) ، كالتى بناها يعقوب المنصور
الموحدي في مراكش ، ثم أطلق اسم (دار الضيوف) على ما بناه المرينيون من
الزوايا ، كالزاوية العظمى التى أسسها أبو عنان المريني في خارج فاس
وهي التى ذكرها ابن بطوطة في رحلته . وقد جدد الدلائيون بناءها أيام انتشار
نفوذهم في العاصمة الادريسية . فظن بعض المؤرخين أنهم مؤسسوها (2) ومن
أقدم الزوايا التى حملت هذا الاسم في المغرب زوايا الشيخ أبي محمد صالح
الماجرى (33/631 - 1234) في آسفي ، وقد تعددت زواياه حتى بلغت ستا
وأربعين ، وانتشرت فيما بين المغرب ومصر ، اذ كان هذا الشيخ يشجع
أصحابه على حج بيت الله الحرام ، واستكثر من اتخاذ الزوايا في الطريق التى
يسلكها ركب الحجاج ليأووا اليها في مراحل سفرهم الطويل . وفي القرن
الثامن الهجرى (الرابع عشر الميلادى) تكاثرت الزوايا في المغرب ، ونمت حولها
مدارس استقر فيها طلبة العلم ، الامر الذى حدا بملوك بني مرين أن يشيّدوا
كذلك مدارس بجانب المراكز التعليمية الكبرى خصوصا جامع القرويين بفاس .
وقد أفرد الخطيب ابن مرزوق التلمساني الباب الواحد والاربعين من
كتاب **المسند الصحيح الحسن** لذكر المدارس الكثيرة التى أسسها السلطان
أبو الحسن المريني (3) .

وتطور أمر الزوايا بالمغرب خلال القرن العاشر الهجرى «السادس عشر
الميلادى» حيث تغلب النصارى على المسلمين في الاندلس وساموهم سوء

(1) دائرة المعارف الاسلامية ، العدد التاسع من المجلد العاشر ، ص 332 .

(2) محمد بن علي الدكالي السلوى ، الكناشة العلمية ، ص 278 . وقد ذكر ابن بطوطة زاوية
أبي عنان في موضعين من رحلته (الطبعة الاولى بمطبعة وادي النيل - القاهرة عام 1287هـ)
في صحيفة 22 وصحيفة 177 . وقال انها أعظم زاوية شهدتها في المغرب والشرق تقع
على تدير الحصص (وادي الجواهر) خارج المدينة البيضاء (فاس الجديد) . ولا يوجد في
هذا الموقع اليوم الا بقايا أسوار يظن أنها أطلال تلك الزاوية العظمى .

(3) الخطيب ابن مرزوق ، **المسند الصحيح الحسن** ، ص 158 وما بعدها .

العذاب ، ثم امتدت أطماعهم الى احتلال الشغور المغربية وضعفت الدولة الوطاسية عن الدفاع عن حوزة الوطن . هنالك بدأت الزوايا تتدخل في شؤون البلاد السياسية وتدعو الى الجهاد ومقاومة الاجنبي . ووجد نداء الصوفية آذانا صاغية ، فهب الشعب يذود عن حمى البلاد وحمل السلاح معهم فقادوه في معارك ظافرة انتهت بطرد البرتغال من الشغور التي كان يحتلها في الجنوب ، ونصب رجال الزوايا الشريف أبا عبد الله القائم السعدي (915 - 1510/923 - 1517) ملكا على المغرب . وقد كان تأسيس الزاوية الدلائية في عهد الدولة السعدية هذه .

3 - أصل الدلائين

تطلق كلمة (الدلاء) على الارض التي أسس فيها المجاطيون زاويتهم بالجنوب الغربي للاطلس المتوسط المشرف على سهول تادلا . ولفظ الدلاء عربي (جمع دلو : اناء يستقى به الماء) . استعمله بهذا المعنى - مقصورا وممدودا - كتاب عاشوا في الزاوية الدلائية ، مثل الحسن اليوسي ، ومحمد المربط الدلائي . واذا كان من المستغرب اطلاق هذا الاسم العربي القح على بقعة تقع في وسط بربري صرف فانا لاندرى كذلك لهذه التسمية سببا ولا تاريخا ، اللهم الا ما يبدو من تقارب لفظي بين الدلا وتادلا . الامر الذي يجعلنا نفترض أن الاسمين كانا مترادفين لمسمى واحد . ويؤيد هذا الافتراض أن عبد العزيز الفشتالي - وهو معاصر للزاوية الدلائية - أطلق لفظ الدلا على تادلا حينما تحدث عن توزيع المنصور الذهبي لاقاليم المملكة على أبنائه . فقال : «... وعقد للمولى زيدان أصغرهم على الدلا ، ثم بدا له أن يدل كلا منيما بالآخر فنقل المولى أبا الحسن للدلا وعقد له على أعمالها وشفيعا له ببلاد أدخسان (1) جارتها والمتاخمة لأعمالها» (2) ونحن نعلم من سائر المصادر التاريخية أن ولاية زيدان وأبي الحسن ابني المنصور كانت شاملة لاقليم تادلا كله . ولعل الزاوية الدلائية بعد أن اشتهرت خصوصا عندما تزعمت الحركة السياسية بالمغرب اختصت باسم الدلا ، بينما بقيت السهول المجاورة لها تسمى تادلا . ونجد المؤرخ أبا القاسم الزياني (يبربر)

(1) أدخسان : جبل في الاطلس المتوسط بالقرب من خنيفرة . وهناك قلعة تدعى أيضا أدخسان .
انظر أبا القاسم الزياني ، الترجمة الكبرى ، ص 463 .

(2) عبد العزيز الفشتالي ، مناهل الصفا ، ص 191 .



صحن مسجد أبي بكر في الزاوية الدالية القديمة

عن مجلة حسيوس



بقايا صومعة مسجد أبي بكر في الزاوية الدلالية القديمة

أحيانا لفظ الدلا فيكتبه (يدلا) (1) وذلك ما نجده جاريا على السنة سكان تلك الناحية حتى اليوم .

ينتسب الدلائيون الى قبيلة مجاط ، احدى فروع صنهاجة التي هي جذم من البرانس الذين يرجع اليهم مع البتر جميع انساب البربر (2) . ولا عبرة بما ادعاه بعض المؤرخين المتأخرين من رفع نسب الدلائيين الى أبي بكر الصديق (3) وانما هم - بناء على انتساب الدلائيين أنفسهم - من قبيلة لمتونة الصنهاجية التي كانت تسكن بأقصى الصحراء المغربية ، وفصيلتهم القربى هي بنو الطالب ، ويقال لهم بلسان البربر (آيت يتيندر) في عداد قبائل الاطلس المتوسط . وكانت مساكن مجاط قبل انتقالهم الى الدلا على ضفاف نهر ملوية (4) العليا فيما بين تونفيت وميدلت . ثم تفرق المجاطيون بعد ذهاب عزهم أيدي سباً ، واستقروا في جهات مختلفة بالمغرب كما سنراه في الباب الاخير .

وأول من استوطن من المجاطيين أرض الدلاء الشيخ الصالح أبو حفص عمر المجاطي ، ثالث أجداد الشيخ أبي بكر مؤسس الزاوية الدلائية ، وذلك في أواخر القرن الثامن الهجري ، بناء على القاعدة التي ذكرها ابن خلدون من أن كل مائة سنة لايسعها الا ثلاثة آباء . (5) «وكان بنو عرين يعظمون السادات الدلائيين غاية ، وربما قاموا وأجلسوا أحدهم في مكانهم» (6) .

(1) أبو القاسم الزباني ، البستان الطريف في دولة أولاد مولاي الشريف ، ورقة 1/5 .

(2) ابن خلدون ، العبر (القسم الذي نشره دسلان) ج 1 ، ص 106 .

(3) رفع نسب الدلائيين الى أبي بكر الصديق محمد بن أبي بكر اليازغي في حقائق الأزهار الندية ، وعبد الودود التازي في نزهة الاخيار المرضيين ، وسليمان الحوات في الدور الضاوية .

(4) ذكر الاستاذ أحمد بن قاسم المنصوري في كتابه : تاريخ زيان تفاصيل مهمة عن مجرى نهر ملوية اختصرها فيما يلي : نهر ملوية من الاودية العظام بالاطلس المتوسط ومنبعه من عين تسمى (عين سبت) في الاطلس الكبير ببلاد آيت يحيى مركز تونفيت في سفح جبل يسمى (توجيط) ثم يهبط ماؤها نحو الشمال ويلتقي بعيون أخرى فتكون منها اودية صفار ، كراذي (توال) ووادي (اتركير) الكل من دائرة ميدلت ، فيهبط الجميع قاصدا الشمال من تحت مدينة ميدلت على نحو 30 كم غربها . وهنا يظهر تضخم نهر ملوية ويتجه نحو (الاقصابي) على 50 كم شمال ميدلت ثم مركز ميسور على 80 كم من ميدلت ثم مركز أوطاط الحاج ، ومنه يدخل تراب المغرب الشرقي فيصل الى مدينة كرسيف حيث تظا عليه جبال رشيدة . ويستغل نهر ملوية من أوائل متبعه في قبائل بربرية من دائرة ميدلت كآيت يحيى ، وآيت عياش ، وآيت بزدك . . .

(5) ابن خلدون ، المقدمة ، طبعة دار الكتاب اللبناني 1961 ، ص 304 .

(6) سليمان الحوات ، الدور الضاوية ، ورقة 1/5 .

ولا يعرف للشيخ عمر المجاطي ولا لابنه أحمد تاريخ ولادة ولا وفاة ، وإنما يذكر لأول اجتهد في العبادة ، ولثاني علم وصلاح . أما الشيخ سعيد ابن أحمد بن عمر فقد كان حيا عام 953 هـ (1546 م) وذكر في حقه صاحب نزعة الفكر (1) أنه « كان طالبا قارئا فاضلا خيرا دينيا فائقا مكثرا للصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم مولعا بها (. . .) » وكان له عند أمراء وقته التعظيم التام ، والتوقير الكثير والاحترام ، لما كان عليه من الاشتغال بالعلم والدين ، وما سلف من العلم والصلاح في آبائه الاقدمين ، رحمة الله عليهم أجمعين . وكانت عنده ظواهر (كذا) ملوكية من بنى مرين وبنى وطاس وغيرهم تتضمن الاحترام والتوقير والتنزيه عن الوظائف الجارية على العامة والتحرير وتتضمن قطاعات (كذا) لارضين له ببلاده واستمرت بأيدي بنيه من بعده من أولاد الشيخ سيدي أبي بكر الى أن كانت رحلتهم لتلمسان ففقدت (2) .

وهناك ظهير للسلطان محمد الشيخ السعدي (951 - 1544/964 - 1557) يوصي بتعظيم سعيد بن أحمد الدلائي ، ويشير الى وجود ظواهر قديمة عنده ويقره على التصرف في اقطاعاته (3) . ولا نعرف عن الشيخ محمد بن سعيد الدلائي ، الذي يدعى بلسان قومه (حمي) الا انه كان مواسر الحال ، مستقيم السيرة ، سنيا تقيا ، خلف ولدين هما أبو اسحاق ابراهيم ، وأبو الجمال أبو بكر مؤسس الزاوية .

4 - تأسيس الزاوية الدلائية :

لنعرف بالضبط متى وجدت زاوية الدلاء ، غير انه يمكننا الاطمئنان الى القول بأن تأسيسها كان في الثلث الاخير من القرن العاشر الهجري ، حوالي عام 974 هـ 1566 م أسسها أبو بكر بن محمد بن سعيد الدلائي بإشارة من شيخه أبي عمر القسطلي (4) . فقد ذكرت كتب التراجم أن هذا الشيخ كان يكرم

(1) نزعة الفكر في مناقب الشيخين سيدي محمد ووالده سيدي أبي بكر لعبد السلام بن الطيب القادري المتوفى عام 1110 هـ أحد المصادر المهمة التي اعتمد عليها صاحب البدور الضاوية .

(2) نقله عن نزعة الفكر سليمان الحوات في البدور الضاوية ورقة 1/7 .

(3) انظر نص هذا الظهير في ملحق رقم 2 .

(4) الشيخ أبو عمر القسطلي من ذرية الشاعر الاندلسي الشهير ابن دراج القسطلي كاتب المنصور ابن أبي عامر وشاعر بلاطه . ونسبته الى قسطلية : مدينة بالاندلس يقال لها قسطلية دراج . وعد الامام ابن حزم في الجوهرة أسرة هذا الشاعر من بين برابر صنهاجة . توفي الشيخ القسطلي عام 1566/974 هـ ودفن برياض العروس بمراكش . وفي الخزنة الملكية كتاب لمؤلف مجهول يضم طائفة من كلام الشيخ القسطلي في التصوف .

اللوحة رقم 5



منظر عام لزاوية آيت اسحاق
المبينة على انقاض الزاوية الدلائية الحديثة

تصوير المؤلف



واحدة من ضريحى الشيفين الدلائيين أبى بكرى ومحمد بنى الزاوية الدلائية القديمة

الواردين على زاويته بمراكش بحسب اقدارهم وطبقاتهم ، ويقدم لهم من صنوف الاطعمة ما لا يستطيع عمله الا كبار الموسرين وأزباب الدولة . وقد أمر الشيخ القسطلي أبا بكر الدلائى باتخاذ زاوية له فى أرض الدلا يطعم فيها الصّعام على نحو ما يفعله هو بمراكش . فلم يسمع أبا بكر أمام الحاج شيخه الا أن يبني الزاوية الدلائية البكرية (1) ويفتح أبوابها فى وجه المريدين والزائرين .

ولا يقتصر مدلول الزاوية الدلائية على هذا المسجد الخاص الذى أسسه أبو بكر وإنما يشمل كافة القرية القائمة حوله بدورها وأسواقها ومساجدها وسائر مرافق الحياة الضرورية لها ، وهو أمر نجد له مثيلا فى اخواتها الباقية لعصرنا الحاضر ، كزاوية سيدى حمزة بجبل الغياشى قرب ميدلت ، والزاوية الناصرية بتمكروت ، وزاوية آيت اسحاق نفسها التى قامت على أنقاض الزاوية الدلائية الحديثة . ولا شك فى أن الزاوية الدلائية باعتبار مدلول القرية ، لم توجد دفعة واحدة ، وإنما اجتازت مراحل فى تشييد مبانيها حيلة حياة الشيخ أبى بكر الدلائى الذى « كانت له المآثر الحسان ، التى لا يصدر مثلها الا عن سلطان ، كبناء القناطر ، وحفر العيون واجراء مائها ، وتوسعة الاودية وبنائها ، وشراء الرباع فى غالب البلاد وتحبيسها على الطلبة والضعفاء والمساكين ، وتشييد مباني الزاوية حتى كانت فى عداد المدائن ، التى يكل اللسان عن وصف ما لها من المحاسن » (2) .

ولقد تفرعت عن الزاوية الدلائية هذه ، مدينة أخرى تقع جنوبها على بعد نحو 12 كلم ، أنشأها فى سفح الجبل حفيد الشيخ أبى بكر ، السلطان محمد الحاج بن محمد الدلائى عام 1048/1638 ، فورثت عن قرية الدلاء القديمة اسم الزاوية الدلائية البكرية . وسماها بعض المؤرخين مدينة الدلاء زاوية محمد الحاج (3) أو مدينة أزغار (4) وهناك نص من القرن الحادى عشر يدل بوضوح على وجود زاويتين دلائيتين اثنتين ، احدهما عاصمة الامارة الدلائية والاخرى قرية فيها قبور الدلائيين . وذلك فقرة من رسالة (5) وجهها الفقيه

(1) تدعى الزاوية البكرية ايضا نسبة لمؤسسها الشيخ أبى بكر الدلائى .

(2) سليمان الحوات . البدور الضاوية . ورقة 1/10 .

(3) أبو القاسم الزباني ، الترجمانة الكبرى ، التى جمعت أخبار العالم برا وبحرا ، ص 463 .

(4) عبد الله العياشى ، الاحيا والانتعاش ، فى تراجم سادات زاوية آيت عياش ، ورقة 249 . وأزغار كلمة بربرية تدل على البسيط من الأرض .

(5) هذه الرسالة طويلة تشمل على مقدمة وثلاثة فصول وخاتمة . انظرها بتمامها فى الاحيا و الانتعاش من ورقة 247 الى ورقة 263 .

محمد بن عبد الجبار (1) الى شيخه أبي سالم العياشى صاحب الرحلة المشهورة وكان اذ ذاك غائبا بالحرمين الشريفين ، يتحدث له عن المسغبة التي حلت بالمغرب عام 1071/1061 يقول فيها : «والقرى التي حول الزاوية مدينة الدلاء ودار المغرب فى تلك الأزمنة قد خربت كلها الا ما كان من ثلاث قرى . منها قرية تعرف بالدلاء وفيها قبور أولئك الملوك ...» (2)

ونجد فى شعر أبي على اليوسى تلميذ الزاوية الدلائية اشارة الى المدينتين الدلائيتين العليا والسفلى : لقد قال مرة حينما طلع الى الزاوية الدلائية القديمة :

رحلت وقد نزلت على الدلاء وخلفت الحضيض الى العلاء
وخلفى عصبة يدرون غيبى مغيب الغيث عن قوم ظماء
فقل لهم اذا ظمئوا استغيثوا بهجر لا يكدر بالدلاء (3)

5 - موقع الزاوية الدلائية :

لقد وقع اضطراب كبير فى تحديد موقع الزاوية الدلائية بسبب تخريبها وانطماس معالمها . فأشار اليها بعض مؤرخى القرن الماضى اشارات عامة غامضة ، كقولهم انها تقع على ثلاث مراحل من فاس مكتنفة بين بجانة ومسكورة وتادلا (4) وجاء الاوربيون فى مطلع هذا القرن يتحدثون عن الزاوية الدلائية وموقعها بأحاديث متضاربة (5) ثم نشر أحد جهابذة مؤرخينا فى السنة الماضية كتابا قال فيه : «لا يعرف بالضبط موقع هذه الزاوية الآن ، وانما المحقق أنها كانت تقع بناحية وادى أم الربيع قريبا من تادلة . ولعلنا لانخطئ اذا عينا لها بلاد تافسنا المعروفة اليوم بالشاوية ، ومن ثم شهر بعض الدلائين بنسب المسناوى» (6) وذكر مؤرخ مغربى كبير آخر فى مقال نشره

(1) محمد بن عبد الجبار تلميذ أبي سالم العياشى ، كان شاعرا نحويا فقيها له عدة مؤلفات أنظر ترجمته فى الاحيا والانتعاش ، ورقة 229 .

(2) عبد الله العياشى ، الاحيا والانتعاش ، ورقة 255 .

(3) محمد بن على الدكاكى السلوى ، مجموع فيه اخبار الدلائين ، ص 25 .

(4) سليمان الحوات ، البدور الضاوية ، ورقة 5/ب .

(5) H. De Castries, *Les sources Inédites de l'Histoire du Maroc*, France - Tome III, p. 574.

— Lévi Provençal, *Les Historiens des Chorfa*, p. 300.

— La Mission Scientifique du Maroc, *Villes et Tribus* - Rabat et sa région - Tome I, p. 77.

— La section Sociologique D.G.A.I. *Archives Marocaines* - Volume 28, Editorial.

(6) عبد الله كنون ، النبوغ المغربى ، ج 1 ، ص 269 .

الباب والقبعة لمسجد آيت السحاق - الزاوية الدلائية الحديثة -

تصوير المؤلف





مكتب قائد زاوية أيت اسحاق المبني في موقع المسجد الاعظم
في الزاوية الدلالية الحديثة

منذ شهور فقط، أن الزاوية الدلائية «درست معالمها لدرجة أنه لم يتوصل بعد الباحثون الى تعيين المحل الذي كانت به» (1) .

والواقع أن هناك زاويتين دلائيتين ، قديمة وحديثة ما تزال أطلالهما قائمة الذات ماثلة للعيان حتى اليوم . ويعرف سكان ناحية خنيفرة الزاوية القديمة باسم (آيت بدلا) أي أهل الدلاء ، ويروي شيوخهم بالتواتر ما كان لهذه البقعة الطيبة من ماض علمي مجيد . وعندما زرت هذه الزاوية لأول مرة يوم 25 ذى الحجة 1381/30 ماي 1962 صحبة الاستاذ أحمد بن قاسم المنصوري صاحب تاريخ زيان (2) التفت حولنا كثير من سكان الدلاء ، ومن بينهم شيخ فان يشرف على التسميعين ظل يحدثنا بلهجة البربرية عن أخبار الزاوية وصلحاتها وعلمائها حديثا تختلط فيه الحقائق بكثير من الاساطير .

تقع الزاوية الدلائية القديمة التي أسسها الشيخ أبو بكر الدلائي على ربوة في سفح جبل (بوثور) بينه وبين جبل (تاغوليت) ، وتنحدر في شرفها شعبة (اقا ايزم) أي شعبة الاسد ، وتتفجر بالقرب منها عين جارية تخترق المسجد وتضيع في الشعاب . وفيها بقايا المسجد الذي أسسه أبو بكر الدلائي ، حيث يسرى الزائر صفين من السواري والجنابا قائمين بجهة القبلة ، والمنار المتهدم الذي لم يبق منه سوى العمود الداخلي الذي تلتف حوله الدرج على ارتفاع بضعة أمتار، وجدران القبتين المشيدتين على ضريحي الشيخين الدلايين أبي بكر وابنه محمد، وقد نبئت أشجار التين والعليق والشوك بكثرة في جوانب المسجد حتى غطته وجعلت التنقل في داخله متعذرا (3) .

أما الزاوية الدلائية الحديثة التي بناها السلطان محمد الحاج الدلائي فهي التي تقوم على أنقاضها زاوية آيت اسحاق الحالية . في الطريق التي تربط بين خنيفرة وقصبة تادلا (4) . وما تزال حتى اليوم آثار الاسوار العظيمة التي كانت تحيط بهذه المدينة ممتدة على مسافات شاسعة ، ترتفع أحيانا عن سطح الأرض قليلا وتساويه أخرى أو تختفي تحت ركام التراب . وتوجد داخل هذه الاسوار المتهدمة أسوار أخرى ما تزال قائمة بأبراجها ، لعلها كانت تحيط

(1) محمد الفاسي ، مجلة البنية ، السنة الاولى ، العدد الثاني ، يونيو 1963 ، ص 64 .
(2) أنظر نص قصيدة قالها الاستاذ المنصوري في زيارتنا لاطلال الزاوية الدلائية ، في ملحق رقم 3 .
(3) أنظر الملاحظات رقم 2 - 3 - 4 .
(4) تبعد زاوية آيت اسحاق عن خنيفرة بنحو 35 كلم ، وعن قصبة تادلة بنحو 64 كلم .

بقصر السلطان محمد الحاج الدلائي وفي داخلها مسجد جدد سقفه أخيرا ،
وبقايا أقواس الديوان (I) .

وقد نشر ر. هنري R. HENRY مقالا في مجلة هيبيريس HESPERIS
سنة 1944 (2) تحت عنوان : أين كانت تقع الزاوية الدلائية ؟ تحدث فيه عن
الزاويتين ووصف ما وقف عليه من آثارهما ، مضيفا الى ذلك روايات استقاها
من فقيه قرية معمر وقائد آيت سخمان المكي أمهاوش وغيرهما ، وأثبت
ر. هنري كل ما سمعه من محدثيه دون أن يكلف نفسه عناء البحث والتحقيق
والرجوع الى المصادر التاريخية للتأكد من صحة تلك الروايات ، لكن صاحب
المقال كان له على أي حال فضل السبق لاكتشاف موقع الزاويتين الدلائيتين ،
والتنبيه الى بعض النصوص التي وردت في كتاب **الاحيا والانعاش** ، وهي
تحدث عن الزاوية الدلائية القديمة ، ومدينة محمد الحاج عاصمة امارة
الدلايين ، ويمتاز هذا المقال أيضا بما وصف صاحبه من أسوار مسننة
كأسوار فاس ، وقد اختفت هذه الأسوار اليوم تماما كما اختفى المسجد الاعظم
ومناره الشامخ وباب مجاط الكبير الذي كان يطل على وادي أهل آزمور
(آسيف نايت زمور) وقنطرته (3) وذلك بسبب تحطيم جنود الاحتلال الفرنسي
هذه الآثار واستخدام أنقاضها في بناء المكاتب الادارية والشكنات العسكرية .
وقد حدثني بعض شيوخ زاوية آيت اسحاق أنه شاهد هدم الفرنسيين الأسوار
القديمة وغيرها مستعملين في ذلك الألغام المتفجرة . وفي أثناء هدم صومعة
المسجد التي كانت قائمة وراء المكتب الحالي للقائد وبعد نقض أجزائها العليا ،
سقطت دفعة واحدة على اثر تفجير لغم قوى فيها ، فغطت مساحة كبيرة من
الأرض وأدرك حطامها أحد جنود الكوم فمزق شلوه . ولما كان جنود الفرقة الثالثة
يحفرون أسس مباني الشكنات العسكرية بزاوية آيت اسحاق سنة 1941
اكتشفوا بعض القنوات التي كانت تجلب المياه الى مدينة محمد الحاج وتوزعها
تحت الأرض على الدور كما هو الحال بفاس .

(I) انظر الملاحظات أرقام 5 - 6 - 7 - 8

2) Hespéris. T. 36 - p. 49.

(3) انظر الملاحظة رقم 9

اللوحة رقم 8



بقايا اسوار داخلية يظن انها كانت تحيط بقصر السلطان محمد الحاج
في الزاوية الدلائية الحديثة (زاوية آيت اسحاق)

تصوير المؤلف



بقايا فنطرة وادي اهل الزمور (أسفل نابت زمور)
بجوار الزاوية الدلالية الحديثة

تصوير المؤلف

الباب الثاني

تعاليم الزاوية الدلالية

1 - الزاوية الدلالية كمركز ديني

- (أ) الشيخ أبو بكر مؤسس الزاوية الدلالية
- (ب) اطعام الطعام في الزاوية الدلالية
- (ج) احتفال الدلائيين بعيد المولد النبوي الشريف

2 - طريقة الزاوية الدلالية

- (أ) سند الدلائيين في الساذلية
- (ب) اذكار الزاوية الدلالية
- (ج) مريدو الزاوية الدلالية

3 - علاقة الزاوية الدلالية بغيرها من الزوايا

- (أ) الزاوية الناصرية
- (ب) الزاوية القاسية
- (ج) الزاوية العياشية

1 - الزاوية الدلائية كمركز ديني

رأينا في الباب السابق أن تأسيس الزاوية الدلائية القديمة كان لنشر الطريقة الشاذلية ولاطعام الفقراء وأبناء السبيل . وقد انقطع الشيخ أبو بكر الدلائني أزيد من ثلث قرن في زاويته لارشاد المريدين الوافدين عليه من كل حدب ، والقاء دروس وعظية كان يبكي خلالها حتى تبطل لحيته البيضاء ، فيتأثر الحاضرون أيما تأثر وتمتلئ قلوبهم خشوعا واثابة الى الله . ثم خلف أبا بكر بعد وفاته أبنائه الصالحاء ، فساروا على نهج والدهم في الوعظ والارشاد ، واطعام الواردين على زاويتهم ، والحدب على رجال العلم والدين ، حتى بلغت الزاوية الدلائية في عهدهم شأوا بعيدا في الشهرة والمجد لم تبلغه زاوية من قبل أو من بعد . وسنلم في هذا الباب بترجمة الشيخ أبي بكر ، وعادات الدلائيين في اطعام الطعام والاحتفال بالمولد النبوي ، قبل أن نشير اشارة خاطفة الى طريقتهم الصوفية ، وعلاقة زاويتهم ببعض الزوايا التي عاصرتها .

(أ) الشيخ أبو بكر مؤسس الزاوية الدلائية

ولد أبو بكر بن محمد المعروف بحمى بن سعيد بن أحمد بن عمر الصنهاجي المجاطي بالدلا عام 36/943 - 1537 - تقريبا - وكان هذا العام يسمى (عام بوعقبة) لمقابلة أحمد الوطاسي وجيشه من أهل فاس مع أبي العباس الاعرج السعدي ومقاتلة أهل مراکش على مشرع بوعقبة من وادي العبيد بتادلا فكانت الواقعة الحاسمة التي قضت على الوطاسيين وتسلم على أثرها السعديون عرش المغرب . وهكذا يكون شيخ الدلاء قد عرف النور هو والدولة السعدية في عام واحد ، ويروى بعض المؤرخين أن شيخ تادلا الصالح أبا الحسن علي بن ابراهيم البوزيدي (1) كان من الحاضرين في وليمة العقيقة التي أقامها محمد بن سعيد المجاطي لمولوده ، وأشار عليه بهذا الاسم . ونشأ أبو بكر نشأة صالحة فحفظ القرآن الكريم في كتاب قرينه وارتحل الى مدشر أبي عباد (2) لتعلم المتون العلمية ثم انتقل في طلب العلم الى مكناس وفاس «حتى بلغ في أقصر مدة أقصى الامنية ، فتضلع في قواعد الشريعة ونبحر في موارد الحقيقة» (3) .

(1) الشيخ أبو الحسن البوزيدي دفن أقرض المشهور ببسيط تادلا . توفي عام 1549/956 .
(2) مدشر . يعنى قرية صغيرة . ويقع مدشر أبي عباد في منتصف الطريق بين الدلا وأبي الجعد .
(3) سليمان الحوات ، البدور الضاوية ورقة 1/9 .

على أن أبا بكر منذ صباه لم يكن شغوفا بالعلوم الظاهرة شغفه بصفاء
الباطن وسمو الروح فأقبل على عبادة الله والتعرف على الصالحين من أوليائه
وكان اتصاله بالشيخ أبي عمر القسطلی نقطة تحول في حياته ، انصرف بعدها
نهائيا عن الاشتغال بالثروة الطائلة التي خلفها له والده منقطعاً الى الدعوة الى
الله وارشاد العباد وهدايتهم . ويذكر المؤرخون قصة طريفة لهذا الاتصال ،
وهي أن أبا بكر الدلائي سافر الى مراکش حاضرة السلطان عبد الله الغالى
السعدى (965 - 1557/981 - 1574) لتجديد الظواهر القديمة المتضمنة
لاحترام الدلائيين وتعظيمهم . فلما وصل الى القصبة التي هي مقر سكنى الملك
وحاشيته ، جعل يتردد هل يتوجه الى البلاط أولا لقضاء ما جاء من أجله ،
أم يبدأ بزيارة الشيخ أبي عمر القسطلی الذى سمع عنه كثيرا ورغب فى
التعرف عليه . وبينما هو محتار فى أمره اذ خرج من باب القصبة عبد أسود
من عبيد السلطان ولم يكذب يراه حتى تقدم نحوه غاضبا يريد ان يضربه بعصاه
وهو يقول : «أهذا موضعك ؟! أهذا موضعك ؟!» ففر أبو بكر الى الشيخ أبي
عمر ونال من عنايته واهتمامه ما لم يكن له بالحسبان وأخذ عنه عبد الشاذلية
وبقى يختلف الى زيارته طيلة حياته مع وفد المريدين من قبائل زعير وتادلا .
وقد رأينا فى الباب السابق ان الشيخ أبا عمر القسطلی هو الذى أمر أبا بكر
باتخاذ زاوية له فى الدلاء يرشد فيها المريدين ويطعم الفقراء والمساكين والطلبة
والزائرين . «فكان يطعم الطعام الذى لم يعيد فى بلاده وينزل الناس منازلهم ،
ويعطى لكل قوم ما يناسبهم . كما كان شيخه (أبو عمر القسطلی) يفعل . فاذا لأمه
أحد فى التفرقة بين الناس قال له : من جعل الناس سواء . فليس حمقه دواء .
وما قصده أحد الا أفاض عليه من سميته ، يعطى عطاء من لا يخاف الفقر :

فلو رأى من مضى بعض مكارمه لم يذكرها فى الندى معنا ولا هرها» (4)

وبعد أن أسس أبو بكر زاويته فى الدلاء اجتهد فى تكبير العمارة من
حولها فبنى الدور والدكاكين وسائر المرافق الضرورية وحبس الرباع على
الطلبة والمساكين حتى صارت من أحسن المدن وأكثرها سكانا وأسهرها ذكرا ،
يقصدها الناس من مختلف الجهات ويلتقى فيها العلماء والطلاب الوافدون
فينالون من التعظيم والاکرام ما يجعلهم يرغبون فى المقام بها أطول ما يمكنهم
من الزمن وتعقد المجالس العلمية فى مسجد الدلاء الرحب . وتقوم سوق العلم

(4) محمد الأفراسى ، صفوة من انتشار . ص 46 . والقطر الاول من البيت عمر وروان ويستقيم
أو كتبنا ديوانا بدلا من «بعض» . ويشير البيت الى معنى بن زائدة زهير من سندان
الجوامين العربيين المشهورين .

فيه على قدم وساق . ولما قامت الفتنة بين أبناء المنصور الذهبي ، واسود أفق المغرب وانقطعت فيه السبل وتغلب الاقوياء على الضعفاء ، وكثر السلب والنهب ، لانعدام السلطة التي تسهر على حفظ النظام ، كان الشيخ أبو بكر بما له من المنزلة الرفيعة عند القبائل البربرية يكف أيدي الجناة عن الجرائم ، وينصف المظلوم من الظالم ، ويدفع بالتي هي أحسن . وقد اتفق جميع من ترجم لشيخ الدلاء على انه كان نقي الظاهر والباطن نظيف الملابس ، شديد بياض الثياب ، جميل الهدى كثير السلام ، خافض الطرف قليل الكلام . حسن العشرة شديد المحافظة على العهد ، كريم الاخلاق داعيا الى المحبة والتسامح والتصافي ، يعقد في زاويته مجالس للوعظ والارشاد يفتتحها دائما بقوله : «روى الحسن عن أبيه الحسن ، عن جده الحسن ، ان أحسن الحسن الخلق الحسن» (5) .

وكانت وفاة أبي بكر الدلائي يوم السبت 3 شعبان عام 1021/29 شتبر 1612 ودفن في مسجده في الدلاء (6) .

ب) اطعام الطعام في الزاوية الدلائية

كان محمد بن سعيد الدلائي مؤسس الحال ، كثير الحرث والماشية كما كان ابنه أبو بكر العالم الصالح محببا الى الناس ، يقبلون عليه ويلتفون حوله ، وكان يجد في سعة حال والده ووفرة أغنائه ما يقرى به ضيوفه الكثيرين ويطعم به زواره الواقدين ، حتى ضجر الوالد من كثرة ما يذبح ابنه من الماشية وما يستهلكه من مطامير الحبوب ، فلامه على الافراط في الانفاق ونصحه بالاعتدال ، غير أن أبا بكر لم يغير من خطته واستطاع أن يقنع والده بأن عمله ليس من الاسراف في شيء (7) وما زال كرمه يسمو ويطرد الى أن آل اليه تراث

(5) أحمد بن يعقوب الولاي ، مباحث الانوار ، ورقة 65 .

ويعني بالحسن المذكور أولا الحسن المتي ، والحسن المذكور ثانيا أبا الحسن بن علي ابن أبي طالب . ويحدد الحسن الرسول الكريم : ويراد به الوصف بالحسن فقط ، إذ ليس الحسن من أسمائه عليه السلام . ولم يعمد أحد من الحفاظ منذ هذا الحديث ولا عتته ولعل اختيار الشيخ أبي بكر له كان سبب التماسق وحسن السجع زيادة على ما يدعو اليه من حسن الخلق .

(6) انظر ترجمة الشيخ أبي بكر الدلائي عند محمد الإبراهيم في الصفوة ، ص 46 - 47 وفي نزعة العادي ، ص 274 وما بعدها ، ومحمد الهدى القاسي في مجمع الاسماع ، ص 7 من كراسة 18 وما بعدها . ومحمد القادري في نشر الثاني ، 1 : 112 .

(7) هناك أسطورة تقول بأن أبا بكر اتفق مع والده على أن ما تلده الاغنام من الذكور يذبح للاضياف ، ويترك ما تلده من الاناث قصرت الغنم بعد ذلك لانه لا الذكور ، أدرك أبوه عندئذ أن في الامر سرا وسلم له الامر .

والده بعد وفاته . وأمره شيخه القسطل بالاطعام . فجعل يصرف ثروته
الواسعة في اكرام الوافدين على زاويته ، تمده حقوله الشاسعة في الدلاء وفي
بلاد غريس بتافيلالت بما يكفيه من الحبوب طول السنة وتعطيه قطعان الاغنام
والابقار من انتاجها ما يستجيب لحاجيات مآدبه اليومية . « كان كثير الاطعام
بالانواع المختلفة من الطعام ، أمرا خارجا عن الوصف ، مباينا للعادة والالف ،
فكانت مراجله دائما تغلى ، وطباخه لم يزل يفرغ ويملى :

في جفان كالجوابى وقدر راسيات
عكذا يفعل دأبا بالوفود الزائرات

بل كان يطحن كل يوم خمسا وعشرين صحيفة من القمح وعشرين
تليسا (8) ثم كان يطعم كل انسان تارة بما اشتياه في نفسه ، وتارة بما
يناسبه مع أبناء جنسه ، فليس الحضري عنده كالبدوي ، ولا الضعيف
كالقوي .. (9)

وقد سار محمد بن أبى بكر الدلائى على نهج والده في الاطعام وتوسع
عمله فيه ، فكانت له قيمات من النساء على الطعام يدفع لهن من الدقيق ومما
يلزم للطبخ بقدر ما تحت أيديهن من اماء الخدمة ، ويوظف عليهن من الصحوون
ما يتناسب ذلك . فاذا حضر وقت الاطعام دفعت كل منهن ما عندها ، وكوفئت
عليه ان كان جيدا ، والا عوقبت على فساد عملها . ويروى مترجمو محمد بن
أبى بكر الدلائى عن كرمه المدهش قصصا غريبة ، ويذكرون أرقاما عالية لمن
كان يجلس الى مائدته بمناسبة أو بغيرها فمن ذلك أنه كان يطعم في سنة من
سنى الغلاء سبعة آلاف من الفقراء كل يوم . زيادة على الواردين عليه والمقيمين
عنده من طلبة العلم وغيرهم . وأطعم في يوم واحد احتفل فيه بسابع المولد
النبوى الشريف سبعين ألفا من سكان الزاوية وغيرهم من الوافدين عليها
لحضور ذلك الموسم دون أن يقوم من موضعه طيلة اليوم الا للمصلوات (10) .

(8) الصحيفة مكبال يقدر بثلاثة قناطير . والتليس كيس مزدوج يصنع من صوف أو شعر أو وبر
لتنقل فيه الحبوب على ظهور الدواب .

(9) سليمان الحوات . البدور الضاوية ، ورقة 15/ب .

(10) انظر تفاصيل ما كان يقدمه محمد بن أبى بكر الدلائى لضيوفه من أطعمة كثيرة ، والاولى
العظيمة التى يهبها الطعام ، عند سليمان الحوات ، البدور الضاوية ، ورقة 48/1 وما بعدها .

واستمر الحال كذلك بالزاوية الدلائية بعد وفاة محمد بن أبي بكر إذ كان لولده السلطان محمد الحاج المآثر العظيمة في اكرام الوفود وقد خصص خمسمائة بغلة لحمل الدقيق من الارحى الى الزاوية ، واتخذ قصعا عظيمة يطعم فيها الناس .

ج) احتفال الدلائيين بعيد المولد النبوي الشريف

أدركت الزاوية الدلائية شهرة عظيمة أيام الشيخ محمد بن أبي بكر ، فكان عيد المولد الشريف مناسبة يقصدها الناس فيه سواء منهم العلماء والادباء ، والاعتياء والفقراء ، والسوقة والرؤساء ؛ فينزلون على الرحب والسعة وينالهم من حفاوة ابن أبي بكر واکرامه ما تقر به أعينهم وترتاح له أفئدتهم . ويقضون في تلك البقعة الطيبة أياما يظل المنشدون فيها يرددون القصائد والمقطعات والموشحات في مدح الرسول الكريم ، خصوصا بردة الامام البوصيري وهمزيتة . ويقوم الشعراء بالقاء قصائد ينظمونها خصيصا لهذه المناسبة لاسيما منهم شاعر الزاوية أحمد الدغوغى (II) الذى كان يذيل مولدياته بمدح الشيخ محمد بن أبي بكر والدعاء له فيرتاح لذلك الشيخ وتطيب نفسه (I2) . وقد شجع الشعراء على نظم القصائد والتفنن فى صوغها ورفعها الى محمد بن أبي بكر بهذه المناسبة ، ما كانوا يلقونه منه من جزيل الصلات ، وكریم المكافآت . وكان لا يثيب منهم الا من مدح الرسول عليه السلام وأشاد بمفاخر الاسلام . فقد روى أن الاديب عمرو بن قاسم الاندلسى الرباطى (I3) جاء اليه فى أحد هذه الاعياد بقصيدتين احدهما فى مدح النبی الكريم ، والاخرى فى مدح الشيخ محمد بن أبي بكر ، فلما انقضى الموسم وحضر هذا الاديب لوداعه أعطاه الشيخ صرة فيها مائة دينار بيده اليمنى ، وفلسا بيده اليسرى قائلا له : هذه الدنانير جائزتك على مدح النبی صلى الله عليه وسلم ، وهذا الفلس جزاؤك على مدح محمد بن أبي بكر إذ لا يستحق أن يمدح .

(II) أحمد الدغوغى من موالى أهل الدلاء . نشأ بهم وبرع فى الادب وكان مداحا هجاء لا يكاد يسلم من هجوه أحد . ترجم له الاقرانى فى نزهة الحادى ص 283 ولم يذكر له تاريخ وفاة .

(I2) انظر احدى المولديات التى كانت تلقى فى الزاوية الدلائية فى ملحق رقم 3 .

(I3) عمرو بن قاسم هذا هو جد الاديب المشهور محمد بن عمرو الرباطى الذى عارض شمعونية ابن الوان . وقد ظل عمرو بن قاسم يتصل بالدلائيين ويمدحهم مدة طويلة وقد مدح السلطان محمد الحاج الدلائى بقصيدة بلغة تشتمل على 32 بيتا مطلعها :

يا جهيدا برع البرايا والتهرى شمساً الى حيث السهى والمشرى
انظرها فى كناسة ابن على الدكالى السلاوى ، ص 270 وما بعدها .

2 - طريقة الزاوية الدلائية

(1) سند الدلائيين في الشاذلية .

تعتبر الطريقة الشاذلية المتصلة بالامام أبي القاسم الجنيد (I4) من أسلم الطرق الصوفية وأقربها الى السنة ، وأكثرها انتشارا بالمغرب ، حتى انها لتعتبر الطريقة الرسمية في هذه البلاد ، الى جانب المذهب المالكي في الفقه . والعقائد الاشعرية في التوحيد (I5) . وقد أخذ الشيخ أبو بكر الدلائى طريقة التصوف كما تقدم عن الشيخ أبي عمر القسطلسى المراكشى الذى أخذ عن الشيخ عبد الكريم الحاحى المعروف بالفلاح (I6) تلميذ الشيخ عبد العزيز بن عبد الحق التباع المراكشى (I7) أشهر الآخذين عن الشيخ محمد بن سليمان الجزولى (I8) .

ويتصل سند محمد بن أبي بكر الدلائى بالشيخ الجزولى من ثلاث طرق ، تتجمع كلها عند الشيخ عبد العزيز التباع . فقد أخذ محمد بن أبي بكر الطريقة الصوفية على شيخه أبي عبيد محمد الشرقى (I9) عن أبيه أبي القاسم الزعرى

(I4) أبو القاسم الجنيد المتوفى عام 277هـ يتصل سنده بالحسن البصرى التابعى الذى أخذ عن جماعة من الصحابة ، منه حديفة بن اليمان الذى خصه الرسول الكريم بعلم الخواطر وخبايا النفوس .

(I5) يقول عبد الواحد بن عاشر فى مقدمة رجزه المرشد المعين الذى يدرس فى جميع المعاهد الدينية بالمغرب :

فى عقد الاشعرى وفقه مالك وفى طريقة الجنيد السالك

وأخر باب فى المرشد المعين يتعلق (بعبادى ، التصوف وهوادى التعرف) .

(I6) توفى عبد الكريم الفلاح عام 933هـ ودفن بقبة القاضي عباس بمراكش . كان الملكان السعديان محمد وأحمد الشيخ يزوران فى زاويته . توجد ترجمته فى : دوحة الناشر ، ص 24 وفى ممتع الاسماع ص 6 من الكراسة 5 .

(I7) توفى عبد العزيز التباع بمراكش عام 914 وألف فيه وفى شيخه الجزولى أبو عبيد الله محمد المهدي القاسى كتاب ممتع الاسماع فى ذكر الجزولى والتباع .

(I8) الشيخ الجزولى هو محمد بن عبد الرحمن بن أبي بكر بن سليمان عرف بنسبته الى جده فقيل محمد بن سليمان . شيخ الطائفة الجزولية ومؤلف كتاب دلائل الخيرات . كان يرباط أسفى أولا ، ثم انتقل الى أفونغال حيث مات مسموما عام 65/870 - 1466 وقد نقله السعديون بعد ذلك الى ضريحه الحالى بمراكش ، وترجمته مفصلة فى كتاب : ممتع الاسماع فى ذكر الجزولى والتباع ، وفى دائرة المعارف الاسلامية . العدد 12 من المجلد 6 ، ص 447 وما بعدها .

(I9) أبو عبيد محمد الشرقى يتصل نسبه بعمر بن الخطاب ، توفى عن سن عالية عام 1010 / 1 - 1602 ودفن بجعيدان (أبو الجعد الحالية) .

عن عبد العزيز التباع ، كما أخذ عن الشيخ أبي المحاسن يوسف الفاسي (20)
عن عبد الرحمن المجذوب المكناسي (21) عن أبي حفص الخطاب (22) عن عبد
العزيز التباع ، وأخذ محمد بن أبي بكر الدلائي أيضا عن عبد الله بن حسون
السلأوي (23) عن أبي محمد الهبطي (24) عن عبد الله الغزواني (25) عن عبد
العزيز التباع ، عن الشيخ الجزولي .

أما الشيخ الجزولي فيتصل سنده بالامام أبي الحسن الشاذلي (26) عن
طريق محمد بن عبد الله أمغار (27) عن أبي عثمان سعيد الهرثاني عن عبد
الرحمن الرجراجي ، عن أبي الفضل الهندي ، عن عنوس البدوي راعي الابل ،

(20) انتقل الشيخ أبو المحاسن من القصر الكبير الى فاس في أواخر القرن العاشر الهجري
(السادس عشر الميلادي) حيث اتخذ زاوية عظيمة ، تخرج على يده فيها كثير من أهل
الفضل والصلاح . وهو أحد المجاهدين الذين شاركوا في معركة وادي المخازن الشهيرة
توفي بفاس عام 4/1013 - 1605 وخصه ولده أبو حامد محمد العربي بكتاب : **مرآة
المحاسن من أخبار الشيخ أبي المحاسن** .

(21) عبد الرحمن بن عياد الصنهاجي الشهير بالمجذوب ، توفي في بلاده دكالة عام 68/976-1569
وحمل الى مكناسة الزيتون فدفن بها .

(22) عمر الخطاب دفين زرهون ، متصوف كبير ترجم له في جملة رجال القرن العاشر الهجري .
محمد بن عسكر في **دوحة الناصر** ص 64 ولم يذكر له تاريخ وفاة .

(23) عبد الله بن حسون الخالدي ، انتقل من مدينته سلاسل بأحواز فاس الى مدينة سلا وأخذ
عنه فيها كثير من أهل الفضل والدين وهو الذي حمل تلميذه أبا عبد الله العباسي
على الجهاد ضد النصارى المحتلين للشغور المغربية وتوفي عام 4/1013 - 1605 .

(24) عبد الله الهبطي ، أصله من صنهاجة طنجة من قبيلة مشنة توفي عام 55/963 - 1556
وقيره مشهور براويته بأحواز شفشاون .

(25) كان عبد الله الغزواني طالبا للمعلم بفاس ، ثم سلك طريق القوم وصحب الشيخ التباع ،
وأقام مدة بقبيلته بالهبط - ضاحية طنجة - ثم فاس ، وأخيرا انتقل الى مراكش حيث
توفي عام 28/935 - 1529 ودفن بحي القصور .

(26) أبو الحسن الشاذلي ينصل نسبه بالمولى ادريس بن عبد الله دفين زرهون وقد ولد بقبيلة
غمارة قرب سبتة عام 96/593 - 1197 وتعلم للشيخ عبد السلام بن مشيش دفين
جبل العلم بالقرب من تطوان . وقد أخذ عن الشاذلي خلق كثير بالمغرب والمشرق ،
وكانت طريقته في التصوف بسيطة تشتمل على أذكار جمعها في **أحزاب** . منها حزب
البر ، وحزب البحر ، والحزب الكبير ... وتوفي الشاذلي بصعيد مصر في سفره الى الحج
عام 58/656 - 1259 أنظر ترجمة الشاذلي في : علي سالم عمار ، **أبو الحسن الشاذلي
والعربي الفاسي مرآة المحاسن ومحمد المهدي الفاسي معجم الاسماع في فصول متفرقة وفي** :

L'Encyclopédie de l'Islam.

(27) محمد بن عبد الله أمغار الصغير كان يعيش في رباط تيطنططر جنوب مدينة الجديدة، لقبه
الجزولي بأرض دكالة وأخذ عنه . ترجم له ابن الزيات في **التشوف** ص 190 - 193 ولم
يذكر له تاريخ وفاة .

عن الامام أحمد القراقي ، عن أبي عبد الله المغربي (28) وأبي العباس المرسى (29) وكلاهما عن أبي الحسن الشاذلى (30) .

ويتصل سنده الدلائلين بالامام الشاذلى أيضا من طريق الشيخ أحمد زروق . فقد أخذ محمد بن أبي بكر الدلائى عن أبي المحاسن الفاسى عن عبد الرحمن المجذوب كما سبق . ومن شيوخ عبد الرحمن المجذوب علاوة على عمر الخطاب أبو الحسن على بن أحمد الصنهاجى الملقب بالدوار . كان يهملولا مجذوبا توفي عام 34/941 - 1535 ودفن خارج باب الفتوح فى قاس . وتلمذ أبو الحسن الصنهاجى للشيخ ابراهيم بن على الحجام من برابرة سوس الاقصى صاحب المازاة المشهورة فى جبل زرهون وقد اتصل ابراهيم الحجام بالشيخ أحمد زروق وسلك على يده طريق القوم وكانت وفاته عام 1520/926 . أما الشيخ زروق فهو أبو العباس أحمد بن أحمد بن محمد بن عيسى البرنسى الفاسى ، كان من أكابر الفقهاء والمتصوفين جمع بين الحقيقة والشريعة وعرف بمحتسب الصوفية ، وألف كتبا عديدة أشهرها شروح لاحزاب الامام الشاذلى ولرسالة ابن أبي زيد القيروانى ، وتوفى بمسراتة ذات الرمال من أطراف برقة عام 1493/899 . أخذ الشيخ زروق عن أبي العباس أحمد بن عبد القادر ابن عقبة اليمنى الحضرمى ثم المصرى المتوفى عام 1490/895 صحبة نحو خمسة عشر شهرا وأدرك على يده درجة عالية . وتلمذ ابن عقبة لابی زكريا يحيى بن أحمد القادري الذى أخذ عن الشيخ على بن وفا المتوفى عام 1404/807 دفين القرافة الصغرى بمصر ، عن والده محمد بن وفا المتوفى عام 1364/765 عن شرف الدين داوود الباخلى ، عن تاج الدين بن عطاء الله المتوفى عام 1309/709 صاحب الحكم المشهورة وأخص تلاميذ الشيخ أبي العباس المرسى مرید الامام أبي الحسن الشاذلى .

(28) نقل أبو حامد الفاسى فى كتابه هراة المحاسن ص 194 عن شيخه أحمد بن يوسف الفاسى سند الجزولى الى الشاذلى كما ذكرت هنا . وقال : «ولست أعرف من هؤلاء الشيوخ أحدا سوى الشيخ أبي عبد الله عمار ، وأما الامام القراقي فلا أعلم هل هو العالم المتبحر صاحب الذخيرة ، والتاريخ يقبله ان كان هو المراد وأما أبو عبد الله المغربى فلم تجد له ذكرا فى لطائف الدفن . . . ولاشك أنهم لم يستوفوا أصحاب الشيخ أبي الحسن . وقد تخرج به فى المغرب رجال من الصديقين والاولياء ، ثم رحل الى مصر وأخذ عنه عالم من السابرة - والامام القراقي ان كان هو الفقيه المالكى صاحب أنوار البروق فى انوار الفروق ، والذخيرة فإنه توفى بمصر عام 684هـ (1285م) انظر ترجمته فى الاعلام للشيخ خير الدين الزركلى ، الطبعة الثانية (بدون ذكر تاريخ ولا مكان الطبع) ج 1 ص 90 .

(29) أبو العباس أحمد بن عمر الخزرجى ، ولد ونشأ فى مرسية بالاندلس واليهما نسب ، وهو أشهر مریدی الشاذلى صحبة فى رحلته الى المشرق وأقام معه بالاسكندرية الى أن توفى بها عام 685/86 - 1287 .

(30) انظر جداول اتصال الشاذلى بالجئبد من طرق متعددة فى باب مصادر تصوف الشاذلى من كتاب على سالم عمار ، أبو الحسن الشاذلى .

أبو الحسن الشاذلي

رحمه الله



اتصال الدلائين بالامام الشاذلي عن طريق الجزولي وزروق

ب) أذكار الزاوية الدلائية

رأينا أن طريقة الدلائيين جزولية زورقية شاذلية ، وهي تمتاز على العموم بالمحبة الصادقة في النبي الكريم ، والاكثار من الصلاة عليه والتسليم . وقد اشتهر أجداد الدلائيين بتعلقهم بالرسول عليه السلام ، خصوصا منهم سعيد بن أحمد الدلائى الذى كان «مواظبا على قراءة دلائل الخيرات لا يفارقه فى أكثر الاوقات ، وكان يأمر أولاده بها (الصلاة على النبي عليه السلام) ويرغبهم فيها ويحضهم عليها حتى انه كان يسافر لنواحي البلاد فيأتى بالطرف والفواكه ويقول لهم مرغبيا ومدربا من صلى على النبي صلى الله عليه وسلم كذا وكذا فله كيت وكيت من تلك الاشياء المشتريات ..» (31)

ولما تصدر أبو بكر الدلائى للمشيخة فى زاويته ، لم يلتزم تلقين أذكار مخصوصة لمن يريد الاخذ منه ، كما كان الشأن عند معاصريه من شيوخ الصوفية ومن أتى بعدهم ممن سلك هذا الطريق ، وانما كان يأمر مريديه بالتوبة بشروطها المعروفة ، من الاقلاع عن الذنوب ، والعزم على عدم ارتكابها مرة أخرى ، وتلافى ما يمكن تلافيه من الحقوق المترتبة من قبل ، والاكثار من الاستغفار . ومع ذلك فقد «كانت له وظيفة لنفسه ولمريديه وهي : أستغفر الله ، وسبحان الله والحمد لله ، ولا اله الا الله والله أكبر ، ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم . وكل واحدة من هذه الكلمات يقولها مرة ويصلى على النبي صلى الله عليه وسلم بلفظ : اللهم صل على سيدنا محمد عبدك ونبيك ورسولك النبي الامى وعلى آله وصحبه وسلم تسليما ، مائتى مرة . لا اله الا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير . لا اله الا الله الملك الحق المبين سيدنا محمد رسول الله الصادق الامين صلى الله عليه وسلم . وكان يسمى ذلك بالوظيفة لان طريقته انما هى شاذلية ولا تلقين فى الطريقة الشاذلية كما قال القسطلانى» (32) .

وكانت أوراد الشيخ محمد بن أبى بكر الدلائى من الاذكار التى كان يوظفها على المریدين فى الليل والنهار : أستغفر الله العظيم (مائة مرة) اللهم صل على سيدنا محمد الفاتح لما أغلق والخاتم لما سبق ناصر الحق بالحق والهادى الى صراطك المستقيم ، وعلى آله حق قدره ومقداره العظيم (مائة مرة) لا اله الا الله (مائة مرة) صباحا ومساء . ومن الادعية التى كان يرددها الشيخ

(31) نقله عن نزهة الفكر سليمان الحوات فى البدور الضاوية ورقة 6/ب .

(32) سليمان الحوات . البدور الضاوية ورقة 1/20 .

محمد بن أبي بكر كثيرا في الزاوية الدلائية : اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت ولا ينفع ذا الجد منك الجد . اللهم اختتم بالسعادة آجالنا ، وافرغ بالعاية غدونا وأصالنا ، واجعل الى جنتك مصيرنا ومآلنا ، وتقبل بفضلك أعمالنا ، واجبر برحمتك أحوالنا ، واجعل في طاعتك أشغالنا ، الا هنا ، قطرة من بحر جودك تكفيننا ، وغرفة من بحر احسانك تغنيننا ، فها نحن أسارى الذنوب بين يديك واقفون وعلى ما عودتنا من فضلك واحسانك معولون ، اللهم احفظنا في ظاهرتنا وباطننا ، وعرضنا لنفحاتك القدسية ، ولا تكلنا للاصدقاء ولا تسلنا للاعداء وكن لنا بما كنت به لاحبائك وأصفيائك (33) .

وكان الشيخ أبو بكر الدلائي يأمر مريديه أن يصلوا على النبي عليه السلام بهذه الصيغة : «اللهم صل على سيدنا محمد عبدك ونبيك ورسولك النبي الامي وعلى آله وصحبه وسلم تسليما» . ثم لما حج محمد بن أبي بكر الدلائي واتصل في مصر بالشيخ محمد البكري وأخذ عنه طريقته الصوفية كان من جملة ما رواه محمد عن هذا الشيخ (صلاة الفاتح لما أغلق) فجعل محمد بن أبي بكر يلقيها لمريديه في الزاوية الدلائية بدلا من الصيغة الاولى التي كان عليها أبوه . والمعروف أن صلاة الفاتح لما أغلق هي الصيغة التي يلتزمها التيجانيون في وردهم حتى اليوم ، بل اننا نجد الورد الذي كان يلقيه محمد بن أبي بكر الدلائي يتفق تماما والورد الذي لقنه الشيخ أحمد التيجاني لاصحابه . فكل الوردين يشتمل على مائة من الاستغفار ، ومائة من صلاة الفاتح لما أغلق ، ومائة من الهيلة . وقد قال أحمد بن بابا العلوي الشننجي في **منية المريد** عن الورد التيجاني :

أركانه استغفر الله مائة وصل مثلها على خير الفئة
وكون ذي الصلاة بالفريدة (34) مفضل برتب عديدة
وهلن مائة ولتختتم بنسبة الارسال للمعظم (35)

ولاشك ان كلا من الدلايين والتيجانيين استمدوا من البكرين شيوخ الطريقة الشاذلية بمصر .

(33) محمد بن علي الدكالي السلاوي ، الكناشة العلمية ، ص 73 .
(34) الورد بالفريدة : صلاة الفاتح لما أغلق . اذ كان الشيخ أحمد التيجاني يسميها (اليافوطة الفريدة) .
(35) انظر في هذا الموضوع : محمد العربي السائح : بغية المستفيد لشرح منية المريد ، ص 250 وما بعدها .

وقد كتب الامام الشرقى بن أبى بكر الدلائى الى شيخ الطريقة الناصرية محمد بن ناصر الدرعى يسأله أن يرشده الى أذكار يتلوها فى الليل والنهار فأجابه ابن ناصر برسالة جاء فيها :

«... فاذا أصبحت واذا أمسيت فاتل هذه الادعية سبعا سبعا : اللهم صل على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله صلاة تدرأ بها عنا كل شر باطن وظاهر ، انك أنت الله القوى القاهر . اللهم صل وسلم على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله صلاة تجلب بها الى كل خير باطن وظاهر ، انك أنت الله القوى القادر ، سبحان ربى الاعلى الوهاب ، اللهم انى أسألك العافية فى الدنيا والآخرة ، اللهم انى أسألك العفو والعافية ، فى دينى ودنياى وأهلى ومالى ، اللهم استر عورتى وآمن روعتى ، اللهم احفظنى من بين يدى ومن خلفى ومن شمالى ويمينى ومن فوقى ومن تحتى أعوذ بك أن أغتال . اللهم يا حى يا قيوم برحمتك استغيث اصلح لى شأنى كله ولا تكلنى الى نفسى طرفة عين حسبى الله لا اله الا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم ..» (36) .

ج) مريدو الزاوية الدلائية

طالت حياة أبى بكر الدلائى ، وظل منتصباً للمشيخة أزيد من ثلث قرن ، وكان ذا سند عال فى الطريقة ليس بينه وبين الامام الجزولى الا ثلاثة شيوخ ، كما كان سمح الخلق ، كريم المائدة ، فتصده الناس من كل حدب وصوب ، وامتألت زاويته بوفود المريدين الراغبين فى الاخذ عنه وعن ابنه محمد ، والانتساب اليهما . واذا كنا لانستطيع تحديد عدد مريدى هذه الزاوية العظيمة فانه يمكننا أن نذكر بعض النابهين منهم ممن تأهل للمشيخة وانتفع به الناس ، وأكثرهم من برايرة الاطلس المتوسط .

ومن أشهر مريدى الزاوية الدلائية محمد بن أبى بكر العياشى المتوفى عام 1657/1067 وهو والد الرحالة أبى سالم العياشى . أخذ محمد العياشى عن الشيخين الدلائيين أبى بكر وابن محمد ، وطالت صحبته لهما وانتفاعه بهما حتى تهيأ للمشيخة وأذن له أبو بكر الدلائى فى ارشاد قومه وتعليمهم واطعام المحتاجين منهم . فأسس الزاوية العياشية أو الحمزاوية كما

تسمى اليوم في السفح الجنوبي الشرقي لجبل العياشي بالاطلس الكبير (37) وأخذ عن الشيخ أبي بكر الدلائي أيضا أبو عبد الله محمد بن محمد بن الحسن الدادسي المتوفى عام 1062/52 - 1653 بواويزغت من جبال تادلا . كان قوى الحال كثير التواجد لا يتمالك عند تلاوة القرآن . ولما تصدر لتربية المريدين كان أكثر ما يحضيم على المحافظة على أداء الصلوات في أوقاتها ، وحفظ السننهم من الغيبة والهدر . (38) :

كما تتلمذ للشيخ أبي بكر الدلائي محمد بن يعقوب الولائي المتوفى عام 1060/1650 وهو جد أحمد بن يعقوب مؤلف كتاب **مباحث الانوار** . وكان رجلا بربريا لا يخلو لسانه من ضعف في بعض مخارج الحروف ، ومع ذلك فإن شيخه أبا بكر الدلائي كان يعجبه أن يستمع اليه وهو يتلو القرآن ، لما كان عليه من قوة اليقين والوقوف عند حدود الله . وكان ابن يعقوب يكثر من زيارة أبي بكر بالرغم من بعد المسافة بين بلديهما (مسيرة ثلاثة أيام) ولم يتخذ محمد بن يعقوب لنفسه زاوية خاصة مكتفيا بزاوية شيخه الدلائي ، وبارشاد قومه وحملهم على الجادة أينما تيسر له ذلك (39) . وتتلמד للشيخ أبي بكر أيضا أبو علي الحسن بن علي التاسكدلتي المتوفى عام 1005/96 - 1597 . ما كاد أبو علي يرجع الى قريته الجبلية بعد أخذه عن أبي بكر الدلائي وتزوده بنصائحه حتى جد في تبديل عوائدها الرديئة المتمكنة من عامة أهل البلد ، وحبب اليهم العلم بعد أن كانوا لا يكثرثون به مكثفين بمجرد حفظ القرآن الكريم وتلاوته . وكان قوى البنية مفتول العضلات فانكب على العمل بجذ مباشر الاشغال بنفسه لاصلاح الطرقات وتمهيدها وحفر الأماكن الوعرة وتسهيلها ، لان بلده يقع في جبال وعرة مكسوة بالثلوج (40) . كما

(37) انظر ترجمة محمد بن أبي بكر العياشي وأخباره مع الدلايين في : أبي سالم العياشي **افتاء الأثر بعد ذهاب أهل الأثر** ، الصفحات الاولى . وعبد الله العياشي ، **الاحياء والانتعاش** ، الفصل الاول من ورقة 16 .

(38) انظر ترجمة أبي عبد الله الدادسي في : محمد الاقراني ، **صفوة من انتشر من اخبار صلحاء القرن الحادي عشر** ص 83 وفي **نشر الثاني** ص 401 .

(39) ترجم أحمد بن يعقوب الولائي في **مباحث الانوار** ورقة 41 ولما بعدها لجد محمد بن يعقوب وذكر كثيرا من أخباره ، غير انه لم يشر الى تاريخ وفاته .

(40) انظر ترجمة أبي علي التاسكدلتي في : سليمان الحرات ، **البدور الضاوية** ، ورقة 23 . وتاسكدلت قرية بجبال الاطلس المتوسط جنوبي ميدلت ، تابعة اداريا لمركز تونفيت .

تقلمذ لابی بكر الدلائى من شيوخ القرى الجبلية أبو الحسن على بن ابراهيم دفين تدغة ، وأبو الحسن على بن يوسف دفين أركو وسليمان الغياثى صاحب الكاف (41) . وقد زار الحافظ أحمد بن الشيخ أبى المحاسن يوسف الفاسى المتوفى عام 1021/12 - 1613 الشيخ أبى بكر فى زاويته بالدلاء فى شهر محرم عام 1609/1012 وأخذ عنه ونال من اكرامه وتعظيمه ما يناسب مقامه العلمى الرفيع ؛ ولما رجع الى فاس سأل الناس عن شيخ الدلاء فقال : «أخذ الناس بالوصاف ، وأخذ أبو بكر بالاتصاف» (42) . ألف الحافظ أحمد الفاسى فى أسانيد شيخه أبى بكر الدلائى كتابا خاصا (43) . وكان محمد بن أبى بكر الدلائى يشى كثيرا على الامام أحمد الفاسى ويصفه من بين حفاظ عصره الثلاثة بأنه (الحافظ الضابط الثقة) .

3 - علاقة الزاوية الدلائية بغيرها من الزوايا

تكاثرت الزوايا فى المغرب خلال القرنين العاشر والحادى عشر للهجرة (السادس عشر - السابع عشر للميلاد) حتى كاد عددها يفوق عدد المساجد ، واختلط فيها أمر الصالحين بمدعى الصلاح من ذوى الاغراض الفاسدة والمشعوذين ، وعسر بذلك تمييز الطيب من الخبيث . غير أن هناك بعض الزوايا التى أجمع الناس على صلاح أهلها لاستقامة سلوكهم ، وظهور نتائج أعمالهم الدينية والعلمية . وأشهر هذه الزوايا فى القرن الحادى عشر البحرى ثلاث : الزاوية الدلائية ، والناصرية ، والفاسية ، ولم تكن هذه الزوايا بمعزل عن بعضها بالرغم عن تباين مواقعها ، ولكنها كانت تتصل عن طريق التزاور والتراسل ، والاخذ والعطاء . فكان بينها من أجل ذلك تفاعل أثر تقاربا فى وسائل العمل وتمائلا فى النتائج . وما أشبهها فى تلك الظروف الحالكة بمنازل شامخة تشع بالايمان والعرفان فى وسط المغرب وشماله وجنوبه . ومن المقرر عند الاشياخ أن العلم انما أحياء بالمغرب ثلاثة من الشيوخ ، سيدي محمد بن أبى بكر الدلائى ، وسيدي محمد بن ناصر فى درعة ، وسيدي عبد القادر الفاسى (44) . وإلى جانب هذه المراكز الدينية العظيمة كانت الزاوية العياشية - وهى ربيعة الزاوية الدلائية - تقوم بدور مماثل فى

(41) ذكر هؤلاء المريدون الثلاثة الأخيرين سليمان الحوات فى البدور الضاوية . ورقة 3/أ ب وقال انه لم يقف على تراجهم . وتدغة (بضم التاء) قرية بجوار شعبر من عمالة ورزازات .

(42) أبو حامد الفاسى مرآة المحاسن . ص 153 .

(43) عبد السلام بن سودة . دليل مؤرخ المغرب الاقصى . ص 327 .

(44) محمد بن أحمد الفاسى . المورد الهنى . ورقة 2/ب .

منحدرات الاطلس الكبير المطلة على اراضي تافيلالت ووحدات الصحراء . على انها وان لم تبلغ ذلك الشأو البعيد فانها قامت بتصويبها في الارشاد والتهديب ، وظلت محتفظة حتى عصرنا الحاضر بذخائر نفيسة في مكتبتها العلمية العامرة . وقبل أن أورد نتفا من أخبار الزوايا الثلاث وتعاليمها وما كان لها من صلة مع الزاوية الدلائية أود أن أشير إشارة عابرة الى بعض الظواهر المشتركة بينها . فقد أسست كلها في عصر ازدهار الحركة الصوفية بالمغرب وفي زمن متقارب (أواخر القرن العاشر الهجري) باستثناء الزاوية العياشية التي تأخر تأسيسها قليلا الى أوائل القرن الحادي عشر . بدأت بسيطة في بيت أو مسجد صغير ثم اتسعت مبانيها الى أن صار بعضها عبارة عن مدينة أو قرية كبيرة . وكان الغرض الرئيسي لمؤسسي هذه الزوايا صوفيا محضا يرمى الى هداية الناس وتهذيب أخلاقهم بنشر تعاليم الطريقة الشاذلية ثم تطور نشاطها فأصبحت مراكز علمية هامة تشد اليها الرحال .

(أ) الزاوية الناصرية

تقع الزاوية الناصرية بتمامكروت على ضفاف وادي درعة وراء الاطلس الكبير ، بعيدة عن مركز زاكورة بنحو 22 كلم في جنوبها الشرقي . أسسها أبو حفص عمر بن أحمد الانصاري (45) عام 75/983 - 1576 . واستقر بها حفيده الصوفي الصالح أحمد بن ابراهيم الانصاري (46) مع شيخه عبد الله ابن حسين الرقي (47) الذي كان يلحق فيها أواراد الشاذلية . وقد جاء أبو عبد الله محمد بن ناصر الدرعي (48) الى زاوية تامكروت عام 30/1040 - 1031 لآخذ الطريقة عن الشيخ عبد الله بن حسين . وأقام ابن ناصر في هذه الزاوية

(45) أبو حفص الانصاري أحد أعيان درعة وزهادها . ووالد الصلحة ميمونة الانصارية (أم الشيخ أحمد بن ابراهيم الانصاري) . وهو أول من نزل من أفراد قبيلته بتمكروت ، وأسس زاويتها في التاريخ المذكور وكانت وفاة أبي حفص الانصاري عام 1010/1 - 1002 .

(46) أحمد بن ابراهيم الانصاري ، الدرعي العابد الزاهد ، قتل عام 1032/1042 .

(47) عبد الله بن حسين الرقي - نسبة الى الرقة : بلد على شاطئ نهر الفرات بالعراق - كان يعرف بلقباب . وهو من أكبر صلحاء درعة ، آخذ عهد الشاذلية عن الشيخ أحمد بن علي الحاجي الدرعي المتوفي عام 89/998 - 1500 . تلمذ الشيخ التتبيح أبي الماسم الغازي الدرعي المتوفي بسجلماسة عام 73/981 - 1574 . وكانت وفاة الشيخ عبد الله ابن حسين بتمكروت عام 35/1045 - 1036 .

(48) الشيخ محمد بن ناصر يتصل نسبه بجعفر بن أبي طالب . هاجر أجداده الى درعة في صدر القرن العاشر الهجري . وولد محمد بن ناصر ونشأ بقرية الغلان في درعة . ثم انتقل الى تامكروت في التاريخ المذكور وعمره اذ ذلك نحو 27 سنة وألت اليه زاويتها بعد وفاة الشيخين الرقي والانصاري ، ونسبت اليه فعرفت بالزاوية الناصرية . وبها كانت وفاته عام 74/1085 - 1675 . وغلط فيها أبناءه وما زالوا هناك حتى اليوم .

مدة بطلب من الشيخ عبد الله بن حسين ، وأقبل على التدريس ونشر العلم فيها ، وقصده الطلاب من مختلف جهات الصحراء . وقد تصدر أحمد الانصارى للشيخ الصوفية بزاوية تامكروت بعد وفاة أستاذه الرقى ، غير انه لم يلبث أن مات قتيلا بيد أحد منافسيه من زعماء درعة ، فاستقل حينئذ الشيخ محمد ابن ناصر بهذه الزاوية وأصبح يشتغل فيها بتدريس العلم للطلبة وتربية المريدين . وتحمل الشيخ ابن ناصر كثيرا من شظف العيش «وصبر في هذه المدة غاية الصبر على معيشته وكسوته حتى كان ينام مع أهله على التراب ، لعدم ما يشتري به حصيرا يفرشه ، وربما افترش ليفا أو جريد نخل» (49)

وكان محمد بن ناصر يميل الى البساطة في تعليمه ، ويقتصر على حل مشاكل المتون وتقريبها لاذهان الطلاب ، مجتنباً كثرة النقول والخلافات المتشعبة ، فانتفع به كثير من الناس . ومن أشهر تلاميذه الامام أبو علي اليوسى والقاضى عبد الملك التجموعى ، والرحالة أبو سالم العياشى (50) وغيرهم . وقد حج ابن ناصر مرتين ، واشتهر أمره بالشرق مثلما اشتهر بالمغرب ، وكثر أتباعه والآخذون عنه فيهما . ولم تكن له أوراد معينة يلقيها لجميع أتباعه ، وانما كان يراعى حالة المريدين ويسلك بهم سبيل التدرج فى الاذكار . ويمكننا أن ندرك على الاجمال طريقته فى التلقين وتحرى السنة من صدر رسالة أجاب بها بعض طلبة تلمسان حين كتبوا اليه يسألونه الدخول فى زمرة ، وأن يبعث اليهم بحديث السبحة والخرقة والضيافة (51) . قال : «وأوصيكم بتقوى الله ولا ترنجوا ولا تخشوا الا الله . وأما السبحة والضيافة والخرقة فليس عندنا فيهن رواية . وانما طريقتنا المذكور ، وهو نحو ما ذكره

(49) أحمد الناصرى السلاوى ، **طلعة المشتري** ، ج 1 ، ص 133 .

(50) سنابى تراجيم فى الابواب التالية .

(51) يقول بعض الصوفية ان للسبحة والخرقة والضيافة أصلا فى السنة . ويذكرون أحاديث فى الموضوع منها ما رواه الديلمى فى **مسند الفردوس** أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : «نعم المذكر المسبحة» . ولجلال الدين السيوطى رسالة سماها : **المنحة فى استعمال السبحة** ، ذكر فيها أن جمعا من الصحابة كانت لهم سبحة ، كمائسة وأبى هريرة وأبى الدرداء ، وكذلك بعض العارفين الاولين كالجنيد ومعروف الكرخى وعبد القادر الجيلانى . ويقال أن الرسول عليه السلام كسا قرّة بن هبيرة ثوبين من ثيابه لما سأل ذلك . ويروى شيوخ الصوفية لبس الخرقة بسند متصل ينهى الى عل بن أبى طالب وأويس القرنى . انظر فى هذا الموضوع : أحمد الماخرى ، **النهاج الواضح** ، ص 150 وما بعدها .

الشيخ السنوسى فى آخر شرح العقيدة الصغرى (52) فان رغبتم فى الدخول فى السلسلة ، فصحبوا التوبة وشروطها وعليكم بتقوى الله والتوكل عليه فى جميع الامور ، والتأهب ليوم النشور ، والتزود لسكنى القبور . واذا فرغتم من الاذكار الماثورة بعد صلاة الصبح فقولوا : استغفر الله مائة مرة ، اللهم صل على سيدنا محمد النبى الامى وعلى آله وصحبه وسلم تسليما ، كذلك ، لا اله الا الله ، ألف مرة . هذا اذا كان ممن يعانى القراءة وكان ذكرا وأما المرأة فحسبها من الهيلة مائة مرة ، وان كان عاميا فليذكر الهيلة سبعة آلاف مرة ، ويزاد عند تمام كل مائة ، محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم . هذا هو الورد بين الصبح والصبح ..» (53) وهكذا نرى أن محمد بن ناصر كان يراعى أحوال الناس من التفرغ والاشتغال ، فيأمر الرجل العادى أكثر مما يأمر به الطالب الميتم بدروسه ، ويخفف عن المرأة كثيرا لضعفها ومسؤوليتها فى البيت . وهناك مسائل أخرى تدل على شدة تمسك شيخ الناصرية بالسنة ، وتعزز ما ورد فى الرسالة من عدم اتخاذ السبحة والخرقة والضيافة لعدم رواية شىء ثابت فى شأنها . من ذلك انه ترك قراءة الفاتحة بعد الصلوات ، لنفس السبب ، واقتصر على اذان واحد يوم الجمعة ، ولم يكن يدعو فى الخطبة لأمير المؤمنين ، الامر الذى كاد يجر عليه شرا مستطييرا اذ بعث اليه السلطان الرشيد بن الشريف بكتيبة من الجيش للبطش به ولكن الله سلم .

واذا أردنا أن نوازن بين الطريقتين الناصرية والدلائية ، وجدنا أنهما تلتقيان فى نواح كثيرة ، فكلتاها تتصلان بالامام الشاذلى عن طريق الشيخ أحمد زروق ، وان كان سند الدلائين أعلى وأوسع ، لاخذهم عن شيوخ عديدين وانفرادهم بطريقة الشيخ الجزولى دون الناصريين . وتتشابه أورداد الزاويتين كثيرا ، ويأمر كل من شيخى الدلاء وتامكروت مردييه بالتوبة أولا ، والاكتثار من الاستغفار ، والهيلة ، والصلاة على الرسول الكريم . ويتفق الدلائيون والناصريون فى صيغة الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم ، الا ان الدلائين يريدون فيها ثلاث كلمات هى «عبدك ونبيك ورسولك» فيقولون : اللهم صل

(52) أبو عبد الله محمد بن يوسف السنوسى عالم تلمسان المتوفى عام 895/86 - 1490 له كتب فى العقائد : كبرى ووسطى وصغرى ، وصغرى الصغرى . وتعرف الصغرى باسم البراهين وقد طبعت مرارا فى مجموع المتون بفاس ، ومصر . ويشير ابن ناصر فى رسالته الى قول السنوسى فى آخر ام البراهين عندما تحدث عن كلمتى الشهادة : «فعلى العاقل أن يذكر من ذكرها مستحضرا لما احتوت عليه من عقائد الايمان حتى تمتزج مع معناها بلحمه ودمه ...»

على سيدنا محمد عبدك ونبيك ورسولك النبي الامى وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا . بينما يقولها الناصريون بدونها كما وردت فى الرسالة السابقة (54) وان اقتصت كل منهما بأدعية فانهما لم تفتنا متشابهتين فى التزام البساطة ومراعاة السنة ، وعدم الاتيان بالعبارات الصوفية الغامضة ، والكلمات المبهمة المحتملة لكل تاويل .

هذا ولم يتعلمه الناصريون للدلائيين مباشرة ، غير أن الشيخ محمد بن ناصر درس العلوم اللغوية والفقهية على أبى الحسن على بن يوسف الدرعى (55) تلميذ محمد بن أبى بكر الدلائى . وكان أبو الحسن هذا كثيرًا ما يضيّق ذرعًا بضنك عيش تامكروت ، ويقصد شيخه ابن أبى بكر فى الدلاء ، فينال من عطاياه وهداياه ما ينقلب به الى أهله مسرورًا . وبعث الشيخ محمد بن ناصر مرة مع أستاذه أبى الحسن بقصيدة يمتدح فيها شيخ الزاوية الدلائية محمد ابن أبى بكر ، متيًا :

له يدان يبد للظلم مقمعة ويد جود تفيد الناس أمورًا
كانما هاتف الحق يخاطبه انفق ولا تخش من ذى العرش اقلالا (56)

فكان لها الوقع الطيب فى نفس ابن أبى بكر ، ونال أبو الحسن من معروفه فوق ما كان يعيده منه . وإلى ذلك كانت هناك اتصالات ومراسلات بين الناصريين والدلائيين أشرنا فى الفصل السابق الى بعضها . ولعل الامام أبى على اليوسى كان أهم صلة تربط بين الزاويتين فقد درس بتامكروت على الشيخ محمد بن ناصر وأخذ عنه عهد الشاذلية وهو ما يزال حدثًا فى مستقبل العمر ، ثم التحق بالزاوية الدلائية واستقر بها نهائيًا تلميذًا ثم أستاذًا ، ولم تنقطع صلة اليوسى بشيخ تامكروت طيلة العشرين سنة التى قضاها فى الدلاء . وقد امتدح اليوسى الشيخ محمد بن ناصر بقصيدة دالية بديعة يبلغ عدد أبياتها 540 . مطلعها :

(54) كانت هذه الصيغة للصلاة على النبي عليه السلام معمولًا بها فى الزاوية الدلائية الى أن غيرها محمد بن أبى بكر الدلائى بصلاة «الفاتح لما أغلق» بعد أخذ عن الشيخ البكرى كما تقدم فى الفصل السابق .

(55) أبو الحسن على بن يوسف بن أحمد بن عبد الحليم الدرعى التامكبرى ، الامام العالم الجليل المحقق المنقن فى جملة من العلوم العقلية والنقلية كان جل دراسة الشيخ محمد ابن ناصر عليه . ترجم له محمد المكى الناصرى فى الدرر المرصعة ، ص 253 ولم يذكر تاريخ وفاته .

(56) فى البيت الأول ، و (الحق خاطبه) بدلا من الحق يخاطبه فى البيت الثانى . وفى البيت الثانى ، و (كف) بدلا من يد فى الشطر الثانى من البيت الاول ، و (الحق خاطبه) بدلا من الحق يخاطبه فى البيت الثانى .

عرج بمنعرج الهضاب السورد بين اللصاب وبين ذات الارمد وأجز من الجزع الذي بحضيضه أحداث أصداء العشير الهمد (57)

ب) الزاوية الفاسية

الشيخ الأول لهذه الزاوية هو أبو المحاسن يوسف الفاسي . ولد ونشأ بمدينة القصر الكبير وأخذ فيها عن الشيخ عبد الرحمن بن عياد الدكالي المعروف بالجنوب المتقدم ولازمه الى أن توفي عام 68/976 - 1569 ، فتصدر بعده أبو المحاسن الفاسي للمشيخة وتربية المريدين ، وانتقل الى مدينة فاس عام 80/988 - 1581 وسكن بدار في أقصى الدرب الجديد من حي المخفية بعدوة الاندلس ، كان يسكن في أعلى الدار ويجتمع المريدون في أسفلها . ثم اشترى دورا مجاورة لها وأسس فيها مسجدا ومثارا وزاوية . وبعد مدة أمر أبو المحاسن أصحابه بتطوان «ببناء رابطة هنالك لاورادهم وأحزابهم واجتماعهم للذكر والتذكير ، فبنوها في العيون منها وقام الرسم بها أحسن قيام ، ولم تزل الصلوات راتبة بها ورسوم الخير من تلاوة وذكر وغيرها ثابتة فيها واسم الزاوية جاريا عليها ووقف الناس عليها أوقافا» (58) .

وهكذا أسس الشيخ أبو المحاسن الفاسي في أواخر القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي) زاويتين أحدهما بحي المخفية بفاس ، والأخرى بحي العيون بتطوان كان يجتمع فيهما أصحابه من المريدين . وقد رتب لجم الشيخ أورادا يقرؤونها جماعة على لسان واحد جهرا في ثلاثة أوقات : **الأول** بعد صلاة الصبح ، ويقرؤون فيه حزب الفلاح (59) والمسبوعات العشر

157 اللصاب : السحاب الضيقة . الارمد : تراب على لون الرماد . والجزع : منعطف الوادي . والأصداء جمع صدى : والمراد به هنا جسد الميت .

وتستعمل هذه القصيدة كلها على عقائدات لغوية جزلة حتى يظن أنها من شعراء الجاهليين . وقد جعل لها الزمخشري شرحا سماه نيل الأمان في شرح التهاني ، طبع بمطبعة النسيم بمصر عام 1321 .

158 أبو حاتم العربي الفاسي ، **مرآة المحاسن** ص 43 .

159 حكمة الحزب كما قال الشيخ زروق في شرح **حزب البحر** للامام الشاذلي : «هو السورد المعمول به تعبدا ونحوه . وهو في الاصطلاح مجموع أفكار وأدعية وتوجهات وضعت للذكر والتذكير والتعوذ من الشر . وطلب الخير واستنتاج المعارف وحصول العلم مع جمع القلب على الله سبحانه بذلك ولم تكن في الصدر الأول ولا من بعده بقريب لكن جرت على أيدي مشايخ المتصوفة وحزب الفلاح هو من جمع الشيخ محمد بن سليمان الجروني أنظره في ملحق 4 .

والمعشرات التسع (60) ، ووظيفة الشيخ زروق (61) والحزب الكبير (62) .
و الثاني في العشي . وورده المسبغات العشر ووظيفة الشيخ زروق ، الا
انهم يستبدلون عبارة (أصبحت وأصبحنا وما أصبح) بقولهم (أمسيت وأمسينا
وما أمسى) . والثالث بعد الغروب . ووظيفته حزب الفلاح ثم حسبنا الله ونعم
الوكيل سبعين مرة (63) ثم صلاة الشيخ عبد السلام بن مشيش (64) .

وهناك زاوية فاسية أخرى أسسها يحيى القلقليين (65) بفاس أخو
الشيخ أبي المحاسن وتلميذه أبو زيد عبد الرحمن بن محمد الفاسي المشهور
بالعارف بعد تأسيس زاوية المخفية بقليل . ظل أبو زيد الفاسي يسمي في
زاويته على النهج الذي يسمي عليه أخوه أبو المحاسن في زاوية المخفية الى أن
توفي فخلفه فيها حفيد أخيه ، عبد القادر بن علي بن أبي المحاسن ، وكان من
أخص تلاميذه وأقرب الناس اليه وأكثرهم استفادة منه . وقد عني الشيخ عبد
القادر الفاسي بزاوية القلقليين عناية خاصة وانكب فيها على تدريس العلوم
وتربية المريدين ، ثم جدد له المولى اسماعيل بناء هذه الزاوية ووسعها على
النحو الذي هي عليه الآن . وكان المريدون على عهد الشيخ عبد القادر الفاسي
يجتمعون فيها للذكر مرتين في اليوم ، فيقرؤون حزب الغداة بعد صلاة الصبح
الى طلوع الشمس وهو يشتمل على ما تقدم من حزب الفلاح والمسبغات والحزب
الكبير مع زيادة ذكر لا اله الا الله خمسمائة مرة ، ثم محمد رسول الله عشر
مرات ، ثم اسم الجلالة خمسمائة مرة ، ثم محمد رسول الله في اثنا عشر
تم يقرؤون هذا الدعاء ثلاث مرات : اللهم احينا عليها يامولاي ، وامتنا عليها
يا مولاي ، وأثبتنا عليها يا مولاي عند الشداة والرجوع اليها ويختمون بلا اله
الا الله مرة ، ويقرؤون الفاتحة وينصرفون وقد يقرأ بعض المريدين حزبين من

(60) المسبغات هي عبارة عن عشر حمل من الإذكار تنلى كل منها سبع مرات ، وهي من الشعارات
القديمة للصوفية ذكرها الغزالي في الاحياء . والمعشرات التسع من اذكار أتباع الشيخ
الجزولي تنلى كل جملة فيها عشر مرات . انظر المسبغات والمعشرات في ملحق رقم 4 .

(61) انظر وظيفة الشيخ زروق في : العربي الفاسي . امرأة المحاسن ، ص 55 - 56 .

(62) الحزب الكبير لابي الحسن الصادق واو له على ما عند ابن عطاء الله وابن عباد والشيخ
زروق «بسم الله الرحمن الرحيم - واذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم»
انظره في : العربي الفاسي . امرأة المحاسن ص 56 - 57 .

(63) حسبنا الله ونعم الوكيل) سبعين مرة لم يكن يقرأها المريدون في حياة الشيخ أبي
المحاسن ، وانما زادها ولده الخافظ أحمد بعد موت والده .

(64) انظرها في ملحق رقم 4 .

(65) لم يدفن الشيخ أبو المحاسن في زاويته بالمخفية ، ولا أخوه عبد الرحمن بزاوية القلقليين ،
وانما دفنا خارج باب الفتوح بروضتهما المشهورة .

القرآن الكريم . ثم يجتمع المريدون في الزاوية أيضا بعد صلاة المغرب لقراءة حزب الفلاح وحزب الشيخ عبد القادر (66) الجيلالي وصلاة الشيخ عبد السلام ابن مشيش . كما كان المنشدون كثيرا ما يختلفون الى زاوية القلقليين للترنم بالامداح النبوية والاشعار الصوفية بحضرة الشيخ عبد القادر الفاسي «ولا يستعملون شيئا من السماع حتى يقدموا قبله قراءة القرآن ، وكان يحب كلام الششتري (67) بالحنون ، وكلام سيدي عبد الرحمن المجذوب وغيره ، ولا ينكر شيئا من ذلك ولا يحب آلة مع ذلك سدا للذريعة .. وكان يرخص في الرقص ولكن لذي حال غالب ، ومع ذلك يأمر بالسكون ، وينهى عما يؤثر في العقول من السماع ، ولا يمنع شيئا في الفرح بالمولد النبوي من الرقص والشطح» (68) .

وهناك صلات متينة ووشائج قربي تجمع بين الزاويتين الفاسية والدلائية منذ عهديهما الاولى ، فأبو المحاسن الفاسي هو أحد الشيوخ الاولين في السلسلة التي تصل محمد بن أبي بكر الدلائي بالامامين أحمد زروق ومحمد بن سليمان الجزولي . وقد تتلمذ الحافظ أحمد بن أبي المحاسن الفاسي على شيخ زاوية الدلاء أبي بكر ، وخص أسانيده في طريق القوم بتأليف سبقت الاشارة اليه . وأقام أخوه أبو حامد محمد العربي الفاسي مدة طويلة في الزاوية الدلائية ، يدرس الحديث على الشيخ محمد بن أبي بكر الدلائي ، ويلقى دروسا في

(66) الشيخ عبد القادر بن أبي صالح الشريف الحسني المعروف بالجيلاني المتوفى ببغداد عام 501/65 - 1106 صاحب الطريقة الجيلانية المنتشرة في جميع البلاد الاسلامية الى أن طغت عليها الطريقة الشاذلية في المغرب منذ القرن السابع للهجرة . وقد ازداد قدم الشاذلية رسوخا بالمغرب في القرن الثاني مع الشيخ محمد بن سليمان الجزولي الذي كان يعد أتباعه بالآلاف وأخذ عنه جل شيوخ عصره في هذه البلاد ثم تأكد ذلك في القرن التاسع للهجرة مع الشيخ أحمد زروق شارح أحزاب الشاذلي ومجدد طريقته في شمال إفريقيا غير أن بعض شيوخ الامام زروق يرتفع سندهم الى الشيخ عبد القادر الجيلاني ومن المعلوم أن عبد القادر الفاسي أخذ عن عم والده أبي زيد عبد الرحمن الفاسي العارف الذي يتصل سنده بالشيخين الجزولي وزروق معا ، ولعل ذلك يفسر ما نراه هنا من قراءة مريد في الزاوية الفاسية لحزب الشيخ الجيلاني ، هذا بالإضافة الى أن الشيخ عبد القادر الفاسي كان صوفيا متحررا يختار من كل ما يراه صالحا وكان كثيرا ما يستشهد بقوله تعالى : «وامر قومك يأخذوا بأحسنها» .

(67) أبو الحسن علي بن عبد الله النميري الششتري شاعر أندلسي ، متصوف تنقل في البلاد وكان يتبعه في أسفاره ما ينيف على 400 فقير يخدمونه ، وله تأليف منها **المقاليد الوجودية في أسرار الصوفية** وشعره وموشحاته وزجله في غاية الحسن يوجد كثير منها في ديوانه المطبوع بمصر . توفي الششتري بقرية الطينة القريبة من دماط بمصر عام 668/1269 .

(68) عبد الرحمن بن عبد القادر الفاسي . **تحفة الاكابر** ، الباب الثاني عشر ، غير مرقم .

مختلف العلوم على الطلبة الى أن تخرج على يده كثير من العلماء الدلائيين على ما سيأتى فى الباب الثالث ؛ وله مراسلات مع الدلائيين ، ومقامة أدبية وقصائد فى مدح استاذة محمد بن أبى بكر الدلائى . كما شد الرحلة الى المدينة الادريسية كثير من أحفاد الشيخ أبى بكر الدلائى للاخذ عن الامام عبد القادر الفاسى حفيد الشيخ أبى المحاسن خصوصا فى الوقت الذى كانت فاس خاضعة لتفوذ السلطان محمد الحاج الدلائى . ومن أشهر المتخرجين على يد الشيخ عبد القادر الفاسى الطيب بن المسناوى الدلائى مفتى الزاوية البكرية وفقهائها الكبير . وبعد النكبة التى أصابت الدلائيين كثر عدد طلبتهم فى زاوية القلقليين بفاس وكأنهم وجدوها أشبه ما تكون بزاويتهم القديمة ، ففيها تعقد المجالس العلمية وحلقات الاذكار وتنشد الاشعار والموشحات والازجال الصوفية . واذا كانت الزاويتان الفاسية والدلائية تتحدان فى سلوك نسيج الشاذلية فان اذكار الزاوية الدلائية تمتاز بالبساطة والسير مع ما يناسب موقعها فى وسط البادية ومريديها من أعراب تادلا ، وبرابرة زيان ، اذ لا يعقل أن يكلف هؤلاء بحفظ أحزاب الشاذلى والجزولى ووظيفة الشيخ زروق وغيرها من الاذكار المعقدة الطويلة ، بعكس الحال فى زاوية فاس التى كانت تستقبل مريدين متحضرين يتوفر جلهم على مبادئ علمية تؤهلهم لادراك الاحزاب السابقة وغيرها من المسبعات والمعشرات . ولعل هذا مما تمتاز به الطريقة الشاذلية التى لاتعين أذكارا لمريديها فى كل مكان ولا تقيدهم حتى بقراءة الاحزاب التى وضعها الشاذلى نفسه تاركة للشيوخ مجال الاختيار لما يناسب الحال ، فتعددت بذلك مظاهر هذه الطريقة واختلفت صيغ أذكار مريديها لانجمعهم الاسسة الرسول الكريم التى هى المبدأ الاساسى الذى لايمكن التحيد عنه فى هذه الطريق .

ج) الزاوية العياشية :

تسمى الزاوية العياشية اليوم زاوية سيدي حمزة ، وتقع فى سفح جبل العياشى ، على ضفة أحد روافد وادى زيز بعيدة عن ميدلت بنحو 60 كلم جنوبا . أسسها محمد بن أبى بكر العياشى عام 1044/34 - 1635 بأشارة من شيخه محمد بن أبى بكر الدلائى . وهو الذى أذن له فى اطعام الطعام بالزاوية ، وكان (محمد بن أبى بكر العياشى) يعطى الاوراد للناس ، ويقصدونه من القبائل البعيدة (59) ونحن وان لم نعر على ما يبين لنا هذه الاوراد التى

كانت تلقن في زاوية آيت عياش ، فاننا لانشك في أنها كانت قريبة مما يتلقاه المريدون في زاوية الدلاء . فشيوخ ابن أبي بكر العياشي كلهم شاذليون ، وأكثر اقامته كانت في الزاوية الدلائية ، أخذ فيها أولا عن الشيخ أبي بكر الدلائي ، ثم عن ابنه محمد من بعده كما سبقت الإشارة الى ذلك . وقد تكاثروا على الزاوية العياشية حتى ضاق مسجدها بالمصلين يوم الجمعة ، فوسعوه ، وجددوا بناءه عام 1066/55 - 1656 .

ولما آل أمر الزاوية العياشية الى أبي سالم العياشي أخذ يشتغل فيها بتدريس العلم ، وسار على نهج والده في الاتصال بالدلائيين وتعظيمهم ، وله معهم مساجلات أدبية شعرية ونثرية ، ومراسلات علمية ، أهمها الاسئلة التي وجبها الى مفتي الزاوية البكرية الطيب بن المسناوي الدلائي وتلقى عنها أجوبة ضافية (70) ولم تنقطع صلة العياشيين بالدلائيين حتى بعد تخريب زاوية الدلاء ، إذ نجد حمزة بن أبي سالم العياشي يأخذ العلم في فاس عن محمد المسناوي الدلائي ، ويؤلف كتابا في ترجمته (71) والى حمزة هذا تنسب الزاوية العياشية لان عنايته بها كانت بالغة فعمل على تنشيط الحركة العلمية فيها ، وبذل كل ثروته في اقتناء الكتب واستنساخها . وكادت الزاوية العياشية تلقى نفس المصير المحزن الذي لقيته أختها بالدلاء ، فغرب السلطان الرشيد أهلها عنها الى فاس وتركها قاعا صفصفا كزاوية الدلاء ، وظل يصم أذنيه عن توسلات العياشيين في الرجوع الى ديارهم ، بعد أن استوخموا حاضرة المولى ادريس ، وكانوا يسكنون أخصاصا فوق حي الفخارين داخل باب الفتوح ، لقلّة ذات يدهم وعدم تعودهم على عيش المدن . وقد رجع آل عياش الى زاويتهم بإذن من السلطان اسماعيل بعيد توليه الملك في أوائل عام 1083/1672 . وما زال جبل العياشي يحتضن حتى اليوم هذه الخزانة العلمية العظيمة وهي بحق مفخرة كبيرة لبلادنا ، وشاهد ناطق بماضيها العلمي المجيد ؛ وحبذا لو صرفت العناية الى تنظيمها وتيسير سبيل الاستفادة منها والكشف عن كنوزها الدفينة .

(70) انظر نفس الاسئلة وأجوبتها في : سليمان الحوات البدور الضاوية ، ورقة 1/168 الى ورقة 1/170 .

(71) عبد السلام بن سودة ، دليل مؤرخ المغرب الأقصى ، ص 222

الحمد لله

والصلاة والسلام على من لا نبي بعده

والله اعلم بالصواب

والله اعلم بالصواب

والله اعلم بالصواب

والله اعلم بالصواب

والله اعلم بالصواب

والله اعلم بالصواب

والله اعلم بالصواب

والله اعلم بالصواب

والله اعلم بالصواب

والله اعلم بالصواب

والله اعلم بالصواب

والله اعلم بالصواب

والله اعلم بالصواب

والله اعلم بالصواب

الباب الثالث

الزاوية الدلائية باعتبارها مركزا علميا

1 - الأهمية العلمية للزاوية الدلائية

- (أ) العلوم التي كان يدرسها الدلائيون
- (ب) تفوق الدلائيين في اللغة وقواعدها

2 - أساتذة الزاوية الدلائية من أبنائها

- (أ) محمد بن أبي بكر الدلائى
- (ب) بقية أساتذة الزاوية الدلائية من أبنائها

3 - أساتذة الزاوية الدلائية من غير أبنائها

- (أ) أحمد بن القاضى
- (ب) أساتذة آخرون درسوا في الزاوية الدلائية

4 - تلاميذ الزاوية الدلائية

- (أ) الحسن اليوسى
- (ب) أحمد المقرى
- (ج) العربى القاسى
- (د) علماء آخرون تخرجوا في الزاوية الدلائية

1

بسم الله الرحمن الرحيم صلوات الله على من لا نبي بعده وآله وصحبه

قال العبد الحقير البائس

القيصر عبد بن عبد بن عبد

الصغير الذي هو عبد الله

الحمد لله رب العالمين والصلوة والسلام على

سيدنا محمد خاتم النبيين وعلى آله وصحبه

الصديقين

أما بعد يا أيها العزيز

سألتك بغض خطاياي

والأغنياني

ليوم يا قاضي

والمستغني

والمستغني

والمستغني



1 - الاهمية العلمية للزاوية الدلائية :

عنى الشيخ أبو بكر الدلائى بالعلم والعلماء عنايته بالتصوف والمريدين، واهتم بالغ الاهتمام بتعليم أبنائه الستة ، فكان منهم من يدرس على العلماء الوافدين على الزاوية الدلائية ومنهم من ينتقل الى مدينة فاس ليدرس فيها ولما اضطربت أحوال المغرب بعد وفاة أحمد المنصور الذهبي (1) وانتشرت الفتن بسبب اختلاف أبنائه وتنازعهم على الملك ، أخذ الناس يفرون من المدن الى البادية ؛ وكانت الزاوية الدلائية من أحسن البقاع التى يلتجئ اليها العلماء حيث يجدون الطمانينة وراحة البال وينعمون بكرم ضيافة أهلها ، فيتفرغون للعلم وتدارسه . وقد حصل أبناء أبى بكر على بضاعة علمية غير مزجاة فتصدوا للتدريس فى زاويتهم وأقبل عليهم الطلاب من كل حدب وصوب .

وتطور أمر الزاوية الدلائية فى الثلث الثانى من القرن الحادى عشر الهجرى وكثرت فيها المدارس التى ازدحمت بالطلاب ، حتى كان يسكن فى البيت الواحد طالبان فأكثر (2) ينفق محمد بن أبى بكر عليهم جميعا ، وكان لطلبة العلم «بالمدرسة التى بازاء جامع الخطبة ألف وأربعمائة مسكن» (3) وتكاثر عدد العلماء المشتغلين بالتدريس فى مساجد الزاوية الدلائية سواء من أبناء الزاوية نفسها أو من العلماء الطارئى عليها ، وتكونت فيها خزانة كتب عظيمة شبهها بعضهم بخزانة الحكم المستنصر بالاندلس «وجميعها عشرة آلاف سفر» (4) .

وقد أجمع كل من تحدث عن الناحية العلمية للزاوية الدلائية على أنها بلغت فى هذا المضمار شأوا بعيدا ، وبذت فاسا فى تلك الفترة وفاقتها ، وقد قال الاستاذ عبد الله كنون فى هذا الصدد : «ان الثقافة الادبية واللغوية كانت فى الناحية التى درس فيها اليوسى أقوى منيا فى فاس ، بل اننا نقول ، ان الثقافة اللغوية المتينة التى كانت موجودة فى زاوية الدلاء ، حيث درس اليوسى هى التى أحييت ذمء الادب فى المغرب بعد عدم ..» (5)

- (1) توفى المنصور الذهبي عام 1603/1012 .
- (2) أحمد بن يعقوب الولاى . مباحث الانوار الورقات 1/7 و 25/ب و 33/ب مع الاشارة الى أن أحمد بن يعقوب هذا كان طالبا يسكن فى بيت مدرسى بالزاوية الدلائية .
- (3) عبد السلام القادري ، تقايد تاريخية ص 11 .
- (4) عبد السلام القادري ، تقايد تاريخية ص 11 .
- (5) عبد الله كنون ، خل وبقل ، ص 275 .

١) العلوم التي كان يدرسها الدلائيون

اشتغل الدلائيون بكل ما كان معروفا لعهدهم من العلوم الدينية واللغوية والأدبية ، وبرز منهم علماء أفذاذ في جميع الميادين وسأشير هنا إشارة خاطفة إلى كل صنف من أصناف الفنون التي كانت تدرس في الزاوية الدلائية .

القراءات

اشتهر الشرقي بن أبي بكر الدلائى من بين اخوته بالتفوق في علم القراءات وكان مختصا بتدريس هذا الفن في الزاوية الدلائية مع أنه كان مشاركاً في كثير من العلوم الأخرى ومجازاً من قبل شيخه أبي حامد العربي الفاسي إجازة عامة . فكان الشرقي يلقي الطلبة فن التجويد ، ويعلمهم القراءات السبع ، ويدربهم على تلاوة القرآن الكريم تلاوة مجودة متقنة . وقد وصفه الإمام أبو علي اليوسى بأنه قطب رحي المقرئين في المغرب في قصيدة يمدحه بها :

أقطب الرحي في المقرئين هذا الأفق ويا نجل قطب كان في مقعد صدق
ولم يعلموا أن لو خلا الغرب كله من الخير كان الخير يرجي من الشرقي

التفسير

كان الشيخ محمد بن أبي بكر الدلائى فارس هذا الميدان ، وله فيه سند عال يوصله بأكثر المؤلفين في تفسير القرآن الكريم ، عن طريق مجيزه الإمام أبي عبد الله القصار (6) وغيره من شيوخه . وبذلك يروى جامع البيان في تفسير القرآن عن مؤلفه أبي جعفر محمد بن جرير الطبري و تفسير الكشاف عن جاز الله محمود بن عمر الرّمخشري ، و تفسير الرازي عن مؤلفه فخر الدين محمد بن عمر الرازي ، و تفسير الثعالبي عن أبي إسحاق محمد بن أحمد الثعالبي و تفسير البيضاوي عن ناصر الدين أبي محمد عبد الله بن عمر البيضاوي كما يروى بنفس الطريقة تفاسير أخرى (7) .

وكان محمد بن أبي بكر الدلائى يرجع إلى هذه الكتب وغيرها ليلقي

١) محمد بن قاسم القصار . إمام فاس في التفسير والحديث والفقه لم يؤلف كتاباً بالرغم من سمعة علمه . وتوفي في طريقه إلى مراكش عام 1603/1612 فحمل إليها ودفن بآراء باب روضة أبي العباس السبتي .

٢) محمد بن أبي بكر الدلائى ، فهرست ، ورقة 1/1 و ب .

دروسه التفسيرية العالية في مسجد الزاوية الدلائية بين العشائين فيحضرها العلماء والطلبة على السواء ، وينطلق في املائه وشرحه بما يبهر عقول الحاضرين .

الحديث

يعتبر محمد بن أبي بكر الدلائى من أكبر حفاظ المغرب وأعلمهم بالسنة مع الضبط والاتقان بحيث تصحح نسخ الكتب الستة (8) من فيه ولا سيما الصحيح البخارى وبقيت الكتب الستة وموطأ الامام مالك، ومسنند الامام أحمد بن حنبل، وشفاه القاضى عياض وسائر منصفاف الحديث الشريف . وكانت مجالسه الحديثية عظيمة الشأن يحضرها الى جانب الطلبة العلماء على اختلاف طبقاتهم وحيثياتهم . ويذكر لنا أبو حامد محمد العربى الفاسى أنه حضر أحد هذه المجالس لقراءة البخارى يوم الاثنين سادس رمضان المعظم عام 1043/1034 وقد طال المجلس من قبل صلاة الظهر الى غروب الشمس عدا وقت الفريضة (10) . وناهيك بدرس يستغرق القاؤه نصف يوم ! وأعظم بشيخ يستطيع أن يملأ طوال هذه الساعات فى مجلس يضم أمثال محمد العربى الفاسى ! وذلك كان دأب ابن أبى بكر دائما ، يدرس صحيح الامام البخارى ويختمه كل سنة ، ويحتفل بيوم الختم احتفالا كبيرا يحضره العلماء من البلدان البعيدة وينظم الشعراء القصائد وتقدم فيه صنوف الاطعمة (11) .

وقد كان أخوا الشيخ محمد بن أبى بكر ، عبد الكريم ومحمد الخديم الدلائيان محدثين حافظين كذلك ، فأكبا بدورهما على تدريس مصطلح الحديث وكتب السنة للطلبة ، وتخرج على يدهما كثير منهم .

التوحيد والفقه والاصول

اشتغل كثير من علماء الدلاء بالتوحيد والعقده وأصوله ، وكانوا يقومون

(8) الكتب الستة هي صحيح الامام أبى عبد الله البخارى ومسلم القشبرى ، وسنن محمد ابن ماجة القزوينى ، وأبى داود السجستانى ، وأبى عيسى الترمذى ، وأبى عبد الرحمن النسائى .

(9) سليمان الحوات . البدور الضاوية ورقة 51/ب

(10) نقله عن خط أبى حامد الفاسى ، سليمان الحوات فى البدور الضاوية ورقة 103/أ

(11) انظر احدى القصائد التى قبلت فى ختم البخارى بالزاوية الدلائية فى ملحق رقم 5

على تدريسها في زاويتهم مع الفنون الاخرى . ومن الكتب التي كانوا يعتنون بها في هذه المادة **جمع الجوامع** لتاج الدين السبكي . و**ورقات امام الحرمين** ، و**المختصر** للشيخ خليل بن اسحاق المالكي . و **مختصر ابن الحاجب** ، و**عقائد الامام السنوسي** لاسيما **العقيدة الكبرى** . وأشهر فقهاء الزاوية الدلالية وآخرهم هو الطيب بن المسناوي بن محمد بن أبي بكر امام المنقول والمعقول الذي كان يرجع اليه علماء عصره فيما يحدث من المشاكل الفقهية ويستفتونه في النوازل الطارئة . وقد تقدمت الإشارة في الباب الثاني الى الاسئلة التي وجهها اليه الرحالة أبو سالم فقيه الزاوية العياشية وأديبتها وهي تتعلق بمسائل أشكل عليه أمرها بعضها في فن الاصول من كتاب جلال الدين المحلي

التصوف

اشتهر عالمان دلائيان بتدريس التصوف وتربية الاذواق وهما الشيخ محمد بن أبي بكر الدلائى وأخوه عبد الرحمن . ومن كتب هذا الفن التي كانت تدرس في الزاوية الدلالية **رسالة القشيري** ، و **حكم ابن عطاء الله** ، و **أحزاب السافل** . و**ألف محمد الخديم الدلائى كتابا في التصوف** كما ياتى في الباب السابع .

المنطق والتوقيت

اهتم الدلائيون بدراسة هاتين المادتين وأتقنهما كثير من علمائهم وفي مقدمتهم الشيخ محمد بن أبي بكر الدلائى الذي أخذهما عن الامام أحمد بن القاضى . ومن الكتب التي كانت تدرس في الزاوية الدلالية **مختصر السنوسى** في المنطق الذي جعل له الحسن الميوسى شرحا كبيرا ، و**روضة الازهار** للجادري في التوقيت .

ب) تفوق الدلائيين في اللغة وقواعدها

لعل أهم فن تفرق فيه الدلائيون وبذوا فيه معاصريهم هو قواعد اللغة العربية التي كان لها الحظ الاوفر في حلقاتهم العلمية . وتفوق الاعاجم على العرب في هذا الميدان ظاهرة قديمة عرفت منذ العصر الاول لجمع اللغة وتدوينها ، فابو عبيدة وأبو عبيد بن سلام ، وحماد الراوية وخلف الاحمر وغيرهم من رواة الشعر القدامى كلهم من الموالي وكذلك كان سيبويه والكسائي والفراء وابن السكيت وغيرهم من لحاة البصرة والكوفة . و **القاموس المحيط** الذي يرجع اليه اللغويون في العربية حتى يومنا هذا هو من تأليف مجد الدين الفيروزيادى الفارسي ؛ وقد أقبل الاعاجم المسلمون على اللغة العربية باعتبارها لغة القرآن والدين ، وجدوا في تعلمها وتعليمها لغابتها عليهم وتفقوا في

ذلك على العرب الذين كانوا يعتبرون أن العربية لغتهم الأصلية ولا حاجة إلى معاناة دراستها وتدوينها . ومن أشهر نحاة الدلائيين أبو العباس أحمد الخارثي ابن أبي بكر الدلائي الذي كان يداوم على اقراء **كتاب سيبويه** طول عمره ، والشاذلي بن محمد بن أبي بكر الذي كان متفرغا في دروسه لمادتي النحو واللغة ، حتى قيل انه أقرأ **ألفية ابن مالك** مائة مرة ، و **مقامات الحريري** ثلاثين مرة يختتمها كلها من أولها إلى آخرها ، ومن الكتب التي كانت تدرس بالزاوية الدلالية أيضا **كتابا المغنى والتوضيح** لابن هشام ، و **الكامل للمبرد** ، و **الامالي** لأبي علي القالي ، و **مختصر العين** لأبي بكر الزبيدي ، و **الكافية** ، و **التسهيل** لابن مالك ، و **الكافية** ، و **الشفافية** لابن الحاجب . ويعد محمد المرابط بن محمد بن أبي بكر الدلائي سيد قومه في هذا الباب فهو صاحب المجالس النحوية العالية التي كان يحضرها أمثال الحسن اليوسى وأحمد بن عبد القادر القادري وغيرهما من أكابر العلماء .

البلاغة والادب

يكاد يكون جميع علماء الدلاء من رجال الادب ، فهم يحسنون الانشاء والترسل ويجيدون قرض الشعر . وكان كثير منهم يلحق لطلبته دروسا أدبية في الكتب المتعارفة آنذاك مثل **المقامات الحريرية** والدواوين الشعرية . كما كان أبو عمر بن محمد بن أبي بكر الدلائي يقوم بتدريس كتاب **تلخيص المفتاح** للخطيب القرظي . وقد ذكر أحمد بن يعقوب الولاى انه كان يدرس مع زملائه الطلبة على الامام الحسن اليوسى في الزاوية الدلالية علوم البيان ، والمنطق ، والفقه ، والأصليين ، دون أن يذكر الكتب التي كانوا يدرسونها (12) .

2 - اساتذة الزاوية الدلالية من أبنائها

عرفت الزاوية الدلالية كثيرا من العلماء الذين انتصبوا للتدريس فيها . ونجد عند المؤرخين المعاصرين للزاوية ما ينبىء عن وفرة العلماء فيها أيام ازدهارها ، غير أنه لا يمكننا تحديد عدد المدرسين لعدم افصاح المصادر عن أسماء الكثيرين منهم . وسأورد هنا تراجم مختصرة لبعض من قاموا بالتدريس في الزاوية الدلالية متحدثا أولا عن العلماء الدلائيين باسطة القول قليلا في ترجمة محمد بن أبي بكر الدلائي ، ثم أخلص لذكر العلماء الذين وفدوا من فاس ومراكش وغيرهما على الزاوية الدلالية وأقاموا فيها للتدريس وأبسط القول كذلك قليلا في ترجمة أحمد بن القاضي .

(أ) محمد بن أبي بكر الدلائى
أبو عبد الله محمد - يفتح الميم - ابن أبى بكر بن محمد بن سعيد
الجاطى الصنهاجى الدلائى ، واسطة عقد الاسرة وعالمها الكبير الذى جلب لها
الشهرة وخاتمة مشايخ المغرب ، انتهت اليه رياسة الدين والدنيا واستقل
بسياسة الامور الجديلة والرتب العليا . عالم حافظ دراك متوسع فى علم
التفسير ومعانى الحديث وعلم الكلام حسن المشاركة فيها وفى غيرها ، رصين
العقل شديد الرأى جميل المعاشرة مراغ لحقوق الصحبة ، كريم النفس عالى
الهمة ، فياض العطاء واسع المعروف . لو تفرغ متفرغ لجمع فضائله فى ديوان
مستقل ، لم يجمع منها الا ما يندر ويقل ، ولو صنف من أنواعها أصنافا ، وألف
من أعدادها آلافا . . . (13)

ولد محمد بن أبى بكر بالدلاء - تقريبا - عام 1559/967 وحفظ القرآن
الكريم وأتقن رسمه وتجويده فى العقد الاول من عمره ، وقرأ على والده
مبادئ العربية وأحكام الدين ، ثم أخذ عن العلماء الواقدين على الزاوية البكرية
فدرس على أبى العباس أحمد بن القاضى الحساب ، والتوقيت ، وما كان
يعرف آنذاك بالعلوم الادبية الثمانية ، وهى اللغة ، والنحو ، والتصريف ،
والعروض ، والقوافى ، وصنعة الشعر ، وأخبار العرب وأنسابها . ومن أهم
الكتب التى قرأها محمد بن أبى بكر الدلائى على ابن القاضى **المغنى** لابن هشام ،
و **الكامل** للمبرد ، و **الامالى** لأبى على القالى ، و **مختصر العين** لأبى بكر
الزبيدى ، و **كتاب القلصادى** فى الحساب و **روضة الازهار** للجادى . وأخذ عن
أبى على الحسن الدرعى ، المعروف بالدرأوى الفقه والاصلين (14) والمنطق
والبيان ، فى كتب **جمع الجوامع** للسبكي ، و **عقائد السنوسى** ومختصره فى
المنطق . وتزوج محمد بن أبى بكر الدلائى مبكرا مصهرا الى أسرة الشرفاء
الشيوكيين المعروفين بجمال الخلق والخلق والذين اشتهر منهم علماء وأدباء
حظوا برتب سامية فى بلاط المرينيين ومن بعدهم . وقد ذكر ابن الاحمر (15)
فى **نثر الجمان** نسب الشيوكيين وترجم لاديب منهم يسمى محمد بن يوسف
ونقل عنه ذلك أحمد المقرئ فى **أزهار الرياض** فقال : «وأقارب هذا الشريف
لم يزالوا الى الآن زعيم مصاهرة مع ولينا الفقيه المحدث ، الحاج الرحالة البركة

(13) العربى القدسى ، **مرآة المعاصرين** ، ص 225 .

(14) المراد بالاصلين ، العقائد وأصول الفقه .

(15) أبو الوليد اسماعيل بن الأمير أبى الحجاج يوسف بن الاحمر المتوفى عام 1404/807 رتب
كتابه **نثر الجمان** على قسمين قسم فقه بالمغرب وقسم فقه لقيه بالاندلس ،
وخصص بابا لشعر كتاب بنى مرين .

القدوة الصالح الناصح أبى عبد الله سيدى محمد بن الولى الصالح سيدى أبى بكر بن محمد صاحب الدلاء (16) أبقى الله علاهم ، وأعانهم على ما أولاهم» (17) وقد رحل محمد بن أبى بكر الدلائى للقاء شيوخ التصوف بمختلف أنحاء المغرب والاخذ عنهم ، فاتصل بمحمد بن مبارك بتاستاوت (18) وبعبد الله بن حسون بسلا ، وبعبد الله الملوانى بتاغيا (19) وبأبى عبيد محمد الشرقى فى أبى الجعد وسلك على يدهم طريق القوم متدرجا فى مراقى الكمال الروحى . ثم توجه الى الحج عام 1005 فلقى بالقاهرة الشيخ محمد زين العابدين البكرى (20) ولازمه طيلة المدة التى قضاها فى مصر وأفاد منه كثيرا ، ثم بعد رجوعه من الشرق سافر الى فاس وأخذ عن الشيخ أبى المحاسن يوسف الفاسى عهد الشاذلية ، وحضر مجالس الامام محمد بن قاسم القصار فى التفسير والحديث والتصوف . ويطول بنا الكلام لو تعرضنا لذكر كل ما أخذه ابن أبى بكر الدلائى عن القصار ، ونكتفى بالإشارة الى أنه نال منه اجازة عامة (21) وروى عنه بالسند المتسلسل المتصل بالمؤلفين أحد عشر تفسيراً للقرآن الكريم ، والكتب الستة وسائر مصنفات الحديث وغير ذلك من المؤلفات التى تشتمل عليها فهرست الامام القصار (22) . ورجع محمد بن أبى بكر فى أواخر عام 1012/1004م الى الدلاء عالما عاملا صالحا مصلحا ، فتصدى للتدريس بالزاوية ، الى جانب اخوته الخمسة وغيرهم من العلماء الواقدين ، وأسهم بدوره فى افادة الطلاب الذين تكاثروا عددهم اذذاك بالزاوية حتى ضاقت بيوت المدارس .

وخلف محمد بن أبى بكر أباه بعد موته عام 1021/1012 فى القيام بشؤون الزاوية البكرية ، فسار على نهجه فى اطعام الطعام ، واکرام العلماء

(16) تلقى المصححون المنتدبون من قبل لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة لتحقيق كتاب **أزهار الرياض** فى الهامى (ج 1 ، ص 294) على كلمة (الدلاء) بقولهم «كذا وردت هذه الكلمة فى الاصلين ولم نفهم المراد منها ولم نعتز على مرجع آخر لهذا الكلام المنقول عن ابن الأحمر لعارض به هذا النص» وهكذا نرى نتيجة الاضمار الذى لحق الدلائيين مع ما كان لهم من العلم والجاه فتذكر لهم أشقاؤهم بالمغرب وأكرهم اخوانهم بالمشرق !

(17) أحمد المقرئ . **أزهار الرياض** ج 1 ص 294 .

(18) تاستاوت قرية جبلية تقع جنوبى ولما س ، فى طريق وادى زم وتبعد عنه بنحو 90 كلم .

(19) تاغيا المراد بها قرية ملوان الواقعة فى آيت حديدو فوق ميدلت . وليس المراد تاغيا المشهورة اليوم التى فيها ضريح مولاي بوعزة بين وادى زم وولما س .

(20) الشيخ أبو السرور محمد زين العابدين البكرى الصديقى شيخ الطريقة الشاذلية بمصر توفى عام 1007/1598 .

(21) انظر نص الاجازة فى ملحق رقم 6 .

(22) توجد فهرست الامام القصار مخطوطة فى مجموع باخزانة العامة بالرباط تحت عدد 71 ج

والمتعلمين ، وسعى مثله في تهذيب الاخلاق ، وترقية الاذواق مجتهدا في اصلاح الاحوال العامة بالانتصار للمستضعفين من قومه وجيرته ، وانصافهم من الظالمين المتغلبين عليهم من ذوى قرابتهم ، فأصابه من شرور الفتنة وعنت البقي ما جعله يبتعد عن الدلاء مدة مهاجرا الى تاغيا ، ولكنه لم يستسلم وظل ينشد العدل والامن ، مستعملا طرق الترغيب والترهيب تارة ، وملتجئا الى حد السيف أحيانا ، الى أن خضدت شوكة الفئة الباغية وسادت الطمأنينة اقليم نادلا والاطلس المتوسط . وتوسع محمد بن أبى بكر كثيرا في تشجيع العلوم بالزاوية البكرية ، وشيد بها مدارس جديدة لايواء الطلبة المتكاثرين ، ونع عدد غير قليل من أحفاد أبى بكر الدلائى وتخرجوا من زاويتهم علماء وأدباء وشعراء وأقبلوا بدورهم على التدريس فيها ، فقامت في هذه القرية الجلية النائية ، الآمنة المطمئنة سوق علمية نافقة رابحة ، فى الوقت الذى كانت فيه فاس ومراكش وغيرهما من المدن العلمية التقليدية تعاني من ضروب المحن وأهوال الفتن ألوانا ، حتى تعطلت صلاة الجمعة فى القرويين فضلا عن مجالس العلم . وظلت الزاوية الدلائية فى هذه الفترة الحالكة من تاريخ المغرب تقوم بدورها المشرف فى احتضان الثقافة العربية ، والمحافظة على التراث العلمى والدينى ، تفسح صدرها للرحب للعلماء والطلاب من مختلف الآفاق وتنفق من سعيا بغير حساب .

وإذا كان محمد بن أبى بكر درس علوما كثيرة ، عقلية ونقلية كما رأينا ، فإنه برز فى التفسير والحديث ، حتى كادت مجالسه العلمية تقتصر عليهما ، وكان يحفظ صحيحى البخارى ومسلم وكتب السنن وغيرها ، ويعرف الروايات المختلفة ورجال الاسانيد مع كثير من الضبط والتحري والصدق وعدم المبالاة فى الجهر بالحق . وهو القائل عن محدثى زمانه : «حفاظ المغرب ثلاثة : حافظ ضابط ثقة ، هو أحمد بن يوسف الفاسى . وحافظ ضابط غير ثقة ، وهو أحمد المقرئ . وحافظ غير ضابط ولا ثقة وهو عبد الله بن طاهر الحسنى» (23) وقد تناول الناس هذا الحكم بالتعليق ، واشتغل به المؤرخون والمحدثون فكتبوا فى تأييده أو الرد عنه صفحات عدة فى مؤلفاتهم الى عصرنا الحاضر ، دون أن يجروا أحد منهم على الغض من ابن أبى بكر أو النيل من ثقته وعدالته . ويمتاز محمد

(23) ذكر هذه العبارة جل من ترجم لابن أبى بكر ، كالفادري فى نشر المثانى ج 1 ص 165 وقد سبق التعريف بأحمد الفاسى ، وستأتى ترجمة المقرئ . أما عبد الله بن طاهر الحسنى فهو المحدث الحافظ تلميذ الامام القصار ورفيق الشيخ ابن أبى بكر الدلائى فى الطلب . توفى عام 1044/1034 ودفن فى بلاده مدغرة من أعمال سجلماسة وبنيت على ضريحه قبة . ارجع فى موضوع مقالة ابن أبى بكر الدلائى فى حفاظ زمانه الى : الكتالى ، فهرس الفهارس . 1 : 296 - 300

ابن أبي بكر أيضا بفصاحة العبارة وسلاسة الأسلوب والقدرة على الانطلاق في الحديث ، والاستمرار في الأملاء والتقارير ، حتى كان درسه أحيانا يستغرق نصف يوم ، دون أن يشعر المستمعون اليه بسأم أو ملل . ويمكننا أن نعرف قيمة هذه الدروس اذا علمنا ان ممن كان يحضرها ويستفيد منها أحمد المقرئ ، وأبو حامد العربي الفاسي ، وعبد الواحد بن عاشر ، ومحمد البوعناني ، وعلى ابن عبد الواحد الانصاري السلاوي ، ومحمد المراتي ، وغيرهم من أعلام العلماء وأكابر المؤلفين . ولم يكن تكوين ابن أبي بكر من النوع العادي القاصر على مجرد الرواية والتحمل والحفظ الآلي ، وانما كان تكوينا حقيقيا أعطاه شخصية علمية مستقلة ، جعلته يكون لنفسه طريقة خاصة في فهم الحديث ، ويرجع الى أصوله الاصيلية ، سالكاً سبيل المحدثين الاولين في انتقاد الرواية ورجالها ، وتعديلهم وتجريحهم والعمل على استخراج الاحكام الفقهية من الكتاب والسنة . وقد أعطى من القدوة على اقامة الادلة ما كان يصل به الى الاستنباط من مسالك العلة فتكاملت عنده أدوات الاجتهاد ، التي يجب عليها في تحقيق المناط وتنقيحه الاعتماد ، حتى كان لا يشق له غبار في المباحثة والمناظرة ، ولا يعبر له غبار في المذاكرة والمحاضرة (24) .

وقد رأينا عرضاً في البابين السابقين جوانب متعددة من شخصية هذا العالم الصالح ، وعرفنا شيئاً عن كرمه ومواظبته على تدريس صحيح البخاري في مسجد الدلاء واحتفاله بالمولد النبوي الشريف ، وسنقف على جوانب أخرى من شخصيته في الابواب التالية ، غير انه ينبغي ألا يفوتنا هنا أن نعرض بإيجاز لما كان عليه من رقة الطبع ودقة الاحساس وعمق الشعور . ومن بليغ تأثره بالمواعظ ما حكاه عنه تلميذه أحمد بن يعقوب الولاتي بقوله : « وحضرته يوماً تقرأ بين يديه همزية البوصيري - شكر الله له سعيه - صبيحة يوم المولد النبوي أو سابعه ، وقد بلغ من ينشدها الى حيث ذكر الصالحين وانه يحاول أن يصل اليهم وقد فاقوه مع كبر سنه (25) فجعل يبكي رحمه الله بكاء شديداً حتى بكى لبكائه من حدوه ، ثم غلبه حاله فقام يذهب

(24) سليمان الحوات ، البدور الضاوية ، ورقة 30/ب .

(25) لمعه يشير الى أبيات الهمزية التالية :

كنت في نومة الشياطين فما استيقظت الا ولم يسمي شيطاناً
وتناديت أقتفى أثر القسوم فطالبت مسافة واقتفاء
فورا السائرين وهو أمامي سبيل وعرة وأرض عراء

حافيا ، وما شاء الناس الى منزله ...» (26) . وقد ازداد طبع محمد بن أبي بكر الدلائى رقة فى سنيه الاخيرة وأخذ يكثر من الانصات الى السماع (27) ويتأثر به غاية التأثر فبلغ ذلك شيخه أحمد بن القاضى فكتب اليه :

عبدك ما تصبو وفيك شبيبة فمالك بعد الشيب أصبحت صابيا

فأجابه محمد بن أبي بكر بقوله :

نعم لاح برق الحسن فاختطف الحشا فلبيتته من بعد ما كنت آبيا

ولما دنا أجل محمد بن أبي بكر الدلائى جمع أولاده بين يديه وكان يستشعر من بعضهم الاستشفاف الى الامارة والجاه ، وأوصاهم بعدم الانسياق مع الأهواء ، والجري وراء الاطماع ، وقال لهم : ان الله عز وجل أخبر عن قول طالوت لقومه : «ان الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس منى ومن لم يطعمه فانه منى الا من اغترف غرفة بيده» (28) وأنا أقول ولو من اغترف غرفة بيده . ولم يؤلف محمد بن أبي بكر الدلائى على ما كان عليه من علم وتحقيق الا كتابا جمع فيه أربعين حديثا نبويا ، رغبة فى نيل الثواب الوارد فى ذلك ، ومسائل مختلفة من أصول الفقه وفروعه بعث بها الى تلميذه أحمد المقرئ بالمشرق ، شأنه فى ذلك شأن شيخه الامام القصار الذى لم يترك بعد وفاته الا تقايد فى ورقات بيعت بوزنها ذهبيا على ما قيل .

وتوفى محمد بن أبي بكر يوم الاربعاء 11 رجب عام 1046 / 10 دجنبر 1636 عن سن تناهز الثمانين ، ودفن ضحى الغد الخميس قرب روضة والده بالدلاء وشيد على ضريحه الملك السعدى محمد الشيخ بن زيدان (1045 - 1063 / 1636 - 1653) قبة حسنة بعث لبنائها من مراكش وصيفه الامين مبارك السوسى مزودا بالمال والمواد اللازمة ومعه عدد من العمال والصناع «فبنيت على أحسن ما ينفع من التعميق والتبهييج والتقويق» (29) وكتبت بأعلى مشهد الدربوز أبيات من نظم الاديب محمد بن سعيد السوسى المرغنى ، وهى :

هذا ضريح النقى والمجد والكرم هذا الولى الوفى للعهد والذمم
هذا المحب لاهل الله قاطبة محمد بن أبي بكر الرضى العلم

(26) أحمد بن يعقوب الولاى ، مباحث الانوار ، ورقة 50/أ
(27) المراد بالسماع الاشعار والموشحات والازجال التى تشد ملحنة على حسب الطبع الموسيقية .
(28) سورة البقرة ، الآية 247
(29) سليمان الحوات ، الدور الضاوية ، ورقة 101/ب .

قد سار في رجب لله عام مشوا (30) به الى جنة الرضوان والتعم
من أجل ذا قام في تشييد روضته محمد الشيخ مولى العرب والعجم
وقد تهدم سقف هذه القبعة ، ولم يبق منها اليوم الا جدرانها العارية من الجص ،
تبدو لبناتها الحجر أفقية في الجدران ، وقائمة أو منحرفة في أقواس الابواب
الموجودة في جياتها الأربع . وبوسطها ساريتان مربعتان ، بينما يوجد القبر
محدودا كسائر القبور العادية مغطى ببقايا القرميد الأخضر الذي كان يزين أعلى
القبعة . وقد قبلت في مدح محمد بن أبي بكر الدلائى قصائد شعرية وقطع
لرية لو جمعت لكونت ديوانا أدبيا ضخما (31) .

ب) بقية أساتذة الزاوية الدلائية من أبنائها :

عبد الرحمن بن أبي بكر الدلائى

هو أحد العلماء التابعين فى العهد الاول للزاوية الدلائية وفيها أخذ العلم
عن أبي على الحسن بن أحمد الدرعى الشهير بالدرأوى وأبى العباس أحمد بن
محمد بن القاضى المكناسى وذلك قبل أن يرتحل الى فاس ليأخذ عن الامام
محمد بن قاسم القصار ويدرس عليه التفسير والحديث وغيرهما وينال منه
إجازة عامة ، وقد رجع عبد الرحمن الى الدلاء عالما كبيرا فتصدر للتدريس
واقبل عليه الطلبة من أبناء الزاوية وغيرها . وكان يدرس لهم التفسير ،
والحديث وعلم الكلام والفقه ، وأصوله والنحو ، والتصوف . ولا نعرف الكتب
التي كان يعتمد عليها عبد الرحمن الدلائى فى هذه المواد ، غير أنها فى الغالب
لا تخرج عن الكتب المتداولة فى الزاوية مما أشرنا اليه فى الفصل السابق .
وكان عبد الرحمن ناسكا سائكا سبيل والده فى الزهد والاعراض عن الدنيا ،
وانقطع فى آخر حياته لعبادة ربه فى خلوة خارج الزاوية ، وبها توفي عام

١٢٠ عدد حروف الكلمة (مشو) بحساب الجمل 1046 ، اذ القمين يالف ، والميم ياربعين والواو
ستة . والتواريخ الشعرية تبني غالبا على هذا الحساب الایجدي السهل

١٢١ ترجم محمد بن أبى بكر تلميذ أبو حامد الفاسى فى **مرآة المحاسن** ص 225 - 227 ومحمد
الافرانى فى **الصفوة** ص 67 - 68 ومحمد القادري فى **نشر المثنى** ، ج 1 ، ص 170
وما بعدها وسليمان الحوات فى **البدور الضاوية** بإسهاب من ورقة 25/ب الى ورقة 101/ب
ومحمد بن أحمد الفاسى . **شرح درة التيجان** ، مخطوطة خ . ع ، رقم 1432 ك ص 7-13
والكنانى فى **فهرس الفهارس** ، ص 204 وما بعدها . وأخبار محمد بن أبى بكر الدلائى
منفرقة فى أكثر الكتب التى ألفت فى القرون الثلاثة الاخيرة .

- انظر قصيدة مدح بها العربى الفاسى شيخه محمد بن أبى بكر فى ملحق رقم 9

م 1020/1011م وهو الوحيد بين اخوته الذى توفى قبل والده وبقيت عليه «قبة حافلة مستطيلة» ما تزال جدرانها قائمة حتى اليوم (32).

محمد الم رابط الدلائى

محمد الم رابط أو الصغير ابن محمد بن أبى بكر الدلائى هو أحد علماء هذه الاسرة الذين طارت شهرتهم بالمغرب والمشرق ، وتخطف الناس مؤلفاته بأذلين فيها الاثمان الباهظة . وسبب شهرته بالمرباط تقشفه فى الملبس منذ صباه ، وزهده فى الدنيا واعراضه عنها . أخذ العلم بالزاوية الدلائية فقط عن أبيه وأعمامه واخوته ، وغيرهم من العلماء الوافدين على الزاوية كأبى حامد محمد العربى الفاسى ، وأبى العباس أحمد بن عمران وغيرهما . . . تولى الم رابط الإمامة والخطبة والتدريس فى المسجد الاعظم بالزاوية البكرية ، وكانت مجالسه النحوية العالية ملتقى نجباء الطلاب أمثال الحسن اليوسى وأضرابه . وقد اشتغل محمد الم رابط كذلك بالتأليف فى مختلف الفنون ، وبخاصة النحو والصرف والاصول ، كما سنرى فى الباب الاخير عند كلامنا على مؤلفات الدلائيين . أما أدب محمد الم رابط فرقيق وغزير ، وجله يتسم بالطابع الدينى . ويختص بمدح الرسول الكريم . ومن ذلك قصيدته النونية التى تناهز 200 بيتا ، ومطلعها :

حي المعاهد طافح الاشجان وانشر هناك لآلىء الاجفان

وخرج الم رابط مع قومه من الدلاء الى فاس بعد تخريب زاويتهم ، وتابع رسالته العلمية والدينية بحاضرة المولى ادريس مقبلا على التدريس فى مساجدها متوليا أمر الخطابة بمدرسة المتوكلية (33) . ثم توجه الى الحج وأقام مدة فى مصر أحاطه أثناءها علماء القاهرة بمظاهر الاعزاز والاكرام ، ومدحه أدباؤها بقصائد تنم عن مدى اعجابهم بهذا العالم المغربى الكبير الذى سبق أن عرفوه عن طريق مؤلفاته القيمة . من ذلك قصيدة للامام أبى السرور الصيدانى ، مطلعها :

شمس الهدى من أمه نال الارب فرع الكرام ذوى المكارم والحسب (34)

(32) ذكره هـرى فى مقاله بمجلة هيسبريس (عام 1944 ، ص 50) أن هذه القبة المستطيلة هى لفتية الزاوية محمد بن عبد الرحمن ، وذلك بناء على رواية محلية غير صحيحة . أنظر ترجمة عبد الرحمن الدلائى فى : سليمان الحوات البدور الفضاوية ، ورقة 24/ وما بعدها .

(33) المدرسة المتوكلية هى المدرسة البوعنانية الشهيرة بحى الطالعة بفاس .
(34) أنظر القصائد التى مدح بها أدباء مصر الم رابط الدلائى فى : سليمان الحوات ، البدور الفضاوية ، ورقة 34/ب وما بعدها .

توفي المرابط الدلائي بفاس عام 1089/1678 (35).

أحمد الحارثي بن أبي بكر الدلائي

هو أحد نحاة الزاوية ولغوييها . قضى حياة الطلب كلها في الدلاء آخذاً عن علماء قومه ، وعن الوافدين على زاويتهم مثل أحمد ابن القاضي ، وأحمد بن عمران الفاسي ، وعلى بن عبد الواحد الانصاري السلوي ، وأبي حامد العربي الفاسي ، وقد أجازوه هذا الأخير اجازة عامة (36) «وكانت له اليد الطولى في التاريخ ، والحساب ، واللغة ، والبيان ، والادب والاصول ، والفقه والحديث» (37) ، غير أن النحو واللغة غلبا عليه ، فكان يقرئ كتاب سبويه طول عمره كما رأيناه في الفصل السابق وألف في الاصول شرحاً على مختصر ابن الحاجب ، وترك تقييد كثيرة في التفسير والحديث ، وتوفي بالدلاء عام 1051/1641 .

المسناوي بن محمد بن أبي بكر الدلائي

هو أبو عبد الله محمد المسناوي «الفقيه المحدث الاستاذ الكبير» ، الوارد من حياض المجد منيلاً يروي ويمير» (38) نشأ في الدلاء ثم انتقل الى فاس قبل أن يبلغ الحلم ، وأكب فيها على تحصيل العلوم بجهد واجتهاد آخذاً عن الامام محمد القصار ، وعبد الواحد بن عاشر الانصاري وغيرهما ، ولم يرجع الى الزاوية الدلائية الا وهو عالم بارع في الفقه ، والاصليين ، والتفسير ، والحديث ، وعلم الكلام ، والقراءات ، واللغة ، والنحو ، والادب ، فأخذ يلقي هذه العلوم لتلاميذ الزاوية ، وأقبل عليه طلاب العلم اقبالا كبيرا الى أن قتل غدرا خارج الزاوية عام 1059/1649 . وقيلت فيه مرات كثيرة ، منها مرثية ولده الطيب التي مطلعها :

غوائل هذا الدهر مرهوبة الفتك فان سر في حين فأكره مبك (39)

(35) ترجم لمحمد المرابط الدلائي محمد القادري في نشر الثاني ، 2 : 33 ، وسليمان الحوات في البدور الضاوية ، من ورقة 133 الى ورقة 164 ، ومحمد بن جعفر الكتاني ، سلوة الانفاس ، (4 : 90) وما بعدها .

(36) انظر نص الاجازة في سليمان الحوات ، البدور الضاوية ، ورقة 102/ب

(37) نفس المصدر في نفس الورقة .

(38) محمد بن الطيب القادري ، نشر الثاني ، ص . 190

(39) انظر ترجمة المسناوي ومرثيته في : سليمان الحوات البدور الضاوية من ورقة 123/2 الى ورقة 125/1 ومحمد القادري ، نشر الثاني ، ص . 190 .

أبو عمر بن محمد بن أبي بكر الدلائي

علامة أديب ، تم تكوينه العلمي بالزاوية الدلائية على يد علماء قومه وغيرهم ، كأحمد بن عمران وأبي حامد العربي الفاسي . كان أبو عمر عالما مشاركاً في الحديث ، والفقه ، والأصليين ، والنحو ، والبلاغة ، والأدب . ودرس كل هذه الفنون بزاويتهم ، غير أنه كثيراً ما كان يدرس لتلاميذه كتب تلخيص المفتاح ، و جمع الجوامع ، و ألفية ابن مالك ، كما رأينا في الفصل السابق . وله آثار نشرية وشعرية كثيرة تدل على رسوخ قدمه في ميدان الأدب . توفي أبو عمر بالزاوية الدلائية عام 1658/1069 (40)

أحمد بن محمد بن أبي بكر الدلائي

عالم أديب ، درس في الزاوية الدلائية على علمائها المتوافرين دون أن يبرحها ، ثم اشتغل بالتدريس فيها . كان مؤسس الحال ، عظيم الجاه ، يتقلب في رغد العيش وينعم بالحياة المترفة الى جانب أخيه السلطان محمد الحاج ، متخذاً بطانته من أدباء الزاوية وشعرائها ، الى أن زارهم الشيخ محمد بن عبد الله السوسى (41) عام 1071 هـ / 1660 في طريقه الى حج بيت الله الحرام ، فأخذ عنه أحمد الدلائي وصلاح حاله ، ورق قلبه ، وأعرض عن الدنيا وزخرفها الى أن مات بالدلاء عام 1665/1075 (42)

الطيب بن المسناوى الدلائي

« كان اماماً كبيراً ، وأديباً ماهراً شهيراً ، وعالماً عاملاً ، وفاضلاً كاملاً » (43) درس في الدلاء أولاً على أبيه وأعمامه وغيرهم من العلماء المقيمين بالزاوية

(40) توجد ترجمة أبي عمر وبعض رسائله وقصائده في : سليمان الحوات البدور الضاوية ، من ورقة 1/128 الى نهاية ورقة 130/ب .

(41) الشيخ محمد بن عبد الله السوسى اشتهر أمر ولايته بمرآة ، ووشى به الى السعديين فأوقفوه عن نشاطه الصوفي . ثم توجه الى البقاع المقدسة للمجاورة فيها . ومرض فمات بالزاوية الدلائية فأقام عند سلطانها محمد الحاج عشرة أيام . وفيه ألف أحمد بن يعقوب الولاى كتابه مباحث الانوار فى اخبار بعض الاخيار . وتوفى الشيخ محمد السوسى بمكة عام 1668/1079

(42) ترجم لاحمد الدلائي محمد بن يعقوب الولاى فى مباحث الانوار . ورقة 33/ب . وسليمان الحوات فى البدور الضاوية ، ورقة 165/1

(43) محمد القادري ، نشر المثانى ، ج 1 ، ص 264 .

كالشيخ حمدون الابار ، ومحمد بن سودة ، ومحمد العربي الفاسي وغيرهم . ثم شد الرحلة الى فاس وهي اذ ذاك خاضعة لتفوذ الدلائيين ، فأقام فيها معززا مكرما واخذ عن علمائها ، خصوصا منهم الشيخ عبد القادر الفاسي . وطال مقام الطيب الدلائي بفاس الى أن تمكن من المعارف تمكننا متينا فرجع الى الزاوية الدلائية ، وتصدر للتدريس والفتوى ، وازدحم الطلبة على حلقاته العلمية . ولم تقتصر براعته على الناحية الفقهية الدينية وانما كان الى ذلك أديبا ماهرا . جسد الانشاء ، طوّل النفس في الشعر تصل احدى قصائده الى 175 بيتا مع متانة لغوية وسمو تفكير ورقة أسلوب . توفي الطيب بالدلاء عام 1077/1666 . ورثاه أبو العباس أحمد بن عبد القادر التاستاوتي بقصيدة حزينة مطلعها :

اليوم آن لدمعى أن يهيمعا ولميجتى بالوجد أن تتقطعا (44)

الشرقي بن أبي بكر الدلائي

هو أحد أعلام الدلائيين المشاركين في مختلف الفنون ، الجامعين بين العلم والدين والادب . كانت دراسته كلها بالزاوية الدلائية على علماء قومه وغيرهم . وأجازه أبو حامد محمد العربي الفاسي اجازة عامة . واختص من بين اساتذة الزاوية كما رأينا في الفصل السابق بتدريس علم القراءات والتجويد . وهو يثقف الى جانب ذلك اللغة ، والنحو ، والبلاغة ، والادب ، والتاريخ ، والمنطق ، والتفسير ، وألف في السيرة والبلاغة كما سيأتى في الباب الاخير ، وترك آثارا أدبية رفيعة . وكانت وفاته بالدلاء عام 1079/1668 (45)

الشاذلي بن محمد بن أبي بكر الدلائي

كان أعجوبة الزمان ، في الحفظ والاتقان ، يجيد الشعر ، ويبرع في النثر (46) قرأ في الزاوية الدلائية وحدها على علمائها من أهله وغيرهم ، كالامام أبي حامد الفاسي ، والشيخ أبي العباس بن عمران . ونبغ في اللغة وقواعدها وآدابها ، وكرس حياته لتدريس ألفية ابن مالك ، ومقامات الحريري حتى قيل أنه أقرأ الاولى مائة مرة والثانية ثلاثين مرة كما رأينا . وقد خرج

(44) انظر ترجمة الطيب الدلائي وبعض آثاره النثرية والشعرية وما قيل فيه من رثاء في سليمان الحوات البدور الضاوية من ورقة 167/ب الى ورقة 181/أ .
(45) ترجم للشرقي محمد القادري في نشر الثاني ، ص 27 . وسليمان الحوات في البدور الضاوية ، ورقة 104/أ . ومحمد الكتاني في سلوة الانفاس ج 2 ، ص 94 وما بعدها .
(46) محمد القادري ، نشر الثاني ، ج 2 ، ص 155 .

الشاذلي مع قومه بعد تخريب الزاوية الدلائية الى فاس ودرس بها فتخرج على يده علماء كثيرون ، منهم الاخوان القادريان عبد السلام والعربي ، وادريس المنجرة . وخلف الشاذلي أخاه محمد المراتب في الخطابة بالمدرسة البوعنانية ، وفيها كان يلقي أكثر دروسه متصدرا للافتاء وابداء النظر في المشاكل الفقهية والتوازل العويصة ، ثم تخلى عن هذه الخطة تورعا منه ، ومات بفاس عام 1691/1103 (47) .

محمد بن الشاذلي

أديب بليغ وعالم مشارك ، تكون على يد علماء الزاوية الدلائية ثم درس فيها أيام عمه السلطان محمد الحاج . وكان ميله الكبير الى علوم البلاغة والادب ، وله قلم بارع في الترسل ورقة متناهية في الشعر . ولما أخرج مع قومه من الزاوية الدلائية بقي يحزن اليها طول عمره ، ويتنقل في البلدان يكتب الى والده واخوته مراسلات رفيعة طويلة يستبيلها دائما بقصائد رصينة حزينة . ومما جاء في مطلع احدي رسائله :

أحمل أنفاس الصبا عبقثت نشرا تحية مشتاق تهيجه الذكرى
متى هتفت بالبان تملئ شجونها مطوقة أذكت باحشائه جمرًا ..

وكانت وفاة محمد الشاذلي عام 1695/1107 (48) .

3 - أساتذة الزاوية الدلائية من غير أبنائها :

أ) أحمد بن القاضي

أبو العباس أحمد بن محمد ابن القاضي المكناسي نسبة الى مكناسة القبيلة البربرية الزناتية ، لا الى مدينة مكناس . وجدده الاعلى موسى بن أبي العافية الذي حارب الادارسة في مستهل القرن الرابع للهجرة وأمعن في قتلهم

(47) ترجم للشاذلي : محمد القادري في نشر الثاني ، 2 : 153 وما بعدها وسليمان الحرات في البدور الضاوية ، ورقة 131 ، ومحمد بن جعفر الكثاني في سلوة الانفاس ، 2 : 96

(48) أنظر ترجمة محمد بن الشاذلي في : محمد القادري ، نشر الثاني ، 2 : 160 . وسليمان الحرات في البدور الضاوية ورقة 230 . ومحمد بن جعفر الكثاني ، سلوة الانفاس ، 2 : 89 .

وتشربدهم حتى كاد يفنيهم (49). ولد أحمد ابن القاضي في فاس عام 1553/960، وتخرج على يد أكابر علمائها مثل القصار، والسراج، والمنجور، ورحل إلى الشرق فحج وجاور في الحرمين الشريفين مدة، وأخذ في مصر عن الإمامين سالم السنهوري (50) وبدر الدين القرافي (51) وغيرهما. «وكان حافظا، ضابطا، محققا، مؤرخا، أخباريا ثقة، سيال القريحة بالشعر، حسن العبارة، لطيف الإشارة، مستجمعا العلوم والآداب، ماهرا في معرفة علوم الأوائل، مشاركاً في غير ذلك للأئمة الأماثل وانفرد بعلم الحساب والفرائض في وقته شرقاً وغرباً» (52) واتصل أحمد بن القاضي بالسلطان أحمد المنصور الذهبي، وخدمه ونال عنده الحظوة الكاملة. «ثم تاب له رأى في معاودة البلاد المشرقية للتطوع بحجة أخرى واستزادة العلم والتحصيل. وكانت له نية بالغة في نشر مآثر مولانا الإمام أمير المؤمنين أيده الله في الأفاق، فجمع من مفاخر الدولة وفتوحها ومآثرها وأمداحها ما أمل بثه في الأقطار ونشره في المشارق لو ساعدته الأقدار، واستأذن أمير المؤمنين أيده الله فأذن له ووصله، وتوخي الطريق على البحر، فركب السفن من ثغر تيطاون فاعترضتهم أساطيل العدو في بحر الزقاق فأسرتهم، وحصل في ورطة عظيمة لولا ما تداركه من أطفاف الله تعالى وشمله من عناية مولانا أمير المؤمنين...» (53)

وهكذا نرى ابن القاضي يقوم في رحلته الثانية هذه بمهمة علمية سياسية وطنية في آن واحد، فيجمع الوثائق الضرورية ويسافر إلى الشرق ليذيع محاسن الخليفة المنصور، وينشر مآثر الدولة السعدية فيما قد يعقده من مجالس للتدريس، أو يصنفه من الكتب، لولا طالع النحس الذي أوقعه في

(49) نسب ابن القاضي نفسه في كتابه جذوة الأنفاس إلى موسى بن أبي العافية. واستنكر عمله ضد الإشراف الإدارية. وقد استشكل صاحب سلوة الأنفاس (3: 133) في صحة نسبة ابن القاضي إلى ابن أبي العافية، لما ذكره بعض المؤرخين من أن يوسف بن تاشفين اللمطولي استأصل شافة ذرية ابن أبي العافية. ويظهر أن ذلك يعني قتل عدد كبير من آل ابن العافية لا استئصالهم، إذ يصعب القضاء على جميع النسل بعد نحو قرن ونصف خصوصاً وأن آل أبي العافية كانت لهم مجالات واسعة للانتشار في المغربين الأقصى والأوسط. زيادة على بلاد الأندلس التي كانت تربطهم بعرضها روابط متينة.

(50) أبو النجا سالم بن محمد السنهوري - شيخ المالكية بمصر في وقته. له حاشية على مختصر الشيخ خليل. توفي عام 1016 هـ 1607 م.

(51) بدر الدين محمد بن يحيى المعروف بالقرافي - قاضي المالكية بمصر. شارح مختصر الشيخ خليل، و قاموس الفيروزي، و هوذا الإمام مالك. ومؤلف ذيل ديباج ابن فرحون في طبقات المالكية. توفي عام 1009 هـ - 1600 م.

(52) محمد جعفر الكتاني - سلوة الأنفاس 3: 134.

(53) عبد العزيز الفشتالي - مناهل الصفا. ص 368.

أبدى القرائصة الافرنج . وظل ابن القاضي في الاسر أحد عشر شهرا (54) عانى خلالها شدة عظيمة ، وبلاء كثيرا ، وصور لنا ما كان يعامل به النصاري أسراهم المسلمين من التجويع والاعراء والضرب والتكليف بما لا يطاق ، مدفوعين بالتعصب الديني الاعمي وبالرغبة في الحصول على الفداء والشراء . وقد كتب ابن القاضي أيام محنته مرارا الى الخليفة أحمد المنصور يشكو له بسوء حاله ويرجو منه العمل على تخليصه من ورطته . ومما جاء في احدي قصائده الاستعطائية قوله :

وكن يا امام العدل في عون حائر أسير كسير ذي جناح مذل
لقد مزقت أبدى الزمان وريسه ودارت عليه الدائرات كجلجل
وأخنى عليه الدهر من كل وجهة وداست عليه النائبات بأرجل

ولما استرد أحمد بن القاضي حريته بفضل أحمد المنصور الذهبي ألف فيه كتاب **المنتقى المقصور على محاسن الخليفة المنصور** ، كما أهدى اليه كل الكتب التي ألفها بعد ذلك ، ومدحه بقصائد عديدة . وتولى ابن القاضي خطة القضاء في مدينة سلا ثم عزل فرجع الى مسقط رأسه فاس واشتغل بالتدريس .

وقد أقام ابن القاضي في الزاوية الدلائية مدة غير قصيرة يدرس العلم ويفيد الطلبة . وأخذ عنه في هذه الفترة محمد بن أبي بكر الدلائي وأخوته علوم الادب والحساب والتوقيت وغيرها ، وكان لابن القاضي طريقة مفيدة في التدريس ، يقتصر على المهم من المسائل ، ولا يتوغل في التفصيلات المتشعبة العقيمة ، معتنيا باللب والجوهر ، خصوصا في الفقه الذي تكثر فيه عادة الأقوال والاحتمالات . فكان يقرئ **مختصر الشيخ خليل** ويختمه كل أربعة أشهر ، بينما لا ينتهي منه غيره الا في سنوات . واشتغل في آخر عمره بتدريس **صحيح البخاري** في جامع الابارين بفاس ، فكان الذي يسرد الحديث بين يديه هو الشيخ عبد الواحد بن عاشر صاحب **المرشد المعين** ، ويحضر مجالسه الحديثية الحافظ أحمد بن يوسف الفاسي ، والامام أحمد المقرئ صاحب **نفح الطيب** وغيرهما من أكابر العلماء .

تأليف ابن القاضي :

ألف أحمد بن القاضي كثيرا من الكتب في الفقه ، والقرائض ، والحساب والهندسة ، والمنطق ، والتاريخ . ويذكر أصحاب التراجم أن المادة التي كان يتفوق فيها ابن القاضي على معاصريه هي الرياضيات ، غير أن كتبه في هذا

القرن قد ضاعت للأسف الشديد أو لم يعثر أحد عليها بعد فيما أعلم (55) .
وبالعكس من ذلك بقيت لنا جل الكتب التي ألفها في التاريخ والتراجم . ولعل
أهمها هو **جذوة الاقتباس فيمن حل من الاعلام مدينة فاس** وبدأه بمقدمة تحدث
فيها عن موقع المغرب في الاقليم الرابع من الاقاليم السبعة التي رسمها حكماء
اليونان القدماء . وذكر مزايا هذا الاقليم الاوسط . بقوله : « وهو أعمرها ، وفيه
أرض بابل وجزيرة العرب ، وفيه بغداد فلاعتداله اعتدله أبدان أهله ، فسلموا
من شقرة الروم وسواد الزنج وغلظ الترك وجفاء الجبال . وكما اعتدلوا في
الحلقة اعتدلوا في الفطنة والذكاء والعلم » (56) . وتنبيه للوحدة الجغرافية لبلاد
افريقية الشمالية ، فقال ان أول بلاد المغرب من ناحية الشرق جبال برقة التي
على آخر أعمال مصر وأول أعمال القيروان مستديلا على ذلك بأن جبل درن
(الاطلس الكبير) يمتد عبر الجزائر وتونس ولا ينتهي الا في برقة ثم انتقل
للكلام عن حكم أرض المغرب هل فتحت صلحا أو عنوة . واستعرض أقوال
الفقهاء مرجحا انها « مختلطة هرب بعضهم عن بعض فمن بقي بيده شيء كان
له » (57) وبعد ذلك تكلم عن قدوم ادريس الاول الى المغرب ومبايعة قبائل
أوربة له ، وازتياد ادريس الثاني فحص سايس الذي أسس فيه مدينة فاس
يوم الخميس فاتح ربيع الاول عام 192 ، بدأ بعدوة الاندلس وأدارها بالسيور
ثم بعد سنة بنى عدوة القرويين . وقد تتبع ابن القاضي مراحل بناء المدينة بما
فيها من المساجد والدور والاسواق والاسوار والابواب ، وتعرض للتغييرات
الطارئة على فاس عبر القرون والدول . ثم سار على النهج الذي اختطه لنفسه
في المقدمة عندما قال : « أذكر على ترتيب حروف المعجم ملوكها (فاس) وعلماءها
وأعلامها ، وما لهم من نظم وتآليف ، ومن أخذوا عنه أو أخذ عنهم ، سواء كان
من الغرباء القادمين عليها أو من أهلها . الا أنني ان شاء الله تعالى أفرد في كل
حرف ترجمة للغرباء الوافدين عليها » (58) .

وكتاب **المنتقى المقصور على محاسن الخليفة المنصور** هو كاسمه خاص
بسمجد الملك السعدي أحمد المنصور الذهبي ، ألفه ابن القاضي بعد فكأكه من

(55) بعد كتابة هذه الترجمة وقفت في الخزانة الملكية بالرباط على نسخة من كتاب **الاكسير**
في صناعة التكسير في الهندسة لأحمد بن القاضي .

(56) النسخة الخطية من **جذوة الاقتباس** خزانة الرباط ، د 2362 ، ورقة 1/3

(57) نفس المصدر ، ورقة 3/ب وتجدر الإشارة الى أن أكثر ما ورد في مقدمة **الجذوة** وبعض
فصولها من الأخبار العامة منقول من **القرطاس** لابن أبي ذرع ، أو من **زهرة الآس** لابن
الحسن الجزائلي أو من غيرهما . ونكمن أهمية كتاب ابن القاضي فيما اشتمل عليه من
تراجم اعلام فاس والوافدين عليها .

(58) ابن القاضي ، **الجذوة** ، ورقة 1/2

الاسم اعترافاً بجميل هذا الخليفة الذي بذل لتخليصه من أيدي الروم فدية عالية . ورتبه على مقدمة وستة وعشرين باباً وخاتمة ، تكلم في المقدمة على نسب المنصور وحقيقة الخلافة وما يجب للسلطان على الرعية ، وتحدث في الباب الاول عن حسن خلق المنصور وعقله وكمال خلقه ، وفي الثاني عن معافاته على التكاليف الشرعية ، وفي الثالث عن عدله في رعيته وقيامه بالشرعية ، وفي الرابع عن تعظيمه للمولد النبوي وهكذا الى آخر الابواب ، وذكر في الخاتمة « نكتا غريبة ، وطرفاً عجيباً ، يصغى اليها المنتهى والشايد ، والعاكف في ربع الادب والبادي » (59) ويظهر ابن القاضي في خلال الكتاب استاذاً مرحاً منطلقاً على سجيته يمزج التاريخ بالادب ، ويستطرد القصة والخبر ، وينشد ما يستحضره من الشعر الذي يناسب الموضوع ، ويعتذر في الباب الرابع عن عدم ايراده المولديات الكثيرة التي كانت تنشد بين يدي الخليفة المنصور لضياعتها منه في المحنة التي أصابته عندما أسره الروم في البحر . ونجده في المقدمة يشير انتباه القارئ الى طريقته هذه بقوله : « وقد أذكر بعض حكايات وقصائد ومقطعات أنشدتها وملح غريبة استفدتها ، ليكون ذلك كالمعين على مطالعة الكتاب ، لان النظر في فن واحد قد ترغب عنه النفوس ، بخلاف ما اذا نطق بغيره فقد يسلى العيوس .

لا يصلح النفس اذا كانت مدبرة الا التنقل من حال الى حال (60)

أما كتاب **لقط الفرائد من حقائق الفوائد** فجعله ابن القاضي ذيلاً لوفيات ابن الخطيب القسنطيني المعروف بابن قنفذ (61) وأرخ فيه لثلاثة قرون ،

159 أحمد بن القاضي المنتقى المنصور ، ورقة 2

60 المنتقى المنصور ، ورقة 1 . هذا وقد وقعت على ثلاث نسخ قديمة مبتورة من كتاب **المنتقى المنصور** ، أولاها مصورة عن مخطوط الخزنة الزيدانية بمكناس ومسجلة في الخزنة العامة بالرباط تحت عدد 1057 د. والثانية مخطوطة بالخزنة العامة أيضاً تحت عدد 704 د. والثالثة مخطوطة في الخزنة الملكية بالرباط تحت عدد 1153 . وبين هذه النسخ بعض اختلاف في عناوين الابواب وترتيبها على أن أقربها الى الكمال النسخة الأولى المصورة . وبعد المقارنة وتكميل ما أمكن تكمله من نقص في بعضها بما تنفرد به النسخ الأخرى تبين أن الابواب المفقودة من الكتاب هي التاسع عشر ، والعشرون ، والواحد والعشرون .

161 ابن قنفذ الخطيب القسنطيني (741 - 40/810 - 1341 - 7 - 1408) هو القاضي المحدث أحمد بن حسن بن علي بن الخطيب بن قنفذ القسنطيني ، تلميذ الخطيب ابن مرزوق الحد وأستاذ ابن مرزوق الحفيد . ارتحل من قسنطينة الى المغرب وبقي فيه 18 سنة صحب خلالها الشيخ أحمد بن عاشر السلوي وألف تأليف كثيرة منها كتاب **الوفيات** الذي ذكر فيه وفيات الصحابة والعلماء والمحدثين والمؤلفين . ورتبه على المنتقى من السير . والنهي يذكر وفيات العشرة الأولى من المائة التاسعة . وهذا الكتاب هو الذي ذيله ابن القاضي بلقط **الفرائد** .

يتمنى من أول المائة الثامنة الى آخر المائة العاشرة . وقد أهداه كذلك الى ولي
نعمته الخليفة المنصور الذهبي . ولم يقتصر ابن القاضي في لقط الفرائد على
ذكر وفيات علماء الاسلام في الشرق والغرب ، بل اهتم الى جانب ذلك باعطاء
نظرة موجزة عن يترجم لهم ، فيذكر للبعض ما تولاه من المناصب خصوصا
القضاء ويشير الى ما للبعض الآخر من انتاج علمي أو أدبي . ويمزج ذلك بذكر
الاحداث البارزة في السنوات التي يؤرخها سواء كانت تتعلق بالسياسة
والحروب ، أو بالتشييد والعمران . فعندما تعرض مثلا للسنة الخامسة من
المائة الثامنة (705) ذكر استيلاء أهل الاندلس على سبتة قبل أن يذكر وفاة
شرف الدين الدمياطي وغيره . وكذلك فعل في سنة 721 اتى بطائفة من أسماء
العلماء الذين توفوا فيها ثم قال : «وبنى أبو الحسن (62) مدرسة الصهرريج ،
وبنى حولها سقاية ... ودارا لسكنى شيوخ جامع الاندلس ، وجلب
الماء الى ذلك كله من عين خارج باب الحديد ورتب الفقهاء والاساتذة لتدريس
العلم ، وأسكنها بالطلبة ، وحبس ربعا كثيرة للنفقة عليها» (63) وكانت وفاة
أحمد بن القاضي بفاس عام 1025/1616 .

(62) أبو الحسن المريني (731 - 1331/752 - 1351) أو السلطان الأكلع كما كان يدعوه العامة . لآل أمه سودانية هو أعظم ملوك بني مرين . امتد نفوذه الى افريقية الشمالية كلها والاندلس ، وكانت له علاقات طيبة مع ملوك مصر والسودان وأسس كتيرا من المدارس والزاويا . وبني القناطر والسقايات .
(63) أحمد بن القاضي ، لقط الفرائد ، ص 40

جدول مؤلفات أحمد بن القاضي

الارقام الترتيبية	عنوان الكتاب	مكان الكتاب
أ - التاريخ والتراجم		
(1)	جذوة الاقتباس ، فيمن حل من الاعلام مدينة فاس	طبع على الحجر بفاس عام 1309 هـ وتوجد منه نسخ خطية في خ. ع. (64) د 2362
(2)	درة الخجال في أسماء الرجال جعل ذيلاً لوفيات الاعيان لابن خلكان وضمنه تواريخ الاعيان من وفاة ابن خلكان عام 681 هـ الى أوائل القرن الحادي عشر	نشره ب. س. علوش بالرباط سنة 1934 .
(3)	درة السلوك فيمن حوى الملك من الملوك وهي أرجوزة ذكر فيها الملوك مرتبين حسب وفياتهم ، ومطلعها : الحمد لله الذي أبدى العبر في دول الملوك للذي عبس	مخطوط خ. ع. 52 د
(4)	الدر المملوك المشرق بدرة السلوك فيمن حوى الملك من الملوك وهو شرح الأرجوزة السابقة	مخطوط خ. ع. 52 د
(5)	لقط الفرائد من حقائق الفوائد ذيل به وفيات ابن قنفذ	مخطوط خ. ع. 270 ك

المنتقى المقصور على محاسن الخليفة أبي العباس المنصور	(6)
مخطوطات خ. ع. 48 د و 764 د و 1057 د وهذا الاخير مصور عن نسخة المكتبة الزيدانية بمكناس	
غنية الرائف في طبقات أهل الحساب والفرائض	(7)
الفهرست المسماة رائد الصلاح	(8)
كانت توجد في فاس بخرانة الشيخ علال بن عبد الله الفاسي	

الفقه و الفرائض

نيل الامل فيما به بين المالكية جرى العمل	(9)
القانون الوفي بجداول الخوفى ، في الفرائض	(10)

الحساب و الهندسة

الاكسير في صناعة التكسير ، في الهندسة	
مخطوط الخزانة الملكية بالرباط عدد 5455	
المدخل في الهندسة	(11)
نظم تلخيص ابن البنا	(12)
الفتح النبيل بما تضمنته من أسماء العدد التنزيل	(13)
شرح منظومة في مبادئ الهندسة ، لاين ليون التجيبي	(14)

المنطق

؟

نظم منطق السعد

(15)

ب) اساتذة آخرون درسوا في الزاوية الدلائية

الحسن الدرعى

أبو محمد الحسن بن أحمد الدرعى المعروف بالدرأوى ، العالم المعقولى ،
المشارك المتبحر ، مؤلف شرح **صغرى السنوسى** فى التوحيد ، وشرح **لامية**
الإمام الجراد السلوى فى قواعد الجمل . اشتهر هذا العالم بالانكساب على
التدريس وبذل الجهود فى افادة الطلاب ، والحرص على نفعهم ، سواء فى
مرطبه الاول بدرعة أو فى فاس ، أو فى الزاوية الدلائية «وكانت له اليد الطولى
فى معرفة العقائد والمنطق ، وفى النحو ، والقراءات ، مع كمال التحقيق وجودة
النعم والتدقيق . أقام مدة فى الزاوية الدلائية يقرئ حتى عم النفع به
هناك .» (65)

وقد حظ الحسن الدرعى رحاله فى الدلاء فى السنوات الاولى لتأسيس
الزاوية ونال من حظوة أبى بكر ورعايته ما يليق بمقامه العلمى والدينى ،
واقبل عليه الطلبة يأخذون عنه وفى مقدمتهم محمد بن أبى بكر الدلائى الذى
درس عليه التوحيد والفقه ، والاصول ، والمنطق ، والبيان ، وغير ذلك من
مقول العلم ومعقوله ، كما أخذ عنه كثير من اخوة محمد بن أبى بكر وغيرهم
والرحل الحسن الدرعى فى أواخر أيامه الى فاس حيث وافته المنية عام
1006/97 - 1598 (66) .

أحمد بن عمران الفاسى

أبو العباس أحمد بن على بن عبد الرحمن بن أحمد بن عمران السلاسى
ثم الفاسى العلامة المحدث الحافظ الاديب البليغ مفتى فاس ، والمدرس بجامع
الخرابين . كان أبوه على قاضى الجماعة وجدده عبد الرحمن من شيوخ الفقه
والنحو . وسبب مجيئه الى الزاوية البكرية انه أصابه عسر فى فاس وضاق
حاله بها فقصده الشيخ محمد بن أبى بكر الدلائى تاركا عياله وأولاده بفاس
وأقام عنده يقرئ ، ابتداءً وغيرهم من الطلبة . فأرسل ابن أبى بكر الدلائى الى
أسرة الفقيه ابن عمران كثيرا من المواد الغذائية والملابس والنقود ، دون أن

يعلمه بشي من ذلك ، ثم غمره بالعطايا حينما أراد الرجوع الى مسقط رأسه . وكان الشيخ ابن عمران يحدث نفسه وهو في طريقه الى فاس أنه سيأتي أهله بهذا الرزق الوفير ليبدل عسرهم يسرا ، فاذا به يجدهم في رغد من العيش لا عهد لهم به . فلما علم بجليه الامر أسرع بالرجوع الى الزاوية الدلائية وألقى عصا النسيار بها ، واستقر مطمئن الخاطر مرتاح البال ، منقطعاً للتدريس والإفادة . وحضر الشيخ محمد بن أبي بكر يوماً مجلسه ، وهو غاص ببنيته وذوي قرابته ومودته فقال لهم : من أحبني منكم فليعط لهذا الشيخ ، يعني أبا العباس بن عمران . فأتى كل واحد من الحاضرين بما قدر عليه ، ثم بلغ ذلك النساء فأعطت كل واحدة منهن ما قدرت عليه من قرط أو سوار أو غيرهما ، ثم بلغ ذلك الخبر أهل السوق وأهل البوادي فانتقلوا اليه ، فكان الرجل يأتي بالفرس وغيره مما تيسر له فيعطيه له وقامت لذلك سوق عظيمة . (67)

ومن أخذ عن أبي العباس بن عمران بالزاوية البكرية محمد المرابط الدلائي وأبو عمر بن محمد الدلائي المتقدمان ، والحسن اليوسى الذى أخذ عنه كبرى الشيخ السنوسى مع شرحها فى التوحيد (68) .

وكانت وفاة أحمد بن عمران بفاس عام 1065/1654 (69) .

حمدون الأبار

أبو العباس أحمد المدعو حمدون بن محمد بن موسى الأبار الفاسى العلامة الخطيب البليغ ، شيخ الجماعة بفاس ، وخطيب جامع الاندلس . كان أهله من التجار المؤسسين فسلوك سبيلهم أولا متجولا فى الاقطار للتجار وكسب الاموال ثم شغف بالعلم فأنصرف عن ذلك الى الدرس والتحصيل ، حتى صار اماما فى كثير من العلوم ، خصوصا النحو والفقه . وسار فى حياته العلمية سيرته فى حياته التجارية ، فجال فى البلدان ينشر العلوم ، وحل بالزاوية الدلائية مدة يدرس لطلبتها مختلف الفنون حيث أخذ عنه فيها الطيب بن المسناوى الدلائي المتقدم وغيره ، وكان أكثر ما يقرئ مختصر الشيخ خليل و الفية ابن مالك وتخرج به جماعة من الاعلام ، بل جل طلبة المغرب عليه انتفعوا فى

(67) سليمان الحوات ، البدور الضاوية ، ورقة 46/ب

(68) الحسن اليوسى ، الفهرست ، ورقة 66/ا

(69) ترجمة ابن عمران عند : محمد الافرانى ، الصفوة ، ص 414 ومحمد القادري نشر الثانى ج 1 ص 211 .

المختصر وله عليه حاشية هي موجودة بأيدي الطلبة . وله فتاوى كثيرة
حسنة ، (70) .

توفي بفاس عام 1071/1660 .

محمد بن سودة

أبو عبد الله محمد (71) بن محمد بن أبي القاسم ابن سودة . الفقيه
المشارك الذي اشتهر بالعلم والدين وقيل عنه إنه آخر قضاة العدل بفاس .
أخذ عن خاله عبد الواحد بن عاشر وطبقته ، وتلمذ له كثير من أعلام فاس ،
وأقام مدة في الزاوية الدلائية يدرس فيها للطلبة ، وأخذ عنه هناك جم غفير .
في مقدمتهم الطيب بن المسناوي الدلائي . وتولى محمد بن سودة القضاء في
فاس بأمر من السلطان محمد الحاج الدلائي ، وكانت وفاة ابن سودة عام
1076/1665 (72) .

محمد بن سعيد المرغيثي

أبو عبد الله محمد بن سعيد السوسى المرغيثي نسبة الى
مرغيثة (وينطق السوسيون اليوم بالغين خاء فيقولون مرخت
ومرختي) وهي إحدى فروع قبيلة الاخصاص المشهورة بناحية تيزنيت . كان
محمد بن سعيد موقتا حيسوبيا مدققا ، وهو صاحب النظم المشهور المسمى
بالقنع في التوقيت وشرحيه الكبير والصغير . انتقل الى مراكش وتصدى
للتدريس بمسجد المواسين مدة طويلة وقصده الناس للأخذ عنه . ثم انتقل
الى الزاوية الدلائية للتدريس فيها ، وقد قال عنه تلميذه الحسن البوسى :
« حضرت عنده مجلسا واحدا في ألفية ابن مالك أيام الحداثة ، ثم لقيته بالزاوية
البكرية ، فجالسته مرارا ، وصافحني عن شيخه أبي محمد عبد الله بن علي بن
طاهر الحسنى وقال بسنده الى أنس بن مالك رضى الله عنه فأفصح بالحديث
ولم يفصح بالسند ... » (73) وقد عمر محمد بن سعيد طويلا وكثر الأخذون

(70) محمد القادري ، نشر الثاني ، 228:1 أنظر هناك ترجمة حمدون الأبار .

(71) هناك عالمان سوديان يسمى كل منهما محمدا . الاب والابن . لم أقف على نص يعين من
درس منهما في الزاوية الدلائية . وقد رجحت أن يكون هو الابن نظرا لذكر اسمه
مفروفا باسم حمدون الأبار أثناء وجودهما في الدلاء وهما متعاصران وتاريخ وفاتهما
متقارب . أما محمد بن سودة الاب فانه توفي عام 1015/1606

(72) أنظر ترجمة ابن سودة في: محمد القادري ، نشر الثاني 256:2

(73) الحسن البوسى ، الفهرست ، ورقة 1/68

عنه ، واشتهر نظمه المقنع في جميع النواحي المغربية ووقع عليه اقبال كبير حتى اليوم . ومن تأليفه أيضا : **الإشارة الناصحة لمن طلب الولاية بالنية الصالحة** ، وكتاب **المستعان في احكام الاذان** ، و**اختصار السيرة اليعمرية** ، و**الفهرست** التي ذكر فيها أشياخه وأودعها كثيرا من الفوائد والفتاوى . وكانت وفاة المرغيشي عام 78 / 1089 - 1679 (74) .

4 - تلاميذ الزاوية الدلائية

ظلت الزاوية البكرية كعبة الطلاب يحجون إليها من كل أصقاع المغرب طيلة قرن كامل ، ويتنافسون في الاخذ عن علمائها المبرزين الكثيرين . ولا شك أنها عرفت خلال هذه الفترة الطويلة من الزمن عددا كثيرا منهم ، لا يتوفر لدينا من أسمائهم مع الاسف ، الا نزر يسير ورد ذكرهم عرضا عند من تعرض لهذه الزاوية من المؤرخين أو أصحاب التراجم . وتلاميذ الزاوية الدلائية طائفتان ، طائفة لازمت الزاوية منذ أول عهد لها بطلب العلم ، الى أن تخرجت منها ثم اشتغلت بالتدريس فيها ، وهذا شأن أكثر الدلايين المتقدمين في الفصل السابق وبعض من سناتى على ذكرهم هنا ، مثل محمد بن عبد الرحمن الصومعي ، وابن مسعود المراكشي . وطائفة أخرى كان لها سابق دراسة في فاس أو مراكش أو غيرهما من مراكز الثقافة ، ثم وردت على الزاوية البكرية وكرعت من حياض معارفها حتى رويت وتم تكوينها العلمي ، فاستقرت بها مشغلة بالتعليم والافادة ، كالامام الحسن اليوسي والاخوين العكاريين محمد وعلي ، أو غادرتها بعد مدة طويلة أو قصيرة لترجع الى مساقط رؤوسها أو لتلقى عصا التسيار في بلد آخر ، كأبي حامد الفاسي ، وأحمد المقرئ ، وعبد الواحد ابن عاشر ، ومحمد ميارة وغيرهم . وسأورد فيما يلي تراجم مختصرة لمن لم يسبق التعريف بهم من تلاميذ الزاوية الدلائية .

(أ) الحسن اليوسي

أبو علي الحسن بن مسعود اليوسي ، من قبيلة آيت يوسي البربرية . مفخرة المغرب وأشهر من أنجبته الزاوية الدلائية من العلماء حتى ارتبط اسمه باسمها ووطن البعض أنه من أبنائها . وقد تتلمذ اليوسي لكثير من العلماء

174 النظر لترجمة المرغيشي في : الحسن اليوسي ، **الفهرست** ورقة 1/68 - 1/69 ومحمد القادري ، **نثر المثنى** . ج 2 ص 37 - 41 ومحمد المكي الناصري ، **الدرر المرصعة** . ص 15 - 17 **والسيرة اليعمرية هي نور العيون في تلخيص سيرة الامين المأمون** ، لابن الفتح محمد بن محمد بن أحمد بن سيد الناس اليعمرى الربيعي الاشبيلي المتوفى في القاهرة عام 734/1334 **اقرأ مقال الامتياز محمد المتوفى** ، مكتبة الزاوية الحمراء ، مجلة تطوان العدد 8 سنة 1963 ص 176 .

الدلائيين مثل محمد الم رابط ، ومحمد بن عبد الرحمن ، وأبي عمر بن محمد بن أبي بكر الدلائى ؛ وأخذ عنه عدد وافر من أبناء الدلائيين وغيرهم من الطلبة الذين كانوا يقيمون فى الزاوية الدلائية . وكان دخول اليوسى الى الزاوية الدلائية حوالى عام 1060 وهو ما يزال شابا طالبا للعلم ، فتزوج فيها فور وصوله اليها ، وانقطع عن لهو الشباب ولغو (75) ومكث بها نحو عشرين سنة طالبا ثم أستاذًا وفيها أنجب الأبناء والبنات ولم يغادرها الا بعد أن أزعجه السلطان الرشيد عنها عند تخريبها . وقد انفرد اليوسى بوصف حادثة اخلاء الراوية الدلائية وعنه نقل ذلك سائر المؤرخين . يمتاز هذا العالم الكبير بقوة العارضة ، وشدة التحصيل ، وجدة الاسلوب ، فهو يسير فى كتبه خصوصا **المحاضرات** ، على غير ما عهد عند معاصريه من العلماء المغاربة وانك لتجد فى هذا الكتاب وغيره من مؤلفات اليوسى طريقة جديدة فى الكتابة ، تذكرك بطريقة أكابر الكتاب القدامى أمثال ابن المقفع ، والمبرد وأضرابهما ، فالالفاظ جولة متينة والاسلوب سلس منطلق لا تقيدده الاسجاع وغيرها من المحسنات البديعة اللغزية الا متى أتت عفوا دون تكلف ، أو وقعت فى رسائل خاصة تستدعى ذلك ؛ والمواضيع المطروقة جدية متنوعة متسلسلة يربط بينها رغم تباينها نوع من التعلق بحيث تنكامل ويستمدعى بعضها البعض الآخر .

ويحدثنا اليوسى نفسه فى **فهرسته** عن بعض الكتب التى درسها على أستاذه محمد الم رابط الدلائى بقوله : « حضرت عنده تلخيص **المفتاح** بمختصر **السعد** (76) ومواضع من **الخلاصة** (77) وصدرنا من تفسير القرآن بتفسير **الجلالين** (78) وأجازنى فى فنون العلم كلها ... (79) ويروى لنا كذلك فى

(75) الحسن اليوسى . **المحاضرات** ، ص 141 . **الفهرست** ، ورقة 70

(76) **تلخيص المفتاح** : فى البلاغة تدارسه الناس واعتمده فى هذا الفن منذ القرن الثامن الهجرى حتى الآن لتركيزه واختصاره . ومؤلفه هو الخطيب القزوينى جمال الدين محمد بن عبد الرحمن الاناضولى المتوفى بدمشق عام 38/739 - 1339 . وكتاب **التلخيص** هذا هو اختصار للقسم الثالث من كتاب **مفتاح العلوم** ليوسف بن أبي بكر السكاكى المتوفى عام 626/28 - 1229 وقد شرح متن التلخيص سعد الدين الفتازنى (نسبة الى فتازان - قرية من أعمال خراسان) المتوفى عام 88/791 - 1300 شرحين ، مطول ، ومختصر ، والى هذا الأخير يشير اليوسى .

(77) **الخلاصة** من **الالفية** المشهورة لمحمد بن مالك الطائى الاندلسى

(78) **الجلالين** المشتركان فى تفسير القرآن الكريم هما جلال الدين محمد بن أحمد المحلى المتوفى عام 864/1459 وجلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطى المتوفى عام 911/1506

(79) الحسن اليوسى . **الفهرست** ، ورقة 66/1

الحاضرات حادثة أدبية طريفة وقعت له عند وصوله الى الزاوية البكرية وهى
بدلتنا على مدى قوة شخصيته وسرعة بديهيته منذ حياته العلمية المبكرة ، اذ
وجد شيخه محمدا الم رابط قد ألف كتابا فى الخطب الوعظية قرظها الناس
وامتدحوها «فكتب كل ما قدر له من نثر ونظم فلما رأيت ذلك كتبت أنا أيضا ،
فوقع فى مكتوبى لفظة القطائف والطائف ، فاعترض على ورام تبيكتى وقال :
انا لانعرف القطائف الا هذه المفروشات . فقلت له : ان القطائف هنا جمع
لفظة بمعنى مقطوفة فقال هو صحيح فى اللغة ، ولكن الادباء لهم الاختيار ،
وعندهم الفاظ يستعملونها مخصوصة ، فلا يرتكب عندهم كل ما يقع فى
اللغة ، فقلت له حينئذ : هذا أبو محمد الحريرى (80) يقول فى مقاماته :

فلا تعذلونى بعد ما قد شرحتة على ان منعتهم فى اقتطاف القطائف
على ان ما زودتم من فكاهة ألد من الحلوى لدى كل عارف
فتلون وجهه رحمه الله وخجل ولم يراجعنى بكلمة : فلولا معرفة المقامات
واستحضار هذا البيت لأخجلنى عوض ما كنت أخجلنه» (81) .

ونفهم من هذه المناظرة القصيرة أن اليوسى قدم الزاوية البكرية وقد
حصل على نصيب لا يستهان به من المعلومات ، فكان يحفظ المقامات الحريرية
ويستطيع أن يدلى بدلوه مع الادباء فى تقرير كتاب لعالم كبير ، بل كان يحتاج
شيوخ العلم ويحجهم على حادثة سنة . وهو أمر يذكرنا بمناظرة بديع الزمان
الهمداني لشيخ الادباء أبى بكر الخوارزمى (82) . ويظهر أن هذه الحادثة كانت
عابرة لم تتركها ذبول ، فالْيوسى أخذ مجلسه بين الطلبة فى حلقة الشيخ الم رابط
العلمية ليستفيد منه طيلة مقامه بالزاوية الدلائية ، والاستاذ الم رابط بدوره
قدر فى تلميذه النابغة نباهته وكفاءته وأحله المنزلة اللائقة بمقامه الممتاز ،
ليجيزه بعد عشرين سنة من تلك المناظرة ويحديه بقوله : «الصدر الرئيس ،
قارس الاملاء والتدريس ، شيخ الجماعة بالديار البكرية ، والحضرة الدلائية
ذو التدقيق المعهود ، أبو الحسن بن مسعود ، صاحب النباهة الشامخة ، والنزاهة

(80) أبو محمد القاسم بن على الحريرى البصري ، صاحب المقامات المشهورة المشتملة على كثير
من كلام العرب ولغاتها وأمثالها توفي عام 22/510 - 1123

(81) الحسن اليوسى ، الحاضرات ، ص 141

(82) أنظر صورة هذه المناظرة الأدبية الطريفة عند زكى مبارك فى النثر الفنى الطبعة الاولى
منشورة دار الكتب المصرية بالقاهرة عام 1352 هـ - 1934 ج 2 ص 331 وما بعدها

الباذخة ، والجلالة العليا ، والهمة التي نيطت بالثريا ..» (83) وقد انتقل اليوسى بعد تخريب الزاوية الدلائية الى فاس بأمر من السلطان الرشيد ، وتصدر للتدريس فيها ، وأقبل عليه الطلبة والعلماء يأخذون عنه الا طائفة من مناقبه فانهم تخلفوا عن مجالسه العلمية ، وفيهم يقول :

ما أنصفت فاس ولا أعلامها علمى ولا عرفوا جلالة منصبى
بأنصفوا لصبوا الى كما صبا راعى سنين الى الغمام الصيب

وليس هذا من باب الزهو والغرور وانما هو نوع من الصراحة البدوية التي يمتاز بها اليوسى ، فهو يتحدث بنعمة الله عليه ، ويعرف قيمته ومكانته العلمية ويعبر عما يحول في خاطره بدون لبس أو تمويه . وقد ذكرنا في الباب الثاني أبياتا أخرى مشابهة لهذه قالها اليوسى في علماء الزاوية البكرية وطنها حينما انتقل منها مرة الى قرية الدلاء .

وقد حظى اليوسى بتقدير السلطان الرشيد الذي كان يحضر بعض مجالسه العلمية بالقرويين ، ويجالسه في قصره مع خاصته ، ويحادثه بدون كلفة ، كما يذكر لنا ذلك اليوسى نفسه بقوله : «أصابني مرة اسهال ، فدخلت في السلطان رشيد بن الشريف ، وكان يكرمني ويجلني فرآ (كذا) تغييرا في لحي ، فسألني فأخبرته فقال : وماذا صنعت من علاج ، فقلت له ، ان الطبيب صنع لي شراب الريحان ، فتضاحك ثم قال : سبحان الله ، مالنا ولشراب الريحان ، وأين عيده خذ سويق الشعير واخبطه بالماء ، فذلك دوواؤه..» (84) وكان السلطان الرشيد يعرف شدة تعلق اليوسى بالزاوية الدلائية وأهلها فلامه مرة على ذلك ، فأجابه اليوسى متسترا ومتقيا : «لا ناقة لي فيها ولا جمل» . وظل اليوسى يتمتع بحظوته في البلاط العلوى حتى بعدما تولى الملك السلطان اسماعيل وكان من بين العلماء الذين وافقوا على بيعته اثر وفاة أخيه الرشيد سراكس . ولليوسى مراسلات عديدة مع هذا السلطان العظيم أخلص فيها النصيح لأمير المؤمنين ونبيه الى مواطن الضعف في حكمه ، وخاطبه بصراحة العظمى . ومنها رسالة مطولة في 47 صفحة بعث بها اليوسى الى السلطان حاربا عن كتب تلقاها منه يقول في أولها : «هذا وقد وردت على كتب سيدنا الكريمة ، ومراسمه الجليلة العظيمة ، فاذا عر قد أحسن فيها وأجاد ، وأبدا

وأعاد ، وبلغ من كل فصل المراد ، وفوق المراد ، ثم رأيت أن أمر سيدنا أيده الله بالجواب عن فصول الكتاب لا ينبغي أن يتم ، ولعل فيه أن شاء الله فوائد تفصل فتحصل ...» (85) وغادر اليوسى فاسا إلى مراكش حيث أقام ثلاث سنوات متصديرا للتدريس في مساجدها ونجده في عام 1682/1093 يتشوق للرجوع إلى مسقط رأسه ويحن إلى عشيرته ، وكان قد خلف الأهل في جبال الأطلس المتوسط ، والكتب وما معها في مكناسة ، والقبيلة في ملوية ، وجرى يوما ذكر البيتين اللذين أنشدهما سيدنا بلال رضى الله عنه ، فهاج به إلى الأوطان اشتياق ، فقلت على نحو هذا المساق :

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة بسبب الشنين أو بسبب بنى ورا
وهل تعبرن نهر العبيد ركائبى وهل تتركن دايا وأدواؤها ورا.» (86)

وقد تحققت لليوسى آمانياته الثلاث في الحياة ، فوفر حظه من العلم ، وكثر ماله ، وزار البقاع المقدسة (87) . وظل وفيًا للزاوية الدلائية طيلة حياته يحن إليها ويذكر محاسن أهلها ، ولم يرثها أحد بمثل قصيدته الرائية الشهيرة التي يبلغ عدد أبياتها 162 ، ومطلعها :

أكلف جفن العين أن ينثر الدرا فيأبى ويعتاض العقيق بها حمرا
وأسأله أن يكتم الوجد ساعة فيفشى ، وإن اللوم آونة اغرا (88).

(85) الحسن اليوسى ، رسالة إلى المولى اسماعيل ، مخطوط بالخزانة العامة بالرباط 1348 د ورقة 1/13

(86) الحسن اليوسى ، المحاضرات ، ص 126
السهب (بضم السين) من الأرض : البعيد المستوى (وينطق به في اللسان المغربي الدارج بفتح السين مرادا به هذا المعنى) وسهب الشنين ، وبنى ورا موضعان بالأطلس المتوسط ، ونهر العبيد يقع في إقليم بنى ملال وعليه سد بين الويدان المشهور ، ودای : هي مدينة الصوغة المجاورة لبنى ملال الحالية ، وكانت مشهورة بكثرة الأمراض والوخم .

(87) الحسن اليوسى ، الفهرست ، ورقة 1/64

(88) شرح هذه القصيدة عالمان دلائيان في مجلد ضخيم ستحدث عنه في كلامنا عن مؤلفات الدلائيين ، كما شرحها محمد بن المهدي بن سودة في 6 مجلدات ، أنظر هذه القصيدة تامة في ديوان اليوسى ، وفي النبوغ المغربي لعبد الله كنون ج 3 ، ص 277 وما بعدها . للتوسع في ترجمة اليوسى أرجع إلى محمد الأفراني ، نزهة الحادى ، ص 245 وما بعدها وإلى محمد القادري ، نشر المثاني ، 142:2 ، وإلى الكتاني ، فهرس الفهارس ، 464:2 ، وإلى : Lévi-Provençal, Les historiens des Chorfa, pp 269 - 272.
Jacques Berque, AL YOUSSEI. Problèmes de la culture marocaine au XVIIème siècle.

توفي اليوسى عقب رجوعه من الحج عام 1102/1690 ودفن في قبيلته
بمدينت قرب صقرو .

جدول مؤلفات اليوسى

وضع الاستاذ بىرك فى آخر مؤلفه عن اليوسى جدولاً مفصلاً لكتب
اليوسى أتى فيه على أسماء 33 مؤلفاً مع الإشارة الى المكتبات التى يوجد فيها
بعض هذه الكتب . وقد نقلت هنا هذا الجدول وأضفت اليه 14 مؤلفاً لليوسى
انقلها الاستاذ بىرك كما أشرت الى مكتبات توجد فيها كتب لليوسى لم يقف
عليها . وجعلت على كل زيادة هذه العلامة x

اسم الكتاب	المكتبات التى يوجد فيها
------------	-------------------------

التوحيد

(1) حاشية على شرح كبرى السنوسى	مخطوط خ. ع. ك 2645 ، خزانة القرويين بفاس 40 - 837 ، 732-40 ، فى دار الكتب المصرية بالقاهرة . 222 ، 266 ، 473 ، 562 ، III7 كلام . x وفى الخزانة الحمراء 69 .
(2) أجوبة	مخطوط خ. ع. ضمن مجموع I241د (من 8 - 9)
(3) مشرب العام والخاص من كلمة الاخلاص أو منهج الاخلاص من كلمة الاخلاص	مطبوع على الحجر بفاس عام 1327 هـ
(4) شرح صفرى السنوسى	؟
(5) الرد على القرافى فى التفريق بين القديم والحديث فى كلام الله	؟

غير بعض مترجمى اليوسى عن مشرب العام والخاص بكتاب فى الهيللة ، كالفادى فى
نشر المائى ، والصغلى فى الصفحة الاولى من القانون المطبوع فى فاس ، وقد اختلطت
كلمة (الهيللة) على الاستاذ بىرك فقرأها هيلة . وجعل - خطأ - لليوسى مؤلفاً فى التنجيم

الفقه

- (6) شرح قول خليل : «وخصصت نية الخالف وقيدت ..» ؟
- (7) * فقهية منظومة فى بحر الزجر على نظام المرشد المعين لابن عاشر تشتمل على التوحيد ثم الطهارة فالصلاة فالزكاة فالصوم فالحج فمبدأ طريق القوم
- (8) * قواعد الاسلام من مضمون حديث النبى عليه السلام موضوعيا واجبات المكلف كالرسالة الاتية رقم 35 الا أنها أوسع منها وأطول .
- مخطوط خ.ع 157 ح ضمن مجموع من ورقة 1/124 - 131 ب 1164 د .
انتسخت فى حياة المؤلف عام 1099 هـ
- نفس المجموع (من ورقة 1/27 - 1/42)

الاصول

- (9) الكوكب الساطع بشرح جمع الجوامع لتاج الدين السبكي ثم يكمله وانما وصل فيه الى «اذا الفجائية» .
- مكتبة خاصة

الحديث

- (10) * رسالة فى العلم النبوى وهو رد على القاضى عبد الملك التجموعتى .
- ؟

المنطق

- (11) نفائس الدرر على شرح المختصر للسبكي
- مخطوط خ.ع ضمن مجموع د 1072 (من ص 52 الى ص 195) د 451 ، 1751 ك وفى خزانة القرويين بفاس بدون رقم - وفى المكتبة الوطنية بالجزائر 2 و 1382 - وفى المكتبة الوطنية بباريز 2400 (من 104/ب - 251) .

مخطوط خ.ع 1072 د (من 196 - 223)

(12) القول الفصل في الفرق بين
الخاصة والفصل أو الفرق ما
بين الذاتي والعرضي

ذكره عبد الله كنون في النبوغ المغربي
1 : 303 .

(13) × شرح السلم المرونق للاخضرى

البلاغة

؟

(14) شرح تلخيص المفتاح للقروينى
(لم يكمل)

اللغة والادب

مخطوطات الخزانة العامة بالرباط
71 د ، 191 د ، 1001 د ، 1159 د ،
× 596 ج ، × 178 ج ، والمكتبة
الوطنية بالجزائر 80 1842 . والمكتبة
الوطنية بباريس 52304 ، والقرويين
بدون رقم ، وفي دار الكتب بالقاهرة
14097 ، 14842 ادب .

(15) زهر الاكم في الامثال والحكم

طبع على الحجر بفاس ، وتوجد منه
نسخ مخطوطة عديدة بالخزانة العامة
بالرباط . منها واحدة جيدة ضمن
مجموع عدد 32 ج ، كما توجد نسخ
مخطوطة أخرى بالمكاتب الوطنية
بباريس والجزائر .

(16) الديوان

- جمعه ولد اليوسى بعد وفاة
والده -

مخطوطة خ.ع. ضمن مجموع 163 د
(من 98 - 103)

(17) القصيدة الرائية في رثاء الزاوية
الدلالية (89)
(تشتمل على 162 بيتا)

طز الأستاذ بورك أن موضوع هذه الرائية الحكم والتصوف ، وهي في الحقيقة في رثاء
الزاوية الدلالية وإن كانت لا تخلو من اشارات صوفية ، وامثال حكمية على طريقة زهير
ابن أبي سلس في معلقته .

طُبعت مع شرحها فى مصر عام 1291 هـ
و 1329 هـ وتوجد منها نسخ خطية
عديدة بمكاتب القرويين والرباط
والقاهرة وباريس .

طبع بمطبعة الكوكب الشرقى
بالاسكندرية عام 1291 هـ × وبمطبعة
التقدم بالقاهرة عام 1329 هـ وتوجد
منه نسخ خطية فى المكاتب العامة
بالرباط والجزائر والقاهرة وباريس .

× مخطوط خ.ع 774 د ضمن مجموع

الخزانة الملكية بالرباط 2343 .

؟

(18) القصيدة الدالية فى مدح الشيخ
محمد بن ناصر

وقد عارض اليوسى بها دالية
البوصيرى فى مدح الشاذلى
والمرسى .

(19) نيل الامانى فى شرح التهانى
وهو شرح للدالية المتقدمة

(20) شعر فى مدح خير البرية
أوله القصيدة الشهيرة :

جد فى سيرها فلست تلام
هذه طيبة وهذا المقام

(21) × الرحلة - كتبها ولداليوسى
عندما صحب والده الى الديار
المقدسة

(22) شعر فى رثاء عبد القادر الفاسى

التصوف والرد على المبتدعة

؟

(23) شرح عقد جواهر المعانى ، فى
مناقب الفوت عبد القادر الجيلانى
لاحمد بن المختار (بنخدة)

(24) تاليف فى العكاكزة المرقية
الضالة بتادلا وزمور

(25) × أربعة وعشرون سؤالاً تتعلق
بمصاحبة الشيخ وتأديته
الأوراد الخ

× مخطوط خ.ع 1224 ك ، ضمن
مجموع (من 167 - 187) .

مخطوطة خ.ع 612 ج (من ورقة
48/ب - 52/أ)

موسوعات

(26) القانون

طبع على الحجر بفاس عام 1310 هـ و 1315 هـ ، وتوجد منه نسخة خطية بالمكتبة الوطنية بباريس 5291 كما توجد نسخ خطية متعددة في خ. ع. بالرباط

(27) المعاصرات

طبع على الحجر بفاس عام 1317 هـ وتوجد منه نسخ خطية بمكاتب الرباط ، وباريس والقاهرة وتوجد منه نسخة خطية هامة بخزانة العطارين بتونس انتسخت بعد وفاة اليوسى بأربع سنوات .

(28) الفهرست

× مخطوط خ. ع 1234 ك ضمن مجموع (من 103 - 147) .

(29) الكناشة العلمية - تشمل على فوائد في التفسير والحديث والتصوف والتراجم

الخزانة الملكية بالرباط 5995

رسائل في مواضيع مختلفة

(30) رسالة الى السلطان اسماعيل
بصفحة وبعظه

مخطوط خ. ع 6111 د (من 1 - 4) 1348 د (من 13 - 36) وقد نقلها صاحب الاستقصا . 82:7 - 86

(31) رسالة اخرى الى السلطان اسماعيل يرفض فيها الذهاب الى فاس

× مخطوط خ. ع. 849 ج ضمن مجموع (من ورقة 1 - 146)

(32) نداء الملوك الى العدل . في آداب الملوك

مخطوط خ. ع 364 د ضمن مجموع (من 113 - 116)

(33) رسالة في نعيم أهل الجنة

× مكتبة ابن غازي بمكناس

(34) رسالة في وصل الشعر

- (35) رسالة فى واجبات المكلف
- رسالة صغرى -
- (36) رسالة الى العربى وعبد السلام
ابن الطيب القادريين
- (37) رسالة الى المهدي الفاسى
- (38) * رسالة فى نصيح المومنين
- (39) * رسالة الى الصوفيين الحاج
على وأبى القاسم بن معمر
- (40) * رسالة لبعض الاخوان
تستعمل على نصائح دينية
- (41) شرح الطالع المنتشر - لم يكمل -
- (42) * تفريظ اللمعة الخطيرة فى
مسألة خلق أفعال العباد
الشهيرة للمهدي الفاسى
- (43) * رسالة صغيرة فى التصوف
سامها الناسخ مفتاح الوصول
- (44) * رسالة حول من لا يحسن
التحو والصرف هل يجوز له
أن يفسر القرآن ، وحكم الرقص
والغناء والتصفيق وضرب
الغربال الخ
- * مخطوط خ.ع 612 ج ، ضمن
مجموع (من ص 21 - 27) .
- ؟
- ؟
- مخطوط خ.ع 1138 ك ضمن مجموع
(من ص 1 - 31) وفى المجموع 612 ج
(من ورقة 1/ب - 1/15)
- نفس المجموع 1138 ك (من ص 32 - 39)
- مخطوطة خ.ع. 612 ج (من ورقة 42/أ -
44/ب) .
- ؟
- * مخطوطة خ.ع. 1234 ك (من 100 -
101)
- نفس المخطوط 612 ج (من ورقة
44/ب - 45/ب)
- نفس المخطوط 612 ج (من ورقة
46/أ - 48/ب)

* ذكرت هذا التفريظ - وان كان صغيرا غير فى أهمية - نظرا لكون الاستاذ يبرك
ألمنه فى جدولته . ولو تتبعنا آثار اليوسى من هذا النوع لآتيننا بالمئات .

نفس المخطوط 612 ج (من ورقة
١/56 - 57/ب)

(١٤) * **الواوية في الرسالة الآسفية**
وهي نصيحة الى من في غسر
أسمى وما حوله من الاخوان
والحبيب ختمها بقصيدة ضمنها
ملخص الرسالة وأمرهم بقراءتها
مطلعها :

عليكم بتقوى الله في السر والجهر
واخلاص ما تاتون من عمل البر

مخطوطة خ.ع. 612 ج (من ورقة
١/57 - 54/ب)

(١٥) * **رسالة في النصائح موجهة**
الى من بمكناسة الزيتون
وأعمالها

المكتبة الملكية بالرباط 1577

(١٦) * **وصية الامام اليوسى أوصى**
فيها أولاده واخوانه ، وحبس
كتبه على أبنائه وطلبة العلم

(ب) أحمد المقرئ

أبو العباس أحمد بن محمد بن أحمد المقرئ القرشي التلمساني ثم
عسى . العلامة الكبير الاديب البارخ والمؤلف الشهير ، صاحب كتاب **نفح
الطيب** ، و **أزهار الرياض** وغيرهما . كان أعجوبة الزمان في القدرة على الكتابة
سبعة النسخة ، وقرض الشعر المحلى بأنواع البديع . كما كان فقيها محدثا ،
قام مدة في الراوية الدلالية يدرس الحديث على محمد بن أبي بكر الدلائي
وكان هذا الشيخ يعجب بقوة حافظة المقرئ وسرعة ادراكه ، لكنه
كان ينفذ فيه الثبوت والتحري اللازمين في الرواية فيجرحه
عن طريق المحدثين ويقول عنه : « انه حافظ ضابط غير ثقة » . ولعل
ذلك من جنابة الادب على المقرئ ، فالادباء معروفون منذ القديم بالتساهل في
الرواية . والتزيد في النوادر والملح . الامر الذي يتنافى وطبيعة المحدثين
فذلك السند في قبول السند ، والدقة في نقل **متن الحديث** . ويؤيد هذه
النظرية ما ذكره أبو سالم العياشي في رحلته (91) من أن المقرئ كان اذا أفتى
بمرئولة فسل عنها مرة أخرى امتنع من الجواب ثانيا ، مخافة أن يكون في

الثانية ما يخالف الاولى . وما أرى ذلك الا نتيجة لتصرفه الكبير وعدم تقيده بمقررات الفقهاء المدونة ، حتى انه ليوشك أن يفتى فى النازلة الواحدة بحكمين مختلفين . وبالرغم من هذا الحكم القاسى الذى أصدره فى حقه الشيخ محمد ابن أبى بكر الدلائى وسارت بذكره الركبان ، فإن العلاقة ظلت طيبة بين الرجلين الى آخر حياتهما . وبقي ابن أبى بكر يثنى على المقرئ فى الدلاء ويشيد بقدرته العلمية وأدبه الرفيع ، والمقرئ بدوره يرسل أستاذه محمد بن أبى بكر الدلائى من الشرق ويبعث اليه بنسخ مما يؤلفه هناك من الكتب ، ويطرفه بالنسخة الاصلية لقصيدة العمامة التى كتبها بجوار القبر النبوى الشريف بالمدينة ، ويقول فى مطلع رسالة وجهها اليه من مصر عام 1041 هـ :

خلى ان جئت الدلا وجرى ذكرى لدى حضرة الشيخ الرضى ابن أبى بكر
نتيجة سر الاولياء محمد معرف كليات فضل بلا نكر
فاخبره أنى لم أحل عن وداده ولم يوهن البين الملم قوى صبرى
ثم يقول المقرئ فى أثناء الرسالة : « فأما الشوق الى بسيدى وولى فلا يستوفى وصفه القلم واللسان ، وحدث عن مسند أحمد بما شئت من طرق هى مع غرابتها حسان .. » (92) وقد وجه الشيخ محمد بن أبى بكر الدلائى الى المقرئ فى البلاد الشرقية أسئلة مختلفة من مهمات الاصول والفروع ، وطلب منه أن يكتب على كل واحدة منها ما ظهر له من موافقة أو مخالفة ليختبر مدى تقدمه فى العلوم الدينية « فقبلها المقرئ ووضعها على رأسه ، وعلم أن يومه بسببها خير من أمسه ، ثم كتب عليها ما ظهر له بقدر الامكان ، وأبرزها فى صورة تأليف حسن الوضع سماه : اعمال الذهن والفكر ، فى المسائل المتنوعة الاجناس ، الواردة من الشيخ سيدى محمد بن أبى بكر ، بركة الزمان وبقية الناس ، ووجهها الى شيخه بالزاوية البكرية فسر بها كثيرا » (93) .

وكان خروج المقرئ من فاس بسبب اتهامه بالميل الى قبيلة شراكة فى فسادها وبغيها أيام السلطان محمد الشيخ السعدى ، فارتحل الى الشرق عام 1017/1027 وحج مرارا وجاور فى المدينة المنورة مدة ، ألف فيها كتبا عديدة راعى الحديث بالحرمين الشريفيين . ودخل الى مصر والشام ونال فيها حظوة كبيرة ، وألف كتابه العجيب نفح الطيب ولكنه مع ذلك لم يصف له العيش اذ لقي عنتا كبيرا من بعض العلماء الشرقيين الذين نافسوه وشوشوا عليه . وكان المقرئ قد ترك زوجه وبنته وكتبه بفاس ، وظل قلبه معلقا بذلك ، فأسرع

(92) انظر النص الكامل لهذه الرسالة فى ملحق رقم 8

(93) سليمان الحوات ، البدور الضاوية ، انظر فيه هذا التوليف بتمامه من ورقة 64 الى ورقة 71

إليه الهرم واشتعل رأسه شيبا . وفي محاضرات اليوسى : « حدثني الرئيس
الأجل أبو عبد الله محمد الحاج بن محمد أبى بكر الدلائى رحمه الله قال :
لما نزلنا فى طلعتنا الى الحجاز بمصر المحروسة خرج للقائنا الفقيه النبيه أبو
العباس أحمد بن محمد المقرئ قال : وكنت أعرفه عند والدى لم يشب ، فوجدته
قد شاب . فقلت له : شبت يا سيدى ! فاستضحك ثم قال :

شيبتنى غر ندر وفجار
وبجار فيها اللبيب يحار» (94)
توفى أحمد المقرئ فى مصر عام 1041/1632 (95) .

جدول مؤلفات المقرئ

اسم الكتاب المكتبات التى يوجد فيها

فى التاريخ والتراجم

طبع بمصر مرارا . وآخر طبعة لهذا
الكتاب ظهرت عام 1367/1949 فى 10
مجلدات .

(مطبعة السعادة بمصر)

طُبعت منه ثلاثة أجزاء فقط بمطبعة
لجنة التأليف والترجمة والنشر
بالقاهرة عام 1358/1939 .
ضمن مطبوعات المعهد الخليفى للأبحاث
المغربية وتوجد نسخة خطية تامة لهذا
الكتاب فى الخزانة العامة بالرباط
229 ك فى سفرين ضخمين . كما توجد فى
الخزانة الملكية بالرباط ، بخط المؤلف
وبها بتر .

(1) نفع الطيب ، من غصن الاندلس
الطيب وذكر وزيرها لسان
الدين بن الخطيب

(2) أزهار الرياض فى أخبار عياض

(94) الحسن اليوسى ، المحاضرات ، ص 58 . والغرندر مشكولة فى احدى النسخ الخطية بضم
الفين وفتح الراء والبدال وسكون النون . وفى متن اللغة : اغرندها واغرندى عليه :
غلاء بالشتم والضرب والقهر . والفجار (بكسر الفاء) الطرق الواسعة بين جبلين .
(95) ترجم للمقرئ ، محمد الافرانى فى الصفوة ص 72 وما بعدها . ومحمد القادري فى نشر
الثانى ، 157:1 - 160 . والمجيب فى خلاصة الاثر فى اعيان القرن الحادى عشر .
ج 1 ص 302 وما بعدها . وقد ألف حبيب الجنتحاني من تونس كتابا فى ترجمة المقرئ

- | | |
|--|--|
| <p>تبتدىء أثناء ترجمة أحمد المنصور
الذهبي . وقد طبعت بالمطبعة الملكية
بالبطاط عام 1383/1964 .</p> <p>ذكره المحبى فى خلاصة الاثر I : 303</p> <p>ذكره صاحب كتاب كشف الظنون
I : 106 .</p> | <p>(3) روضة الآس ، العطرة الانفاس
فى ذكر من لقيته من اعلام
الحضرتين مراکش وقاس</p> <p>(4) عرف النشق ، من أخبار دمشق</p> <p>(5) شرح مقدمة ابن خلدون</p> |
|--|--|

فى التوحيد

- | | |
|---|--|
| <p>ذكرها المحبى فى خلاصة الاثر I : 303</p> <p>طبعت فى مصر بمطبعة محمد أفندى
مصطفى عام 1304 هـ بهامش شرح
الشيخ عديش للعقيدة السنوية .
وتوجد منها نسخة خطية فى الخزانة
العامة بالرباط 2742 ك .</p> <p>الخزانة الملكية بالرباط 3544 و 5928</p> | <p>(6) حاشية على شرح أم البراهين
للشيخ السنوسى</p> <p>(7) اضاءة الدجنة ، بعقائد أهل
السنة
وهى عقيدة نظمها من بحر
الرجز ودرسها فى الحرمين
الشريفين وسائر بلاد المشرق
التي زارها . وانتسخت منها
فى حياة المؤلف نحو ألفى
نسخة (96)</p> <p>(8) اتعاف المغرم المغرى فى شرح
الصفري للشيخ السنوسى</p> |
|---|--|

فى الفقه

- | | |
|---|--|
| <p>ذكره المحبى فى خلاصة الاثر I : 303</p> | <p>(9) قطاف المهتصر فى شرح المختصر
ومعى حاشية على مختصر
الشيخ خليل</p> |
|---|--|

(96) لما زار محمد الحاج مصر عام 1040/1630 أعطاه المقرئ نسخة من هذه العقيدة بخطه .
فكانت النسخة الاصلية فى المغرب ، وعنها أخذ الناس جميعا (أنظر الدرر التهيئ
لحمد مباركة ج 1 ، ص 82)

توجد ضمن كتاب البدور الضاوية
بالخزائفة العامة بالرباط من ورقة
1/64 الى ورقة 71/ب .

اعمال الذهن والفكر ، في المسائل
المتنوعة الاجناس ، الواردة من
الشيخ سيدى محمد بن أبى
بكر ، بركة الزمان وبقية
الناس .

فى السيرة النبوية

توجد منه عدة نسخ خطية فى الخزائفة
العامة بالرباط ، أحسنها فى المخطوط
565 ج وهو مطبوع بالهند

فتح المتعال ، فى مدح النعال
وهو كتاب جمع فيه ما ورد فى
النعال الشريفة من الاحاديث
النبوية ، وتوسع فى الشرح
والاستقصاء .

نفس المخطوط السابق 565 ج - فى
الاخير -

رجز فى النعال الشريفة

كان المقرئ قد جعل هذا الرجز
خاتمة لكتابه السابق : فتح
المتعال ثم أفرد فى نسخة بعث
بها الى الشيخ محمد بن أبى
بكر الدلائى ، فانتشرت فى
المغرب .

مخطوط خ.ع 984 د ضمن مجموع
(من ورقة 99/ب الى ورقة 106/د)

ازهار الكمامة فى شرف العمامة

وهو رجز فى موضوع العمامة
النبوية ارسل المقرئ النسخة
التي كتبها فى المدينة المنورة
الى الشيخ محمد بن أبى بكر
الدلائى . ويشتمل هذا الرجز
على نحو 320 بيتا . ومطلعه :

قال الفقير المقرئ المرتجى
دخول باب العفو غير المرتجى
حمدا لمولى شرف العمامة
يلبس من ظلل بالعمامة

(14) الدر الثمين فى أسماء الهادى | ذكره المحبى فى خلاصة الاثر I : 303
الامين

فى علم الجدول وسر الاسماء

(15) نيل المرام المغتبط لطالب
المخمس الخالى الوسط
وهو رجز فى علم الوقف وسر
الاسماء مطلعته :
أحمد من وفقنا وأفهمنا
ما لم نكن نعلمه وألهمنا

مواضيع مختلفة

(16) البداية والنشأة
وهو كتاب مملوء أدبا ونظما
(17) الفث والسمين ، والرث والتمين

ج) العربى الفاسى

أبو حامد محمد العربى بن الشيخ أبى المحاسن يوسف الفاسى ، المؤرخ
الاديب ، العلامة المشارك ، مؤلف كتاب **مرآة المحاسن** ، يمتاز بالجرأة النادرة
فى الحق ، والدعوة الى الدفاع عن حوزة الوطن . وهو الذى أفتى بوجوب
الجهاد لطرد المحتلين الاجانب من الثغور ولو مع عدم وجود الامام ، تأييدا
للمجاهد العياشى السملوى . ومما ورد فى هذه الفتوى الطويلة قوله : « ولا
يتوهم متوهم أن ترك هدايت المسلمين فى أيدي الكفرة يدل على عدم الوجوب ،
لان ذلك من تقصير الملوك ، وهم بذلك فى محل العصيان ، لا فى محل الاقتداء
بهم والاستئذان ، ولا فرق فى الحكم بين ما أدركنا من أخذه كالعرائش والمعمورة
وان كانت غير معمورة ، وبين ما لم ندركه كسبته وطنجة (97) ، لان الوجوب
متعلق بالمسلمين لا بغيرهم زمان ولا مكان . » (98)

وكانت حادثة تسليم العرائش للاسبانيين على يد الشيخ الماعون السعدى
طعنا منه فى نصرة طاغية النصارى ومساعدته له على استخلاص الملك من يد

197 كان استيلاء الاسبانيين على سبتة عام 1416/819م ، وعلى طنجة عام 1437/841 وعلى

المعمورة عام 1515/921 ، وعلى العرائش عام 1610/1019 .

198 عبد العزيز الزياتى ، الجواهر المختارة مما وقفت عليه من النوازل بجهال غمارة 121:2/ب

أخيه زيدان ، وما ترتب عن ذلك من استفتاء المامون علماء فاس لتبرير فعلته
الشنيعية مدعيا اضطراره لافتداء أولاده وحشمه المرهونين في بلاد العدو بهذا
الشفر الاسلامي ، كانت هذه الحادثة سببا في خروج أبي حامد الفاسي وأخيه
الحافظ أحمد من فاس فرارا بدينهما ، وامتناعا من ممالاة ذلك الامير الضال
على فساده وبغيه ، وقصدا قبيلة مصمودة بناحية وزان ، حيث توفي الامام
أحمد الفاسي هناك بعد نحو سنة من خروجهما (99) ، وبقي أبو حامد متنقلا
في البوادي ، وكان أكثر اقامته في هذه الفترة بالزاوية الدلائية ، حيث أخذ
عن الشيخ محمد بن أبي بكر الدلائي ، وسمع منه **صحيح البخاري** ، وتصدر
للتدريس فتتلمذ له أكثر علماء الدلاء ، وأجاز منهم الشرفي بن أبي بكر
الدلائي ، وأخاه أحمد الحارثي وغيرهما . وقد ذكر العربي الفاسي في آخر
كتابه **مرآة المحاسن** محمد بن أبي بكر الدلائي في جملة شيوخه وخصص له
ترجمة حافلة قائلا عنه : «عالم حافظ دراك ، خاتمة مشايخ المغرب انتهت اليه
رياسة الدين والدنيا ، واستقل بسلطة الامور الجليلة والرتب العليا» (100) .
وكانت تطوان خاتمة مطاف أبي حامد ، وبها توفي عام 1042/1052 (101)

د) علماء آخرون تخرجوا في الزاوية الدلائية

الاخوان العكاريان

الاخوان العكاريان محمد وعلي درسا معا بالزاوية الدلائية وتخرجوا فيها
على يد الامام أبي علي اليوسفي وغيره ، ثم قصدا مدينة فاس واشتغلا فيها
بالتدريس مدة . وأخيرا رجع محمد العكاري الى مسقط رأسه بمراكش وأقام
بها الى أن توفي ، بينما قصد أخوه علي العدوتين واستقر بهما الى أن وافاه
الاجل بمدينة الرباط . هذا ما اتفق عليه كل من تعرض لخبر هذين الشيخين ،
خصوصا أبا الحسن العكاري الحفيد في كتابه **البدور الضاوية في ذكر الشيخ**
واصحابه وبناء الزاوية الذي ترجم فيه لجده علي العكاري صاحب الضريح
المشهور في الرباط . لكن المؤرخ عبد الرحمن بن زيدان صاحب **اتحاف اعلام**
الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس جعل الرباطي من الاخوين العكاريين هو

(99) كان خروج الاخوين أحمد وأبي حامد من فاس صبيحة يوم السبت السابع عشر من صفر
عام 1611/0120 كما ذكره في **مرآة المحاسن** ، ص 55 . وتوفي الحافظ أحمد الفاسي
عام 1612/1021 .

(100) العربي الفاسي ، **مرآة المحاسن** ، ص 225 وما بعدها .
(101) ارجع في ترجمة العربي الفاسي الى : محمد القادري : **نشر الثاني** ، 1 : 180 - 183
السلطان سليمان العلوي ، **عناية اولي الجدد** ، ص 29 - 32 . محمد بن جعفر الكتاني ،
السيرة ، 2 : 313 - 315 .

محمد (102) ونسب اليه كثيرا مما ذكره الناس لآخيه علي ، معبرا عن مؤلف
البدور الضاوية المذكور بأنه حفيده ، ناقلا عنه بالنص فقرة طويلة لم أجدها
في النسختين المحفوظتين بقسم الوثائق من الخزانة العامة بالرباط (رقم 88د
و 2392ك) وإن كانت بعض الاخبار التي يتحدث عنها النص المنقول موجودة في
النسختين المذكورتين بعبارة أخرى . لذلك نساءل : هل هناك كتابان في
مناقب شيخ الرباط العكاري ؟ أم ان الامر يتعلق بنسخ مختلفة لكتاب واحد ؟
ويرجح الاحتمال الثاني لما ذكره المؤرخ الرباطي محمد بوجندار في كتاب
الاعتباط من أن النسخ الموجودة من **البدور الضاوية** كلها مبتورة من الاوائل
والاواخر والاثناء ، وأنها وقعت أولا في يد الفقيه الحاج محمد بن الغازي
الرباطي فلفق ما عثر عليه منها وأنشأ لها خطبة وخرجها بعد التنبيه على ما بها
من البتر (103) ولعل الخزانة الزيدانية تحتوي على نسخة سالمة من ذلك البتر
كله أو بعضه . غير ان تسمية شيخ الرباط محمدا العكاري سبق قلم لا يحتمل
الشك ولا يقبل الجدل ، اذ المتواتر عند الناس خلافه ، والقصائد الكثيرة
التي قيلت في رثاء شيخ الرباط تكتيه أبا الحسن أو تسميه عليا .

... فغدا مع الشيخ الشريف أبي حسن علي أوحده العصر
وفي مرثية الاديب أحمد بن محمد عمور القاسي :

... ذخري أبو الحسن الشريف أخو الافضال والاكرام ذو العزم
والخلط واقع كذلك لامحالة عند المؤرخ ابن زيدان في قوله أن أبا
الحسن العكاري مؤلف **البدور الضاوية** هو حفيد الشيخ محمد العكاري ، مع
أن ترجمة العكاري الحفيد معروفة بخلاف ذلك ، بل نجده هو نفسه يترجم في
كتابه **البدور الضاوية** لوالده محمد ، ولجده علي . ويذكر محمدا العكاري دفين
مراكش على أنه أخو جده . وقد عد ابن زيدان من تلاميذ العكاري الرباطي
القاضي عبد الله بناني وأحمد عاشور ، مع أن الاول اتصلت حياته الى حدود
عام 1220/5 - 1806 والثاني الى حوالى عام 1250/34 - 1835 . والثابت في
كتب التراجم أن الشيخ عبد السلام بناني جد القاضي عبد الله بناني هذا هو
الذي أخذ عن الشيخ علي العكاري بالرباط .

والعكاري المراكشي هو أبو عبد الله محمد بن محمد بن علي الشريف
الحسني كان أدبيا خطيبا مصقعا ، استقر بالزاوية الدلائية طالبا للعلم مدة

(102) عبد الرحمن بن زيدان ، **الاتعاف** ، ج 1 ، ص 340 .

(103) محمد بوجندار ، **الاعتباط** ، ورقة 239/1 .

طويلة . ساكننا مع رفيقه ابن عبد الرحمن الصومعي في بيت واحد من بيوت مدارسها . ولما لحق به أخوه علي من مراكش ليدرس كذلك بالزاوية أقام معهما في نفس البيت . وقد حضر محمد العكاري مجالس الدلائيين في مختلف الفنون ، ولازم دروس الشيخ الحسن اليوسي أخذاً عنه النحو والبيان والمنطق والفقه والاصول والتوحيد الى أن نال منه اجازة عامة . ولما حصل على ملكة علمية أخذ يدرس بالزاوية الدلائية للمبتدئين من الطلاب ، وكان من جملة الآخذين عنه فيها رفيقه محمد بن عبد الرحمن الصومعي .

وبعد تخريب الزاوية الدلائية توجه محمد العكاري الى فاس ، وأقام بها مدة يطلب العلم ، وأجازته الشيخ عبد القادر الفاسي اجازة عامة قبل أن يرجع الى مسقط رأسه بمراكش . لكنه لم يستقر به المقام طويلاً حتى ورد عليه كتاب السلطان اسماعيل يأمره بالقسودم الى مكناس ليكون امامه في الصلوات ، وخطيب الجمعة والاعياد في المسجد الكائن داخل القصبة السلطانية ؛ فاستقر محمد العكاري بالعاصمة الاسماعيلية مدة اشتغل فيها علاوة على الامامة والخطبة بالتدريس وافادة الطلاب ، وتخرج على يده عدد كبير منهم . وقد ابتلى هذا العالم في اواخر حياته بالمرض المعروف (بالضيقة) فطلب من السلطان أن يأذن له في الرجوع الى مراكش «فأعفاه وتركه بعد أن كتب له عهداً كبيراً بديعاً باحترام جميع من هو في جواره ، وتوقيعهم ومحاشاتهم» (104) وألح المرض على الشيخ العكاري في مراكش ، الى أن توفى ، ودفن بترربة جده الامام الشيخ التركي ، اذ هي مقبرة آل العكاري بمراكش . ولم يذكر له حفيد أخيه ولا غيره ممن ترجم له تاريخ وفاة . ولعله هو الذي توفي عام 81/1092 - 1682 لا أخوه شيخ الرباط علي ما ذكره ابن زيدان في **الاتحاف** نقلاً عن كناشة الوزير اليعمدي (105) .

وأما العكاري الرباطي فهو أبو الحسن علي بن محمد بن علي الحسني ، العلامة المشارك المدرس النفاع ، ورد الزاوية البكرية طالباً للعلم بعد أن صحب الشيخ محمد بن عبد الله السوسي وأخذ عنه طريقة التصوف في مراكش فكان مع أخيه في البيت فاذا هو بحالة أخرى من التحري ومجاهدة النفس

104 علي العكاري الحفيد ، **البدور الضاوية** ، ص 108 .

105 اليعمدي هو العلامة محمد بن أحمد وزير السلطان اسماعيل وأمين مكتبته . له كناشة علمية هامة في 10 مجلدات بالخزانة الزيدانية بمكناس ، وفي الخزانة العامة بالرباط نسخة في مجلدين ضخمين بخط دقيق تحت عدد 5330 .
انظر ترجمة محمد العكاري في : علي العكاري ، **البدور الضاوية** ، في صفحات متفرقة وعباس بن ابراهيم ، **الاعلام** ، ج 4 ص 363 . وأحمد الولاى ، **مباحث الانوار** ، في صفحات متفرقة .

والوقوف على الحدود ، فكان لا يفتاب أحد بين يديه ومع ذلك فهو يشاركنا في أخذ العلوم الآلية عن الشيخ ابن مسعود مثل البيان والمنطق وأصول الفقه وغيرها كالفقه وأصول الدين» (106) وكان ذكيا حسن الإدراك لا يحفظ القرآن الكريم ولا المتن ، خلافا لما كان شائعا في ذلك الوقت من تغلب الحفظ على الفهم ، فكان رفاقه الطلبة يتعجبون من حسن تحصيله بالرغم من عدم امعانه النظر في الشروح والحواشي ، خصوصا وقد كان يدرس معهم كتباً صعبة مثل **جمع الجوامع** في الاصول بشرح جلال الدين المحلي ، فيطالعه مرة واحدة قبل حضور المجلس ويكفيه ذلك لتفهم الموضوع والاحاطة به . وقد أجازاه مع أخيه محمد المتقدم الامام الحسن اليوسى اجازة عامة ، ذكر فيها أنهما لازما دروسه في مختلف الفنون . كما أجازهما الشيخ عبد القادر الفاسى (107) وبعد تخريب الزاوية الدلائية قصد على العكارى مدينة فاس واشتغل بالتدريس فيها . ويحدثنا القاضى أبو عثمان سعيد العميرى المكناسى (108) عن هذه الفترة من حياة على العكارى بقوله : «لما دخل الشيخ على العكارى حضرة فاس حين قفل من الزاوية الدلائية ، والعلماء اذ ذاك متوافرين بها غاية ، وكنت حينئذ بالحضرة المذكورة بصدد تحصيل العلم ، شرع يدرس **كبرى الامام السنوسى** (109) بجامع القرويين منها . فسمع بذلك فقهاء الحضرة وكان هذا الكتاب من أجل ما يتنافس فيه المتنافسون ، فاجتمعت جماعة من الفقهاء ، وجئنا قاصدين مجلسه لننظر قراءته ونختبر حاله ، بقصد الانتقاد عليه والامتحان له ، فحضرنا مجلسه بهذه النية ، فألفيناه جالسا وقد غص عليه المجلس بالطلبة ، وضربوا عليه حلقة عظيمة حافلة ، وهو يدرس بصوت فصيح جدير ، وشاشيته مائلة لاحد شقى رأسه اشارة الى تمهره ، وعدم اكترائه

(106) أحمد بن يعقوب الولاى - مباحث الانوار ، ورقة 1/7

(107) أنظر نص اجازة الامامين الحسن اليوسى وعبد القادر الفاسى للاخوين العكاريين فى : على العكارى ، **البدور الضاوية** ، ص 2 - 5

(108) سعيد بن أبى القاسم العميرى - بفتح العين وكسر الميم نسبة الى بنى عمير قرب تادلا المشهورين - كان آية فى النحو والبيان ، اختاره السلطان اسماعيل للتدريس بحضرته وولاه قضاء عاصمته . وجعل له الشورى فى مهماته ، فكان له بذلك نفوذ كبير فى البلاط الاسماعيلية بمكناس ، حتى كان يعبر عنه بعض معاصريه بالوزير ، أخذ العميرى عن الشيخ على العكارى والحسن اليوسى وطبقتهما ، وتوفى بمكناس عام 1718/1131 .

(109) الامام السنوسى هو محمد بن يوسف عالم تلمسان وامامها الكبير ، صاحب **العقائد الكبرى** و **الوسطى** و **الصغرى** و **صغرى الصغرى** ، وصاحب الحواشى على صحيح مسلم توفى بتلمسان عام 895/89 - 1490 .

بمنتقد عليه ، لمعرفة لاحكام الفن المذكور ، وكأنه تحدى بذلك الكتاب
أن ذلك ... (110)

وبعد ذلك توجه على العكاري الى مدينة سلا ، وأقام فيها يدرس العلم
بمسجدها الاعظم ، وأخذ عنه كثير من أعلامها ، كالقاضي أبي عبد الله محمد
المنصوري السوسي (111) والقاضي أبي عبد الله محمد زنيبر (112) والفقيه
أبي محمد عبد الله الجزاز بن أحمد حجي (113) . والعلامة أحمد بن عاشر
الحافي (114) والاديب محمد ملاح (115) . وكان الامير عبد الواحد بن السلطان
اسماعيل (116) ساكنا بالرباط ، فلما سمع بالشيخ على العكاري قصده بسلا
للاخذ عنه ، ثم طلب منه أن ينتقل الى العدوّة الاخرى ، فلبى الشيخ طلبه ،
ونزل معه بداره في رباط الفتح ، وبدأ يلقي دروسه في ضريح أبي العباس
أحمد بن موسى العايدى (117) تارة وفي المسجد الاعظم تارة أخرى ، وكان

- (110) على العكاري الحفيد ، البدور الضاوية ، ص 7 .
(111) محمد المنصوري السوسي قاضي سلا والمحلة البخارية . له شرح على مختصر السنوسي
في المنطق ، وشرح على كبراه ، وحواشي على العقيدة الكبرى للسنوسي أيضا . توفي
عام 1729/1142 ودفن بزاوية سيدي مغيث في حي الطالعة بسلا .
(112) أبو عبد الله محمد زنيبر المحدث الاديب قاضي سلا . صاحب شرح همزية البوصيري
وقعت له محنة مع عامل سلا عبد الحق فنيش فهاجر مدة الى الرباط . كان حيا عام
1752/1165 وقبره في سلا معروف بالقرب من ضريح الشيخ أحمد بن عاشر ، أنظر
ترجمته في : محمد بن علي الدكالي ، الاتحاف الوجيز ، ص 105 .
(113) عبد الله الجزاز حجي اشتهر بالعلم والنسك ، وكان من أخص تلاميذه الشيخ على العكاري
وأحبهم اليه ، لازمة حتى بعد انتقاله الى السكنى بالعدوّة الاخرى فكان يحضر معه
صلاة الجمعة في الرباط ولا تفوته مجالسه العلمية فيه . توفي عام 1710/1122 .
(114) أبو العباس أحمد بن محمد بن عاشر بن عبد الرحمن الحافي السللاوي صاحب الفهرست
التي ذكر فيها علماء عصره ، ومؤلف تحفة الزائر في ترجمة فخر سلا ابن عاشر انفي
عرف فيه بالشيخ أحمد بن عاشر الجزيري السللاوي . وتوفي أحمد الحافي بسلا
عام 1750 - 49/1163 .
(115) أبو عبد الله محمد ملاح السللاوي . قال عنه أبو الحسن العكاري الحفيد مؤلف البدور
الضاوية انه كان يعبر النهر كل يوم ليحضر مجالس الشيخ على العكاري بالرباط ،
وقد وقف له على قصائد رائقة بليغة . وكتب بعضهم في الهامش انه عاش الى حدود
عام 1762 - 61/1175 .
(116) الامير عبد الواحد بن السلطان اسماعيل العلوي ، أمه عربية من قبيلة بني مالك الشهيرة
بضواحي سوق أربعاء الغرب . وهي قبيلة المجاهد محمد العياشي السللاوي ولعل لذلك
علاقة باقامة الامير بالعدوّة ولم ألق على تزيين وفاته .
(117) يوجد هذا الضريح بحي السوقية بالرباط قرب مسجد مولاي سليمان بينهما طريق
ممتدة بين (البويبة) وسيدي قايح .

يحضر هذه المجالس العلمية علماء العدوتين ، كابنه محمد العكاري (118) وأبي العباس أحمد والزهره (119) وعامل الرباط أحمد حجي مرينو الاندلسي (120) وأخيه القاضي محمد مرينو (121) وأبي عبد الله محمد الزبدي (122) والحافظ أحمد بن عبد الله الغربي (123) وقد لقي الشيخ على العكاري السلطان اسماعيل وتحادث معه طويلا . وتختلف الروايات في مكان هذا اللقاء وكيفيته . فيروي أبو الحسن العكاري الحفيد - على ما ورد في نسخة الخزنة العامة بالرباط - عن الفقيه أبي يعزى بن محمد المسطاسي السلاوي تلميذ الشيخ على أن الملاقاة كانت بمدينة مكناس وزاد قائلا : «... وأنا حاضر واقف خلف الشيخ اذ ذاك ، فحين تلاقى بالملك خضع له الملك وأهوى ليد الشيخ يريد تقبيلها ، فقال له الشيخ : لا تفعل وقل السلام عليكم . فطلب منه الدعاء بأن قال له : يا سيدي على ادع الله لي . الله يجعلني عبدا مخلصا لله . فقال له عند ذلك : اللهم آمين . الله يجعلك يامولاي عبدا مخلصا لله . وفرح الملك بذلك فرحا شديدا ، وعظمه غاية التعظيم وقال له : أردناك أن تكون امامنا في هذا المسجد ، وكان اذ ذاك يبنى مسجد الانوار (124) بمكناسة دار مملكته . فقال له الشيخ رضي الله عنه : حتى يتم المسجد بالبناء ان شاء الله ولا يكون الا ما يحب السلطان ... (125)

- (118) محمد بن علي العكاري العلامة المشارك لم يقرأ الا على والده . وكتب من املاء والده تعاليم قيمة على مختصر الشيخ خليل . و الفية ابن مالك . و كبرى السنوسى . و سلم الاخضرى وغير ذلك ، وتصدر بعد والده للتدريس والافتاء بالرباط . لم آقف على تاريخ وفاته
- (119) أبو العباس أحمد بن يحيى والزهره . عالم مشارك أجازته الشيخ العكاري اجازة عامة . وكان جده من وجهاء الاندلسيين أهل الحل والعقد بالرباط أواخر الدولة السعيدية . توفى بعد عام 1698/1110 في سفره الى الحج بعد أداء الفريضة
- (120) أبو العباس أحمد حجي الاندلسي الاديب الشاعر الوشاح . كان يسرد صحيح البخارى على الشيخ العكاري بالمسجد الاعظم بالرباط . مات بعد عام 1722/1135 .
- (121) محمد مرينو قاضي الرباط أخذ عن الامام المستاوي الدلائي في فاس ثم عن الشيخ العكاري بالرباط . وقد خلف اخاه أحمد في سرد صحيح البخارى بين يدي الشيخ العكاري . توفى بعد عام 1730/1143
- (122) محمد بن الحاج ابراهيم الزبدي الاندلسي أحد فقهاء الرباط المتخرجين على يد الشيخ العكاري ومن اكبر خواصه . ترجم له محمد بوجنداز في الاغبياط ورقة 57 ولم يذكر تاريخ وفاته
- (123) الحافظ أحمد بن عبد الله الغربي العلامة الرحالة الدائع الصيت بالمغرب والمشرق توفى عام 1764/1178 ودفن بالزاوية المنسوبة اليه قرب ضريح مولاي ابراهيم بمدينة الرباط
- (124) مسجد الانوار بمكناس هو المعروف اليوم بمسجد سوق السباط . انظر اخباره في الانصاف 1 : 162
- (125) على العكاري الحفيد ، البدور الضاوية ، ص 44

ويذكر ابن زيدان في كتاب **الاتحاف** أن اللقاء بين السلطان اسماعيل والشيخ العكاري كان في المسجد الاعظم بالرباط ، وذلك - على ما يظهر - من جملة النص الذي نقله عن **البدور الضاوية** ، قال : «... ثم ورد السلطان الاعظم مولانا اسماعيل على رباط الفتح ولما التقى به نجله المولى عبد الواحد المذكور حدثه بحال الشيخ المترجم ومناقبه وفضائله ومحاسنه . فقال له : لا بد لي أن ألتقي معه في هذا اليوم وأخذ عنه الطريقة الشاذلية تبركا . فركب السلطان وولده ، فوجدوا المترجم بالجامع الاعظم يسرد **صحيح الامام البخاري** ، وكان السارد لديه الفقيه العلامة القاضي سيدي عبد الله بناني الاندلسي (126) ولما دخل السلطان صلي تحية المسجد وجلس لاستماع الحديث والشيخ لم ينظر اليه . ولما تم الدرس نظر الشيخ الى القاضي وقال له : اختتم الفاتحة فقال له حاشا معاذ الله والسلطان ينظر بعينه . ولما قام من مجلسه جذب به السلطان وعانقه وجلس بازائه وقال له عظمي يا ولي الله . وتذاكروا ساعة زمانية وافترقوا (127) .

ويذكر ابن زيدان بعد ذلك أن الشيخ العكاري لما رجع الى داره بعد هذه المقابلة وجد بها مالا كثيرا أهدها اليه السلطان اسماعيل ، فبعث الى تلميذه أبي عبد الله الزبدي وقال له : خذ هذا المال وافعل به ما شئت . فاشتري الزبدي للشيخ دارا كبرى بدرب البروزي من حومة السويقة (128) مجاورة للدار الصغرى التي كان يسكنها ودفن فيها بعد مماته . ولم ينفصل السلطان عن الرباط ويتوجه الى سجلماسة - حسب رواية ابن زيدان - الا بعد أن صحب معه الشيخ العكاري وعشرة من تلاميذه من فقهاء العدوتين وذلك ليؤم به في الصلوات الخمس ويختم معه صحيح البخاري ، ويتبرك به أنجال السلطان في تافيلالت .

ولما استرد السلطان اسماعيل مدينة المهدية من يد الاسبان عام 1092 / 1681 وكان قد شارك في هذا الفتح كثير من المجاهدين السلاويين ، منهم الشيخ أحمد حجي رفيق الشيخ علي العكاري وصديقه الحميم ، طلب السلاويون من السلطان اسماعيل أن يأذن برجوع الشيخ علي العكاري الى مدينتهم فوافقهم

(126) لا يوجد اسم عبد الله بناني من بين تلاميذ الشيخ علي العكاري في نسخة **البدور الضاوية** لخطوة بخزانة الرباط ، ولم يترجم بوجندار في **الاعتباط** الا للقاضي عبد الله بن محمد بن عبد السلام بناني المتوفى في حدود العشرين من القرن الثالث عشر الهجري وقال ان جده قدم من فاس الى الرباط لتشر العلم بأمر من السلطان اسماعيل

(127) عبد الرحمن بن زيدان ، **اتحاف اعلام الناس** ، ج 4 ، ص 96

(128) ما يزال حمة الشيخ علي العكاري يسكنون هذه الدار بركة سيدي عبو يحيى السويقة في الرباط ، وهي تنصل بطريق الشيخ العكاري بواسطة مرصفي (خراجه) موجود حتى اليوم

على ذلك وعاد العكاري من جديد الى سلا ، وسار فيها سيرته الاولى من تدريس العلم بمسجدها الاعظم وأقبل عليه طلبتها وعلمائها اقبالا كبيرا . ولا ندرى المدة التي قضاها الشيخ على العكاري في هذه الاقامة الثانية بسلا ، ولعلها لم تطل اذ كانت للشيخ تعلقات كثيرة بالعدوة الاخرى ، لاسيما وهو يمتلك هناك دارين صغيري وكبرى كما رأينا . فرجع الى الرباط وقضى بها آخر أيامه في حالة مرضية من النسك والعبادة ، ونشر العلم وتعميم الافادة ، الى أن توفى عام 1706/1118 (129) .

محمد بن عبد الرحمن الصومعي

أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن الزمراني التادلي الصومعي ، نسبة الى قرية الصومعة الشهيرة بتادلا (130) العلامة المشارك ، الورع الصالح ، صاحب شرح سمينية ابن باديس (131) وشرح همزية البوصيري (132) . مكث مدة طويلة في الزاوية الدلائية مقيما في غرفة من غرف مدارسها مع الاخوين العكاريين المتقدمين . وكان يلزم مجالس الشيخ أبي علي اليوسفي وغيره ، ثم

(129) جعل ابن زيدان وفاة الشيخ العكاري الرباطي عام 81/1092 - 1682 نقلا عن كناشنة الوزير اليمهدي . وهذا من ذيول الخلط بين الاخوين العكاريين وربما كان المتوفى في هذا التاريخ هو محمد العكاري دفين مراكش ، اذ هو أكبر من علي سنا ، فيناسب عادة أن تتقدم وفاته عليه ، كما انه هو الذي يستأثر باهتمام الوزير اليمهدي أكثر مادام قد عاش واياه في بلاط السلطان اسماعيل اماما وخطيبا كما تقدم في ترجمته (130) ما تزال قرية الصومعة قائمة حتى اليوم متصلة بمدينة بني ملال . وقد ألجبت كثيرا من العلماء مثل عبد الرحمن بن اسماعيل الصومعي صاحب التشوف في رجال السادات أهل التشوف المعروف بالتشوف الصغير . وأحمد بن أبي القاسم الصومعي شيخ زاوية الصومعة أيام ازدهار الزاوية الدلائية . وهو الذي أجاز المقرئ صاحب نفع الطيب وأخرج له سئين مجلدا كلها من تصنيفه ، وكانت له خزانة علمية تحتوي على 1080 مجلدا . توفى عام 1604/1013 .

(131) أبو الحسن بن أبي القاسم بن حسن بن باديس القسطنطيني ، صاحب النفحات القدسية وهي قصيدة سينية مظهرها :

الأصل الى بغداد فهي هنا النفس . وحدث بها عن نوي باطن الرمس
ذكر فيها الشيخ عبد القادر الجلاني وأشهر تلاميذه وجعل لها شرحا سماه **اللمحات الانسية** وقال محمد القادري في نشر المثاني (108:2) انه وقف على شرح الصومعي لهذه الستية وهو شرح عجيب جمع فيه بين الاختصار والتحقيق ، وتوفى ابن باديس عام 1385/787 م

(132) شرف الدين محمد بن سعيد البوصيري المصري المتوفى عام 696هـ - 1296 . له قصيدتان شهيرتان في مدح الرسول الكريم احدهما ميمية وتعرف **بالبردة** والاخرى **همزية** ومظهرها:
كيف ترقى رقيبك الانبياء يا سماء ما طاولتها سماء
ولها شروح كثيرة . ويمتاز شرح الصومعي بعدم الاطالة والاستطراد ، والاقتصار على ما لا بد منه لتحليل الايات ومعركة ما تشير اليه من احداث في السيرة النبوية الكريمة . ويوجد هذا الشرح في قسم المخطوطات بخزانة العامة بالرباط تحت عدد 232/ك . ضمن مجموع

انقطع مدة عن دروسه للالتحاق بمراكش من أجل الاتصال بالشيخ الصوفي محمد بن عبد الله السوسى وسلوك طريق القوم على يده . فاعتم اليوسى لسفره اذ كان يرى فيه استعدادا كبيرا للاستفادة من دروسه ويعدده من أنجب طلابه الذين يتوسم فيهم الاهلية لتحمل الامانة العلمية . ولم تطل غيبة الصومعى فى مراكش ، فخرج منها مع شيخه ابن عبد الله السوسى راجعا الى الزاوية الدلائية عام 1071/1660 وانقطع من جديد الى دروس الامام اليوسى وغيره من العلماء الدلائيين ، الى أن تخرج عالما كبيرا ، ومصلحا ناصحا . ورجع الصومعى بعد حادثة تخريب زاوية الدلاء ، الى مستقط رأسه فى تادلا وأقبل هناك على نشر العلم بين طلبة قبيلته وغيرهم من أبناء الاقليم التادلى ، وتكاثر الآخذون عنه فيها ، وأجمع الناس على محبته وتعظيمه . وصلحت أحوالهم بارشاده ، ثم صحب الشيخ الصوفى أحمد بن عبد الله صاحب زاوية المخفية بفاس وحج معه الى بيت الله الحرام عام 1100/1688 ، وظل يتردد اليه فى مناسبات الاعياد الدينية . ويحدثنا أحمد الولاى عن حال رفيقه الصومعى عام 1109/1697 وهو التاريخ الذى ألف فيه **مباحث الانوار** بقوله : «وهو وفقه الله تعالى الى الآن مقبل على ما يعنيه من العلم والعمل ، تخرج عليه فى العلم ناس من أصحابه ، وتهذب بمصاحبته أخلاقهم وهو حسن العهد ، منقطع من الولاة ، لا يرى غالبا الا ذاكرا أو مشغولا بالعلم تعليما ومطالعة أو مذاكرة . وهو فيه ذو انصاف ، سليم الصدر ...» (133)

توفى محمد بن عبد الرحمن الصومعى عام 1123/1712 (134) .

أحمد بن يعقوب الولاى

أبو العباس أحمد بن محمد بن محمد بن يعقوب الولاى (بفتح الواو وتشديد اللام الاولى) نسبة الى بنى ولال احدى بطون قبيلة آيت عطا (بتشديد الطاء) الصنهاجية المشهورة بأقصى جبال ملوية (135) وكان أحمد بن يعقوب من أعلام زمانه علما وتدينا «يجيد التعبير عن كل ما يريد، متبحرا فى العلوم

(133) أحمد بن يعقوب الولاى . مباحث الانوار ، ورقة 1/31

(134) ترجم للصومعى أحمد الولاى فى مباحث الانوار . ورقة 1/31 وما بعدها . ومحمد القادري

فى نشر الثاني ، 108:2 - 109 .

(135) لى لال صلات وثيقة قديمة بأبناء عمومته المجاطيين . وكان محمد بن يعقوب الولاى من مریدی أبى بكر الدلائى وعنه أخذ الطريقة الشاذلية كما كان ابنه محمد الولاى من تلامذة محمد بن أبى بكر الدلائى . قضى أحمد هذا حياته كلها يطلب العلم فى الزاوية البكرية ولم تقتصر الصلات بين القبيلتين البربريتين على الناحية العلمية بل شملت الناحية الحربية أيضا ، فكان بنو ولال من أهم القبائل المتصارعة للرئيس محمد الحاج الدلائى ومن أحسن العناصر التى يعتمد عليها فى ناحيته مكناس وفاس وسهول سايس لذلك تعرض الولاىون لغارة الرشيد بن الشريف فدوخهم قبل أن يتوجه الى الدلاء .

محققا لها» (I36) انقطع الى طلب العلم فى الزاوية الدلائية زمنا طويلا مقيما فى احدى مدارس الزاوية ، وقد توثقت الصلة بينه وبين محمد بن عبد الرحمن الصومعى والاخوان العكاريين المتقدمين . درس على الامام أبى على اليوسى وأضرابه مختلف الفنون من فقه ، وأصول ، ونحو ، ومنطق . ومن أهم الكتب التى درسها هناك ، **جمع الجوامع للسبكي** ، **ومختصر الشيخ خليل** ، **وتلخيص المفتاح للقزويني** ، **والتسهيل لابن مالك** . ولما حل الشيخ محمد بن عبد الله السوسى بالزاوية البكرية كما تقدم ، أخذ عنه أحمد الولالى الطريقة الصوفية ، فأكمل بذلك تكوينه العقلى والروحى . وبعد أفول نجم الزاوية الدلائية قصد أحمد الولالى مدينة مكناس واستقر بها متصدرا للتدريس فى قصبة الحضرة السلطانية الاسماعلية ، وأقبل الطلبة على مجالسه العلمية المفيدة . وممن تخرج على يده من علماء مكناس أبو القاسم بن سعيد العميرى (I37) والطبيب عبد القادر بن شقرون (I38) . وألف أحمد بن يعقوب كتبا عديدة أغلبها شروح وحواش على الطريقة المعروفة فى عصره ، منها شرح **مختصر المنطق** للشيخ السنوسى ، وشرح **السلام المرونق فى المنطق** أيضا للاخضرى (I39) وشرح **تلخيص المفتاح** ، فى البلاغة للخطيب القزويني ، وشرح **لامية الافعال** ، فى التصريف لابن مالك ، وشرح **روضة الازهار فى التوقيات للجادري** (I40) وحاشية على شرح **المجلى لجمع الجوامع** ، فى الاصول . ولعل أهم كتبه وأبديها جميعا هو كتاب **مباحث الانوار فى أخبار بعض الاخيار** ، الذى ألفه فى مطلع القرن الحادى عشر الهجرى للتعريف بشيخه أبى عبد الله السوسى ، وذكر فيه كثيرا ممن أخذوا عنه ، كما ترجم فيه لابييه وجده ، وشيوخهما من الدلايين وغيرهم ، ولطائفة مهمة من العلماء الذين لقيهم أو كاتبهم . وقد خصص أحمد بن يعقوب الخاتمة لذكر من اشتهر شرفه بالمغرب ، وفى هذا

(I36) محمد الجادري ، نشر المثنى 114:2

(I37) أبو القاسم هذا هو ابن القاضي سعيد بن أبى القاسم العميرى المتقدم . وكان مثل أبيه فنيها تولى القضاء بمكناس وأخذ عنه كثير من العلماء . توفي عام 64/1178 - 1765

(I38) عبد القادر بن العربى الميهي المدغرى ، المعروف بابن شقرون المكناسى الفقيه النحوى الاديب الطيب المشرك . من مؤلفاته شرح **البسيط والتعريف فى التصريف للمكردى** ، و **الارجوزة الطبية المعروفة بالشقرونية** ، مات بعد عام 1140/1727

(I39) عبد الرحمن بن محمد الصغير الاخضرى ، مؤلف **السلام المرونق فى المنطق** ورسالة **الحساب والجواهر المكنون فى الثلاثة فنون** - المعانى والبيان والهدى - وغيرها من الكتب التعليمية المشهورة . من رجال القرن العاشر الهجرى

(I40) أبو زيد عبد الرحمن بن أبى غالب الشهير بالجادري موقت جامع القرويين بفاس ومؤلف **روضة الازهار فى علم وقت الليل والنهار** ، وهى أرجوزة تشتمل على 336 بيتا يدرسها الناس ويعتمدون عليها فى هذا الفن حتى اليوم ، توفي بفاس عام 839/1435

الكتاب تبدو قدرة المؤلف على التعبير وحسن الاداء فى أسلوب سليم خال من التكلف وقد تحدث فيه كثيرا عن الزاوية البكرية ، خصوصا فى المبحثين الاول والثانى وسجل من أخبارها وأوصافها ما لا يوجد عند غيره من المؤرخين وكانت وفاة أحمد الولالى بمدينة مكناس عام 1715/1128 (141) .

أحمد القادري

أبو العباس أحمد بن عبد القادر القادري الحسنى ، الفقيه الاديب ، العلامة الصوفى صاحب **نسمة الآس فى حجة سيدنا أبى العباس** ، وهى رحلة حجازية مفيدة جدا على اختصارها ، ألفها عندما حج للمرة الثانية عام 1100/1688 صحبة الامام العارف أحمد بن عبد الله معن (142) وقد سبق للقادري أن حج للمرة الاولى عام 1083/1672م وزار مصر حيث التقى بشيوخها وأعلامها وأقام أحمد القادري فى الزاوية الدلائية طويلا يأخذ العلم عن محمد المرابط الدلائى والحسن اليوسى وغيرهما ، ثم أصهر الى الدلائيين فتزوج بنت الشافى أختى الرئيس محمد الحاج مستقرا نهائيا بالزاوية الدلائية الى أن خرج منها مع أهلها عندما خربها السلطان الرشيد ، فقص زاوية الصومعة بتادلا حزيننا يبكى مجد الدلاء الغابر ، ويندب جدها العائر ، وقد روى عنه صاحب **تحفة المعاصر** (143) عبارات مؤثرة وصف بها حادثة اخلاء الزاوية .

كان أحمد القادري يقرض الشعر فى سهولة ويسر ، وله رجز **فيمن هاجر الى الحبشة من الصحابة** . وبحث لطيف حول قاعدة ابن خلدون فى تقدير الاجيال مع أمور تتعلق بالنسب الشريف من تسلسل الحسن والحسين بعد أن سألته عن ذلك شرفاء جيل العلم «فأجاب عن جميع مسائل السؤال بما ينبغي من النقل الممتع وبما هو المستفيد مقنع ، وحقق ان قاعدة ابن خلدون ليست بمطردة ..» (144) وقد سافر القادري مرة مع شيخه أبى على اليوسى

(141) ترجم لأحمد الولالى محمد بن الطيب القادري فى **نشر المثانى** 2: 114 وما بعدها . وعبد الرحمن بن زيدان فى **الاتحاف** 340:1 وما بعدها

(142) أحمد بن محمد بن عبد الله معن الاندلسى الصوفى الكبير صاحب الزاوية المعروفة فى فاس بالمخفية من عدوة الاندلس . وكان الذى اختطها هو أبوه الصالح محمد بن عبد الله فى حدود عام 1048/1638 م . ثم جدد الشيخ أحمد بناتها ورفع خزانة الكتب المحبسة عليها فى مستهل القرن الثانى عشر الهجرى وكانت مجمع فقهاء فاس وعلمائها . توفى الشيخ أحمد عام 1120/1708

(143) **تحفة المعاصر فى بعض صالحى تلامذة أبى عبد الله محمد بن ناصر** ، لمحمد بن عبد الله الحوات ، احدى المصادر الهامة التى اعتمد عليها سليمان الحوات فى كتاب **البدور الضاوية** . وقد نقل عبارات القادري فى التحصير على الزاوية الدلائية فى ورقة 116

(144) محمد القادري ، **نشر المثانى** ، ج 2 ، ص 121

ومرا بقرية آزر و ومعهما كثير من الناس فنزلوا بها واجتمع أهلها على الشيخ
اليوسى دون أن يظهروا له شيئا من كرم الضيافة فلما ألح الجوع على الشيخ
وأبس من قراهم عمد إلى زاده وتناول منه سويقا ، فأقبلوا يشاركونه فى أكله ،
وكان فيهم قضاة وأعيان القرية فأنشد اليوسى أبياتا للاديب الدغوغى :

قرية لا قرى لابن السبيل بها تبأ لها ولا رجاس بها اجتمعوا
لولا أفاردها يقرون واردها من سؤر باردها فى ضمنه وجم
لقلت من زار آزر و زار مقبرة ورب مقبرة زوارها انتفعوا
فزاد أحمد القادرى على هذه الابيات مثلها وقال :

وان حلت بها فانزل بروضتها ولا تقم ساعة فالخير ممنوع
لقد أتيناهم يوم الخميس ضحى فلم ينل منهم قوت ولا شبع
قالوا القضاة أتوا ، قلت لاكرامنا اذا هم فى سويق الشيخ قد طعموا

وتوفى أحمد القادرى عام 1133/20 - 1721 . ودفن بقرب ضريح الشيخ
أحمد اليمنى خارج باب فتوح من مدينة فاس (145) .

محمد بن مسعود المراكشى

أبو عبد الله محمد بن مسعود المراكشى الفقيه النحوى العالم الصالح .
انصرفت همه منذ أول عهده بالدراسة إلى تحصيل قواعد اللغة العربية ،
والفقه المالكى فقرأ ألفية ابن مالك ، ومختصر الشيخ خليل أكثر من مرة
بالزاوية الدلائية على علمائها حتى أحرز قصب السبق فيهما فأخذ يدرسهما
بدوره لطلبة الزاوية مع كتب أخرى فى هذين الفنين وله تقايد كثيرة وملاحظات
مهمة كتبها على مختصر خليل . وكان فى ابتداء أمره مفتونا بمظاهر الدنيا
شفوقا بزخرفها ولهوها ، يعاشر المترفين من شباب الدلايين أولى السلطة
والجاه لا يكاد ينتهى من القاء دروسه وينصرف من المسجد حتى يغشى مجالس
الانس والطرب . وكان محمد بن مسعود بالاضافة إلى شبابه وعلمه خفيف
الروح حلو النكتة شأن كثير من المراكشيين ، فتهاقت عليه زملاؤه من شباب
الزاوية ويصادف ذلك منه ميلا ورغبة فتوثقت الصلة بينهم . ولما قدم الشيخ

الصوفي محمد بن عبد الله السوسى من مراكش الى الزاوية البكرية اتصل به محمد بن مسعود فى جملة العلماء فأعجب باستقامة الشيخ وجاهه ، ولازمه طيلة الايام العشرة التى قضاهما بين ظهرانىهم ، فتبدلت حاله وتطهرت روحه من أدران المادة حتى انه مرق ما كان عليه من ثياب فاخرة واستبدلها بملابس خشنه ، وانقطع عن رفاقه الامراء ، ولم يلبث أن غادر الزاوية الدلالية نهائيا فرارا من مجالس لهوه القديم وقصد قرية تمجث بتادلا حيث عاش بجوار الشيخ الصوفي على بن عبد الرحمن الدرعى (146) يدرس العلم فى زاويته ويؤم الناس فى الصلاة . ثم جرت أحداث سياسية استهدف فيها الشيخ على ابن عبد الرحمن لعصف بعض الولاة ، فغادر محمد بن مسعود هذه الزاوية الى قرية تنغملت بالقرب من مراكش وظل فيها على ديانتته وعبادته واشتغاله بالتعليم والارشاد وتدريس الحديث الشريف الى أن توفى بالطاعون . ولعله الوفاء الذى اجتاح المغرب عام 1090/1679 م (147) .

على بن عبد الواحد الانصارى

أبو الحسن على بن عبد الواحد بن محمد بن أبى بكر الانصارى السجلماسى أصلا السلوى ثم الجزائى ، الفقيه المحدث العالم المؤلف النفاذ ، نشأ بسجلماسة وقرأ بفاس وزاوية الدلاء ورحل الى الشرق فأخذ عن علماء مصر مثل الامام الاجهورى (148) . ثم استوطن مدينة سلا ، وفيها نشر علمه وألف تأليفه العديدة ، مثل اليواقيت الثمينة ، وهو نظم فى قواعد المذهب ونظائر الفقه على نسق منهج الزقاق (149) وشرح تحفة ابن عاصم (150) وشرح

(146) الشيخ أبو الحسن على بن عبد الرحمن الدرعى هو دفن تادلا بمنزله بها المسمى (تمجث) توفى بالطاعون ، ولعله ويا عام 1090/1679 م

(147) أنظر ترجمة محمد بن مسعود فى : أحمد بن يعقوب الولاى . مباحث الانوار . ورقة 35 وعباس بن ابراهيم فى الاعلام . 49:5

(148) أبو الحسن على الاجهورى شيخ المالكية بمصر وصاحب شرح مختصر خليل . أدرك شهرة عظيمة بالمغرب حتى كانت توجه اليه منه الاسئلة للافتاء . توفى عام 1066/1655

(149) أبو الحسن على بن قاسم بن محمد التجيبى الشهير بالزقاق . القاسى له نظم المنهج فى أصول المذهب ، ولامية فى أحكام فقهية جرى بها عمل قاس . توفى عن سن عالية عام 912/1506

(150) أبو بكر محمد بن محمد المعروف بابن عاصم . قاضى غرناطة . صاحب الرجز المشهور تحفة الحكام فى الاحكام الفقهية الذى شرحه المغاربة والمشاركة وحفظه الناس لسهولة ورقة أسلوبه . توفى عام 829 هـ - 1425 م

الإجرومية في النحو (I51) وغير ذلك .

وذكر الأفراني في **الصفوة** (ص I35) أن علي بن عبد الواحد الانصاري قرأ صحيح البخاري على الشيخ محمد بن أبي بكر الدلائلي نحو احدى وعشرين مرة . كما قرأ عليه **الشفاء للقاضي عياض** (I52) و**الموطأ** للإمام مالك بن أنس (I53) ورسالة الإمام القشيري (I54) وحكم ابن عطاء الله (I55) .

وقد استوطن علي بن عبد الواحد الجزائر في أواخر أيامه ، وتخرج على يده هناك كثير من الاعلام . وتوفي بالطاعون عام 1054 / 44 - 1645 (I56) .

- (I51) **الإجرومية** كتاب صغير يشتمل على مبادئ النحو ، أقبل الناس عليه كثيرا . ومؤلفه أبو عبد الله محمد بن محمد بن داود الصنهاجي القاسبي المعروف بابن أجروم المتوفى عام 723 هـ - 1323 م .
- (I52) **القاضي عياض بن موسى البصري السبكي** . امام الحديث والفقه والادب ، دفين مراكش المتوفى عام 544 هـ - 1140 م . وقد أفرده أحمد المقرئ بثالوث **أزهار الرياض في أخبار عياض** نشر منه بيت المقرئ بالقاهرة 3 أجزاء .
- (I53) **الإمام مالك بن أنس** الأصبحي امام دار الهجرة ، وأحد أصحاب المذاهب الاربعة المشهورة توفي عام 179 هـ - 795 م .
- (I54) **عبد الكريم القشيري** من أشهر المؤلفين الذين كتبوا في البوزع ومحاسبة النفس ، ويعرف كتابه **بالرسالة القشيرية** ، طبع في مصر مرارا ، وتوفي عام 1072/475 .
- (I55) **ناج الدين بن عطاء الله الاسكندراني الساذلي** ، من أكبر مقاومي ابن تيمية ، ألف نحو 20 كتابا أشهرها **الحكم في أبحاث الصوفية** ، وتوفي عام 9/709 - 1310 .
- (I56) **ترجم علي بن عبد الواحد الانصاري** . محمد الأفراني . **الصفوة** ، ص 135 وما بعدها . ومحمد الحجوي . **الفكر السامي** ، 1114 - 112 . وأخباره متفرقة في **نفع الطيب** ، و **البذور الفاوية** ، وغيرها .

128

الباب الرابع

الدلائيون والسياسة

1 - موقف الدلائيين من الاضطرابات الداخلية

- (أ) علاقة الدلائيين بالملوك السعديين
- (ب) موقف الدلائيين من ابن أبي محلي وأبي زكريا
- (ج) موقف الدلائيين من أبي حسون السملالي
- (د) علاقة الدلائيين بالمجاهد العياشي

2 - زعامة محمد الحاج السياسية

- (أ) من هو محمد الحاج ؟
- (ب) نزوع محمد الحاج الى الحكم
- (ج) تأسيس مدينة الدلاء
- (د) بيعة أهل المغرب لمحمد الحاج

3 - أعمال محمد الحاج الحربية

- (أ) الحملتان الدلائيتان الأولىان (وقعة أبي عقبة)
- (ب) مهاجمة المجاهد العياشي
- (ج) غزو شرقاء سجلماسة (وقعة القاعة)
- (د) الجهاد ضد الاسميانيين في المعمورة
- (هـ) حملات تأديبية في بلاد زعير والحياينة

1 - موقف الدلائيين من الاضطرابات الداخلية

(أ) علاقة الدلائيين بالملوك السعديين

لم يكن الدلائيون في بادئ الامر يهتمون الا بالناحيتين الدينية والعلمية. فالشيخ أبو بكر مؤسس الزاوية الدلائية كان زاهدا في الدنيا عزوفا عنها ، لا يشتغل حتى بتدبير أموره الخاصة ، ولا ينصرف عن عبادته واذكاره ، الا ليرشد مريديه ويعظهم ويذكرهم . وسار محمد بن أبي بكر الدلائى على نهج والده في الاعراض عن الدنيا وزخرفها والانقطاع الى عبادة الله وتربية المريدين وتدريس العلم للطلبة المقيمين بالزاوية ، وإكرام الوفود والاحسان الى الناس جميعا . وظل يعترف بسلطة السعديين ملوك مراكش ، حتى بعد أن مزقت الحوادث شملهم ، وبدأ عجزهم وقلة كفايتهم ، وآخر من بايع منهم الوليد بن زيدان بن أحمد المنصور (1631/1040 - 1636/1045) .

وعلى الرغم مما كان لمحمد بن أبي بكر الدلائى من نفوذ قوى لدى القبائل الجبرية في الاطلس المتوسط ، وما امتاز به بعض أبنائه من شجاعة وغرورية وما آتاه الله من بسطة في العلم والمال والجاه ، على الرغم من ذلك كله لم يحاول ابن أبي بكر قط استغلال تلك الامكانيات الواسعة التي لم تنح لغيره ليبدل بدلوه في بحر السياسة والسلطان ، وانما كان يدعو الى السمع والطاعة ، والتمسك بالوحدة ولزوم الجماعة . وطالما ندد بما كان يشعر به عند بعض بنيته من الزهو وحب الرياسة . وعاش محمد بن أبي بكر الدلائى أربعاً وثلاثين سنة من عهد الفوضى والاضطراب (1012 - 1046/1603 - 1636) الناتج عن تصدع السلطة المركزية وانقسامها وعجزها عن حفظ النظام في البلاد ، خصوصا في الاطراف والجبال . وكان برابرة الاطلس خلال هذه الفترة يلتفون حول شيخ الدلاء لما يعرفون فيه من صلاح الحال وطهارة النفس ورحابة الصدر ، ورعياً كذلك لعصبيته القوية ، اذ كان رهطه مجاط في ذروة تلك القبائل شدة بأس وصعوبة مراس . وهكذا نجد محمد بن أبي بكر الدلائى حاكماً يختصم اليه قومه ، وملجأ يهرع اليه المستضعفون من جيرانه ، فلا يألو جهداً في اصلاح ذات البين والعمل على انصاف المظلومين ، ساعياً دائماً في الخير والسداد ، داعياً الى ذلك بالحكمة والموعظة الحسنة . وقد عرفنا مما سبق أنه اضطر مرة الى الهجرة من الدلاء الى قرية تاغيا بناحية ميدلت عندما اشتد عناد بعض القبائل الطاغية ، وتآلبت على اذايته والكيد له .

وفي هذه الظروف التي لم يبق فيها لسلطة السعديين في جبال الاطلس وبلاد تادلا الا الاسم ، كان لابد من وجود قوة محلية في هذه التواحي تعمل

على حفظ النظام وتأمين السبل وحماية القوافل فتكون في الدلاء جيش قوى من فرسان مجاط وآيت اسحاق وغيرهما من القبائل البربرية بقيادة ثلاثة من أبناء الشيخ محمد بن أبي بكر ، اشتبهوا بالشجاعة والاقدام وهم عبد الخالق ، وعمر ، ومحمد الحاج (1) ولم تقتصر تحركات هذا الجيش على العمل في النطاق المحلي المحدود ، بل ذهب بعيدا عن الدلاء ، فصار الى سلا وفاس لمساعدة الجامع العياشي في القضاء على بعض الفتن الداخلية . كما توجه الى تافيلالت لاجاد أهل قرية تابوعصامت والوقوف في وجه الجيوش السوسية مما سمراه مفصلا في فصل آت . وسيكون هذا الجيش الدلائى السند الاول الذى يعتمد عليه محمد الحاج بعد وفاة والده لاقامة امارة دلائية مستقلة عن نظر السعديين .

(ب) موقف الدلائيين من ابن أبي محلى وأبى زكريا الجاحي

أبو محلى أو ابن أبي محلى (بفتح الميم والحاء وكسر اللام المشددة) هو أبو العباس أحمد بن عبد الله السجلماسي ، كان يزعم أنه من نسل العباسيين . انتقل أبو محلى في مقتبل العمر الى فاس لطلب العلم ، وتخلف عن المجاهدين الذين سارعوا الى لقاء العدو على وادى المخازن فارا الى البادية يحفظ المتون ويتسكع بين الخيام الى أن حصدت الفتنة وسكنت بانتصار المسلمين ، فرجع الى فاس وأقام فيها سنين عديدة الى أن تخرج منها عالما متبحرا في اللغة والمبادئ الدينية بالخصوص . وألف أبو محلى عدة كتب تحوم كلها حول البدع والمنكرات . ويمكننا أن نأخذ فكرة صغيرة عن هذا الرجل من عناوين كتبه قبل أن نقرأها - أنظر جدول مؤلفات أبى محلى - ويمتاز بشدة التحامل على البدعيين والمنحرفين عن الدين ، فينتعهم بأقبح النعوت ، ويدعوهم بالجهلة والسفلة ، ولا يرى الا شذخ رؤوسهم بالمهراس والمدراس والمنجنيق ، وتقطيع أعانهم بالسهم الزعاف .

وقد سلك أبو محلى طريق التصوف ، وصحب الشيخ محمد بن مبارك الزعري المتقدم ، وبقي عنده في تسنوات نحو ثمانى عشرة سنة . وكانت تغشيه عند شيخه أحوال ، فيصيح قائلا : «أنا سلطان ! أنا سلطان !» فيقول له الشيخ : «انك لن تحرق الارض ولن تبلغ الجبال طولا» .

(1) عبد الخالق الدلائى عالم أديب وبطل مغوار ، وهو أول رئيس من الدلائيين . قتله أعراب تادلا غدرا عندما كان راجعا من حركية تاديبية قام بها ضد أعراب الشاوية ببلاد تامسنا عام 1049/1059 وحمل الى الزاوية البكرية فدفن فيها . وأخوه عمر أديب شاعر وشجاع ، يأسل كذلك درس بالزاوية البكرية وقاد الجيوش الى أن مات في أثناء قتاله ضد الحباينة بضواحي فاس عام 1045/1055 وحمل مصبرا ، وقيل جريحا ثم مات .

أما محمد الحاج فستأتى ترجمته بشيء من التفصيل .

وبعد أن أقام أبو محلي مدة في الزاوية الدلائية ، اتجه إلى وادي الساوره في الصحراء (2) وادعى أنه المهدي المنتظر ، وبدأ يكتب رؤساء القبائل بأمرهم بالتصديق بالدين والسنة ، وينهاهم عن المنكرات والبدع ، ولما سلم الشيخ المأمون السعدي مدينة العرائش إلى الأسبانيين عام 1019/1020 ، أظهر ابن أبي محلي الغضب والحمية للدين ودعا الناس للجهاد ، فاجتمعت عليه العامة ، وتقدم بهم إلى سجلماسة فملكها ثم استولى على بلاد درعة ، وقصد مراكش فاقنحمها عنوة وطرده ملكها زيدان بن المنصور الذهبي . ولما دخل أبو محلي قصر الخلافة بمراكش فعل فيه ما شاء ، وولد له هناك مولود سماه زيدان . ويقال أنه تزوج أم زيدان وبني بها ، ودبت في رأسه نشوة الملك ، ونسب ما بني عليه أمره من الحسبة والنسك (3) . وبالرغم من كون فتنة ابن أبي محلي لم تدم إلا نحو ثلاث سنوات ، فإنه ضرب السكة باسمه وكتب عليها : «ضرب بلكتاوة حرسها الله عام احدى (كذا) وعشرين وألف» :

باسم الله الرحمن الرحيم

القائم بأمر الله

أبو العباس الفاطمي

العباسي أيداه الله

الملك لله الواحد القهار

نقش خليفة الله الهاشمي المجار

لا اله الا الله

محمد رسول الله

أبو العباس المهدي

خليفة الله (4)

ولعل لمسارعة أبي محلي إلى ضرب السكة باسمه علاقة بما يذكره عنه المؤرخون من أنه استغل بالكيمياء وتحويل المعادن «فكان صاحب حكمة لم تنقطع النار في جيشه لتذويب الرصاص وصيغته» (5) . وقد توجه السلطان

(2) وادي الساوره من جملة الاراضي التي اقتطعها الفرنسيون من المغرب أيام الحماية والحقوق بالجزائر ، وما يزال آل أبي محلي حتى اليوم في هذه المنطقة الصحراوية .

(3) أحمد الناصري ، الاستقصا ، 101:6 .

(4) M. Henri Lavoix, Catalogue des monnaies musulmanes, P. 492.

(5) مؤلف مجهول ، تاريخ الدولة السعدية ، ص 101 .

الطريد زيدان الى زاوية الشيخ أبي زكريا الحاحي بجبل دزن (6) ورجا منه أن يساعده على الرجوع الى عاصمة ملكه ، والقضاء على منافسه أبي محلي . فسار أبو زكريا عام 1022/1014 في جماعة كبيرة من أتباعه الى مراكش ، حيث التقى بخصمه في جليز خارجيا . ووقعت بين الفريقين معركة حامية الوطيس استمرت عن مقتل ابن أبي محلي الذي احترق رأسه وعلق على سور مراكش مع رؤوس جماعة من أصحابه طيلة 12 سنة .

المكتبة التى يوجد فيها

اسم الكتاب وموضوعه

توجد منه نسختان مخطوطتان بالخزانة الملكية تحت عدد 4009 و 4442

مخطوطة بالخزانة العامة بالرباط 192ك

مخطوطة خ.ع. 338 (من ص 130-453)

نفس المخطوطة

نفس المخطوطة (من ص 2 - 126)

مخطوطة خ.ع. 576 ق

؟

؟

هذه الكتب الثلاثة الاخيرة ذكرها الناصرى فى الاستقصا ج 6 ، ص 33

(1) اصلية الخريت فى قطع بلعوم

العفريت

وهو كتاب ترجم فيه لنفسه وتحدث عن نسبه ونشأته الى أن قام بالثورة

(2) مهراس رؤوس الجهلة المبتدعة

ومدراس النكوس السفلة

المتدعة وقد تحدث فيه أبومحلى

عن المهدوية ورد فيه على

خصومها . ويقع فى 221 صفحة

من الحجم المتوسط

(3) منجنيق الصخور فى الرد على

أهل الفجور

أو منجنيق الصخور لهدم بناء

شيخ الغرور ورأس الفجور

(4) السيف البارق مع السهم الراشق

(5) سم ساعة فى تقطيع امعاء مفارق

الجماعة

وهذه الكتب الثلاثة الاخيرة

انتسخت فى حياة المؤلف

عام 1017

(6) القسطاس المستقيم فى معرفة

الصحيح من السقيم : تكلم فيه

على العلم والعمل والخلافة

(7) الوضاح

(8) الهودج

(9) جواب الخروبي عن رسالته الى

الشيخ أبى عمر القسطللى

المراكشى

ولعل أهم صلة جمعت بين الدلائيين وابن أبي محلي على الطريقة الصوفية التنازلية ، إذ أخذ كل من محمد بن أبي بكر الدلائى وابن أبي محلي عن الشيخ محمد بن مبارك الزعرى المتقدم ، وأقاما مدة فى زاوية هذا الشيخ بتستاورت . وبعد ذلك استقر ابن أبي محلي فى الزاوية الدلائية زمانا غير قصير بدأ خلاله يحاول التظاهر بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ولكنه كان يلقى معارضة قوية من شيخ الدلاء الذى لم تخف عليه نوايا صاحبه القديم ذى الشطحات والصبغات الهستيرية : «أنا سلطان ! أنا سلطان !» وتحدى ابن أبي محلي ذات يوم الشيخ محمد بن أبي بكر ، وقام فى الدلاء بتجربته الأولى فى الاتصال بالجمهور والعمل على اغوائه واستهوائه عن طريق الإرشاد الدينى المزيف ، وقضى يوما فى التهريج والتسعوذة ، واشتبك مع بعض الناس الذين لم تنطل عليهم حيلته ، ورجع فى المساء الى الزاوية الدلائية منهوك القوى لم يؤد الصلاة فى وقتها . فعنفه الشيخ ابن أبي بكر وقال له : «أما أنا فقد قضيت عأربى وحفظت دينى ، وانقلبت فى سلامة وصفاء ، ومن أتى منكرا فإلله حسيبه ، أو نحو هذا الكلام . وأما أنت فانظر ما الذى وقعت فيه» (7) . ولم يرعو ابن أبي محلي عن غيه بل راح يضرب فى الارض باحثا عن مكان صالح لنشر دعوته الباطلة ، حتى وصل الى وادى الساوره فى الصحراء ، فأعلن مبدويته ، وكان ذلك آخر عهد له بالدلائيين الى أن قتل فى مراكش بعد نحو ثلاث سنوات .

أما أبو زكريا فهو يحيى بن عبد الله بن سعيد بن عبد المنعم الحاحى . أسس جده سعيد زاوية تافيلالت (8) بزداغة الواقعة شمالى تارودانت على واد يسميه البربر (آسيف نتامنت) أى وادى العسل ، واشتغل فيها بتدريس العلم وتربية المريدين . ثم خلقه فيها ابنه عبد الله ، وكان مثله عالما مصلحا أرسل ابنه يحيى الى فاس ليدرس فيها ، وطالت اقامة يحيى بفاس سنين عديدة ، كان يسكن خلالها هو وابن أبي محلي بيتا واحدا فى إحدى المدارس ، وحصل على نصيب وافر من العلوم الدينية والادبية ، ورجع الى قريته الجبلية عالما كبيرا ، وأديبا شاعرا (9) ليتولى أمر الزاوية بعد وفاة أبيه عبد الله عام

17 البوسى . المحاضرات ، ص 91

18 محمد المختار السوسى ، خلال جزولة ، ج 2 ، ص 51 . وقد أخبرنى الاستاذ المختار السوسى أن اسم تافيلالت يطلق على أماكن متعددة فى سوس .

19 ذكر المؤرخون أنه وقع نجاح كبير بين أبي زكريا وأبي محلي أنى الناصرى فى الاستقصا ، 29:6 - 34 بنماذج لهذه النقائض الادبية ، كما نقل عن الافرانى أن القاضى أبا زيد السكتانى وقف على تأليف كبير مشتمل على ما وقع بين يحيى وأبي محلي من الشعر فى عرض الهجاء وغيره . وأخبرنى الاستاذ الحسن البونعمانى أن العالم السوسى أحمد الجرارى وقف فى إحدى المكتبات الخاصة بسوس على كتاب أدبى ضخيم بعنوان : التحلى فيها وقع بين أبي زكريا وأبي محلي .

1603/1012 - 1604 . وقد سلك أبو زكريا في بداية الامر سبيل سلفه ، فوقع عليه اقبال عظيم من قبائل جبل درن وبلاد سوس ، وامتلات رحاب زاويته بالمريدين وطلبة العلم الذين انكبوا على دروسه واشتغلوا بانتساح الكتب القيمة (10) وألف أبو زكريا كتابا في العقائد ، مثلما فعل جده سعيد من قبل . وشرح العقيدتين معا وعقيدة المهدي بن تومرت العالم السوسي ببورك من رجال القرن الحادي عشر للهجرة (القرن السابع عشر للميلاد) .

وقد رأينا أن أبا زكريا استجاب لطلب الملك زيدان السعدي وقضى على خصمه ابن أبي محلي . وظل أبو زكريا مقيما بمراكش في حين كان السلطان زيدان في آسفي ينتظر على أحر من الجمر أوبة السوسيين الى مساقط رؤوسهم ليرجع هو الى دار ملكه . وطال به الانتظار فكتب الى أبي زكريا : «أما بعد ، فإن كنت انما جئت لتصرتي وكف يد ذلك الشاثر عني ، فقد أبلغت المراد ، وشفيت الفؤاد ، وإن كنت انما زمت أن تجر النار لقرصك ، وتجعل الملك من قنصك فأقر الله عينك به» (11) فاضطر أبو زكريا الى مغادرة مراكش تحت ضغط أتباعه الذين لم يكونوا يعرفون الا أنهم أدوا واجبا دينيا فرضته عليهم بيعة السلطان التي في أعناقهم ، وليس لهم بعد ذلك الا الرجوع الى الزاوية واستئناف حياتهم العادية في المداشر التي طالت غيبتهم عنها واستولت فكرة الرياسة على نفس أبي زكريا بعد رجوعه من مراكش وفترت همته في تدريس العلم وتلقين الاوراد وأخذ يرسل السلطان زيدان ويمن عليه بمناصرتة ، ويتجنى كثيرا دون أن يفصح عما يحول بخاطره (12) وأخيرا أعلن أبو زكريا الثورة في سوس ضد السلطان زيدان السعدي ، موهما أتباعه أن عمله هذا يهدف الى حماية الدين ، وجمع كلمة المسلمين ! وتقدم بهم الى تارودانت فملكها من يد أبي حسون السملالي بعد قتال شديد ، واتخذها عاصمة لامارته . ولم يستطع أبو زكريا بعد ذلك أن يوسع دائرة نفوذه شمالا ولا جنوبا واكتفى بالسيطرة على هذه المنطقة الجبلية الضيقة ، الممتدة من تارودانت الى زداغة ، الى أن وافته المنية عام 1035/1626 ، فنقل الى زاوية تافيلالت بالاطلس الكبير ودفن بجوار والده وجده . وما تزال جدران ضريحهم قائمة حتى اليوم . ولا يعرف لابي زكريا اتصال بالدلائيين ، سواء أيام طلبه للعلم في فاس ، أو تصديه للمشيخة بزداغة ، أو على عهد استبداده بتارودانت وناحيتها .

(10) وقف الاستاذ المختار السوسي في إحدى المكثبات الخاصة بسوس على بعض المخطوطات القيمة التي انتسخت في زاوية تافيلالت على عهد أبي زكريا ، انظر خلال جزوة 51:2

(11) أحمد الناصري ، الاستقصا ، 43:6

(12) نفس المصدر ، 46:6

ج) موقف الدلائيين من أبي حسون

إذا كان الشائران ابن أبي محلي وأبو زكريا قد فشلت ريعهما وأفل نجمهما بسرعة ، فإن أمر أبي حسون بخلاف ذلك ، إذ استطاع أن يوطد أركان أمارته عشرات السنين ، ويستبد بالجنوب المغربي كله حيناً ، وببعضه حيناً آخر . وأبو حسون ، ويكنى أيضاً أبا الحسن وبودميعة ، وصاحب الساحل ، من أحفاد الشيخ الشهير أحمد بن موسى السملالي (سيدي أحمد وموسى) . وهو على بن محمد بن محمد بن الشيخ أحمد بن موسى صاحب الزاوية المشهورة في تازورالت بسوس . ولا يعرف لأبي حسون باع في العلم إلا ما كان من تحلية بعض بلدييه له بالفقيه . وليس هو أول الطامعين في الملك من الأسرة ، بل سبقه إلى ذلك من بنى عمه إبراهيم والحسن فلم يتم لهما أمر . وكان قيام أبي حسون واستحواذه على بلاد سوس عام 1613/1022 - 1614 فأسس قريبا من زاوية جده الشيخ أحمد بن موسى مدينة حصينة سماها إيليج (13) ، واتخذها عاصمة لأمارته . وصفا له أمر بلاد سوس كلها بعد موت أبي زكريا الحاحي ، ثم امتد نفوذه إلى درعة وسجلماسة حوالي عام 1630/1040 - 1631 فصار أمير الجنوب المغربي كله ، وتكون في إيليج جهاز حكومي تام ، يضم إلى جانب أبي حسون الذي تلقب بالسلطان ، وزيراً يسمى محمداً (14) وقاضى الجماعة علي بن محمد التيلكاتي (15) والقائد حمو بن بلا (16) وغيرهم من ذوي المسؤولية والنفوذ .

واعترفت الدول الأوروبية التي لها مصالح في المغرب بالامر الواقع ، فأخذت تفاوض أبا حسون (17) بصفتة صاحب الامر في الساحل (18) ، وتعتد معه المعاهدات التجارية ، في نفس الوقت الذي كانت تتعامل مع السلطان

(13) في سوس ثلاثة أماكن يطلق عليها إيليج . عاصمة تازورالت هذه ، وقرية في ادا وزكري . وقرية في القابحة . المختار السوسي ، **المسؤول** ، 16 : 12

(14) وجد الأستاذ المختار السوسي اسم هذا الوزير (محمد) ضمن رسالة كتبت على غلاف مخطوط فقهي بالخزانة الأزاريفية بسوس . انظر **خلال جزولة** ، 2 : 89

(15) كانت وفاة القاضي علي بن محمد بمدينة تيلكات عام 1633/1043 - 1634 . المصدر السابق ، ص 140 .

(16) سيرد اسم القائد حمو بن بلا بعد قليل . وسنرى أن الشيخ محمد بن أبي بكر الدلائى ينسب عليه ويقترح تعيينه حاكماً لبلاد سجلماسة .

(17) يطلق الأوروبيون على أبي حسون أسماء كثيرة . فبدعونه :
Le Marabout du Sous, Le Saint de Massa, Le Marabout du Sahel, etc...

(18) الساحل عبارة عن المنطقة الجنوبية الغربية الممتدة من أكدير إلى وادي نول .

السعدى فيما يرجع الى منطقة نفوذه بمراكش وآسفى وناحيتيها . وتتخابر مع العياشى ثم الدلائيين فى شأن سائر الثغور الواقعة شمالى نهر أم الربيع . وكانت هذه العلاقات الخارجية من أهم الاسباب التى دعمت نفوذ أبى حسون فى سوس ، اذ جعلته يفيد أرباحا طائلة من الصفقات التجارية التى كان يعقدها مع الاوربيين ، ويتزود منهم بالذخيرة الحربية لتجيز جيش قادر على الدفاع عن الاقاليم الشاسعة التابعة لايلىغ .

ولما تمكنت قدم أبى حسون فى بلاد سوس أخذت أطماعه فى التوسع تتجه نحو الشرق . وبدأ يتحين الفرصة للانقضاض على درعة وسجلماسة ، ويوطد العلاقات الودية مع أعيان هذه الاقاليم ليكونوا له خير عون على تحقيق مخطمحه . وفعلا استطاع أبو حسون أن يبسط نفوذه على الجنوب الغربى كله حوالى عام 1040/1630 - 1631 كما سبق . وكان ممن صادقيهم فى سجلماسة الشريف بن على جد الملوك العلويين الحاليين . وكان للشريف عداوة متمكنة مع جيرانه بنى الزبير أهل حصن تابوعصامت . فاستعدى عليهم أبا حسون الذى قصد تافيلالت فى جمع هام من جند سوس . ولم يجد الزبيريون أمامهم الا اللجوء الى الدلائيين والاستصراخ بهم . فسارع الشيخ محمد بن أبى بكر بإرسال كتيبة قوية من فرسان برابرة الاطلس المتوسط الى سجلماسة ، بقيادة ابنه محمد الحاج ، وأعطاه رسالة الى أبى حسون يناشده فيها الله أن يكف عن البوعصاميين ، ويحقق دماء المسلمين . وذلك عام 1043/1633 - 1634 . فافترق الجمعان دون قتال . ولا ندري أكان ذلك استجابة من سلطان سوس لنداء الواجب أو احتجاجا منه أمام القوة العظيمة التى وجد أمامه دون أن يحسب لها حسابا . وقد تطورت العلاقات بعد ذلك بين السوسيين والعلويين وانقلب ما كان بينهم من مودة وصفاء الى عداوة وجفاء ، وصرف أبو حسون هواه الى البوعصاميين وحالفهم قالبا ظهر المجن للعلويين ، وانتهى الامر باعتقال الشريف بن على وحبسه فى سوس عدة سنوات . وتختلف روايات المؤرخين فى سبب هذا الاعتقال ، فيذكر البعض أن أسر الشريف كان بسبب تسور ابنه محمد فى جماعة من العلويين حصن تابوعصامت على حين غرة ، وتحكيمهم السيف فى رقاب الزبيريين واستيلائهم على ذخائرهم . فأخذ أبو حسون الشريف بجزيرة ابنه الذى فر الى أقصى الصحراء . بينما يرى آخرون أن الشريف لم يلق عليه القبض الا لكونه تزعم حركة التمرد ضد نفوذ أبى حسون وبإيعاز أهل تافيلالت . وربما كان الحادثان معا سببا فى نكبة الشريف سجلماسة .

وفي هذه الفترة التي قضاهما جد العلويين سجيناً في سوس تجدد الاحتكاك بين الدلائيين وسلطان ايليخ . ويذكر المؤرخون أن أبناء الشريف توجهوا الى الزاوية الدلائية ، للعمل على تخليص أبيهم من الاسر ، فكتب الشيخ محمد بن أبي بكر الدلائى الى أبي حسون رسالة يعنفه فيها على سوء معاملته لأهل تافيلالت ، ويذكره بنسب الشريف وقرابته من الرسول الكريم ، طالباً منه أن يخلي سبيله ، ويتخلى له عن بلاد سجلماسة . ولكن أبا حسون ذكر في جوابه لشيخ الدلاء أن أهل تافيلالت بايعوه ، ثم نقضوا العهد وبايعوا غيره فحل له أن يحكم فيهم باجتياده . وزاد قائلاً : «وأما ما قلت من أن نترك سجلماسة للشريف المذكور كغيرها من البلاد التي بأيدي غيره ، ولا نتركها ، لأنهم رضوا بى وبايعونى ورضوا به وبايعوه فان بعضهم معى وبعضهم معه ، كأهل العراق مع الحسين بن على الذين خرجوا على يزيد بن معاوية . وانظر ما فعل بهم وبه . وأنا لم أفعل به ولا بهم شيئاً من ذلك (19) . وبالرغم من خطابات شيخ الدلاء المتعددة التي سنتحدث عنها قريباً ، وتحسن الجوين الجانبين ، لم يطلق أبو حسون سراح أسيره الشريف ، وإنما خفف عن الضغط عليه ، وجعله فى شبه اقامة محروسة بسوس طيلة سنين عديدة ، نرى خلالها الشريف بجارية من سبى المغامرة فولدت له المولى اسماعيل وشقيقه المهدى (20) . واستمرت معاملة أبي حسون القاسية لسكان تافيلالت وانقل كاهلهم بالأتاوات والمغارم ، وملاً السجون بالاعيان والاشراف ، وحاصر منابيه المتنعين عليه فى الحصون ، وأطلق أيدي جنده فى حقول الناس وسائيتهم ، يهلكون الحرث والنسل ، ووقع الاستصراح مرة أخرى بالدلائيين فكتب محمد بن أبي بكر رسالة مطولة الى سلطان سوس يطلب منه أن يكف لاء عن أهل تافيلالت . وخصص صدر الكتاب للتحديث عن فضل أسرة الشيخ أحمد بن موسى ومجدها وأهلية أبي حسون للإمارة ، ثم تخلص لمطالبته بالرفق والاحسان فقال : «لكن المرجو منكم ، والمأمول من شملكم ، رحمة المسلمين والشفقة على الضعفاء والمساكين ، لأنكم دار رحمة ، لا دار نقمة . إن كان الملك مطلوبكم فأتوه من بابيه ، وتوصلوا اليه بأسبابه . ويسرروا ولا تفسروا ، وبشروا ولا تنفروا . وخذوا أموركم بسياسة ورفق ، لا بشدة

(19) سلطان الغوات ، البدور الضاوية . ورقة 92/1

(20) لم يرجع الشريف بن على الى سجلماسة الا حوالى عام 1047/1637 - 1638 بعد أن افتداه .
أنه محمد من أبي حسون بمال كثير ، على ما فى أغلب الروايات .

وعنف ، واسعوا في عمارة البلاد برحمة العباد ..» (21) وبعد ذلك عدد محمد ابن أبي بكر الدلائل ضروب العسف التي يلقاها السجلماسيون على أيدي عمال أبي حنون بقوله : «... وأقرب الناس من أمركم في حيرة وأعظم حسرة ، فمن أطاع ، أكثر عليه من التكاليف ما لا طاقة له به حتى ضاع ، ومن أبى وخشى ما وقع بمن قبله وعصى ، على بالعصا . الناس في سجون حصونهم ، النساء والرجال والدواب كأنهم في حشر ، الثمار تجنى وأهلها ينظرون نظر حسرة ، والأشجار تقطع ، وقد حرم الشرع قطع أشجار الكفار فضلا عن المسلمين» (22) .

ويتحدث الفصل التالي من الرسالة عن نقطة هامة يبدو أنها كانت تشغل بال أبي حنون وبطائته . وهي مسألة منافسة الدلائل ومناحمتهم له في امتلاك البلاد . فأكد محمد بن أبي بكر الدلائل في عبارات يتجلى فيها الصدق ، ويدعمها الرأي والمنطق ، انصرافه المطلق عن الملك وعزوفه عن الجاه والسلطان : «وبلغنا أن من لا يبالي بما يقول ولا فيمن يقول يكاتبونكم بسوس أن العبد الفاني ، العاجز عن اصلاح نفسه ، يريد تافيلالت يتولى أمرها . فتأمل - أرشدك الله وسددك - أدنى تأمل ، هل لهذا الكلام وجه أو يلتفت النصف اليه . هذه البلدة بيمتكم وبينها نحو ثلاثين مرحلة ، وبيننا وبينها ست مراحل . ولضعف ملك المغرب نحو ثلاثين عاما ، ما المانع لنا لو كانت لنا فيها شهوة أو رغبة . فمن بلغ أو قرب منه الثمانين ، والتفت للملك المحدود بالسنين ، فاعده من المجانيين . حاصلا ان كانت لكم رغبة في الملك ولا بد وعلمت من نفسك القدرة على وظيفها ، من احاطتك بالعدل والرحمة لقويها وضعيفها ، فتقدم ان لم نعتك ، لم نمنعك وان كان مرادك جمع المال ، والغناء النظر عن مصالح العباد والقاء أمورهم في زوايا الاهمال ، فانت وذلك ، فالرب عالم قدير ، رحيم بعباده قوى عزيز ..» (23)

وفي ختام الرسالة يتحدث شيخ الدلاء عما بلغه من عزم أبي حنون على استلاب زروع الزاوية الدلائية في بلاد غريس بتافيلالت ، وينبئه الى شناعة هذا العمل ، خصوصا وان هناك روابط متينة تجمع بين الزاوية الدلائية والسملالية ، فكلتاها تنتسبان الى الطريقة الشاذلية بواسطة الامامين الجزولي والتابع . ويتنازل في الاخير عن زرع الزاوية في غريس ويهبه حللا لابى

(21) سليمان الحوات ، البدور الضاوية ، ورقة 48/ب

(22) نفس المصدر في نفس الورقة

(23) سليمان الحوات ، البدور الضاوية ، ورقة 59/أ

حسون شريطة أن يكف أذاه عن المسلمين . وهذه الرسالة العجيبة غفل من التاريخ ، غير أن ماورد فيها من الاشارة الى ضعف الملك بالمغرب منذ نحو ثلاثين سنة . وتحدث شيخ الدلاء عن نفسه بأنه بلغ الثمانين أو قاربها ، يدلنا على انها أرسلت حوالى عام 1635/1045 - 1636 . وكان لهذا الخطاب الاثر الطيب فى نفس أبى حسون بالرغم عما اشتملت عليه بعض فصوله من التقريع والتعنيف . ولعل الذى فتح قلب سلطان سوس اليه هو ليجته الصريحة التى لاتعرف المراوغة ولا الايهام . فقد اتضح لآبى حسون أن الدلائيين يأخذون عليه جوره وعسفه ، وسوء معاملته للناس . ولكنهم لايزاحمون فى الحكم والتملك ولا يعترضون سبيله اذا ما استقامت أحكامه ، بل يعدونه فى هذه الحال النصر والاعانة . وتوطدت عرى الصداقة بعد ذلك بين الدلائيين والسملاليين السوسيين ، واتصلت المواصلات الودية بينهم ، وتبادلوا الزيارات فى ايليج والدلاء ، وتبادوا بأطيب الطعام والادام وغير ذلك (24) وشملت الاتصالات بين الزاويتين فيما شملت الناحية العلمية ، فكان أبو حسون يستنسخ الكتب القيمة من الدلاء (25) ويمكننا أن ندرك مدى الصفاء والثقة بين الجانبين اذا عرفنا أن محمد بن أبى بكر الدلائى أشار فى احدى رسائله على أبى حسون باجلاء جنوده عن تافيلاليت ، وتعيين حاكم لها من ذوى الصلاح والكياسة ، هو القائد حمو بن بلة الذى سبق أن تعرف عليه فى الدلاء ، وعرف فيه سعة الصدر ، وشدة الحلم ، والمبالغة فى النصيح لأميره السملالى وللرعية (26) . غير أن هذه العلاقات الطيبة بين الدلائيين والسملاليين لم تلبث أن تغيرت على اثر وفاة الشيخ محمد بن أبى بكر الدلائى وقيام ابنه محمد الحاج الراغب فى السيطرة على البلاد . واشتدت لهجة المراسلات المتبادلة بين ايليج والدلاء ، فكان أبو حسون يرمى الى اقناع محمد الحاج بضرورة التخلي عن أطماعه فى الرياسة وحمله على الاعتراف بسلطة الملك السعدى صاحب مراكش - ليخلو له الجو - ثم انقطع جيل الاتصال نهائيا بين الدلائيين والسملاليين بسبب انصراف محمد الحاج الى نشر سلطته فى تادلا وبلاد المغرب ، واشتغال أبى حسون بالفتن الخطيرة القائمة ضده فى الصحراء ، تلك الفتن التى انتهت باقصائه نهائيا عن سجلماسة ودرعة حوالى عام 1640/1050 - 1641 على يد

(24) من رسالة لمحمد بن أبى بكر الدلائى الى أبى حسون ذكرها سليمان الحوات فى البدور الضاوية ، ورقة 60/ب

(25) محمد المختار السوسى ، خلال جزولة ، 2 : 62

(26) سليمان الحوات ، البدور الضاوية ، ورقة 60/ا

محمد بن الشريف . وقد انكششت اماره أبى حسون بعد ذلك ، وعاد نفوذه مقتصرا على سوس كما بدأ . وتوفي أبو حسون عام 1070/1659 - 1960 فخلفه ابنه محمد فى اماره ايليغ ، وظل بها الى أن دكتها مدافع السلطان الرشيد بن الشريف وعدمتها على رؤوس أهلها عام 1081/1670 . ووصف الاستاذ لمختار السوسى أطلال ايليغ المهذمة فقال : «لايزال برجان الى الآن ، أما أحدهما فكان مقبدا للشريف العالم سيدى أبى بكر ابن السلطان بودميعة ، والثانى يسامت هذا شرقيا فى زاوية من زوايا السور وذكر انه مركز المدافع (الصقالة) وبين البرجين دار الامير الكبرى لايزال بعض جدرانها قائما ، وشوارع المدينة طولا وعرضا لايزال بعض آثارها واضحا وقد استغاض عند السكان اليوم مواضع الابواب فى منتهى الشوارع الرئيسية فى المدينة ، كما لايزال يظهر موضع مسجد المدينة الكبير الذى كان انهدم مع المدينة ، والمدينة المهذومة تاتى فى شمال ايليغ المحدثه التى سكنها أهلها الآن ...» (27)

د) علاقة الدلائين بالمجاهد العياشى

المجاهد العياشى هو محمد (بفتح الميم) بن أحمد المالكى الزيانى (بفتح الزاى وتشديد الياء) العياشى السلاوى . أصله من قبيلة بنى مالك بن زغبة من العرب الهلالية المستوطنة فى بلاد الغرب ، وفصيلته القربى بنو زيان الفاطنون اليوم بأحد أولاد جلول بدائرتى القنيطرة وسوق أربعاء الغرب . كان العياشى من أخص تلاميذ الشيخ عبد الله بن حسون الذى أشار عليه بالجهاد فى سبيل الله ، وبدأ يظهر على مسرح السياسة فى أوائل العقد الثانى من القرن الحادى عشر للهجرة (أوائل القرن 17 للميلاد) كمجاهد متطوع فى بلاد دكالة يربط فيها لقتال البرتغاليين فى الجديدة . وبلغ خبر تضيقه على النصارى المحتلين وانتصاره على جيوشهم فى وقائع حربية متعددة الى بلاط السعديين بمراكش ، فكافؤوه بعمالة مدينة أزموور ، ليظل شوكة فى جنب البرتغاليين يقض مضجعهم ويبعث فى قلوبهم الرعب والروع . وتضايق البرتغاليون كثيرا من حركات العياشى ومرابطته الدائمة حول المنطقة التى يحتلونها ، فعمدوا الى المكر والخديعة ، واشتروا ضمائر حاشية السلطان زيدان بهدايا ثمينة . ونجحت المؤامرة الدنيئة فجهز زيدان سرية قوية وجهها الى مدينة أزموور للقبض على العامل وقتله . لكن قائد السرية محمد السنوسى الذى كان على علم بجلية الامر بعث الى المجاهد العياشى خفية أن ينجو بنفسه ، وأفسح له المجال للخروج الى مسقط رأسه . ورجع العياشى الى سلا عام

1614/1023 - 1615 فوجد الاسبانيين قد احتلوا ثغر المعمورة (28) قبل ذلك بسنة . وعاتوا في ضواحيه فسادا . وكان السلويون استغاثوا بالسلطان زيدان ، ووفد جماعة منهم عليه بمراكش طلبا للنجدة والمعونة . «فصار يوعدهم (كذا) بالنصرة وهو يهزأ بهم الى أن خرجت له هدية عظيمة من عند النصارى من البريجة ودفعوها له ، فقيم أهل سلا أنه قبض حق البلاد كيف فعل أخوه الشيخ بالعرائش ، فانصرفوا راجعين الى بلادهم ، وأخذوا في العدة والحزم والعسة على الاسوار ..» (29) وهكذا اضطر السلويون الى الاعتماد على أنفسهم في مدافعة العدو النازل بأبواب مدينتهم ، وقدموا عليهم المجاهد محمد العياشى وبايعوه على الجهاد واقامة الحدود ، وكتبوا بذلك وثيقة أمضاها سكان المدن والقرى من بلاد تامسنا الى تازا . ووافق عليها فقهاء الوقت وقضاة . وبذلك نصب العياشى أميراً للمجاهدين فى سلا وسائر بلاد الغرب . وامتد نفوذه فشمل تطوان وأقاليم الشمال . واتسع نطاق العمل أمامه فصار ينتقل فى حركاته الجهادية بين المعمورة ، والعرائش ، وطنجة ، وسبتة ، ومليلية ، والجديدة ، ويقارع فى حملات موفقة المحتلين الاسبانيين والبرتغاليين . وجابه العياشى فى نفس الوقت صعوبات داخلية متعددة ، منها ما كان ناتجا عن التمرد المعتاد لبعض القبائل ونزوعهم الى الاغارة والسلب والنهب وقطع السبيل لاثارة الشغب والاضطراب انسياقا مع تيار الاحقاد والضغائن . وكثيرا ما تعرضت فاس لغارات قبائل شراكة والحياينة ، وتوجه العياشى الى عين المكان لكف المعتدين وزجرهم . وكان بعض رؤساء قبائل الغرب يناقسون العياشى ويحسدونه على ما يتمتع به من نفوذ وشفوف ، بالرغم من وشائج القرى التى تربطهم وایاه ، وقد استطاع العياشى أن يبتغلب على جميع الصعاب ويسير فى خطته الجهادية قدما ، فيصول ويجول ويرعب المحتلين ويدفعهم الى أن يقبعوا وراء أسوار المدن التى يحتلونها ، ولا يبرحوها الا نادرا .

على أن هناك طائفة أخرى من خصوم العياشى كانت أعظم خطرا عليه وأكثر ضررا . وهى جماعة من الفقهاء النفعيين الذين كان يحركهم البلاط السعدى بمراكش ليفسد على العياشى خطته ، ويصرف الناس عنه بعد أن فشل فى القضاء عليه بأزمور . أخذ هؤلاء المثقفون ينشرون بين الناس أن الجهاد لايجوز الا مع وجود الامام وبإذن منه ، فتصدى لدحض هذه المزاعم

(28) ثغر المعمورة ، ويسمى أيضا المهديّة وحلق سبيو . يقع شمال مدينة سلا على مصب نهر سبيو

(29) مؤلف مجهول . تاريخ الدولة السعدية ، ص 103

علماء ذلك العصر وفي مقدمتهم محمد العربي الفاسي الذي أصدر فتوى هامة مطولة في الموضوع ، اشتملت على خمس مسائل . ومما جاء فيها فيما يخص الامام واذنه قوله : « لا يتوقف وجوب الجهاد على وجود الامام ولا على اذنه في الجملة ، وذلك شرط كمال لا شرط وجوب ومن المعلوم الواضح أن الجهاد مقصد بالنسبة الى الامامة التي هي وسيلة له ، لكونه في غالب العادة لا يحصل على الكمال الا بها ، فاذا أمكن حصوله دونها لم يبق معنى لتوقفه عليها فكيف نترك المقاصد الممكنة ، لفقد الوسائل المتعذرة . ومن المعلوم في الفقه أن جماعة المسلمين تنزل منزلة السلطان اذا عدم السلطان . وما تهذى به بعض الالسنه في هذه الازمنة من انه لا يجوز الجهاد لفقد الامام واذنه ، فكلمة أوحاها شيطان الجن الى شيطان الانس وقرها في أذنه ، ثم ألحقها على لسانه ، في زخارف عدياته ، اغواء للعباد ، وتشبيطا عن الجهاد . وحسبك فيمن يقول ذلك انه من أعوان الشيطان ، واخوانه الممددين في الغي والطغيان . والذي تشيد به الأدلة أن الجهاد الآن أعظم أجرا من الجهاد مع الامام ، لان القيام به الآن عسير ... » (30) فخرست ألسنة المشاغبين مدة ، وتبين للناس تدجيلهم وتلاعيبهم بالدين ، لكنهم عاودوا الكرة مرة أخرى واستغلوا فرصة نشوب الخلاف والقتال بين العياشي والاندلسيين المقيمين في الرباط والقصبة فركزوا دعايتهم هذه المرة على أن العياشي طامع في الملك يدعو الناس للدخول في طاعته ويقاثلهم على ذلك مضفين حلة الجهاد والقداسة على خصومه الاندلسيين . معللين بمهادنة السلطان السعدي للنصارى بأنها ضرورة اقتضتها الظروف ليمون بواسطة سفنهم الحربية قصبة الرباط المحاصرة من طرف العياشي . وكان الذي تصدى للافتاء في ذلك هو أبو مهدي عيسى الكتاني قاضي الجماعة بمراكش (31) فأسهب في الكلام . ومما قاله عن العياشي : « ان حاصل أمر هذا الرجل المسؤول عنه انه خلط عملا صالحا وآخر سيئا عسى الله أن يتوب عليه ان الله غفور رحيم . أما جهاده ورباطه وحراسته ونسكه فنعمنا هي ، وأما مقاتلته للمسلمين وعدم اكترائه بدمائهم واعتقاده حليتها ، ومحاصرته لسكان الثغر وافساده بلادهم التي هي في نحر العدو ، وحل نظامهم والسعي في ضعفها واخلائها من عمالها فمن الشرع والدين

(30) عبد العزيز الزياتي ، الجواهر المختارة فيما وقفت عليه من النوازل بجيل غماره ورقة 122

(31) الشيخ أبو مهدي عيسى بن عبد الرحمان السكتاني أستاذ الحسن اليوسى صاحب الحاشية على شرح العقيدة الصغرى للسوسى . وكان قاضيا بتارودانت فلما استولى أبو زكريا العباسي على المدينة فر السكتاني منها والتحق بمراكش فسماه عبد المالك بن زيدان السعدي قاضي الجماعة . وظل في عمله الى أن توفي بمراكش عام 1630/1040 - 1631 .

والصواب فيها بمعزل ...» (32) ولستأ بصدد البحث عن تاريخ العياشى لندرس بتفصيل موقفه من مهاجرى الاندلس ، وناقش أقوال خصومه ومزاعمهم . على أنه بالرغم من نبل مقصد المجاهد السلوى ، وثبوت استقامته وصلاحه باجماع كل من تعرض لأخباره من المؤرخين ، يبدو أنه اشتط قليلا فى المساواة التى عامل بها الموريسكيين وأيته غض الطرف عن عفواتهم - مهما كانت عظيمة - وتركهم ولو الى حين على ما يرومون من استقلال فى مدينتهم ، وعمل على ايلافهم واجتذاب أفئدتهم ، وتعويدهم الاشتراك فى المجتمع الجديد الذى انتقلوا اليه .

وقد سبق لمحمد بن أبى بكر الدلائى أن تعرف على المجاهد محمد العياشى فى مدينة سلا عند الشيخ عبد الله بن حسون ، فتوطدت عرى الصداقة والمحبة بين الرجلين ، وظلا يذكران طول حياتهما صفاء المنبع الصوفى الفياض الذى كرمأ منه معا ، ويتبادلان فى شتى المناسبات رسائل تبدو فيها الصراحة والثقة والتقدير والاحترام . فالعياشى يذكر لصديقه الدلائى ما يعتزم القيام به من الحركات الجهادية ، ويطلعه على خططه الحربية ، ويتحدث اليه فى غير كلفة ولا احتراز عما يعترضه من صعوبات مادية معنوية . وجاء فى رسالة وجهها للمجاهد العياشى الى الشيخ محمد بن أبى بكر الدلائى بعد الانتصار الذى كملت به إحدى غزواته ضد الاسبانييين فى العرائش ، وذلك عام 1040/1631 : «وقد ورد علينا كتابكم المعظم أثير المحل لدينا ، كريم الورود علينا مهنئا بغزوة العرائش أعادها الله دار اسلام ، وقد قوى الامل فى الله سبحانه أن تكون تلك الغزوة مفتاحا لفتحها ، ومقدمة تلزم لعزائم الاسلام نتيجة نجاحها . فالمسلمون نازلون الآن بعقر دارها ، ومرسلون الصواعق على أسوارها ، حتى تغرق ان شاء الله بكفارها ، ويأذن الله عز وجل ببوارها ، وتطهيرها من أدناسها وأوضارها ، وعودها الى ملك الاسلام بعد ابقائها وفرارها . هذا الذى انعقدت عليه النية ، وانطوت عليه الحنية . لكن يا سيدي أين المساعدة ؟ والامر لا ينمض به الواحد ...» (33) وكانت الرسائل الواردة من الدلاء تحمل للعياشى من التشجيع والتأييد ما يدفع به للتسير قدما فى ميدان المقاومة والجهاد والذود عن حوزة البلاد . وأخطر عقبة كانت تعترض طريق العياشى على اختلاف القبائل وتخاذهم . خصوصا بنى عمه أعراب بلاد الغرب . ولما

(32) عبد العزيز الزياتى ، الجواهر المختارة ، ورقة 126/1

(33) عبد القاهر املاق ، الخبر عن ظهور العياشى ، ص 34

طرق خبر فثبتهم سمع الشيخ محمد بن أبى بكر الدلائى كتب الى العياشى يقول : «.. هذا وقد بلغنا وانتبى اليانا أن تلکم القبائل المحيطة بسلا ، حسبما نقله الرواة حديثا صحيحا ومسلسلا ، ما قاموا بواجب شكر الله فى نعمه التى أسداها اليهم ، وأسبغنا عليهم ، وهى ذاتكم التى نابت عن الامة المحمدية فى أداء هذا الغرض ، الذى حمدت سعيه أهل السموات وأهل الارض ، وإذا كانت عادة القبائل أن يردوا أمورهم لمن فيه خصلة واحدة من شجاعة ، أو ورأى ، أو جود ، أو دين ، ويجعلوه المعول فكيف لا يرده قبيلكم لمن جمع الله به وفيه هذه الخصال وزيادة ، وأحله بجهاد الرتبة العليا من الرياسة والسيادة ، وسلك بهم مسلك الطاعة ، وشيد لهم فخرا تبقى مناقبة الى قيام الساعة ، فتق ببرك ، وشد يديك على الاعتصام بحبله والانتصار به وبأوليائه المؤمنين» (34) . وكتب الشيخ محمد بن أبى بكر الدلائى رسالة أخرى فى نفس الموضوع الى أحد رؤساء بلاد الغرب من ذوى العصبية القبلية والسلطة الروحية ، وهو الشيخ أبو زيد عبد الرحمان العايدى من أعيان أعراب سجبر (35) يحثه على نصرته المجاهد العياشى وندب القبائل الى الائتثار بأمره ودعوتهم للالتفاف حوله والعمل معه يدا واحدة ، وهى رسالة طويلة مؤثرة سلك فيها شيخ الدلاء مسلکا حكيما بين اللين والشدّة ، والترهيب والترغيب . وكان يعرف من مخاطبه التدين والميل الى التصوف ، فحاول أن يؤثر عليه من الناحية الروحية ، وذكر له أن للعياشى مددا من نور النبى صلعم بواسطة شيوخه عبد الله بن حسون ، وعبد العزيز التباع ، ومحمد بن سليمان الجزولى وطلب منه أن يبين ذلك لقومه : «واشرحوا لهم أصل الهداية ، فما هى إلا من النبى صلى الله عليه وسلم ومن أهل المدد من نوره وكل هداية غير هذا ضلال . واستدعوا من الله بقاء هذا السيد المربط المجاهد فى سبيل الله الولي الصالح العالم الناصح العارف بالله المحقق الصوفى الربانى . أبو عبد الله سيدى محمد العياشى - وفر الله أنصاره - فله مدد من هذا النور ..» (36) وتحدث ابن أبى بكر بعد ذلك عن المسائل الثلاث التى كانت سبب الخلاف القائم بين العياشى وقبائل الغرب . وهى قطعهم للطرق ، وامتناعهم عن دفع الزكاة ، والجهاد معه فى سبيل الله ، فقال : «.. أما نهى القبائل عن قطع

(34) عبد القاهر املاق ، الخبر عن ظهور العياشى ، ص 18 - 19 .

(35) الشيخ أبو زيد العايدى هذا هو قريب سيدى الحسن العايدى صاحب المزاراة المشهورة ببحر السويقة بسلا ، والمتوفى عام 1718/1131 . وهناك صلحاء آخرون من قبيلة سجبر ذكر بعضهم الناصرى فى الاستقصا

(36) عبد القاهر املاق ، الخبر عن ظهور العياشى ص 22 - 23

الطريق والظلم ففيه صلاح دنياهم ومعاشهم ، وأما الآخرة فما شعروا بها ولا عرفوها . ولو عرفوها ما احتاجوا الى هذا . فالظلم يخلى الخيام ، ويعمرها بالإيمان . وأما أمرهم بدفع الاعشار والزكوات فلأنه لا يتم الإيمان الا بذلك . قال الله تعالى : وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ، وقد صرفنا في مصرفها الشرعى . وأعان بها المجاهدين ، وأما دعاؤه الناس للجهاد واستنجادهم واجتماعهم عليه فإن فيه قهر العدو الكافر ، وبه رد الله كيده في نحره . مات والله الاسلام . قد قطع العدو البحر ودهم المسلمين في بلادهم ، وتخطف الناس واسرهم من بين خيامهم ..» (37) وسار شيخ الدلاء في رسالته على هذا النمط متفجعا على الاسلام ، مذكرا بما جرى للمسلمين في الاندلس ، والمراحل التي قطعها العدو في امتلاك بلادهم ، الى أن أخرجهم منها نياتيا ، وأخذت أطباعه تتجه لاحتلال هذه العدو أيضا ؛ ثم عاد فذكر فضل العياشى وجمعه لكلمة المسلمين ، ودفاعه عن بلادهم دون أن يجد منهم مؤازرا أو معينا .

ولم يقتصر تأييد الدلائيين للمجاهد العياشى على تشجيعه بالمراسلات وندب القبائل لمؤازرته ونصرته ، وإنما كانوا يقدمون له الاعانات المادية ، ويعتنون اليه بالجنود المقاتلة عند الحاجة . وقد أرسل الشيخ محمد بن أبى بكر الدلائى أواخر عام 1032/1623 جيشا قويا بقيادة ابنه محمد الحاج (38) لمساعدة العياشى على اخماد فتنة شراكة بضواحي فاس (39) . وكان المجاهد العياشى يهادى الدلائيين بما يستطيع من التحف والطرائف اعترافا منه بالجميل . وبعث اليهم عام 1043/1633 - 1034 مع ابنه عبد الله هدية عظيمة اشتملت على أنواع الملف والكتان وغيرهما من الثياب الرفيعة الغالية الثمن» (40) حتى أن الشيخ محمد بن أبى بكر الدلائى تعجب من تلك النقائس التي امتلأت بها صناديق عديدة ، ورأى في استعمالها ترعا لا يديق بصوفى زاهد مثله ، فوزعها كلها على الشرفاء والضعفاء والطلبة المقيمين بالزاوية الدلائية ، ولم يحتفظ منها لنفسه ولا لأهله بشيء .

(37) عبد القاهر املاق ، الخبر عن ظهور العياشى ، ص 23

(38) نفس المصدر ، ص 13

(39) أصل شراكة من أعراب تلمسان . اصطنعهم عبد الله بن الشيخ المأمون السعدى سلطان فاس (1022 - 1033/1613 - 1623) واتخذ منهم جيشا خاصا يعتمد عليه . وكانوا في بادئ الامر يسكنون بعض قصبات فاس وفنادقها ثم أخرجوا من المدينة بسبب طيشهم وفسادهم . ولما توفي عبد الله بن الشيخ عاث أعراب شراكة في ضواحي فاس فسادا . وكانوا ذوى بأس شديد ، لم يتمكن العياشى من القضاء عليهم الا بمساعدة فرسان الدلاء . وساكنا شراكة اليوم في شمال فاس تابعة اداريا لقرية ابا محمد .

(40) سليمان الحوات ، البدور الضاوية . ورقة 49

وصفوة القول أن العلاقات بين الدلائيين والمجاهدين السلأويين قامت على أساس متين من الاخلاص والوفاء . وكان الشيخ محمد بن أبي بكر الدلائى يولى الرئيس أبا عبد الله العياشى كثيرا من التقدير والاحلال ، ويعتبره قائما بواجب دينى ووطنى ، نيابة عن جميع المسلمين فى المغرب ، حتى انه اتخذ دعاء خاصا مع أوراده يدعو به لهذا المجاهد فيقول : «اللهم اجز عنا سيدي محمد العياشى أفضل المجازاة ، وكافئه أحسن المكافاة ، واجعل مكافأتك له كشف الحجب عن قلبه حتى تكون أقرب اليه عنه اللهم لاتحرمه توجيئه اليك ، وانقطاعه لخدمتك . اللهم نفس كربته . وكمل رغبته ، وأجب دعوته ، وسدد رميته ، واردد له الكرة على من عاداه فى الحق . انك على كل شىء قدير» (41) .

وسنرى فى الفصل الرابع من هذا الباب التطورات المؤسفة التى طرأت على العلاقات بين العياشى والدلائيين الى أن أقصى الامر بهم الى العداة والقتال .

3 - زعامة محمد الحاج السياسية . (1040 - 1079 / 1636 - 1668)

(أ) من هو محمد الحاج ؟

محمد الحاج هو أكبر أبناء الشيخ محمد بن أبي بكر الدلائى . ولد فى الدلاء عام 1588/997 - 1589 (42) ونشأ كسائر اخوته وبني عمه مكبا على الدرس والتحصيل فى الزاوية البكرية . ونال اجازات عامة فى مختلف الفنون الدينية والادبية من شيوخه أحمد بن القاضى ، وأحمد بن عمران السلاسى ، والعربى بن يوسف الفاسى المتقدمين . «وكان ذا وجه حسن ، وذلاقة لسان ، حسن الشارة ، بارع الفهم والعبارة ، موصوفا بالرجولة والمروءة الفائقة» (43) وتوجه محمد الحاج الى البقاع المقدسة عام 1631/1041 - 1632 فى موكب حافل ضم كثيرا من رجال العلم والفضل والدين . من جنات مختلفة حتى من بلاد نوات . ولقى فى رحلته الحجازية كثيرا من مظاهر العناية والتقدير ، فخطب الناس فى عرفات ، ودرس بالمدينة المنورة ، وقدم فيها خطيبا واماما ، ولدى مروره بالقاهرة خرج للمقائه الامام أحمد المقرئ ، فأقام عنده وعند شيخ المالكية بمصر على الاجهورى مدة كان محمد الحاج خلالها يعقد مجالس علمية بالجامع الازهر ويلقى دروسا فى التفسير والحديث وغيرهما .

(41) أحمد التامرى ، الاستقصا ، ج 6 ، ص 91

(42) أبو القاسم الزيانى ، الترجمان العرب ، ص 302 ، ويجعل مؤرخون آخرون ولادة محمد الحاج عام 1591/1000 - 1592

(43) سليمان الحوات ، البدور الضاوية ، ورقة 109/ب

وبدت كفاءة محمد الحاج السياسية والحربية في حياة والده الذي كان يعتمد عليه في المهمات ، ويرسله على رأس جيش الدلاء الى ما وراء نهر ملوية والى بلاد الغرب فيرجع ظافرا منصورا . وقد انفرد أبو القاسم الزيانى - فيما اعلم - بذكر أخبار غريبة عن نشأة محمد الحاج ، زعم نقلها عن الشيخ اليوسى فقال عن أمير الدلاء انه كان في ابتداء أمره طالبا صعلوكا مملقا، طرده والده لاستغاله بما لا يعنيه ومصاحبته للبطالين ، فكان يأوى الى كهف فى جبل يدلا اوقد فيه النار ذات ليلة فرأى أثر باب داخله فنقبه واستخرج منه سبعة قمامم نحاسية فى كل منها عشرة آلاف دينار مرينى «فأصلح حاله وواسى أقاربه واصحابه . وولع بركوب الخيل ، واستركب الاقارب والاقربان ، فلم تكمل عليه السنة الى أن كان يركب فى مائة من الخيل من الاولياء والمصطنعين . واشتغل بتقويم الاتباع من قبيلة مجاط وغيرهم من صنهاجة آيت أومالو (44) . وصار يشن الغارة عن من بملوية وتادلا من العرب فعلى صيته» (45) .

وأخبار الصعلكة والبطالة والاملاق تناقض ما أجمع عليه المؤرخون واصحاب التراجم من حسن تربية أبناء الشيخ محمد بن أبى بكر الدلائى جميعا ، وتنافى وتأثير البئة الصالحة فى نفوس الناشئين فيها ، خصوصا ونحن نعرف ما أوتى الدلائيون من بسطة فى المال والعلم والصلاح . وكتب اليوسى بين أيدينا لم نعثر فيما قرأناه منها على هذه الاساطير ، بل بالعكس من ذلك نجد اليوسى فى المحاضرات يخصص فصلا طويلا فى نحو 18 صفحة يروى فيه مباشرة عن محمد الحاج كثيرا من الاخبار العلمية والادبية ويتحدث عنه بكامل الاجلال والتقدير .

ب) نزوع محمد الحاج الى الحكم

بمجرد وفاة الشيخ محمد بن أبى بكر الدلائى عام 1046/1636 ظهر نزوع محمد الحاج الى الاستقلال بالامر ، وبدأت أعناق مختلف القبائل تشرئب اليه ، وأحمال أعشارهم وزكواتهم تحمل لديه ، فامتثلت رحاب الدلاء بالوفود ، وتضاعف فيها عدد الاتباع والجنود ، ورأى ملك مراكش محمد الشيخ السعدى فى ذلك الاداة الفعالة للقضاء الحتمى على ما بقى له من نفوذ ، فعمل على تدارك الامر بالحكمة ، وسلك نحو هذا الرئيس الطموح سبيل المجاملة واللين . فسارع فى بادىء الامر الى بناء صريح الشيخ محمد بن أبى بكر الدلائى ،

(44) آيت أومالو ومعناها بنو الظل هم سكان شمال الاطلس . يقابلهم آيت أسمار (بشديد الميم) أى بنو الشمس وهم سكان جنوب الاطلس

(45) أبو القاسم الزيانى ، البستان ، ورقة 1/5

وشيد عليه قبة أنيقة بعث لاقامتها الصناع والادوات اللازمة من مراکش .
وانفق عليها بسخاء . وبعد ذلك بعث ملك مراکش قاضيه الشيخ محمد
المزوارى الى الدلاء ، ليستميل اليه محمد الحاج ويحضه على الطاعة والبيعة .
ولكن نصائح القاضي ومواعظه ذهبت أدراج الرياح ، فمحمد الحاج كان مصمما
على أن يقبض على زعماء الحكم في المغرب ، بعد أن تأكد من اضمحلال نفوذ
السعديين واستبداد الثوار عليهم في كل مكان . ويذكر المؤرخون أن محمد
الحاج اعتذر لقاضي مراکش بمسائل لم يفصحوا عنها ، ولعله أفهم مخاطبه
بأن عجز السعديين في ذلك الحين عن القيام بمهمتهم ، أفقدهم أهم أركان
الخلافة الذي هو الكفاءة . فلم تعد لهم عصبية قبلية ، ولا سلطة روحية مستمدة
من نسبتهم القرشية فعدا بذلك جلوسهم على العرش غير ذي موضوع . اذ ليس
من المعقول أن تشتعل نيران الفتنة في أرجاء البلاد وتأتى على الأخضر واليابس ،
وينعدم الأمن ويختل النظام ، في الوقت الذي يوجد ملك صوري قابض في قصره
لا يحرك ساكنا وكأن الامر لا يعنيه !

وبالرغم من فشل القاضي لم ييأس محمد الشيخ ، وكتب رسالة مطولة
الى محمد الحاج وعشيرته ، حاول فيها أن يكون لبقا يجمع بين الوعد والوعيد ،
ويسلك سبيل اللين والتهديد ، ولكن قلم الكاتب جمع فأسيب في اختلاق
الغايب والنقائص للدلائيين ، مما يتنافى وما يتطلبه الموقف من اجتلاب قلوبهم
والتودد اليهم . وقد جاء في هذه الرسالة : « ولم تراقبوا مكر من رفعكم عن
عمار عموم البرابر ، وأقعدكم في القباب على الاسيرة وفي بيوت الله على
الكراسي والمنابر . عويتم علينا معشر الثوار كالذئاب من كل عراء وشعبة ،
لتكون عزيمة نهوضنا اليكم معطلة صعبة ، وان لاندري أين تميل النفوس ،
التلك الصحارى أم الى ايليغ السوس . وهذا المغرب لا يخلو ملآن من نوااميس
كل كاهن ومدع قرقرار (46) تسمى فيه البومة خاملة وتصبح بالمخلف
والمنقار » (47) واقترح محمد الشيخ في آخر هذه الرسالة على الدلائيين أن
يتنازل لهم عن قسط من الجبايات ، يكفي شؤون الزاوية وأهلها ، مقابل أن
يعترفوا بسلطته ويكفوا أيديهم عما عدا ذلك . . . فقال « وحتى الآن دعوناكم
لعقد البيعة الواجبة لنا على كل من أطاع أو عصى ، من وجدة الى حدود السوس
الاقصى ، فنزهد لكم فيما يقوم بحق تلك الزاوية وأهلها ، بشرط أن تفيقوا
من سنة الغفلة وجهلها ، وان أمسكتكم أقدام الانقياد عن سلوك سبيل السداد

(46) القرقرار : الذي يهدر كالجمل

(47) أحمد الناصري . الاستقصا ، 6 : 99

وقبول سوله ، فأذنوا بحرب من الله ورسوله» (48) وقد أجاب محمد الحاج
 من هذه الرسالة بأخرى بليغة من انشاء أخيه محمد المسناوى ، ظهر فيها
 استكاف الدلائيين مما لزمهم به محمد الشيخ من النقائص واعتذروا عن عدم
 تجديد البيعة بأمرين ، أولهما ان قبائل البربر لم تعد تعترف بسلطة
 السعديين ، فلو بايعهم الدلائيون لانتقض البربر من حولهم ونزحوا عن
 ساحتهم . وثانيهما قيام محمد بن الشريف فى الصحراء وتقويه ببرابرة
 صنهاجة وعرب دخيسة وتشوفه لامتلاك المناطق الخاضعة للدلائيين على ضفاف
 نهر ملوية ورباط تازا . وبعد أن ذكر الدلائيون ما هم عليه من المنعة وشدة
 الناس قالوا : «وحتى الآن ان قصدتم الغرب أو حصن فاس ، فلا تنالكم من
 جانبنا مساءة ولا بأس ، فبعد أن يكون لكم فى المدينة البيضاء الجديدة
 والقديمة (49) قرار ، يكون لنا بعد ذلك حكم الاختيار ، بين أن نؤمن لك أو
 نترك لك الديار ، أو نستصرخ بمن هو مثلك شريف حقيقى وسلطان ، له
 شعب أكثر منك فى ضبط الاوطان ، وان قنعت بحوز الحمراء من مراكش ،
 ورفضت عنك معاناة الهراش والتناوش ، فدعنا ومراعاة من تجارته الرئاسة ،
 وعنه اشتراء نفيس السياسة ، ضرغام غاب سجلماسة» (50) . والرسالتان
 خاليتان من التاريخ ، وقدر الناصرى فى الاستقصا (51) أنهما تبودلتا خلال
 عام 1046 . (1636 - 1637) والظاهر أنهما كانتا فى أواخر عام 1047 أو فى
 أوائل 1048/1638 لانهما تتحدثان عن الضريح الذى شيده السعديون للشيخ
 محمد بن أبى بكر الدلائى المتوفى شتاء عام 1046/1636 . وتتعدد المواصلة فى
 هذا الفصل ان لم نقل تنقطع بين مراكش والمنطقة الجبلية التى تقع فيها
 الزاوية الدلائية . وبذلك فان العمل فى بناء الضريح لم يبتدىء الا فى أواخر
 ذلك العام أو مطلع العام الذى يليه . ولا يمكن عادة نقل المواد اللازمة للبناء من
 مراكش الى الدلاء ، وتشبيد القبة وزخرفتها فى أقل من سنة ، أضف الى ذلك
 فترة سفارة القاضي المزوار التى سبقت الإشارة إليها وعلى أى حال فان
 الرسالتين السابقتين كانتا آخر محاولة للتفاهم السلمى بين السعديين
 والدلائيين ، وسيقابل الفريقان فى معركة حاسمة على ضفاف وادى العبيد
 ليقررا المصير النهائى لعلاقتهما كما سنراه فى الفصل التالى .

145 نفس المصدر ، ص 100

146 المراد بالمدينة البيضاء الجديدة فاس الجديد ، وبالقديمة فاس الادريسية

147 الناصرى ، الاستقصا ، ج 6 ، ص 102

148 ج 6 ، ص 97

ج) تأسيس مدينة الدلاء

عرفت الزاوية الدلائية القديمة في هذه الفترة تطورا كبيرا ، فتضخم عدد سكانها حتى ضاقت بهم الابنية والاحصااص ، وامتألت السبل المؤدية اليها على وعورتها بالواردين والصادرين . ورأى محمد الحاج أن يؤسس مدينة جديدة واسعة في منبسط من الارض يسهل الوصول اليه . فارتاد لعاصمة امارته المكان الذي توجد فيه زاوية آيت اسحق في سفح الاطلس المتوسط على الطريق الرابطة بين خنيفرة وقصبة تادلا (52) وفي ذلك يقول محمد بن الطيب القادري : «وفي عام 1048 - 1638 تشرع أمير المؤمنين السلطان سيدي محمد الحاج الدلائي في بناء قصبة الدلاء في منتصف يوم الاحد سادس وعشرى ربيع الاول من العام ، وانتظر لذلك طالع سعيد» (53) وقد أخذت هذه المدينة الجديدة أسماء كثيرة ، فبعض المؤرخين دعاها قصبة الدلاء ، وبعضهم سماها مدينة الدلاء أو مدينة ازغار أو زاوية محمد الحاج ، وإلى ذلك كان يطلق عليها اسم الزاوية الدلائية أو الزاوية البكرية ، لانتقال الدلائيين الى السكنى بها وهجرة العلماء والطلبة اليها ، حتى ان الزاوية الدلائية القديمة في عهد محمد الحاج لم تعد سوى قرية ثانوية يسكنها الفقراء والعجزة ويدفن فيها موتى الاسرة الدلائية كما سبق . واتخذ محمد الحاج لنفسه قصرا وديوانا عظيمين في وسط المدينة الجديدة كان يحيط بهما سور داخلي ما يزال بعضه ماثلا للعيان حتى اليوم . (54) وأسكن معه في العاصمة خمس قبائل بربرية من أكثر سكان الاطلس المتوسط عصبية وحمية ، وهي مجاط ، وآيت يمر ، وآيت نضير (بنى مطير) ، وكروان ، وآيت اسحاق . فاستكمل الدلائيون بذلك مظاهر الابهة والسلطان ، وتكونت لديهم أهم قوة حربية بالبلاد سيصول محمد الحاج بها ويجول ، ويمتلك أهم أقاليم المغرب مدة تنيف عن ثلث قرن .

د) بيعة أهل المغرب لمحمد الحاج

لما استتب الامر لمحمد الحاج ، وقضى على خصومه ومنافسيه ، ودان له وسط المغرب وغربه وشماله ، وكثر جنده وأنصاره ، أخذ يفكر في اضعفاء صبغة شرعية على موقفه ويعمل على تنصيب نفسه ملكا على البلاد لاسيما وقد كان تدهور السعديين في مراكش بلغ غايته ، وأصبح من السهل التخلص من

(52) تبعد مدينة محمد الحاج المعروفة اليوم بزاوية آيت اسحاق عن خنيفرة بـ 35 كلم ، وعن قصبة تادلا بـ 64 كلم

(53) محمد القادري ، نشر المثنى الكبير . ورقة 92/1

(54) انظر اللوحة رقم 8

القائمين في الجنوب ، فطالب الناس ببيعته والتزام طاعته ، وذلك في أوائل عام 1061/1052 . « فقام أهل المغرب بدعوة سيدي محمد الحاج وأدعنوا لطاعته وأمره ، وجاءته البيعات من البلدان المغربية ، وبايعه أهل فاس الأدرسية والعليا بالخلافة ، وكتبوا له البيعة بجامع القرويين ، وحضرها من هو أهل لذلك من الأعيان ، والجم الغفير من أهل الديوان ، في مهل ربيع الثاني عام 1061 وقدموا عليه بها للزواوية الدلائية فقرئت على منبر مسجدتها ، ووضع في صندوق مع غيرها من بيعات أهل نواحي المغرب في خزانة كتب الجامع المذكور . » (55)

4 - أعمال محمد الحاج الحربية

(أ) الحملتان الدلائيتان الأولىان

قضى محمد الحاج الدلائى السنتين الأولىين في أعداد العدة وتنظيم الجيش ، وتأسيس العاصمة وترتيب القبائل ، ولم يتحرك جنده الا في عام 1048/1038 ، فقام في هذه السنة بحملتين كبيرتين ، على ضفاف نهر وادي العبيد وفي بسائط بلاد سانس . وقد ترأس محمد الحاج بنفسه الحملة الأولى ، عندما بلغه خبر تحرك جيش محمد السعدى من مراكش في اتجاه الدلاء . والتقى الجمعان على ضفة وادي العبيد ببلاد تادلا ، في المكان المعروف بأبي عقبة على بعد نحو 12 كلم من المركز الحالى لدار ولد زيدوح . وجرت معركة حامية الوطيس استمرت عن انقزام محمد الشيخ السعدى ورجوع جيشه مفلولا الى مراكش . وانقطع بذلك نظر السعديين نهائيا عما شمله نفوذ الدلائيين من البلاد .

وكان سبب الحملة الدلائية الثانية هو استنجاد المجاهد العياشى بمحمد الحاج ، ليساعده في القضاء على فتنة الحياينة (56) وشراكة الذين قويت شوكتهم ، وأمسوا يغيرون على الفاسيين ويسلبونهم أموالهم وأمتعتهم ، ويختطفون أولادهم ونساءهم . وقد توجه وفد من علماء فاس وأعيانها الى المجاهد العياشى بسلا (57) ، ورجوا منه أن يخلصهم من بلاء القبيلتين المجاورتين . فأحالهم العياشى على محمد الحاج ، وبعث معهم بخطاب يشرح له

(55) سليمان الحوات ، الدور الضاوية ، ورقة III/ب وذكر خبر قيام أهل المغرب بدعوى محمد الحاج في التاريخ المذكور أيضا محمد القادري في نشر الثاني ، ص 196

(56) الحياينة : قبيلة عربية في شمال شرق فاس ، مستقرة بين نهري سبو وورقة ، تشمل على ثلاث عمائر كبيرة وعشائر كثيرة - (هامش العز والصولة ، ص 17) أشار الى هذه الزيارة التي قام بها وفد علماء فاس للمجاهد العياشى بسلا محمد بن أحمد ميارة في مقدمة شرحه للمرشد المعين ، I : وكان ذلك في أواسط ذي الحجة عام 1047/1038

الحال ويرجو منه الاغاثة والنجدة . فلبى أمير الدلاء نداء الواجب ، وأرسل الى العياشي جيشا قويا من البربر تحت امره أحد قواده المسمى شعشوع . ويمكننا أن ندرك مدى أهمية هذا الجيش اذا عرفنا أن المجاهد العياشي استطاع به أن يقضي نهائيا على القبيلتين المتمردين ويلاحق فلولها في قنن الجبال ، ويفرق بقاياهما في القبائل لتتحل عصبيتها ، ويامن الناس شرهما ، وطالما عالج العياشي أمر الحيانة وشراكة قبل ذلك فلم يحصل على طائل .

ب) مهاجمة المجاهد العياشي

لم تطل مدة الصفاء بين الدلائيين والعياشي بعد ذلك ، اذ كان نظر محمد الحاج متجها نحو الغرب ، بعد أن تركزت قدماء في ملوية العليا وبسائط تادلا وما والاها من البلاد . وكان لابد له اذا أراد تحقيق مطامحه من أن يتخلص من العياشي صاحب النفوذ في الثغور . ولا نظن حادثة الاندلسيين الا نغلة اتخذها محمد الحاج لتبرير موقفه العدائي من مجاهد سلا ، وفرصة اعتبها للقضاء على منافسه من أجل التوسع وبسط النفوذ . وقد اتهم العياشي الاندلسيين المقيمين على الضفة اليسرى لنهر أبي رقراق بممالة الاسبانيين على المجاهدين ، وأفتاه العلماء بجواز قتالهم ، فحاصروهم وضيق عليهم الخناق الى أن تمكن من مدينة الرباط ، وبقيت القصبة تقاوم الحصار مدة طويلة ، اذ كانت حاميتها تتألف من الموريسكيين وجنود الملك السعدي صاحب مراكش ، يشد أزرهم الاسبانيون . ومما يؤكد الاتهامات الموجهة ضد الاندلسيين ما ورد في رسالة بعث بها دوراستان « DE RASTIN » القائم بأعمال قنصلية فرنسا في سلا الى رئيس الوزراء ريشوايه « RICHELIEU » بتاريخ 16 يوليوز 1039 يخبره بأن سلا الجديدة (الرباط) قد سقطت في يد العياشي ، وان الحصار قائم حول القصبة التي تمون بواسطة الاسبانيين (58) .

وقد أهدر العياشي دماء الاندلسيين في الرباط والقصبة وأباح أموالهم، وفرت طائفة منهم الى الدلاء فأجارهم محمد الحاج وشفع لهم عند العياشي فلم يقبل هذا الاخير الشفاعة فيهم ، وأبى الا أن يستأصل شافتهم . فكان رد محمد الحاج أن زحف بجنده على منطقة نفوذ العياشي ، في أوائل عام 1050 / 1640 وملك مدينة مكناس ، ثم اتجه الى فاس فاعترض العياشي طريقه، ووقعت الحرب بين الصديقين القديمين ، واقتتل الجيشان المتحالفان الى عهد قريب . وكان النصر في البداية حليف محمد الحاج ، فتقدم الى فاس وحاصرها مدة ،

ثم كمر عليه العياشي في جموع وفيرة من رجال الغرب فانهزم الدلائيون لأول مرة ورفع الحصار عن المدينة . وعرف محمد الحاج انه لا يستطيع القضاء على خصمه ما دام في عزة ومنعة بين قومه وأنصاره من قبائل الغرب ، فرأى أن يبحث عن مناقسي العياشي من بين رؤساء هذه القبائل ، وفي مقدمتهم الناعلي والد حيسي ، فحالفهم وجذب بواسطتهم الى جانبه طائفة مهمة من الاعراب . واغتنم محمد الحاج فرصة تغيب العياشي في بلاد الفحص لقتال الاسبانيين في طنجة ، فحشد جموع العرب والبربر شمال نهر سبيو ، وترصد وهو على أتم أهبة وأكمل استعداد عودة خصمه من الجهاد . وفوجيء العياشي بهذا الجيش الجرار الذي اعترض طريقه ، ورأى ألا قبل له به ، فجنح الى السلم والمهادنة لكن المجاهدين الذين كانوا معه أبوا الا الدفاع عن أنفسهم ومواجهة خصومهم ، ف وقعت المعركة الثالثة بين العياشي والدلايين في ضواحي سوق أربعاء الغرب أواخر عام 1050/6141 وكان من الطبيعي ألا يصمد المجاهدون الذين أنبكتهم الاغارات على الاسبانيين ، خصوصا وهم قلة أمام هذه الحشود المستريجة . وقتل فرس العياشي تحته في المعركة فلهذا الى قبيلة الخلط (59) وهو لا يعلم أنها انحرفت عنه فيمن انحرف من الاعراب . فلم يستقر به المقام عندهم حتى اغتالوه في عين القصب التي تبعد عن مركز سوق أربعاء الغرب بنحو 20 كلم غربا ، واحتزوا رأسه وبعثوا به الى خصومه ، وذلك في 9 محرم عام 1051/21 أبريل 1641 . وبموت العياشي وتفرق أنصاره خلا الجو للدلايين وتساقطت في أيديهم المدن والاقاليم تباعا . فملكوا فاسا بعد حصار دام ستة شهور ، ثم استولوا على سلا وتطوان وسائر بلاد الغرب . وقد عدد أبو القاسم الزباني المدن والقبائل التي شملها نفوذ محمد الحاج فقال : «استولى الرئيس محمد الحاج بن الشيخ سيدي محمد بن أبي بكر الدلائي على وادي ملوية كيف جري ، والريف ، وقبائل صنهاجة (60) والاحماس وغمارة (61) وتطوان ، وقصر مسمودة (62) والبصرة (63) وقصر كتامة (64) وقبائلهم ، وبلاد ورغة

(59) الخلط قبيلة عربية مساكنها بين سوق أربعاء الغرب وعرباوة

(60) يراد بقبائل صنهاجة ما يعرف اليوم بآيت او مالو في الاطلس المتوسط . وتشمل زيسان واشقرن وآيت شخمان وبني مكيلد .

(61) الاحماس وغمارة من جملة قبائل جباله . وديارهم في ضواحي مدينتي شفشاون وتطوان

(62) قصر مسمودة ويقال له أيضا قصر المجاز والقصر الصغير يقع بين طنجة وسبتة

(63) تقع البصرة بين عرباوة ووزان . وهي الآن خراب

(64) قصر كتامة ويقال له أيضا قصر عبد الكريم هو مدينة القصر الكبير الشهيرة جنوب العرائش

(65) وتارة ، ومكناسة الزيتون ، وبنى يازغة (66) وقبائلها من الجبال» (67). وحاول عبد الله العياشي (68) أن يثأر والده المجاهد القليل فحشر لذلك انتصاره من قبائل الغرب ، ولقى جيش الدلائيين بقيادة محمد الحاج علي ضفاف واد الطين بالقرب من مركز أحد كورت الحالى ، فى أوائل ربيع الاول عام 1643/1053 وجرى بين الفريقين قتال شديد كان التفوق فيه للدلائيين وطارد محمد الحاج أنصار العياشي فى مساكنهم ، وجاس خلال ديارهم ، فعمت الفتنة قبائل الغرب وفشا فيهم القتل والنهب .

(ج) غزو شرفاء سجلماسة

بعد أن قضى محمد الحاج على منافسيه فى بلاد الغرب وجه نظره الى ما وراء نهر ملوية ، وكان يتوجس خيفة من انتشار نفوذ محمد بن الشريف فى الصحراء ، وطالما بحث محمد الحاج دون جدوى عن وسيلة تضمن له بسط سلطانه على سجلماسة (69) وتحد من طموح الشريف وأبنائه . وبالرغم من تفوق الدلائيين المطلق فى الناحية العسكرية كان يصعب عليهم أن يضايقوا آل البيت ويتكلموا بهم . ولعل احجامهم عن الاساءة الى العلويين فى الوقائع الحربية العديدة التى ظهروا عليهم فيها يرجع قبل كل شىء الى ما وقر فى صدور آل أبى بكر الدلائى من حب صادق فى الجنب النبوى ، بالاضافة الى ما يفرضه عليهم الوسط السجلماسى المشبع بتعظيم الشرفاء . ولكن السياسة تعمى وتضم ، والرئاسة تدفع بصاحبها الى حيث يريد وحيث لا يريد . وهكذا أكلت الغيرة صدر محمد الحاج وأعياء الصبر فزحف الى تافيلالت على رأس جيش جرار من البربر فى أوائل عام 1646/1056 ليقضى على منافسه محمد ابن الشريف . وكانت بينهما وقعة القاعة المشهورة التى أسفرت عن انتصار الدلائيين ودخول محمد الحاج الى مدينة سجلماسة ، حيث أباح للبربر أن

(65) نهر ورغة أحد روافد وادى سبو ، يقع شمالى فاس وتقطع حوله قبائل جباله

(66) بنى يازغة تابعة لدائرة صفرو ومن أشهر قراها المنزل

(67) أبو القاسم الزياتى ، رسالة البلدين ، ص 479

(68) عبد الله بن محمد العياشى عالم أديب وبطل مغوار أثنى عليه الشيخ محمد مبارزة فى مقدمة شرحه للمرشد المعين (1 : 3) وحلاء بالقب علمية عالية . كان عبد الله العضد الايمن لوالده فى الحركات الجهادية ورسوله الى الدلائيين وغيرهم . توفى عام 1663/1073 ودفن على ساحل المحيط الاطلسي بالقرب من مولاي بوسلهم

(69) سجلماسة مدينة عتيقة أسسها بنو مدرار فى القرن الثانى للهجرة ، ولعبت أدوارا مهمة فى تاريخ المغرب ، وظلت أهله بالسكان بل وعاصمة لاقليم تافيلالت الى ما بعد القرن الحادى عشر/السابع عشر وما زالت أطلالها ماثلة للمعان بالقرب من الريصاتى ، ويسمىها الفيلاليون المدينة الكبيرة أو القديمة

يفعلوا فيها ما يشاءون ، فروعوا السكبان ، واستباحوا الدماء والاموال والاعراض ثم استجاب الدلائى لتوسلات أعيان تافيلالت وشفاعاتهم ، وكف أيدي الجند عن الناس ، وصالح محمد بن الشريف على اقتسام مناطق النفوذ ، فجعلوا مادون جبل العياشى من الاقاليم الصحراوية من نصيب ابن الشريف ، وما فوق ذلك من البلاد خاصا بالدلائيين . واستثنى محمد الحاج من منطقة نفوذ الشرفاء خمسة مراكز احتفظ بها لنفسه ، لما كان له فيها من مصالح حيوية خاصة ، وهي : الشيخ مغفر فى أولاد عيسى بالرتب (70) والسيد الطيب فى قصر السوق (71) والسيد أحمد بن على العثمانى فى بنى عثمان من الخلق (72) وقصر كلميمة فى وطن غريس (73) ، وأسرى فى بلد فركلة (74) غير انه لم يكد ينصرف محمد الحاج عن الصحراء حتى هجم محمد بن الشريف على القصور التابعة للدلائيين واستولى عليها . وتطورت العلاقات بين الطرفين نظورا سيئا كان السبب فى القضاء النهائى على الزاوية الدلائية كما سنرى فى الباب التالى .

د) الجهاد ضد الاسبانيين فى المعمورة

لم يهتم محمد الحاج كثيرا بالجهاد ولو أن النصارى كانوا يحتلون ثغورا عديدة بجوار المراكز التى يسيطر عليها . ولعله كان مشغولا عنه بالاحداث الداخلية . فهو بالرغم من اتساع رقعة نفوذه ووفرة جنده ، لم يستطع أو لم يجرؤ على التخلص نهائيا من منافسيه بمراكش وسجلماسة وايينغ زيادة على خصومه شعبة العياشى المتبشرين فى بلاد الغرب وأقاليم الشمال . على أن محمد الحاج دعا الناس للجهاد فى أواخر رجب عام 1053/1043 واشتغل نحو نصف

(70) أولاد عيسى قصر يقع على الضفة الغربية لوادى زير ، ويبعد عن قصر السوق بنحو 40 كلم جنوبا

والقصر فى اصطلاح أهل تافيلالت يعنى قرية صغيرة . ويطلق عليها البربر اسم اغرم (بفتح الهمزة والراء وتسكين العين والميم) . وإذا صغر القصر ولم يضم الا بضعة منازل سمي قصيرا أو قرومت (بفتح التاء والراء وتسكين العين والميم والتاء)

(71) قصر السوق هو مقر عمالة تافيلالت اليوم . ويبعد عن مكناش بنحو 330 كلم

(72) بنى عثمان ويعرف اليوم بآيت عثمان . عبارة عن عدة قصور تقع على بعد نحو 27 كلم من قصر السوق شمالا . ويوجد الآن مشروع بناء سد على وادى زير يعرف بمشروع خزان آيت عثمان

(73) تقع كلميمة على ضفة نهر غريس على بعد نحو 60 كلم من قصر السوق غربا فى طريق ودرارات . ويسكنها حتى اليوم آيت مرغاد من البربر

(74) أسرى قصر واقع على ضفاف وادى فركلة . يبعد عن قصر السوق بنحو 86 كلم غربا

شهر بتبنيء الحملة لكنه انصرف عنها لاسباب خاصة (75) ثم قام بغزوة كبرى ضد الاسبانيين بشفر المعمورة عام 1057/1647 بعد أن استنفر المجاهدين للحركة معه من جميع الاقاليم (76) . وكان ممن استجاب لدعوته أهل فاس ومعهم الشيخ محمد بن عبد الله معن صاحب زاوية المخفية بعدوة الاندلس ، وابنه الصالح أحمد ، فأبليا البلاء الحسن في قتال العدو . وضعف الشيخ يوما عن صعود عقبة بضواحي المعمورة لكبر سنه ، فحمله ابنه أحمد على ظهره حتى قطع به المواضع المخوفة ، وكان ذا نجد واقدام ، وحمية في الدفاع عن حوزة الاسلام .

وقد أورد الكونت دو كاستري (77) رواية مفصلة لحصار المعمورة تحدث باسباب عن مراحل الهجوم والدفاع والاغاثة . وتحدد تاريخ الحصار من 10 غشت الى 3 شتنبر 1647 . وهذا التاريخ يتفق في المبدأ تماما مع ما ذكرته المصادر العربية . فالقادرى في نشر المثاني وغيره يقولون ان المسلمين خرجوا للجهاد في المعمورة في 7 رجب 1057 وهو يوافق 7 غشت 1647 ومن الطبيعي ألا يقع الزحف على الحصن الا بعد ثلاثة أيام من خروج المجاهدين من فاس مثلا ؛ لكن تختلف الروايتان الاسلامية والافرنجية في مدة الحصار . فالمصادر العربية تقول ان المسلمين رجعوا الى ديارهم بعد 18 يوما بسبب نقضى المرض والموت فيهم من ماء قاسد شربوه هناك ، بينما تدعى الرواية الأخرى استمرار الحصار نحو شهر . وتؤكد انتشار الحمى حتى فى صفوف الاسبانيين . ويمكن الجمع بين الخبرين بأن انسحاب المسلمين بدأ بعد 18 يوما وبقي بعض المجاهدين فى نحر العدو بضعة أيام أخرى . وبالرغم مما تمتاز به الرواية الافرنجية من دقة فى تحديد الايام والساعات للمعارك ، وذكر أسماء الضباط المشاركين فيها ، والمراسلات المتبادلة فى الموضوع بين الحامية المحاصرة وملك اسبانيا ، فانها لا تخلو من مبالغات وتهويلات . ومجمل الخبر الذى أورده دو كاستري أن حصار المعمورة أو كما يسمونها

S. Miguel de Ultramar ou Saint-Michel d'outremer

(75) سليمان الحوات ، البدور الضاوية . ورقة 110/ب

(76) محمد القادرى ، نشر المثاني ، ص 189

وقد ذكر المحققان لكتاب الاستقصا ، فى الهامش (98:6) احتمال وقوع هذه الغزوة عام 1052 وهو خلاف الواقع لتضافر النصوص العربية والافرنجية على تحديد عام 1647/1057 تاريخا لحصار المعمورة من طرف محمد الحاج الدلاني

(77) دو كاستري ، مصادر لم تنشر لتاريخ المغرب ، السلسلة الاولى من وثائق فرنسا ، 618:3

بدأ بهجوم ثمانية آلاف من برابرة جبال سوس (78) جاؤوا للجهاد
 ومع كل واحد منهم خنجر ، وسنة « Hache à deux tranchants »
 وبنادقية خفيفة Escopette (79) وقد لوحظ وجود السوسيين في الخندق
 (80) يومى السبت والاحد 10 و 11 غشت 1647 لكن جنود الحراسة الاسبان
 لم يأخذوا حذرهم ، فزحف المسلمون يوم الاثنين 13 غشت حوالى الساعة
 الرابعة صباحا ، وارتموا في خندق باب سلا وبدءوا يقطعون الجسر المتحرك
 دون أن يشعر بهم الاسبانيون ، الى أن استيقظ القبطان أنطونيو دوياديسلا
 « Antonio de Padilla » على اثر أصوات الطرق ، وما كاد يصيح :
 الى السلاح ! الى السلاح ! أينما الاسبانيون ! « حتى سقط ميتا بطلقة نارية
 من إحدى البنادق الخفيفة . وتراجع المسلمون من الخندق بعد أن أخذت
 مدافع الاسبانيين تطلق النار عليهم ، ثم كروا بسرعة وتسلقوا بسهولة الجرج
 « SAINT JOSEPH » دون أن يدافعهم جنود الحراسة الذين أدوا
 لمن أعمالهم بموت عشرة منهم وجرح اثنين آخرين . وحاول المسلمون أن
 يستولوا على الآبار التي تمون الحصن ، لكن الاسبانيين استماتوا في الدفاع
 عنها طيلة ثلاث ليال .

وقد بعث السوسيون الى الأمير عبد الله الدلائي في سلا يخبرونه
 باستيلائهم على القنطرة والبرج ، فأمر أن ينادى في جميع مناطق امارته ليأتى
 رعاياه في طرق ثلاثة أيام الى مدينة سلا لجهاد النصارى فاستجاب لندائه في
 الاجل المحدد جميع من كانوا يستطيعون حمل السلاح ، واجتمع أكثر من
 30.000 رجل و 10.000 فرس ، علاوة على كثير من باعة المؤونة للجنود .
 وتحرك جيش المسلمين من سلا حاملا معه ثلاث قطع من مدفعية القصبة ،
 اثنتان من الحديد ، ومدفع صغير من النحاس ، واحتل هذا الجيش المراكز
 التي كان المقاتلون البربر قد استولوا عليها ، وأخذ يوجه قذائف المدافع الى
 المواقع الامامية للاسبانيين ، وبقى يتقدم الى أن لم يعد يفصل بينه وبين أسوار

(78) من المعلوم أن بلاد سوس كانت خاضعة في ذلك العصر الى أبى حسيون السملالي ، لذلك
 فإن البرابرة الذين تحدث عنهم الرواية الاسبانية هم من المنطقة الخاضعة للدلائييين
 بالأطلس المتوسط والكبير . ولفظ «جبال سوس» في الرواية إما أن يكون غلطا ، أو
 اعتبار الاصطلاح القديم الذي كان معروفا عند مؤرخي القرن الحادى عشر الهجرى (السابع
 عشر الميلادى) من أن السوس الادبى يشمل المناطق الواقعة بين وادى ملوية ووادى أم الربيع
 « Escopette » نوع من البنادق الخفيفة المشهورة منذ القرن الخامس عشر
 يبدو أن حصن المعورة كان معاطا بخنادق دفاعية ، يسمى ما يقع منها في الناحية
 الجنوبية بخندق باب سلا

الحصن الاقل من 30 قدما أمام قنطرة فاس وسلا . وكانت مقاومة الجنود
الاسبانيين ضعيفة لان أغليبيتهم كانت مصابة بالحمى الثلاثية وأرسل القبطان
دون فرانسيسكو ديهيريرا « DON FRANCISCO BANOS DE HERRERA »
الذى كان قائما بقيادة حامية المعمورة زورقا سريعا الى اسبانيا وفيه رسالتان
احدهما الى الملك والاخرى الى دوق المدينة والقلعة ، يخبرهما بحالة الحصار
وبطاب الاغاثة والنجدة بأسرع ما يمكن . وبمجرد ما توصل الدوق بهذا
الاعلام يوم 16 غشت سارع الى تهييء الاسطول بالرغم من كونه كان فى طور
التقاعه من حمى ثلاثية خبيثة ، وبدأت الاستعدادات فى نفس اليوم ، وانتهت
فى اليوم الرابع ، وانتظرت المراكب الريح المواتية فلم تنصب أشرعتها الا فى
يوم 21 غشت . وكان أسطول الاغاثة يحتوى على سفينة دانكيرك المسمّاة
سان بيدرو « SAN PEDRO » وسفينة انجليزية كبيرة ، وعشر سفن طويلة
ثم انضمت اليه فى الطريق سفن حربية أخرى مليئة بالضباط والجنود . ولما
وصل الاسطول الى العرائش طلب قائده من حاكم المدينة الاسبانى أن يزوده
بأخبار المعمورة ، فأجاب بأنه لا علم له تماما بهذا الحصار لانه لم يصل اليه
أى رجل من المغاربة المسالمين (81) . وقد أعد قائد الاسطول الترتيبات اللازمة
للقتال فى حالة ما اذا وجدوا الحصن قد سقط فى أيدي المسلمين . وفى يوم
الأربعاء 28 غشت على الساعة العاشرة وصل أسطول الاغاثة واقترب الى أن
صار يراى من الحصن وخيام المسلمين ، لكنه لم يستطيع الدخول الى وادى
سبو نظرا للطلقات النارية التى توجهها مدفعية المسلمين المركزة على ضفة
النهر . وفى اليوم التالى عين بطريق القرعة مركبان على ظهر كل منهما ضابطان
وأربعة جنود للتوجه - بالقوة - الى الحصن ، لكن هذه المحاولة باءت بالفشل ،
وفى يوم الجمعة 30 غشت عاودت سفينتان أخريان الكرة بدون نتيجة ، فقرر
رأى قائد الاسطول على أن يقتحم النهر بنفسه تقاديا لآخطار الانتظار والتردد .
وفى يوم السبت 31 غشت على الساعة الرابعة صباحا وصل الى الاسطول
زورق كبير قادم من الحصن دون أن يصيبه سوء أو يشعر به المسلمون . وكان
يحمل رسالة من قائد الحامية المحاصرة يطلب فيها بالحاج كبير من قائد
الاسطول أن يدخل الى النهر فى أسرع وقت ممكن ، لان الحصن المحاصر من
مسافة قريبة جدا معرض للسقوط ، ولان الحاجة ماسة الى الرجال بسبب
كثرة المرضى والجرحى . فتقدم قائد الاسطول بسفينة الكبرى تتبعه السفن
العربية الأخرى ، الا السفينة الانجليزية التى تمرد قائدها وهدد بتسليم

الى المغاربة المسالمين أو من يسمونهم MOROS DE PAS عبارة عن مغاربة شبه جواميس كانوا
يقودون بين الاخلاص الى ملك اسبانيا ، ويستخدمهم النصارى فى مقاصدهم مع المسلمين

باخرته اذا ما أرغم على الدخول الى النهر ، ووقعت معركة حامية بين المسلمين والبحارة الاسبانييين تبادل الطرفان خلالها طلقات المدافع في النهر ، ثم وقعت اشتباكات عديدة في البر ، وتمكن الاسبانيون أخيرا من الدخول الى الحصن وربط حبل الاتصال معه .

وفي يوم الاثنين 3 سبتمبر 1647 أخذ المسلمون المدفع الصغير النحاسي ، وتركوا المدفعين الحديدين محطمين ، ورفعوا الحصار عن حصن المعمورة ، بعد أن أضرمو النار في مصف المدافع ليلا أثناء انسحابهم .

هـ) حملات تاديبية في بلاد زعير والحياينة

قام محمد الحاج خلال العشرين سنة الاولى من ولايته بغارات عديدة في مختلف الاقاليم ، خالفه النصر في غالبيتها ، واستطاع أن يثبت الامن ويقضى على الثوار واللصوص والعابثين . ومن أشهر حملاته التاديبية قتاله لقبائل زعير بالقرب من وادي الشراط (82) خلال عام 1650/1661 - 1651 فشنت جموعهم وطارد رئيسهم الدقاق ، وجاست جنود الدلاء خلال ديار زعير وتعقب آثار رؤوس الفتنة فيها الى أن أدعت القبيلة كليا بالطاعة ، وركنت الى الخضوع والاستكانة واستراح الناس من عيبتها مدة طويلة . وفي السنة الموالية قام محمد الحاج بحركة مماثلة في ضواحي فاس ، قارع فيها قبيلة الحياينة وكسر شوكتها ، وكانت قد رجعت الى سابق عهدها في السلب والنهب وقطع الطرق وسفك الدماء . وتوجه وفد من علماء فاس الى مدينة الدلاء يرجون من السلطان محمد الحاج أن يكف عنهم القبيلة الباغية ويخلصهم من أذاها . وحملوا معهم سبعا من فتاوى أكابر فقهاء المدينة الادريسية تصرح بوجوب مقاتلة الحياينة الذين حاربوا الله ورسوله وسعوا في الارض فسادا (83) .

وسنتحدث في الباب السادس عن باقي العمليات الحربية التي خاض غمارها الدلائيون في العقد الاخير من دولتهم ، لأن تلك الفترة تمثل عهد التدهور والانحدار نحو النهاية الحتمية للزاوية الدلائية .

(82) يبعد وادي الشراط عن الرباط بنحو 37 كلم جنوبا

(83) أنظر نص هذه الفتاوى عند سليمان الحوات في البدور الضاوية ، من ورقة 112/1 الى ورقة 114/1 . كما توجد بالخزانة العامة بالرباط رقم 3270 ك نسخة مخطوطة خاصة بهذه الفتاوى ، وأصحابها هم القاضي أحمد الأزموري ومحمد بن سودة ، والعلماء محمد مبارزة ، وحميدون الابار ، وعبد السلام بن محمد ، وعلي بن محمد المروري ، وعبد القادر الفاسي . ومما جاء في فتوى القاضي ابن سودة : «وقال مالك أيضا في اعراب قطعوا الطريق ، جهادهم أحب الى من جهاد الروم» .

General and
 - - - - -

... ..

... ..

... ..

الباب الخامس

انتشار نفوذ الدلائيين السياسى

1 - الموريسكيون ينضمون تحت لواء الدلائيين

- (أ) المدجنون والموريسكيون
- (ب) الموريسكيون فى تطوان
- (ج) الموريسكيون فى الرباط
- (د) أسطول الجهاد أو القرصنة السلاوية
- (هـ) عبد الله الدلائى أمير سلا

2 - علاقات الدلائيين بأوروبا

- (أ) الدلائيون وفرنسا
- (ب) الدلائيون وإنجلترا
- (ج) الدلائيون والبلاد العواطنة (هولندا)
- (د) السفارة المغربية فى لاهاى
- (هـ) قضية تنصر أمير دلائى

3 - الدلائيون فى فاس

- (أ) أحمد بن محمد الحاج أمير فاس
- (ب) محمد الدلائى يخلف أخاه فى إمارة فاس

4 - آثار الدلائيين

- (أ) المباني فى الدلا وفاس
- (ب) النقود الاشقوبية

1 - الموريسكيون ينضوون تحت لواء الدلائيين

(أ) المدجنون والموريسكيون

المدجنون أو « MUDJARES » هم الأندلسيون المسلمون الذين رضوا بحكم النصارى عندما استرجع هؤلاء بلادهم فلم ينزحوا عنها تلبية لما لهم فيها من ضياع ومتاع . وتكاثر عدد أهل الدجن بتوالي سقوط القلاع والحصون الإسلامية ، وتسامح معهم الأسبان في بادئ الأمر ، ثم ضيقوا عليهم الخناق وألزموهم المقام في أحياء منعزلة خاصة بهم كاليهود ، ومنعواهم من حق شراء الأراضي وحمل السلاح ، وانتهى الأمر بالمدجنين بتوالي السنين والأجيال إلى فقد لغتهم ودينهم .

ولما استولى الأسبانيون على غرناطة آخر معقل للإسلام في الأندلس عام 1492/897 هاجر كثير من أشراف هذه المدينة إلى المغرب ، وتخلف آخرون واثقين بالعهود التي قطعها الملكان (فرديناند) و (إيزابيلا) FERDINAND et ISABELLA (I) على نفسيهما بتأمين المسلمين في أنفسهم وأموالهم ، واحترام دينهم وشعائهم . غير أن الأسبان لما لبثوا أن نكثوا عهدهم وسلكوا حيال المسلمين المغلوبين سياسة وحشية لم يعرف التاريخ لها مثيلا . فأرغموهم على التنصر ، وطاردوهم بالاتهامات الملققة على يد ديوان التحقيق (2) وقتلوا آلاف الأبرياء ومثلوا بهم ، وأحرقوا الكتب العربية أكداسا في ساحات غرناطة . وعرفت هذه الطائفة المنصورة من الأمة الأندلسية بالموريسكيين MORISCOS أو العرب الأصاغر ، ذاقوا الأمرين على يد الأسبانيين المتعصبين طيلة القرن السادس عشر وأوائل القرن السابع عشر وعوقبوا أشد العقاب على كل بادرة منهم تنبىء عن تدمير أو مقاومة . ويحدثنا المقرئ عن نهاية مأساة الموريسكيين

- (1) ارتقى (فرديناند) الخامس عرش مملكة (ارجون) بعد وفاة أبيه الملك يوحنا الثاني سنة 1479 . وكان قد تزوج قبل ذلك بالأميرة (إيزابيلا) التي جلست على عرش مملكة قشتالة على أثر وفاة أخيها الملك (هناري الرابع) سنة 1474 . وهكذا اتحدت المملكتان الأسبانيتان في ظل عرش واحد ، وتعاهد الملكان الكاثوليكيان المتعصبان على متابعة حرب المسلمين والقضاء عليهم نهائيا في إسبانيا .
- (2) لـديوان التحقيق أصول قديمة في الديانة المسيحية . وضع لأجل التأكد من سلامة العقائد الكنسية الرومانية وتطور مفهوم ديوان التحقيق فعدا يطارد الزيف في العقيدة والسحر معا . وتأسس ديوان التحقيق في قشتالة سنة 1478 بمرسوم من البابا المناهضة للكفر ومحاكمة المارقين . وابتدأ الديوان أعماله في إشبيلية وصب نغمته أولا على اليهود المنتصرين وكانوا كثيرين في هذه المدينة فقتل منهم وأحرق الوفا خلال عام واحد . ثم أنشئت محاكم التحقيق في سائر أنحاء إسبانيا ، وبثت عيونها في كل مكان للتجسس على المدجنين ثم على الموريسكيين ، فكان من أكبر الجرائم التي يعاقب عليها بالتعذيب الوحشي والقتل والحرق ، أن يكون لباس المتهم يوم الجمعة أفضل من لباسه يوم الأحد . أو أن يمتلك كتابا عربيا أو يقرأه أو يتكلم باللغة العربية .

في الإندلس بقوله : «... وقاموا في بعض الجبال على النصارى مرارا ، ولم يقيض الله لهم تعالى ناصرا ، الى أن كان اخراج النصارى اياهم بهذا العصر القريب أعوام سبعة عشر وألف ، فخرجت ألوف بفاس ، وألوف آخر بتلمسان من وهران ، وجمهورهم خرج بتونس ، فتسلط عليهم الاعراب ومن لا يخشى الله تعالى في الطرقات ونهبوا أموالهم ، وهذا ببلاد تلمسان وفاس ، ونجا القليل من هذه المضرة وأما الذين خرجوا بنواحي تونس فسلم أكثرهم ، وهم بهذا العهد عمروا قراها الخالية وبلادها ، وكذلك بتطوان وسلا وفيجة الجزائر. ولما استخدم سلطان المغرب الأقصى منهم عسكريا جرارا وسكنوا سلا كان منهم من الجهاد في البحر ما هو مشهور الآن ، وحصنوا قلعة سلا (3) وبنوا بها النصور والحمامات والدور ، وهم الآن بهذا الحال » (4)

(ب) الموريسكيون في تطوان

تطوان مدينة قديمة أسست قبل الاسلام لتخلف جارتها تمودة الرومانية وقد خربت تطوان القديمة وخلت من السكان في مستهل القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي) ثم جدد بناءها في أواخر هذا القرن نفسه المهاجرون الاندلسيون الذين نزحوا الى المغرب قبيل سقوط مملكة غرناطة ، وكانوا قلة لا يتجاوزون أربعين أسرة ، وتلاحقت وفود المهاجرين من الفردوس المفقود لتسكن المدينة المجددة في فترات متقطعة الى أن قضى الملك فيليب الثالث PHILIP III (5) بطرد جميع الموريسكيين من أرض شبه جزيرة ايبيريا عام 1609/1018 (6) فعبروا البحر الى العدو الافريقية ، واستقر عدد كبير منهم في تطوان .

وقد توارث آل المنطري الغرناطيون حكم مدينة تطوان منذ تجميعها واستغل مهاجرو الاندلس بالجهاد في البر والبحر والاعارة على البرتغاليين

(1) المراد بقلعة سلا قصبة الوداية الحالية

(2) أحمد المقرئ ، نفح الطيب ، 2: 617

(3) تولى فيليب الثالث عرش اسبانيا بعد وفاة والده الملك فيليب الثاني سنة 1598 . وكان في ضعيف الرأي يتأثر كآبيه بشراء الرهبان المتعصبين والوزراء المستبدين . وقد أصدر قرار التقي النهائي للموريسكيين في 15 شتنبر 1609 وأمرهم بالاحتشاد في الثغور ، ألا يأخذوا من متاعهم الا ما يستطيعون حمله على ظهورهم ، لتقليل السفن الاسبانية الى عدوة المغرب .

(4) اتفق المؤرخون الاوربيون على أن اقضاء المسلمين عن شبه جزيرة ايبيريا قد تم خلال سنتي 1609 - 1610 وهذا يوافق من التاريخ الهجري 1018 - 1019 وهو لا يختلف عما ذكره المقرئ في النص السابق من أن هذا الحادث قد وقع «أعوام سبعة عشر وألف» لا تشير به كلمة «أعوام» من التقريب .

الذين كانوا يحتلون مدن سبتة والقصر الصغير وطنجة (7) . وكان قوام جيش
المجاهدين التطوانيين في أوائل القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي)
أربعمئة من الفرسان وخمسمئة من المشاة ، وخمسة عشرة سقينة حربية
يهاجمون بها السواحل الإسبانية بمساعدة مراكب القراصنة الجزائريين . ثم
نضم عدد المجاهدين بكثرة المهاجرين المبعدين في القرن الحادي عشر (السابع
عشر) وانتقل حكم مدينة تطوان إلى أولاد النقسييس الذين ظلوا على رأس هذه
المدينة مدة طويلة (1006 - 1083/1597 - 1672) (8) وأول من ذكره المؤرخون
من أفراد هذه الأسرة هو المقدم (9) أحمد بن عيسى النقسييس الذي انتصر
على الإسبانيين انتصارا كبيرا حتى كاد يطردهم من مدينة سبتة أيام أحمد
النصور الذهبي . وبعد انقسام الدولة السعدية إلى مملكتي فاس ومراكش ،
انضم أولاد النقسييس إلى سلطان فاس لقربه منهم ولم يخضعوا للمجاهدين
العياشي عندما امتد نفوذه على أقاليم مملكة فاس المنقرضة ، فاقترح عليهم
قائده سليمان بن يوسف تطوان عام 1041/1631 وجند نحو ثمانية آلاف رجل
من الأندلسيين لمطاردة عبد الله النقسييس الذي فر إلى بلاد غمارة أولا ثم التجأ
عند الإسبانيين في سبتة . وظل نفوذ العياشي قائما بتطوان حتى أواخر
إيامه . وبعد ذلك «استقلت هذه المدينة بحكم نفسها ، وبأمر الحكم فيها مجلس
من أهلها الذين كان جلهم في هذا العهد من مهاجري الأندلس ، ثم بعد مدة
عاد الأمر فيها إلى أولاد النقسييس» (10) والدلائيون هم الذين أعادوا أولاد
النقسييس إلى تطوان ونصبوهم عمالا عليها يحكمونها باسمهم . غير أنه نظرا
لبعد مدينة تطوان عن عاصمة الدلائيين ، وضعف وسائل المواصلات آنذاك ،
ووفوق الاضطرابات في القبائل من حين لآخر كان لرؤساء تطوان نوع من
الاستقلال في الحكم فكانت صلتهم برؤسائهم الدلائيين تقوى أو تضعف تبعا
لإستقرار الأحوال الداخلية أو اضطرابها . لكن لا يمكن بحال أن نعتمد على بعض
مظاهر التصرف المطلق لأولاد النقسييس لنزعم أن مدينة تطوان كانت مستقلة

17 احتل البرتغاليون مدينة سبتة عام 1415/818 - 1416 بعد حصار دام ست سنوات ، وظلت
تحت حكمهم أكثر من قرنين ونصف ، ثم سلموها إلى الإسبانيين حوالي عام 1080/1669
- 1070 . وملكوا القصر الصغير الذي يسمى أيضا قصر مصمودة وقصر المجاز ، بين سبتة وطنجة .
عام 1457/862 - 1458 . واحتل البرتغاليون بعد ذلك طنجة عام 1464/869 - 1465
وحكموها ما يقرب من قرنين . ثم تنازلوا عنها لانجلترا عام 1072/1661 كمهر قدمته
كاترين دوبراكانس شقيقة ملك البرتغال لزوجها شارل الثاني ملك إنجلترا ، وقد
استرد المولى اسماعيل مدينة طنجة من إنجلترا عام 1095/1684 .

(8) محمد داود ، تاريخ تطوان ، القسم الثاني من المجلد الأول ، ص 174

(9) المقدم لقب خاص برئيس جماعة المجاهدين

(10) محمد داود ، تاريخ تطوان ، ج 1 ص 232

لم يشملها نفوذ الدلائيين . والنصوص الصريحة المتقدمة تعد هذه المدينة من جملة مناطق نفوذ محمد الحاج (I1) ، والمعاهدة التي أمضاها سلطان الدلاء في 19/1067 غشت 1657 مع الحكومة الانجليزية تؤكد انه صاحب النفوذ في تطوان (I2) وظلت هذه المدينة وفيه للدلائيين حتى بعد قيام الثورات ضدهم في بلاد الغرب ، ولم تستسلم تطوان الى الخضرغيلان الا بعد ان اندحرت امامه جيوش محمد الحاج في وقعة «وادي بوحيرة» (I3) بالقرب من ساحل مولاي بوسلهم عام 1660/1070 .

ج) الموريسكيون في الرباط

- ان اهم جالية أندلسية قدمت الى المغرب استوطنت الرباط والقصبة (I4) . وقد ان يذم الموريسكيون بالجللاء العام عن شبه جزيرة ايبيريا ، هاجر الى القرب سكان هورناتشو (I5) المعروفون بصدق عقيدتهم الاسلامية واثرائهم بالوسع ، فاستقروا بقصبة سلا وحصنوها وبنوا فيها الدور والقصور والحمامات ، ثم كانت الهجرة الاندلسية الكبرى في مستهل القرن السابع عشر فازدحمت الرباط والقصبة بالموريسكيين ، ودخلوا في طاعة زيدان بن المنصور ملك مراكش فأمر عليهم القائد فاضل الزعروري الانصاري . وحدث بعد بضع سنون من تولية هذا القائد أن رجع المجاهد العياشي الى سلا ناجيا بنفسه من المؤامرة التي دبرها السعديون ضده في آزمور ، فبعث زيدان الي قائده

(1) عن ان الاستاذ عبد السلام بنسودة - مشكورا - بقصيدة نظمها بعض الشعراء من اهل

تطوان حين دخل الامير محمد الحاج الدلائي مدينتهم أيام ولايته ، مطلعها :
سراك تطوان بشسرى
ولمست كل المعالكي
سمرت عسرا وفخسرا
وحزت صيلا وذكسرا

وب
وكيف لا قد اتانا
مولانا سلطان عبدل
وب المواهب خيرا
قد صار فضله بحرا

(2) دو كستري ، سلسلة وثائق انجلترا ، 5883

(3) لائق بوحيرة يقع بالقرب من المارحة الزرقاء غرب مركز سوق أربعاء الغرب ، لا في ناحية القصر الكبير كما يظن ذلك بعض الاوربيين

(4) كانت الرباط والقصبة قبل مجي الاندلسيين اليهما تنسيبان معا الى سلا ، فيقال رباط سلا وقصبة سلا . ثم صارت المدن الثلاث تدعى اجمالا مدن سلا . وعند التفصيل يعبر عن سلا الحالية بسلا القديمة . وعن الرباط بسلا الجديدة ، وبقيت القصبة منسوبة الى سلا الى ان سكنها جيش الودايا أيام السلطان عبد الرحمن بن هشام العلوي فسميت قصبة الودايا ، كما استرجعت الرباط الاسم الذي أطلقه عليها مؤسسوها الموحدون وهو رباط الفتح .

(5) موزة شم مدينة في جنوب غربي اسبانيا بين اشبيلية وماردة . بعيدة على الاولى بنحو 170 كلم شمالا ، وعن الثانية بنحو 50 كلم جنوبا



مناظر العدوتين في منتصف القرن السابع عشر
التي كانت من أهم مفاصل سفن الجهاد (الفرصة)

تتمثل الصور في العملية التي باط. والعصريات الاخرى سلا مرفأ سفن الجهاد (الفرصة)

الزعروري أن يقبض على العياشي أو يغتاله ، لكن شيوخ الاندلسيين وأعيانهم عارضوا في تنفيذ هذا الأمر ، وتطوعت جماعة منهم لملازمة مجاهد سلا وحمايته من كل اعتداء . (16) ثم صدر أمر ثان إلى القائد الزعروري بتجهيز جيش من الاندلسيين المقيمين في القصبنة وتوجيهه إلى درعة لخماد فتنة قامت هناك ، فوجه منهم أربعمائة مقاتل وطالت غيبتهم بالصحراء إلى أن قرأ أكثرهم ورجعوا إلى ديارهم حائقين ، وامتنع الاندلسيون بعد ذلك من الاستجابة للقائد الزعروري الذي كان يبلغهم أوامر ملك مراكش بالتجنيد والمساهمة في العمليات العسكرية بالجنوب ، ورأوا أن يتخلصوا منه بوسيلة أو بأخرى فوشوا به إلى السلطان زيدان ولفقوا ضده اتهامات مثيرة ، فبعث زيدان من قبض على القائد الزعروري ، وولى على المدينتين مملوكا له يسمى عجيبا ، لكن الموريسكيين لم يلبثوا أن ثاروا على هذا المملوك وقتلوه ، قاطعين بذلك صلتهم ببلاط مراكش وأقاموا عنهم عاملا جعلوه مسؤولا أمام مجلس مختار لمدة محدودة يقع تجديده بطريقة الانتخاب . فتكونت بذلك الجمهورية الموريسكية الأولى بالرباط ، ثم فعل سكان القصبنة ما فعله جيرانهم فكونوا جمهورية ثانية مماثلة وذلك حول عام 1040/1630 . وربطت الجمهوريتان في بادئ الأمر علاقات طيبة مع المجاهد العياشي الذي كان نفوذه يمتد من سلا إلى تطوان ، واعترفتا بسلطته مع الاحتفاظ باستقلالهما الداخلي ، وساعدته في حركاته الجهادية «بالرماة والبارود والانفاط» (17) ثم فسد الجو بين العياشي والموريسكيين حين امتنعوا عليه فيما كان يريد من توحيد وادماج ، وأبوا إلا أن يظلوا متميزين الشخصية . وبحث الموريسكيون عن سند يعتمدون عليه ، وحليف يظاهرهم على خصمهم الرابض أمامهم وراء النهر ، فلم يجدوا غير الملك السعدي صاحب مراكش ، لكنه كان عاجزا عن أن ينجدهم بله أن يرجح كفتهم . فمدوا أيديهم إلى الأسبانيين - حسب الروايات المستفيضة - ووطدوا الصلات مع حامية المعمورة وأمدوها بالطعام والذخيرة في الوقت الذي كان العياشي وصحبه يربطون حول هذا الحصن ويضيقون عليه الخناق حتى كاد يسقط في أيديهم . وقد رأينا ما فعل العياشي بالموريسكيين من الحصار والقتل والتشريد اعتمادا على فتاوى العلماء إلى أن تدخل الدلائيون لصالح مهاجري الاندلس ، فكان في ذلك نهاية المجاهد العياشي . وعلى أثر ذلك تكونت في سلا جمهورية ثالثة على غرار الجمهوريتين القائمتين في الرباط والقصبنة . ولم يكن تكوين الجمهوريات على هذا النحو بدعا من النظم في ذلك العصر خصوصا في مراكز القرصنة

(16) عبد القادر املاق ، الخبر عن ظهور العياشي ، ص 10

(17) عبد العزيز الزياتي ، الجواهر المختارة ، ورقة 125/ب

الفتية . وقد أقر الدلائيون هذا الموضع في الجمهوريات الصغرى الثلاث بعد أن استندوا أمر النيابة عنهم فيها جميعا إلى قائد سبلا الامين سعيد الجنوى (18) وبذلك أصبح له الإشراف على قائد الرباط أبى الطيب بن عبد الرحمان عبدون (19) وقائد القصبية الحاج يوسف السنسلياض (20) . ثم ترك سعيد الجنوى أمر قيادة سبلا إلى عامر بن محمد (21) ليتفرغ هو للإشراف على الشؤون العامة وتنفيذ سياسة الدلائيين في العدوتين . وسارت الأمور في المدن الثلاث سيرا عاديا بضع سنوات ، غير أن الموريسكيين في القصبية غاودهم الحنين سيرا إلى الاستقلال التام ، ورغبوا في الانفصال عن الدلائيين ، وجددوا صلاتهم بالملك السعدي صاحب مراكش فتصدى لقتالهم محمد الحاج الدلائي . وبعد أن أمر الرباطيين بأن يهاجموهم من البحر ، أغرق في مدخل النهر سفينة لتعزيز حصار القصبية من البحر . ولم تجد النجدة التي قدمها للمحاصرين (بافتح) أترك الجزائر وسلطان مراكش . واستسلم الموريسكيون في النهاية ، فأخرجهم الرئيس محمد الحاج من القصبية ولم يترك فيها إلا جنودا مغاربة .

(د) أسطول الجهاد أو القرصنة السبلاوية

لا أقصد بالقرصنة هنا ما يدل عليه أصلها الأعجمي « Course » من لصوصية بحرية ، وإنما أعني بالقرصنة السبلاويين أولئك المجاهدين الأندلسيين والمغاربة الذين خاضوا بسفنتهم عباب البحر للدفاع عن حوزة الوطن ، أو للثأر من الأسبانيين الذين ساءوا المسلمين في الأندلس سوء العذاب وأخرجوهم من ديارهم وأموالهم بغير حق ، وإذا كان تاريخ البحرية في مصب أبى رقرق يرجع إلى القرن السادس (الثاني عشر الميلادي) أيام الملك الموحدى عبد المؤمن صاحب الأسطول العربي الجبار ومؤسس دار الصناعة البحرية بضاحية مدينة سبلا ، فإن القرصنة لم تعرف في المغرب إلا على عهد المرينيين حينما استقر وكر قرصني في حلق المعمورة «فعظم شأنه واستفحل أمره . وكان القائمون عليه اخلاطا من جميع الأعصار ، فيهم من المسيحيين

(18) الامين سعيد الجنوى قائد سبلا وحاكم العدوتين من طرف الدلائيين . صار خليفة للامير عبد الله الدلائي عام 1061/1051 وظل أمين سره إلى أن توفي بسبلا في أوائل ذي الحجة عام 1065/أكتوبر 1655

(19) أسرة عبدون أندلسية كانت في الرباط ثم انقرضت

(20) السنسلياض (بفتح السين الأولى ، وسكون النون والسين الثانية ، وضم الضاد) اسم اسباني من جملة الاسماء التي احتفظ بها الموريسكيون المهاجرون إلى المغرب وقد انقرضت هذه الأسرة الآن

(21) عامر بن محمد من أسرة حركات الشهيرة بسبلا حتى اليوم

أكثر من المسلمين ، ثم صارت سلا خاصة المدينة القرصنية الرابعة - حسب دو كامستري - بعد طرابلس الغرب ، وتونس ، والجزائر (22) . وقد كون المهاجرون الأندلسيون بالرباط والقصبة في عسنتيل القرن السابع عشر أسطولا حربيا قويا أخذوا يغسرون به على مراكب الاعداء في عرض البحر ، ويهجمون على السواحل الإسبانية ، كما فعل اخوانهم المقيمون في تطوان . وتطورت هذه القوة البحرية في عهد العياشي والدلائيين ، وظلت تثير الرعب في نفوس البحارة المسيحيين طيلة القرنين السابع عشر والثامن عشر ، الامر الذي حدا بالدول الأوروبية على أن تخطب ود المغرب وتؤدي له الجزية لضمان سلامة سفنها التجارية التي تمر عبر غاب الاطلنطيق (23) . وازدهرت مع أسطول الجهاد من جديد صناعة السفن على ضفاف نهر أبي رقراق ، وزودت هولاندا ، وهي أعظم دولة بحرية في ذلك العصر ، هذه المصانع بما تحتاج اليه من المواد . وكان البحارة العاملون في أسطول الجهاد مزيجا من الموريسكيين والسلووين وغيرهم من المتحمسين للمقتال في سبيل الله ، أو الطامعين في الكسب والاثراء . وقد سماهم الأوروبيون قراصنة سلا « LES CORSAIRES DE SALE » واشتهروا بهذا اللقب فدعوتاهم كذلك ، على أن القرصنة البحرية كانت عامة في ذلك العصر يقبل عليها المسيحيون والمسلمون دون تمييز أو استحياء ، وكأنها نوع من الحرب القائمة باستمرار بين الدول الغير المتهادنة أو المتحالفة . وقد غنم هؤلاء المجاهدون أو (القراصنة السلووين) في ظرف عامين فقط أربعين سفينة ، واستولوا فيما بين سنة 1618 وسنة 1626 على ستة آلاف أسير من الأفرنج ، وخمسة عشر مليون ليبرة (24) وكان الاسترقاق شائعا آنذاك عند المسلمين والأوربيين على السواء ، فنفقت أسواق النخاسة في العدوتين وملك المسلمون المسيحيين عبيدا واماء وامتلات أيدي البحارة بأثمان الاسرى المالك أو بالاموال التي يحصلون عليها مقابل اطلاق سراحهم وردهم الى ذويهم أو حكوماتهم .

(هـ) عبد الله الدلائي أمير سلا

رأى السلطان محمد الحاج الدلائي بعد أن حملت اليه بيعات المدن والقرى عام 1061/1051 أن يغير سياسته تجاه منطقة الغرب التي تعد أهم ناحية في مملكته ، والا يكتفى باستنابة أحد الاهالي مهما بلغ حزمه واخلاصه

(22) عبد العزيز بن عبد الله ، البحرية المغربية والقرصنة ، مجلة تطوان 1958 - 59 العددان 3 - 4 ص 68

(23) نفس المصدر ونفس الصفحة

(24) نقل ذلك عن دو كامستري محمد بوجندار في مقدمة الفتح ، ص 54

فأسند أمر المدن الثلاث سلا والرباط ، والقصبة الى ابنه عبد الله الذي تلقبه المصادر الاوربية بأمر سلا أو سيد سلا « LE SEIGNEUR DE SALE » واستقر عبد الله الدلائى فى قصر الامارة بالقصبة ، وقرب اليه الامين سعيد الجنوى وجعله خليفته وأمين سره ، وأخذ يرجع فى مهام الامور الى اعيان العدوتين فلا يقطع أمرا دون مشورتهم . واتخذ القاضى الاديب عبد المالك التاجموعتى (25) كاتباً خاصاً له ، فكان يحبر الرسائل التى تصدر عن أمير سلا الى مدينة الدلاء وغيرها . بل وحتى المراسلات الموجية باللغة العربية الى الاعاجم فى أوربا لم يخل بعضها من سجع وجناس ومحسنات بدعية أخرى . وكان ديوان الأمير الدلائى يضم الى جانب التجموعتى كتاباً آخرين من الموريسكيين يحررون الرسائل والمعاهدات باللغة الاسبانية . وكان مجلس الأمير الدلائى فى سلا لا يخلو من علماء وأدباء يذاكرهم ويدرسهم على نحو ما درج عليه فى الزاوية الدلائية ، كما كان يساجل اخوانه وأقرانه فى الدلاء وغيرها ، ويعقد المجالس العلمية فى المساجد بحيث لم تنقطع صلته بالعلم والادب بالرغم من أشغاله السياسية والحربية .

ولم تكن مهمة الأمير عبد الله الدلائى تقتصر على النيابة عن والده فى تولى شئون مدن أبى رقراق ، وإنما كان يقوم الى ذلك بوظيفة وزير الخارجية فى الحكومة الدلائية ، فيستقبل ممثلى الدول الأجنبية ويفاوضهم ويعقد معهم المعاهدات التجارية وغيرها ، ويراسل رؤساء الدول باسم والده ويتلقى خطاباتهم . كما كان كثيراً ما يتولى قيادة الجيوش فى تحركاتها بمختلف الاقاليم الخاضعة لنفوذ الدلائيين . فينوب عنه فى تصريف الامور عندما يتغيب عن سلا خليفته الامين سعيد الجنوى . وهكذا امتاز هذا الأمير الدلائى بالعلم والادب والشجاعة والاقدام ، فكان رب السيف والقلم معا . الا انه كان مغرط الرزافة كثير التأنى والتريث ، يدرس الاشياء على ميل ، ويقلب وجوه النظر فى الامور قبل أن يبت فيها . وقد لا يبدو له وجه الصواب فى المسألة فيتركها معلقة ، أو ترد عليه قضايا مستعجلة وهو يشتغل بأخرى ، فيؤجلها الى أن يتفرغ لها دون أن يعير جانب الاستعجال أى اهتمام . أما جوابه عن الرسائل فكان بطيئاً متثاقلاً سواء فى ذلك المراسلات الرسمية والاخوانية . وقد كتب له أبوه فى الايام الاولى من اضطراره بمهام الامور فى مدن سلا يستخبره عن الاحوال فلم يرد عليه بشىء . فكتب اليه مرة ثانية يستحنه الجواب ويؤنبه

(25) أبو مروان عبد المالك بن محمد التجموعتى قاضى سجلماسة . اديب شاعر نادر . ألف كتابين فى الرد على الامام اليوسى . أولهما ملاك الطب فى جواب استاذ حلب يعنى بأستاذ حلب أبا العباس الحلبي دفين فاس ، ولما انتقد اليوسى ألف فيه رسالة ثانية سماها خلع الاطمار البوسية بدفع الاسطار اليوسية . توفى عام 1706/1118 - 1707 .

على هذا التأخير الذي يقلق بال الوالد ويجعله فريسة الهواجس والاهتمام وكذلك فعل عبد الله مع بنى عمه تباطأ عنهم فلاموه وعاتبوه ، وربما بعضهم بالترفع والتكبر . وكاد هذا التريث الغريب يجر على الامير عبد الله الدلائى سرورا كثيرة فى علاقاته مع ممثلى الدول الاجنبية . فقد هم مرة قائد الاسطول الهولاندى أن يقنبر العدوتين بعد أن طال انتظاره فى عرض البحر أمام سلا دون أن يتلقى جواب الامير عبد الله عن الوثائق التى حملها اليه من حكومته ، وعد هذا الإبطاء اهانة له واستخفافا بشأته (26) .

وهناك جانب آخر من شخصية الامير عبد الله الدلائى لا ينبغي اغفاله ، وهو غيرته الدينية وحميته الاسلامية . فقد كان يثرب أعماله بميزان الشرع ولا يتساهل فى أى شىء مهما كان ضئيلا اذا خالف أصلا من أصول الدين . ويكفى للتدليل على ذلك معارضته للمعاهدة التى أبرمها قبيل مجيئه الى عدن سلا رؤساء هذه المدن مع الولايات العامة (هولاندا) لان الفصل الرابع منها نص على مجافاة طائفة من المسلمين وعدم التعامل معهم بالبيع والشراء ، وقطع العلاقات معهم نهائيا فى سبيل حلفاء غرباء لا تكاد مصالحهم تبدل حتى ينقلبوا خصوما محاربين . وظلت المخابرات جارية بين سلا ولاهاى نحو 7 سنوات لتعديل هذه المعاهدة والرسل تتردد بين البلدين حاملة الاقتراحات المضادة فى الموضوع ، والعلاقات تتوتر حتى تؤذن أحيانا بشر مستطر . ومع ذلك لم تكن قناة الامير عبد الله الدلائى ولم يصادق على الاتفاقية مع هولاندا الا بعد حذف الفصل الرابع وادخال تعديلات أخرى لصالح المسلمين .

2 - علاقات الدلائين بأوروبا

للمغرب علاقات قديمة مع أوروبا يرجع تاريخ توطيدها الى أواخر القرن العاشر الهجرى (السادس عشر الميلادى) حينما تردد فى أوروبا من أقصاها الى أقصاها صدى الانتصار الباهر الذى أحرز عليه المغرب ضد البرتغال فى معركة وادى المخازن عام 1578/986 . وأدركت الدول الاوربية اذ ذاك أهمية القوة الحربية التى تتوفر عليها هذه البلاد ، فسارعت الى ارسال السفراء والهدايا الى بلاط مراكش للتودد الى الملك السعدى أحمد المنصور الذهبى ، وللعمل على كسب صداقته والتحالف معه . وبعد موت المنصور وانقسام السعديين على أنفسهم بتكوين مملكتى فاس ومراكش ، وقيام الثوار فى كثير من الجهات ، رأت الدول الاوربية أن تساير الواقع للمحافظة على مصالحها وسلامة رعاياها

(26) بقى قائد الاسطول الهولاندى G. DE WILDT فى عرض البحر ينتظر جواب الامير عبد الله الدلائى من 27 يوليو الى 5 غشت 1658 . انظر دو كاسترى ، وثائق لم تشر لتاريخ المغرب ، سلسلة البلاد الواطنة ، 392:6 - 416

في المغرب ، فأخذت تفاوض ذوي السلطة والنفوذ في كل منطقة تبينها ، سواء كانوا من السعديين أو غيرهم . حتى إذا آل أمر وسط المغرب وشماله إلى الدلايين مد اليهم الاوربيون أيديهم وعقدوا معهم الصفقات التجارية ، وأعضوا المعاهدات السلمية التي تقوم على التعاون والتحالف ، وبعثوا بقناصلهم إلى سلا وتطوان .

وقد استفاد الدلاييون كثيرا من احتكاكهم بالاوربيين ، واستغنوا بالاعشار التي فرضوها على البضائع المصدرة إلى أوروبا والمستوردة منها . وازدهرت في أيامهم المبادلات التجارية ، فكان المغرب يصدر إلى الخارج الجلود والصوف ، والشمع ، وزيادة على القصدير الذي اكتشف منجمه بالقرب من سلا أيام المجاهد العياشي ، وأعطى امتياز استغلاله إلى تجار فرنسيين . ويجلب المغرب في مقابل ذلك من أوروبا التبغ والقمشة وبعض المصنوعات الأخرى . وكان الدلاييون يملصون من التعهد بالمحافظة على قيمة الضرائب المفروضة على البضائع في الموانئ ، وإذا اضطروا إلى قبول مثل هذا الشرط تحت الحاح المفاوضات الأجانب ، وأمضوه في الاتفاقيات والمعاهدات ، فانهم لا يلبثون أن يقتنموا أول فرصة سانحة للتحرر من هذا القيد والزيادة في التعريفات الجمركية . ومنذ أن عين الأمير عبد الله الدلائي حاكما على مدن سلا (عام 1651/1661) أخذ يتاجر بطريق البحر مع أقطار شمال افريقية ، وبخاصة الجزائر ، ولم تنقطع السفن التجارية صادرة عن سلا أو واردة إليها ، وعلى ظهرها حمولات هامة من البضائع المختلفة التي تدر على الدلايين أرباحا طائلة وكانت هذه الحركة التجارية ، ومسألة تأمين السفن والتجار ، وتعويضهم عن الخسائر التي تصيبهم من أعمال القرصنة ، محور كثير من المفاوضات مع الأجانب وموضوع مراسلات ومعاهدات . على أن هناك ناحية أخرى أفاد منها الدلاييون في اتصالهم بأوروبا ، وكانت تمهيم أكثر من مسألة المداخيل الوفيرة ، وهي ناحية التزود بالأسلحة والذخيرة الحربية من بندقيات ومدافع ومسحوق البارود . وكانت البلاد الواطئة (هولاندا) في مقدمة الدول الأوروبية التي تمد الدلايين بهذه المواد الهامة ، زيادة على الأدوات والقطع اللازمة لسير معامل صنع السفن وترميمها المنتشرة على ضفتي نهر أبي رقراق .

وشملت العلاقات بين الدلايين والاوربيين فيما شملت الناحية الثقافية وإن لم تلمسها إلا لمسا خفيفا . فقد كان المستشرق (جاكوب كول) JACOB GOOL or GOLIUS ، أستاذ اللغة العربية بجامعة ليدين يستجلب المخطوطات العربية من المغرب ، لاسيما المتعلقة منها بالتاريخ ، ليترجمها إلى اللغة اللاتينية . وكانت حكومة البلاد الواطئة تقتني هذه الكتب لحسابها الخاص

بواسطة قنصلها في سلا (دافيد دو فرييس) « DAVID de VRIES » وسبق لهذا المستشرق في المدة التي قضاها بالمغرب مع القنصل الهولندي (البيير رويل) « ALBERT RUYL » أن اقتنى كثيرا من المخطوطات العربية النادرة وحملها معه الى بلاده . وعندما زار السفراء السلاويون مدينة لاهاي (1659/1669) قدمت لهم الحكومة الهولندية من جملة الهدايا كتباً عن جغرافية البلاد الواطئة ، وأرسلت بواسطة امير عمدة الله الدلائي كتاباً ضمينا في نفس الموضوع .

واذا كانت لبعض الدول الاوربية مطامع توسعية تهدف اليها من وراء تشجيع الثوار والخارجين على السلطة الشرعية في المغرب ، فان مساعدة هولاندا للدلايين كانت لامرئين ، اولهما ضمان سلامة أسطولها التجاري في المحيط الاطلنطيقي والبحر المتوسط ، والثاني الانتقام من اسبانيا عدوة الهولانديين والمغاربة على السواء . وقد ظلت مسألة اتصال الدلايين بأوروبا عجيولة عند المؤرخين المغاربة الى أن كشف عنها القناع الكونت دو كاستري في كتابه **مصادر لم تنشر لتاريخ المغرب** « LE CONTE DE CASTRIES, LES SOURCES INEDITES DE L'HISTOIRE DU MAROC » اعتمدت في هذا الفصل على ما نشره دو كاستري من وثائق وما كتبه من مقدمات وتعليقات مقتضرا على ذكر علاقات الدلايين بثلاث دول أوربية بقدر ما يمكن من الاختصار ، وهي فرنسا وانجلترا والبلاد الواطئة (هولاندا)

أ) الدلاييون وفرنسا

كانت العلاقات متوترة بين المغرب وفرنسا في مطلع القرن السابع عشر بسبب أعمال القرصنة البحرية وما ترتب عنها من تدوير في تجارة الفرنسيين بالمغرب وأسر عدد عديد منهم في البحر بيعوا عبيدا في سلا . فرأت الحكومة الفرنسية أن تعين (30 نونبر 1629) أحد تجار مرسيليا يسمى أندري برا Andre Prat قنصلا في مدينتي سلا وتطوان ليهتم بمشاكل الفرنسيين بالمغرب ويعمل على اقتداء الأسرى . غير أن هذا القنصل لم يلتحق بمقر عمله بسبب خلاف نشب بينه وبين حكومته في قضية التعيين وظل بمرسيليا يتمتع بالحقوق القنصلية ويستخلص الاعشار المفروضة على السفن الصادرة عن ذلك الميناء (27) . وبعد نحو ست سنوات رأى أندري برا أن يرسل كاسبار دورستان « GASPARD DE RASTIN » لينوب عنه في مهمته القنصلية بسلا . فعلا قام دورستان بالامر ، واستطاع أن يحصل خلال عام 1649/1649

(27) كانت وظيفة قنصل في ذلك العصر تعتبر حقا مكتسبا لصاحبه يتصرف فيه كيف يشاء . فله أن يباشر العمل بنفسه أو أن يتيب عنه من يراه أهلا للقيام بالمهمة

على اتفاق مع المجاهد العياشي لحماية الفرنسيين من القراصنة السلاويين ،
واعطاهم حق الامتياز لاستغلال معدن القصدير الذي اكتشف بالقرب من
مدينة سلا . الا أن مشكلة المشاكل بين البلدين في ذلك التاريخ على قضية
الاسرى التي سبق لفرنسا أن اتفقت مع المجاهدين السلاويين على تحريرهم
في أجل محدد مقابل فداء خاص . لكن لم تف فرنسا بتعهداتها فاضطربت
الأحوال وتوقفت التجارة نهائيا بسبب أعمال العنف المرتكبة من الجانبين
ورأى القنصل أندري برا حينئذ أنه أصبح من الضروري أن يذهب بنفسه إلى
المغرب ليدلل الصعوبات القائمة ، واصطحب معه ابنه هنري « HENRI »
وقد عرف القنصل كيف يستميل إليه السلطان محمد الحاج الدلائي بما كان
يقدم إليه من هدايا ، ونجح في اقناعه بأن من مصلحة السلاويين أن يضربوا
صفحا عما لهم من التزامات قديمة مع فرنسا ، ليربطوا معها علاقات تجارية
جديدة . وبعد مفاوضات طويلة مع رؤساء مدن أبسى رقراق العاملين باسم
السلطان محمد الحاج الدلائي عقد معهم أندري برا اتفاقية لتوطيد العلاقات
التجارية بين فرنسا والمغرب ، ثم أمضى معهم في السنة التالية اتفاقية ثانية
في نفس الموضوع . وبالرغم من كون القنصل برا عقد هاتين الاتفاقيتين بصفة
شخصية دون تفويض رسمي من حكومته فانهما استطاعتا على الأقل أن تعملوا
على تحسين العلاقات بين البلدين ولو إلى حين . وأخيرا رجع أندري برا إلى
بلاده متنازلا لولده هنري عن مهمة القنصلية في المغرب ، وأقرت الحكومة
الفرنسية ذلك وأصدرت مرسوما مؤرخا في 20 أكتوبر 1648 تعين بمقتضاه
هنري برا « HENRI PRAT » قنصلا في سلا وتطوان . غير أن هذا القنصل
الشاب كان يتسم بالفتور واللامبالاة ، فلم يعمل على تحسين العلاقات بين
بلاده والمغرب ، وجرت في أيامه أحداث عنف متعددة كان من بينها استيلاء
القراصنة السلاويين على سفينة فرنسية قادمة من الأرض الجديدة
« TERRE NEUVE » (28) وعلى ظهرها أربعون من النصارى ، بيعوا جميعا في
سلا بطريق المزاد العلني ، وأضيفوا إلى العدد الوافر من العبيد الفرنسيين
الموجودين بهذه المدينة .

وبقى هنري برا يتولى منصب قنصل فرنسا في سلا وتطوان إلى ما بعد
نهاية ايامه الدلائيين ، وسلك نفس الخطة التي سار عليها أبوه من قبل ،
فرجع إلى فرنسا وجعل يرسل نوابا عنه يقومون بأعمال القنصلية ، منهم

(28) الأرض الجديدة أو TERRE NEUVE هي جزيرة كبرى في أميركا . تبلغ مساحتها 110677 كلم وسكانها 361400 . بقيت الأرض الجديدة إلى سنة 1949 مستعمرة إنجليزية .
ثم أصبحت من هذا التاريخ مستقلة تكون الولاية العاشرة من ولايات كندا

أنطوان جوليان بارازول « ANTOINE JULIEN PARASOL » وفرنسوا جوليان « FRANÇOIS JULIEN » وهكذا ظل مشكل العلاقات المغربية الفرنسية قائما لم تستطع الحلول الجزئية والموقفة التي أشرنا الى بعضها أن تعمل على حسمه. وسيكون هذا المشكل موضوع مفاوضات وسفارات بين الملكين مولاي اسماعيل ولويس الرابع عشر .

(ب) الدلايون وانجلترا

تمتنت العلاقات بين المغرب وانجلترا أيام الملك أحمد المنصور الذهبي والملكة اليزابيث (29) وشهد مستهل القرن السابع عشر تعاوننا عثما بين البلدين خصوصا في الميدان التجاري . ولما قام العياشي بحركة الجهاد ضد الاسبان والبرتغال حاول أن يستعين بالانجليز لطرد المحتلين من شواطئ المغرب ، ولكن الانجليز كانوا يطمعون في احتلال مدينتي سبتة وطنجة ويميلون الى الموريسكيين المقيمين في تطوان والرباط أكثر مما يميلون الى المجاهد العياشي . لاعتقدهم أن هؤلاء الموريسكيين الغرباء المطرودين من شبه جزيرة ايبيريا يمكن أن يساعدوهم في احتلال سبتة وطنجة لمجرد الانتقام من أعدائهم الاسبانيين والبرتغاليين ، بعكس الحال مع المجاهد العياشي الذي كان يعمل لاسترجاع الشغور المحتلة الى حظيرة الوطن . هذا الى ما كان يساع من تفتيح قلوب الموريسكيين للمذهب البروتستانتي . وقد جاء في تقرير للسفير الانجليزي هاريسون : « .. كثير منهم قد اعترفوا لي بأنهم في داخليتهم مسيحيو القلوب ، وهم يتظلمون بمرارة من تلك الطردة القاسية . ويعرضون خدماتهم باسم جميعهم اذا كانت هناك أى حالة حرب ضد اسبانيا ، مشتاقين بحرقه الى أن يصبحوا تحت حكم مسيحي مرة أخرى » (30)

وفي منتصف القرن لسابع عشر كانت انجلترا فقدت مكانتها القديمة في المغرب كدولة صديقة بعد أن ظهرت أطماعها الاستعمارية في تصرفاتها للتوية المتناقضة ، وأغضبت كلا من حلفائها التقليديين الملوك السعديين بمراكش ، والدلايين أصحاب النفوذ في الشغور الواقعة شمال أم الربيع . يتجلى ذلك في حادثة السفينة الانجليزية التي كانت متجهة الى جزر كاناري وألقت بها العواصف بالقرب من آسفى . فقد اعتقل محمد الشيخ الاصغر السعدي ركاب هذه السفينة الانجليزية ، وعددهم 27 رجلا انتقاما من حكومتهم

(29) انظر في موضوع العلاقات بين المنصور الذهبي وايليزابيث ، عبد العزيز الفشتالى ،

مناهل الصفا ، مخطوط الخزائن العامة بالرباط ص 247 وما بعدها

(30) من تقرير للسفير هاريسون الانجليزي في 8 أكتوبر 1630 ، المترجم في تاريخ تطوان القسم الثاني من المجلد الاول ، ص 226

التي كانت تسمح لرعاياها التجار ببيع الاسلحة الى الشوار في مرسى أكادير.
كما اغار القراصنة السلويون خلال هذه الفترة على كثير من السفن الانجليزية
وافرقوا احداها عندما كانت راجعة من اسبانيا (ديسمبر 1651) واسروا عددا
وافرا من البحارة الانجليز باعواهم عبيدا في مدينتهم .

وكان من نتائج متابعة حرب القرصنة وعدم وجود معاهدة انجليزية
لامع لسعديين ولا مع الدلائيين قطع الصلات بين التجار الانجليز والموانئ
المغربية . واخذت انجلترا تحاول اقتداء اسراها في المغرب ، وتفرض ضرائب
جديدة على الصادرات والواردات لهذا الغرض . وقد كلف مجلس الدولة
البريطاني بأمر مؤرخ في 15 ماي 1653 أحد أعضائه (روبير بلاكبورن)
« R. BLACKBORNE » أن يعقد اتفاقا مع التاجر (روبير داون) « R. DOWNE »
لشراء الاسرى الانجليز من سلا وقام هذا التاجر بالمهمة التي أنيطت به ، وكتب
من مدينة سلا الى (بلاكبورن) بعد نحو أربعة أشهر يخبره بأنه تمكن من شراء
22 أسيرا انجليزيا ، وبقي تسعة آخرون ، منهم سبعة في ملك الامير عبد الله
الدلائي الذي رفض فداءهم بأى ثمن . ولما استعادت انجلترا قوتها الحربية في
البحر ، عملت على أن تفرض احترامها على البحارة المسلمين في شمال افريقية ،
وفدحطم أمير البحر الانجليزي (بلاك) « L'AMIRAL BLAK » خلال سنة 1655
الاسطول التونسي ، وأمضى لصالحه معاهدة مع الجزائر ، وكان ينوي أن
يفرغ بذلك لقرصنة سلا لولا انه اضطر الى العودة الى انجلترا حينما أعلنت
الحرب على اسبانيا في شهر فبراير 1656 . ثم رجع (بلاك) بعد بضعة أشهر
الى سلا على رأس أكثر قطع أسطوله ، ومعه مساعده (ادوارد مونطاكي)
« EDWARD MONTAGU » (31) وطلب (بلاك) بمجرد وصوله الى المرفأ من
الامير عبد الله الدلائي أن يعين له مفوضين يتخاطرون معه في تهيب اتفاقية
وفي انتظار حضور هؤلاء المفوضين وصلت سفينتان سلويتان ، وقبل دخولهما
الى المرفأ ارتطمتا بالصخور للنجاة من السفن الانجليزية .

وبالرغم من استعداد المفوضين السلواويين لعقد الاتفاقية ، فانهم أبوا
أن يطلقوا سراح الاسرى الانجليز دون مقابل . وقد قبل الاميرال (بلاك) أن
يعرض مالكي العبيد الانجليز بهدايا من البضائع ، دون أن يؤدي لهم الفداء
الذي يرى فيه اهانة لبلاده ، وبعد نصف شهر من الاتصالات قطعت المفاوضات
بسبب رفض الامير عبد الله الدلائي أن يسلم طفلين انجليزين ولدا في سلا

(31) (ادوارد مونطانكي) (1625 - 1672) عينه (كرومويل) مساعدا لأمير البحر (بلاك) في قيادة
فلم الاسطول الموجه ضد اسبانيا سنة 1656 . بالرغم من كونه لم يكن قد عمل قط
في البحرية

ورجع الاسطول الانجليزى من حيث أتى تاركا ثلاث قطع حربية لتابعة حصار العدوئين .

وشهدت السنة التالية 1657 تطورا مرضيا للعلاقات المغربية * الانجليزية بسبب السياسة الجديدة التى أخذ ينهجها (كروموويل) فى البحر الابيض المتوسط ، فسمى (نثانييل لوك) « NATHANIEL LUKE » قنصلا فى الشغور المغربية يقيم فى تطوان . وهو تاجر انجليزى قضى شطرا مهما من حياته فى الاتجار بهذه المدينة . وأطلق السلاويون سراح الاسرى الانجليز ، ثم عقد للورد الحامى (كروموويل) معاهدة سلم وصداقة مع السلطان محمد الحاج فى 19 غشت 1657 ، تتخلص كما يلي :

(1) يلتزم الطرفان التعاقدان بتناسى المظالم القديمة ، والعيش فى السلم استقبالا . ويمكن لرعاياهما أن يختلفوا الى موانئ القطرين ، دون أن يؤدوا من الاعشار الا ما يلزم للسلعة المبيعة فى تلك الموانئ .

(2) يسمح للرعايا الانجليز بمزاولة طقوسهم الدينية فى البلاد الخاضعة لنفوذ شيخ الدلاء .

(3) يحظر أسر سفن الجانبين .

(4) اذا غرقت سفينة يبقى الناجون ممن كانوا على ظهرها أحرارا ، وتسلم الامتعة التى يمكن انقاذها الى أصحابها .

(5) لا يمكن فى المستقبل أن يكون رعايا الدولتين أسرى عند أحد الجانبين وستعطى الحرية للانجليز المقيمين فى تطوان أو غيرها من البلاد التابعة لشيخ الدلاء ليغادروا هذه المنطقة مع ذويهم متى شاؤوا .

(6) يعاقب على كل قذف أو اهانة تلحق رعايا الطرفين .

(7) يمكن للسفن الحربية لكلا الدولتين أن تأخذ المؤنة والزاد من مرافئ البلدين .

(8) لا يمكن لاية حادثة أن تتسبب فى نقض السلم . اللهم الا فى حالة رفض اجراء العدالة . ويمكن للطرفين باتفاق منهما أن يغيرا أو يتمما هذه الفصول .

وقد وقع هذه المعاهدة من الجانب المغربى زيادة على السلطان محمد الحاج الدلايى ، الغزوان (كذا) بن بوبكر ، وعبد الكريم النقسييس حاكم تطوان ، وأحد العدول . (32) وبذلك ساد السلم من جديد وتوطدت عرى الصداقة بين الدلايين والانجليز .

(32) الكونف دو كاسترى ، مصادر لم تنشر لتاريخ المغرب ، سلسلة الوثائق الانجليزية ج 3 . ص 588

ج) الدلائيون والبلاد الواطئة (هولاندا)

كانت البلاد الواطئة « PAYS-BAS » تشتمل على هولاندا ، وبلجيكا ، ولو كسمبورغ الحالية ، مع جزء من شمال فرنسا . وتخلصت البلاد الواطئة من الاستعمار الاسباني والمذهب الكاثوليكي سنة 1559 فكونت حكومة فيديرالية مركبة من سبع دويلات ، تحتفظ كل منها باستقلالها الداخلي ، تحت اسم : جمهورية الاقاليم السبعة المتحدة REPUBLIQUE DES SEPT PROVINCES UNIES وتكون من ممثلي الاقاليم مجلس يحمل اسم (الولايات العامة) LES ETATS GENERAUX فكان المؤسسة الوحيدة القائمة بالمهام السياسية للحكومة الفيدرالية ولم يبق وقت طويل حتى صار أسطول البلاد الواطئة سيد البحار ، وكانت السفن الهولندية (33) - كسفن سائر الدول المعادية لاسبانيا - لا تستطيع أن تغر مضيق جبل طارق دون أن تتعرض لخطر مزدوج ، فهي ان اقتربت من الساحل المغربي أسرت ، وان جنحت الى الساحل الآخر حطمها الاسبان واخذوا بحارتها للتجديف في سفنهم الكبيرة .

وتعتبر جمهورية الاقاليم المتحدة من الدول الاوربية السابقة الى التحالف مع الغرب أيام أحمد المنصور الذهبي ، وكانت هناك عوامل متعددة ساعدت على التقارب بين المغرب وهذه الاقاليم ، منها حقددهما المشترك على اسبانيا ، واقامة جالية من اليهود المطرودين من الاندلس في البلاد الواطئة نظرا لما اشتهرت به من التسامح الديني . فكون أفراد هذه الجالية اليهودية الثرية علاقات تجارية مع اخوانهم المقيمين في المغرب والجزائر ، وربطوا معهم صلات متينة فكانت السفن لذلك تتردد بين الموانئ المغربية والهولندية بدون انقطاع . واحتفظت البلاد الواطئة بصداقتها بعد موت المنصور مع ابنه زيدان . لكن لما استبد أبو حسون بسوس والجنوب المغربي ، واستقل العياشي ببلاد الغرب ومدن أبي رقراق ، وجدت البلاد الواطئة نفسها مضطرة للتفاهم مع هذين الحاكمين للحفاظ على مصالحهما في هذه الاقاليم . ونظرا لقيام جمهوريات صغيرة في مدن سلا والرباط والقصبة (1040 - 1071/1630 - 1660) تحت نظر العياشي ثم الدلايين ، كانت الولايات العامة ترسل رؤساء هذه المدن وتتفاوض معهم صفتهم المباشرين للسلطة في هذه المنغور ، وسمت خلال عام 1053/1643 هندريك دوبير « HENDRICK DOPPER » (34) قنصلا ممتازا للبلاد الواطئة

(33) يعبر أحيانا عن الاقاليم السبعة باسم أهم اقليم فيها وهو هولاندا
(34) هندريك دوبير يورجوازي من سكان امستردام ، بقى يشغل منصب قنصل البلاد الواطئة في المغرب اذا أن توفي سنة 1051

في المغرب ، فكان يتردد بين مراكش وسلا ، ويتصل بالملك السعدي ورؤساء
العدوتين على السواء .

ولما استحكم أمر الدلائين وقوى نفوذهم في الاقاليم التابعة لهم ، لم يعد
رؤساء مدن سلا يبيعون لانفسهم الاتصال المباشر مع رؤساء الدول الاجنبية .
وقد رد سعيد الجنوي النائب العام عن الدلائين في هذه المدن ردا سلبيا على
رسالة وجهتها الولايات العامة - كالعادة - الى حكام سلا ، في موضوع الصلح
والهادنة ، وأشعر حكومة البلاد الواطئة بضرورة مخاطبة السلطان محمد الحاج
الدلائي الذي يرجع اليه وحده أمر الحرب والسلام . ومما جاء في الرسالة :
... والصلح نعم السبيل لمن سلكها ، والطريق لمن اقتفى سنتها ، وتبوت
الصلح على هذه المثابة ، من الامور التي فيها الغرابة ، قل أن يتم فيها المرام (35)
أو ينتهي بيننا وبينكم الكلام . كيف وقد تركتم في الخطاب من تولى أمرنا ،
ومن طاعته أوكد الفروض علينا ، مولانا عز الاسلام وجابره ، ومغيثه حيث عز
ناصره ، الامام الذي تضاءلت الاغوار والانجاد لصوته ، واستكانت الآفاق
لبيته ووطئته ، واستنار الاسلام بظهوره ، وخمدت نيران الكفر بأضواء
نوره ، المقدام الذي حمل على كاهله راية المسلمين ، وساد الاولياء والعلماء
والمجاهدين ، صاحب الامر المطاع أبي عبد الله سيدي محمد بن محمد بن أبي
بكر نوره الله ، ورزق كلا من المسلمين رضاه ، ولا غرو ان كان الصلح
مطلوبكم فاتوه من أبوابه ، وتوصلوا اليه بأسبابه ، واعرفوا لكل ذي فضل
فضله ، وخاطبوا كل رئيس بما يناسب قدره ..» (36) وقد أجابت
الولايات العامة عن هذه الرسالة بكتاب تستبشر فيه بالاستعدادات
الطيبة التي عبر عنها حكام مدن سلا ، وتعتذر عن عدم الكتابة من قبل الى
السلطان محمد الحاج . وأرسلت في نفس الوقت رسالة أخرى الى أمير الدلاء،
حملها اليه القنصل الهولاندي في المغرب (هندريك دوبر) HENDRICK DOPPER
وفيها تقدم الولايات العامة الى محمد الحاج لأول مرة هذا القنصل الذي ندبته
ليؤكد للامير ما تكنه له من ود وتقدير ، وترجوه أن يطلق سراح الاسرى
الهولانديين في سلا ، ويضمن الحرية والامن لرعاياها من التجار ، وان يتفضل
باستقبال القنصل الهولاندي كلما رغب في المشول بين يديه .
وظلت العلاقات عادية بين الدلائين والهولانديين باستثناء بعض
الاحداث العابرة الناتجة عن أعمال القرصنة البحرية . وكانت المعاهدات

(35) وقع تحريف في عبارة «قل ان يتم فيه المرام» في كتاب دو كاستري باستبدال نون «ان»
راء فصارت عنده «قل اريتم ..»

(36) انظر صورة هذه الرسالة ، وبطورتها توقيعات رؤساء سلا والرباط والقصبة في اللوحة رقم 13

مسيرة بين الفريقين لعقد معاهدة سلم وصداقة . وفي أوائل عام 1651/1661 قبل مجيئ الأمير عبد الله الدلائي الى سلا أرسلت الولايات العامة مفوضين فيها برئاسة الضابط البحري (جيدون دويلدت) « GEDEON DU WILDT » على رأس أسطول ، وندب حكام مدن سلا من طرفهم الحاج ابراهيم معين والحاج محمد فنيش ليفاوضا باسمهم وأعطوهم حق التصرف المطلق في التعاقد مع ضباط أسطول البلاد الواطنة . وبعد محادثات طويلة وقع الطرفان في 17 صفر 1061 / 9 فبراير 1651 معاهدة تشتمل على تسعة فصول . مجملها : بطل سراح الاسرى الهولانديين مقابل أداء ثمن الشراء لمالكينهم في ظرف ثلاثة أشهر . والاكتسلح أية سفينة سلاوية للمقرضة في البحر ما لم تقدم ضمانا يتكفل بتعويض الخسائر التي تلحقها برعايا البلاد الواطنة ، وأنه سيجل سبيل الهولانديين الذين قد يوجدون على ظهر سفن محايدة ، والا يسمح لقراصنة الجزائر وتونس وطرابلس أن يبيعوا في سلا ما يستولون عليه من أسرى الهولانديين وبضائعهم ، والا يزداد في واجبات الجمرك الحالية ، والا يحرم السلاويون التجار من رعايا البلاد الواطنة ، والا يسمحوا للاتراك بغيرهم بحمل رسائل امتياز في سلا ، وفي مقابل ذلك لن يعترض الاسطول الهولندي طريق السفن السلاوية كما ان السلاويين لن يأسروا الاجانب الراكبين على ظهر السفن الهولندية .

وفي أواخر هذه السنة (1651/1661) عين الأمير عبد الله الدلائي حاكما على مدن سلا . ولما اطلع على نص المعاهدة السابقة لم تعجبه في مجملها ، لأنكر منها بالخصوص الفصل الرابع الذي يحرم على المغاربة أن يتعاملوا بالبيع والشراء مع اخواتهم الجزائريين والثونسيين والطرابلسيين ، ارضاء ومؤازرة لحلفاء مسيحيين ، ورفض امضاء هذه المعاهدة . وفي ذلك التاريخ أرسلت الولايات العامة قنصلا جديدا الى سلا هو (دافيد دوفرييس) DAVID DE VRIES الذي استقبل استقبالا حسنا من طرف قائد سلا والرباط أولا ، ثم حضر بمقابلة الأمير عبد الله الدلائي في القسبة . وكتب الأمير سعيد الجنوي على أثر ذلك الى الولايات العامة يخبرها بوصول قنصلها الجديد ، ومصادقة الأمير عبد الله الدلائي على معاهدة 9 فبراير 1651 باستثناء الفصل الرابع منها بحالته تعاليم الديانة الاسلامية .

وأرسل الأمير عبد الله الدلائي بدوره كتابا الى الولايات العامة ردا على الرسالة التي وافته منها جاء فيه : « ... أما بعد حمدا لله الذي لا اله الا هو فانه

سبق لدافيد دوفرييس أن شغل منصب قنصل الولايات العامة في بلاد أخرى قبل أن يعين قنصلا في سلا سنة 1651 . وظل يباشر عمله في هذه المدينة أن توفي سنة 1662

ورد علينا كتابكم الواسع ، وقفنا على شروط الرسم وفصوله (38) وتأملنا
 منتخب مسائله وأصوله . فليكن في علمكم انا قبلنا ما فيه واستحسنناه ،
 وسطرنا حقيقة مقتضاه وأثبتناه ، وأعملنا بشروطه وما في قبضه وبسطه ،
 وأبرعنا عقده ، وأنجزنا وعده وعيده ، وأعلمنا بذلك لأهل بلدنا ، ولأصحاب
 السفن من قرصاننا ، وقبلنا أموره الخاصة والعامة قبولاً تاماً ، لكن عندنا
 ما نذكر في بعض الشروط ، وسمياتكم مسطراً مع آخر صحبة هذا المكتوب
 (39) وأما خديكم القنص (كذا) دابيد دبرييس فانا قد أنزلناه منزلة العز
 والكرامة ، وفرحنا بقدمه ، اذ لنا معرفة سالفة معه وخلطة قديمة ..» (40)
 وبعث الأمير عبد الله الدلائي صحبة الكتاب المتقدم اقتراحات مضادة
 لتعديل معاهدة 9 فبراير 1651 (41) وتشتمل على أربعة فصول يختص أولهما
 بنقض الشرط الرابع من المعاهدة وإبطاله ، وتشمل الثلاثة الأخرى بتحفظات
 في بعض الحالات الاستثنائية التي ينتقض فيها العهد وتصبح سفن الهولنديين
 وبجارتهم وبضائعهم غنيمة للمسلمين . ولما لم يتلق الأمير عبد الله جواب
 الولايات العامة عن اقتراحاته بعد نحو ثلاثة أشهر رأى أن يتخذ إجراء يفهم منه
 عدم تقيده بالمعاهدة ما دامت على حالها لم تغير ، فزاد في الضريبة المفروضة
 على الصادرات والواردات ، ولم تجد نفعا احتجاجات قناصل الدول المقيمين
 في سلا ، وفي مقدمتهم (دو فرييس) الذ كتب الى الولايات العامة يخبرها
 بالضرائب الجديدة والمحاولات التي قام بها في هذا الصدد ، مقترحاً في الأخير
 على حكومته أن تكتب الى الأمير عبد الله والى أبيه السلطان محمد الحاج «الذي
 لا يرغب في ازعاج التجار ولا في القضاء على التجارة ، ولن يلبث أن يبطل هذه
 الضرائب الجديدة» (42) ثم حدث حادث قرصني جديد زاد في توتر العلاقات
 بين سلا والبلاد الواطئة . ذلك ان الاسطول الهولندي بقيادة الضابط
 (كورنيللي طرومب) CONTRE AMIRAL CORNELIS TROMP (43) استولى
 على سفينة تجارية سلوية كانت قادمة من الجزائر بشحنة مهمة في ملك أمير

40) يشير الى معاهدة 9 فبراير 1651

41) الإشارة الى الاقتراحات المضادة التي بعث بها الأمير الدلائي الى الهولنديين
 40) De Castries, Les Sources Inédites, Pays-Bas, T.V. P. 296.

42) انظر صورة هذه الاقتراحات المضادة في اللوحة رقم 14
 42) De Castries, Les Sources Inédites, Pays-Bas, T.V. P. 316.

43) كانت هناك فرقتان من الاسطول الهولندي تعملان بالقرب من شواطئ المغرب . أولاهما
 بقيادة الضابط (ديرويتش) DE RUYTER تخفر السفن التجارية الهولندية المتجهة نحو
 البحر الأبيض المتوسط والثانية بقيادة الضابط (كورنيللي طرومب) CORNELIS TROMP
 وهي مكلفة بحماية السفن التجارية الهولندية المتجهة نحو موانئ المحيط الاطلسي

المدينة وحاكمها وغيرهما من الاعيان . وتسمى الوثائق الهولندية هذه السفينة DE HASEWINDT OU WINDTHONDT والاسمان معا يدلان على السلوقي . وكانت ملاقة الاسطول الهولندي لهذه السفينة قبيل غروب الشمس . واعترض طريقها بشكل جعلها لاتجاوز حدود المعمورة ، وفي الصباح بدأ (طرومب) يوجه اليها طلقات مدافعه الى أن استولى عليها واقتادها الى ميناء قادس . وقد أحدث خبر هذه القرصنة التي وقعت على بضعة أميال من سلا (دوفرريس) حتى لايلتجئ الى المعمورة أو يفر في البحر . ووقع حجز السفينة الهولندية (ديتيجر) DE TYGER مع بحارتها بأمر من الامير عبد الله الدلائي وكتب القنصل الى حكومته (20 يوليو 1654) يخبرها بهياج السلاويين وعضيهم لامر سفينتهم التجارية ، وبالحالة الخطيرة التي أصبح يعيش فيها هو ورماطوه الهولنديون .

وحضر قائد الاسطول (طرومب) الى عرفا سلا استجابة لدعوة القنصل وأرسل الى الامير عبد الله خطابا يبرر فيه الاستيلاء على السفينة التجارية السلوية ويدعوه - ان لم يقتنع - أن يوجه احتجاجا الى الولايات العامة في (لاهاي) فأجاب الامير عبد الله انه اذا كان طرومب لم يستول على السفينة السلوية بأمر من حكومته ، فلا حاجة له في اذنها ليرد المراكب الى صاحبه . لكن (طرومب) لم ينتظر هذا الجواب ورجع من حيث أتى . فأمر عبد الله الدلائي بأن يسجن الضباط والتجار الهولنديون الموجودون بسلا في مطمورة . وجاءت الاخبار بعد ذلك الى سلا بأن (طرومب) قد باع السفينة السلوية وكل ما كانت تحتوي عليه من البضائع في ميناء قادس . فاستد الحق على الهولنديين ، وكتب القنصل (دوفرريس) الى القيادة العليا للاسطول في أمستردام L'AMIRAUTE D'AMSTERDAM (44) يطلعها على الحالة ، ويرجو فيما اذا كان الاستيلاء على السفينة السلوية بطريقة غير مشروعة ، ان تقدم الولايات العامة تعويضا متناسبا للسلاويين . وفعلا توصل القنصل من حكومته برسالة وقرار في الموضوع باسم حاكم سلا . فغير الحاكم العنوان ، وقرأ الرسالة على عبد الله الدلائي كما لو كانت موجهة اليه . فرضى الامير بالوعود التي وردت فيها وأفرج عن الهولنديين المعتقلين .

ولم تكن مسألة السفينة الماسورة بالقرب من المعمورة هي الحادثة القرصنية الوحيدة التي شهدتها سنة 1654 ، بل جرت فيها حوادث أخر مماثلة.

(44) أمستردام AMSTERDAM هي العاصمة الحالية لهولندا . كانت مقر القيادة العليا لاسطول الاقاليم المتحدة . بينما كانت (لاهاي) مقر الولايات العامة

وقد أسر الضابط الهولاندى (فيليب راس) « PHILIP RAS » مركب ابراهيم الرئيس السلاوى ، وعلى ظهره 44 من المغاربة ، و 3 من أسرى النصارى . فأحرق المركب واحتفظ بابراهيم الرئيس ، وعزم على بيع البحارة لولا أن تعرض القنصل الهولاندى فى قانس ضد هذا البيع حتى تثبت شرعية أسر السفينة . واستولى الضابط الهولاندى (طونيس بوسط) « LE CAPITAINE » THENNIS POST على سفينة سلوية كبيرة من نوع (كارافيل) CARAVELLE (45) ذات خمس سوار ، وخمسة مدافع كبيرة ، ومدفعين صغيرين ، بقيادة الرئيس الحاج فاضل . وكان على ظهرها مائة من المغاربة ، وثمانية من أسرى النصارى . وافتمدت هذه السفينة الى ميناء قانس ، وبعد التأكد من وجود الجواز القانونى من طرف حاكم سلا وقنصل الولايات العامة بهذه المدينة ، وقع تحرير الأسرى المسيحيين ، وتخلي سبيل السفينة وركابها المسلمين .

هذا النشاط الهولاندى الغير المعتاد فى أعمال القرصنة ضد سفن سلا ، كان يستهدف ولاشك الضغط على الامير عبد الله الدلائى ، واشعاره بضرورة مبادنة الولايات العامة والتحالف معها . وقد رأت الولايات العامة أن تجس نبض الامير عبد الله الدلائى فتركت جانباً قائد الاسطول الهولاندى بالمحيط الاطنتيقى الضابط طرومب الذى خلق لها صعوبات مع السلويين مستعيزة عنه بقائد اسطول البحر المتوسط . وفعلا وصل (ديرويطر) « DE RUYTER » الى مرفأ سلا (أكتوبر 1054) ووجه رسالة الى الامير عبد الله الدلائى يخبره بأنه جاء عندما علم بالصعوبات التى أحدثها استيلاء الضابط (طرومب) على السفينة التجارية السلوية . ليؤكد للامير أنه اذا كانت هذه السفينة قد أخذت فى الظروف التى يشتمكى منها ، فإن ذلك يكون على غير رغبة الولايات العامة . وبأسف لكون التعليمات الموجهة اليه تمنعه من مفادرة سفينته ، ولولا ذلك لكنت مقابلة واحدة مع الامير كافية لتطمينه وترضيته ، واعادة توطيد أواصر الصداقة معه . وجاء رد الامير عبد الله الدلائى على هذه الرسالة بعد يومين ، بعذر عن تأخر الجواب وعدم خروج المبعوثين اللذين عينهما - مع القنصل - للترحيب بمقدم الضابط (ديويترو) نظرا لرداءة أحوال المرفأ . وبعد أن بين له الاجراءات التى اتخذت منذ الاستيلاء على سفينة السلاويين ، ومنها حجز السفينة الهولاندية « TYGER » وايقاف ضابطها وبحارتها ، أخبره بأن عملية

(45) (كارافيل) CARAVELLE نوع من السفن الكبيرة ذات الشهرة العظيمة منذ القرن الخامس عشر . وهذا النوع من السفن حاض البرتغاليون غمار رحلاتهم الاستكشافية . وقام كريستوف (كولومبوس) بسفنه الاولى فى ثلاث سفن من هذا النوع . وكانت (كارافيل) من أسرع السفن وأحسنها قيادة ، تسع من 50 الى 90 بحارا وزيادة على الركاب

الحجز لم تشمل الا هذه السفينة وحدها وكل السفن الهولندية غيرها حرة في الدخول الى مرفأ سلا والخروج منه ؛ ولا يشك الامير في حسن استعداد الولايات العامة لتسوية الخلاف الحالي ، لانه من جيبه يسارع الى ارجاع الحق الى تصابه كلما أشعره القنصل باخطاء ارتكبتها السلويون ضد رعايا البلاد الواطئة . وهكذا لاحت في أفق العلاقات الدلائية الهولندية بواذر الانفسراج واستبشر كلا الفريقين بقرب رجوع المياه الى مجاريها ، غير أن حادثا قرصنيا وقع في الشهر الموالي رجع القهقري بالعلاقات بين السلويين والهولنديين ذلك ان القبطان الهولندي (لين براند) = LE CAPITAINE LYN BRANDT « أسر في منتصف نوفمبر 1654 ثلاثة من قراصنة سلا . وكان رد فعل السلويين في هذه المرة عنيفا ، فألقوا قنصل الولايات العامة ومساعديه في مظمورة ، وحجزوا أربع سفن هولندية كانت بالمرأ وسجنوا ضباطها وبحارتها جميعا . وبعد أربعة أيام أخرج القنصل دوفرييس من محبسه وقدم للامير عبد الله الدلائى الذى سمح له بالإقامة المحروسة في منزله ، وأطلق سراح الضباط والبحارة الهولنديين المعتقلين مقابل ضامين قدمهم تجار البلاد الواطئة وكتب القنصل دوفرييس الى حكومته يطلعها على الحال المزرية التى يوجد عليها فى سلا هو ومواطنواه ، بعد حادثة أسر القراصنة السلويين ، ويؤكد ان حياته وحياة رفاقه أصبحت فى خطر ، وان السلويين استولوا فى عرض البحر على ثلاث سفن ، من بينها السفينة الهولندية ديدوب DE DOP « فتقدم بطلب تسريحها . ورفع هذا الطلب الى الامير الدلائى الذى كان متغيبا فى ذلك الوقت عن سلا .

وقد اهتمت الولايات العامة جديا بمسألة العلاقات مع سلا ، واتخذت قرارا سريا بتاريخ 2 افريل 1655 حددت فيه شروط المعاهدة ، وأعطت الضابط ديرويتير كامل الصلاحية ليقاوض هو والقنصل دوفرييس الامير عبد الله الدلائى ، سواء على أساس مشروع الولايات العامة ، أو على أساس ما قد يتقدم به هذا الامير من اقتراحات . وقررت الولايات العامة أن ترابط فرقة الاسطول العاملة تحت قيادة ديرويتير أمام سلا لمساندة المفاوضين الهولنديين ، ولضرب الحصار على هذه المدينة اذا لم يتوصل الفريقان الى اتفاق . وبعثت الولايات العامة فى نفس التاريخ برسالة الى الامير عبد الله الدلائى تطلب منه أن يقدم الترضيات اللازمة الى القنصل دوفرييس ومن معه من رعايا البلاد الواطئة الذين كانوا ضحية أعمال العنف فى سلا ، وأن يطلق سراح المعتقلين ، على أن تعمل الولايات العامة من جهتها لتعويض السلويين الذين يمكن أن تكون قد لحقت بهم أضرار من ناحية البحرية الهولندية ، وتخبره فى النهاية بأنها

قررت ارسال مندوب عنها عهدت اليه بتسوية جميع الخلافات السابقة ، والاتفاق مع الامير على الوسائل الكفيلة بتفادي مثل ذلك في المستقبل . وتأخر وصول أسطول الولايات العامة الى سلا عدة شهور ، وبقيت السفن الهولندية محجوزة في المرفأ ، وضباطها وبحارتها في اقامة محروسة بسلا . وكتب الامير عبد الله الدلاي الى الولايات العامة (15 يونية 1655) يستحثها على ارسال مندوبيها ويستنجرها ما وعدت به من التفاوض لحسم الخلافات وانصاف الرعايا الذين سلبت أموالهم وأمتعتهم (46) وأخيرا تلقى أمير سلا رسالة من قائد الاسطول ديرويتز بعث بها من قادس يعتذر عن تأخر وصوله بسبب تسليح بلاد السويد الذي أرعب الدول المسيحية وبخاصة البلاد الواطنة ، ويقول انه مكلف من قبل الولايات العامة بتسوية الخلافات السابقة وتوطيد عرى الود والتحالف بين الدولتين ، ويرجو أن تاتى المفاوضات المقبلة بنتائج حاسمة ، ويأمل - في انتظار ذلك - أن يمنح الامير عبد الله الدلاي المعتقلين المسيحيين قسطا أوفر من الحرية .

ولما وصل أسطول القائد دو رويتر الى مرفأ سلا طلب من الامير الدلاي أن يبعث اليه بالمفاوضين السلووين ، ومعهم القنصل . فبعث اليه الامير بنسخة مترجمة من مطالب السلووين الذين لحقت بهم أضرار من جراء استيلاء الهولنديين على سفينة أحمد الرايس واعتذر عن عدم السماح للقنصل دوفرييس بالتوجه الى الاسطول ، لامتناع الديوان من الاذن له بذلك ، ووعد بأنه سيعمل للحصول على هذا الاذن فيما بعد . ثم خرجت من مرفأ سلا سفينة صغيرة تحمل أطعمة وأشرطة قدمها الامير الدلاي الى دو رويتر وصحبه فرد هذا الأخير على ذلك بهدية تشتمل على أربعة قناطير من مسحوق البارود . وهكذا ابتدأت المفاوضات في جو تسوده الجاملة والمهاداة ، ووقع الاتفاق على الطريقة التي ستتبع في دراسة الحسابات ومراجعة مطالب المتضررين من الطرفين . وأرسل دو رويتر الى اليايسة المختص بالخرانة ديفيانان DE VYANEN والترجمان بنجامن كوهن BENJAMIN KOHEN ليكونا مع القنصل دوفرييس الوفد المفاوض باسم الولايات العامة . وكان الوفد السلوى يتألف من عبد الله القصرى القائم مقام سعيد الجنوى وابراهيم الدك ، وعلى القرطبي من أعيان العلوتين . وقد اعترضت المفاوضات صعوبات منذ البداية . اذ لم يقبل السلووين لوائح تقدير الخسائر المقدمة من طرف أصحاب المراكب الهولندية ، وراوا فيها مغالاة كثيرة وتشبهوا برأيهم في عدم مشروعية أسر السفينة

التجارية السلوية في حين رفض الهولنديون بعض الحجج المقدمة من قبل
 التساكين السلويين وأبوا أن يقبلوا غير العقود العدلية . وعقد وفد الولايات
 العامة جلسات عمل مع الامير عبد الله الدلائي نفسه عدة يومين لتذليل
 الصعوبات . وبعد مفاوضات طويلة وتنازل الهولنديين عن السفينة وريث فالك
 WITTE WALCK كتعويض للسلاويين عن سفينتهم الضائعة تم في 22 أكتوبر
 1655 التوقيع على اتفاقية مختصرة تشتمل على سبعة فصول . يتضمن الفصل
 الاول منها أن يطلق الامير عبد الله الدلائي سراح دافيد دوفرييس القنصل
 العام للولايات العامة في الثغور المغربية وأن يعيد اليه حرثه ، وتشتمل
 الفصول الاخرى على اطلاق سراح أسرى الجانبين ، واسترجاع كل منهما
 السفن التي وقع الاستيلاء عليها وتعويض الخسائر التي لحقت بكلتا الجانبين
 وقد وقع هذه الاتفاقية مبدئيا ابراهيم الدك وعلى القرطبي ، عن السلويين ،
 و دو فرييس « DE VRIES » و دو فيانان « DE VYANEN » عن الهولنديين ،
 ثم صادق عليها الامير عبد الله الدلائي وأشعر الاسطول الهولندي المربط في
 عرض البحر بذلك بخمس طلقات من مدافع القصبه ووقع دو رويتر من
 جانبه النسخة الاصلية للاتفاقية على ظهر سفينته قبل أن يتجه الى قادس (47) .
 وقد أعد الوفدان المتفاوضان في نفس الوقت مشروع معاهدة سلم
 وصداقة بين السلويين والولايات العامة تشتمل على 27 بنداً قدماء الى الامير
 عبد الله الدلائي وأرسله دو رويتر الى حكومته بقصد الدراسة وايداء الرأي .
 غير أن الامير الدلائي أمر بقطع المفاوضات على اثر سمر قائد الاسطول دورويتر
 الذي كان له التفويض الرسمي من الولايات العامة ، بالرغم مما أبداه هذا
 الأخير من رغبة ملحة في أن تتابع المفاوضات في غيبته بواسطة القنصل
 ومن معه .

وأرسلت الولايات العامة الى قنصلها بسلا في 32 ماي 1656 تعليمات
 تحتوي على عشر نقط ، ليتخذها أساسا في مفاوضاته المقبلة من أجل ابرام
 معاهدة سلم مع الامير الدلائي . وتهدف هذه التعليمات الى أن يستأنف
 القنصل دو فرييس المفاوضات من جديد مع السلويين ، مبتدئا من النقطة
 التي توقفت عندها المفاوضات الاخيرة ، ويعمل بمقتضى التفويض الذي خولته
 اياه الولايات العامة في هذا الصدد ، مستوحيا من الاتفاقية المبرمة بين الفريقين
 في 9 فبراير 1651 باستثناء التغييرات المنصوص عليها في هذه التعليمات .
 وخصت النقطة السادسة في التعليمات للكلام عن الفصل الرابع من معاهدة
 9 فبراير الذي كان السبب في معارضة الامير عبد الله الدلائي لهذه المعاهدة

47) De Castries, Sources Inédites, Pays-Bas, 6:135

وبقائها معلقة منذ نحو 6 سنوات . وقد أوصت الولايات العامة القنصل بأن يعمل ما في وسعه للاحتفاظ بهذا القنصل على حاله ، فان لم يستطع تنازل درجات معينة ، فان لم يستطع الحصول على شيء شرط فقط الا يرسل أسارى قراصنة الجزائر من رعايا البلاد الواطنة الى مكان آخر غير سلا ليسلموا الى القنصل مقابل فداء معين بحسب رتب الاسرى (48) .

وكان الضابط دو رويتر « DE WILDT » تلقى أمرا من القيادة العليا للاسطول بأمره بالتحرك الى سلا على رأس سفن حربية كبرى لمساندة المفاوضات الجارية هناك ، لكن قبل أن يصل الاسطول الهولاندى الى سلا توصل القنصل دو فرييس مع المفاوضين السللاويين بعد محادثات طويلة الى الاتفاق على مشروع معاهدة سلم وصداقة يتألف من اثني عشر فصلا ، وقعه جميع المتفاوضين من الطرفين فى 22 مارس 1657 (49) ووجه القنصل الهولاندى نص المشروع الى حكومته للمصادقة عليه . ولما وصل دو رويتر وجد كل شيء تم بسلام ، فكتب الى الامير عبد الله الدلائى يشكره على حسن تصرفه ، ويعرض عليه استعداده للخدمة ، ورجع بعد أسبوع الى قادس مرتاح البال . ومكث مشروع المعاهدة فى البلاد الواطنة أزيد من سنة ، اذ لم تصادق عليه الدول العامة الا فى 25 ماي 1658 ولم يتوصل عبد الله الدلائى بالنسخة الاصلية ليوقعها الا فى شهر غشت من نفس السنة . ووقعت فى هذه الفترة أحداث كثيرة كادت تعصف من جديد بالعلاقات بين سلا ولاهاى ، ومن أخطرها اعتداء القبطان الهولاندى براكل BRAKEL التابع لاسطول دورويتر يوم فاتح شتنبر 1657 على سفينة سلوية كانت قادمة من الجزائر بحمولة تجارية مهمة بقيادة الرئيس على مرشيك ، فهاجمها براكل بالقرب من مرسى تطوان ، واستولى عليها بعد أن فر الرئيس مرشيك ومن معه من التجار . وقد حرر السلويون لائحة بما ضاع لهم فى هذه السفينة ، وختم الامير الدلائى هذه اللائحة بطابعه قبل أن يوجهها الى الولايات العامة فى ربيع الثانى 1068 / يناير 1658 (50) .

ولما طال انتظار عبد الله الدلائى ولم يستلم جواب الولايات العامة على هذه المطالب ، ولا المصادقة على المعاهدة ، رأى أن يلجأ الى العنف ، فأغلق مخرج النهر على المراكب طيلة شهر كامل وأخطر القنصل دو فرييس بأنه سينتصف بنفسه لرعاياه ، ويرد عليهم ما ضاع لهم بعد أن يأخذه من

48) De Castries, Sources Inédites, Pays-Bas, 6 : 271.

49)

50)

» 6 : 323.

» 6 : 365.

الهولانديين المقيمين في سلا . وكتب القنصل الى حكومته بجلية الامر ، طالبا منها ان تعجل بالمصادقة على المعاهدة ، وبتعويض الخسائر التي لحقت بالسلاويين . وبناء على ذلك اتخذت الولايات العامة في 25 ماي 1958 قرارا يقتضى تكليف ضابط بحرى بالتوجه على رأس فرقة من الاسطول الى مرقا سلا لتبادل وثائق المعاهدة المصادق عليها مع الامير عبد الله الدلائى ، وللعمل معه على تسوية المشاكل القائمة ولاسيما ما يتعلق منها بسفينة الرئيس على مرشيك ، واطلاعه على ان الضابط رويتر لم يعثر فى السفينة السلوية المأخوذة فى خليج تطوان لا على النقود ولا على البضائع المثبتة فى اللائحة ، وانه سار فى هذه الحادثة على مقتضى المعاهدة ، فحرر أحد سكان سلا الذى عثر عليه فى السفينة المأسورة . أما المغربى الاعمى (51) الذى كان كذلك على ظهر السفينة فسيقدم اقتراح بتعويضه ان لم يعثر عليه . ولا تقبل الدول العامة بحال أن يعرض الامير بنفسه رعاياه على حساب أشخاص وأموال رعايا البلاد الواطئة . وكان الضابط الذى كلف بمهمة الاتصال بالامير عبد الله الدلائى هو ديرويتير ، الا انه فضل أن ينوب عنه الضابط ديويلدت « DE WILDT » الذى وصل الى مرقا سلا فى 27 يوليوز 1658 على رأس فرقة من الاسطول الحربى . وكتب ديويلدت بمجرد وصوله الى أمير سلا يثبته بأنه يحمل مصادقة الولايات العامة على المعاهدة ، ويطلب أن يحضر الى سفينته مفوضون سلويون لتبادل الوثائق . وأسرع الامير عبد الله الدلائى كعادته بتقديم القرى الى ضيفه ، وكان من جملة ما حملته السفينة الصغيرة الى الاسطول الهولاندى المربط خارج المرفأ أربعون من الغنم . فرد الضابط الهولاندى دو ويلت عن ذلك برسالة شكر وامتنان معتذرا بعدم توفره على أشياء ثمينة يمكن أن يبعث بها الى الامير الكريم ، لكنه لما كان يعلم ان الامير جندى كبير مولع بالاسلحة الجيدة قدم اليه هدية متواضعة تشتمل على ستة براميل صغيرة من مسحوق البارود الخاص بالمدافع وبندقية جيدة طويلة . وبعد ذلك خرج القنصل دو فرييس صحبة الترجمان كوهن للسلام على الضابط والترحيب به ، والمخاطبة معه فى المسائل المعلقة وبخاصة قضية سفينة الرئيس على مرشيك لمعرفة موقف الولايات العامة منها . وأجاب (دويلدت) بأن حكومته لم تعثر فى السفينة المأسورة بالقرب من تطوان على الاموال والسلع التى ورد ذكرها فى اللائحة التى بعث بها الامير الدلائى ، وبذلك فانه

(51) لاندري من أين عرف الهولانديون ان هذا المغربى الذى لم يعثر عليه كان اعمى وفى رواية أخرى فهم انه كان أسود . والذى ورد فى نص لائحة السلاويين الرسمية هو : «مملوك الحاج ابراهيم الخياط خديم المقام العلى بيع بجبل الطر - يعنى جبل طارق - » . ولهذا المملوك علاقة بقضية اختلاق تنصر أمير دلائى على ما سيأتى فى الفصل التالى

لا يمكن إلا أن تكون تلك الأشياء قد اختلست من طرف بحارة لاذوا بالفرار .
ونست المصادقة على المعاهدة من طرف الامير عبد الله الدلائي بعد لاي ، (ذي
العدة 1068 / غشت 1658) ولم تنته المفاوضات في شأن السفن والبضائع
الضائعة . وسيكون ذلك احدى المهمات التي يضطلع بها السفراء السلويون
في (لاهاي) .

(د) السفارة المغربية في (لاهاي) (1659/1669)

هناك دواع كثيرة دفعت بالامير عبد الله الدلائي الى ايفاد سفراء الى
البلاد الواطئة ، فبالرغم عن امضاء معاهدة السلم والصداقة مع هذه البلاد
بقيت مسائل كثيرة معلقة تنتظر الحل ، كالسفن المأسورة والبضائع الضائعة .
والى ذلك كان السلطان محمد الحاج قد أصيب في احدى عينيه بمرض السادة ،
او ما نسميه (بالجلالة أو العمى الأزرق) CATARACTE ورغب في استجلاب
طبيب للعيون من هولاندا يعالجه (52) .

وتألف وفد هذه السفارة من ثلاث شخصيات بارزة في العدوتين ، هم
ابراهيم معينو من سلا ، و ابراهيم الدك ومحمد بنيالوز من الرباط والقصبة ،
مع حاشية مؤلفة من رجال ونساء واصطحب الوفد معه هدية الى الولايات
العامة احتوت على فرسين عربيين أصيلين وشبل ولبوء ونعامة (53) . ووصل
السفراء الى امستردام في أوائل شهر شوال 1069 / يوليو 1659 وأدخلوا الى
لاهاي من طرف الامين هيسلست « L'INTENDANT HESSELT » الذي خف
لاستقبالهم في المحطة الواقعة خارج المدينة ، وأقاموا في النزل الخاص بالسفراء
فوق العادة ، وعينت لهم الحكومة الهولاندية مترجما خاصا يرافقهم ، هو

(52) ذكر اخبار هذه السفارة الكونت دو كاستري في سلسلة وثائق البلاد الواطئة ، ج 6 .
من ص 350 الى « آخر الجزء » . وبالإضافة الى الوثائق الرسمية التي تحتوي على معلومات
كثيرة في الموضوع ، أورد دو كاستري في نفس الجزء مقتطفات من كتاب صدر في
امستردام سنة 1668 - أي بعد ثمانى سنوات من قدوم السفراء المغاربة الى البلاد الواطئة -
للطبيب الهولاندي أوليفي دابير OLIVIER DOPPER تحدث فيه عما شاهده وعرفه
عن هذه السفارة . وقد اعتمدت في هذا الفصل على الوثائق والمقتطفات معا

(53) مات الشبل في البحر ، كما ماتت النعامة بعد وصولها الى امستردام لكثرة ما ازدردت من
كل ما قدم اليها ، خصوصا المسامير التي كان الاطفال الهولنديون يلعبون بها اليها .
طائنين أن هذا الطائر العجيب يمكنه أن يهضم الحديد كما يهضم الخبز . وقد وجد في
بطنها عندما فتح أكثر من 80 مسمارا

جاكوبيس كوليبس « JACOBUS GOLIUS » (54) أستاذ اللغة العربية بجامعة ليدن (55) . وفي اليوم السابع من شهر يوليو زارهم الوكيل دو هاييد L'AGENT DE HAYDE في المنزل الذي يقيمون فيه ، واصطحبهم في عربتين نحو كلا منهما أربعة خيول الى مقر مجلس الولايات العامة حيث وقع استقبالهم حسب المراسيم المتبعة في مثل هذه المناسبة .

وبعد أن دخل السفراء الى القاعة ، وجلسوا على أرائك وثيرة قدموا لأعضاء الولايات العامة تحيات الامير عبد الله الدلائي ، ثم عرضوا اقتراحاتهم لمجموعة بعبارات الود والمجاملة المستعملة في مثل هذا المقام ، وذلك حسب رسالة اعتمادهم المؤرخة في فاتح رمضان 1069/23 ماية 1659 (56) وائر ذلك تكلم رئيس المجلس فرحب بمقدم السفراء المغاربة ، وهنأهم بسلامة الوصول ، ثم رجعوا في نفس الموكب الى مقر اقامتهم .

وقد طال مقام السفراء المغاربة في البلاد الواطئة أزيد من خمسة أشهر ، قضوا جلها في المفاوضات مع اللجنة السباعية التي عينتها الولايات العامة ، باعتبار نائب عن كل اقليم من الاقاليم المتحدة . وقدم السفراء المغاربة في 8 غشت 1659 مذكرة مطولة يقترحون فيها تعديل معاهدة السلم والصداقة المبرمة بين البلدين سنة 1657 باضافة خمسة بنود جديدة اليها ، ويقدمون مطالب تتعلق بحوادث القرصنة السابقة ، وحلولا للمشاكل القائمة ، معززين دعاويهم بحجج عدلية ووثائق تؤيد مطالبهم . ثم قدم السفراء الى الولايات العامة مذكرة ثانية في 23 شتنبر 1659 تنازلوا فيها عن الفصلين الاخيرين اللذين رفضهما المفاوضون الهولنديون ، وقبلوا بعض المقترحات المقدمة لتعديل معاهدة 1657 . وأثاروا من جديد نقط الخلاف مبينتين وجهة نظرهم في تسويتها . واتخذت الولايات العامة قرارا نظرت فيه بعين الاعتبار الى كثير من مطالب السفراء ، وسوت بصفة نهائية بعض القضايا المترتبة عن

(54) الامتاز جاكوبيس كوليبس هو رائد الاستشراق في هولندا ، وقد ولد في لاهاي سنة 1596 من أسرة عريقة في الارستوقراطية ، ودرس في ليدن ، وبرز في اللغات والاداب . وتعلم اللغة العربية على الامتاز طوماس اربنيس THOMAS ERPENIUS الذي كان صاحب كرسي اللغة العربية في جامعة ليدن ، ثم جاء كوليبس الى المغرب مع سفير الولايات العامة البير رويل ALBERT RUYL خلال سنتي 1622 - 1623 رغبة منه في اتقان اللغة العربية . وحمل معه من المغرب كثيرا من الكتب النادرة سواء في التاريخ أو غيره ، وقام بزيارات عديدة لبلاد الشرق العربي ثم أسند اليه كرسي اللغة العربية في جامعة ليدن بعد وفاة امتازه طوماس اربنيس سنة 1624 . وكانت الولايات العامة تعتمد على الامتاز كوليبس في ترجمة الوثائق التي تتوصل بها من المغرب الى أن توفي في 28 شتنبر 1667

(55) ليدن LEYDEN مدينة جامعية في هولندا ، سكانها 92700 . وفيها مطبعة بيرل الشهيرة والمكتبة الفنية بالمطبوعات والمخطوطات العربية النادرة

(56) انظر صورة هذه الرسالة في اللوحة رقم 16



السفارة المغربية في لاهاي عام 1069 هـ (1659 م)
وتتركب من ابراهيم الدك و ابراهيم معين و محمد بن يالوز
المبعوثين من طرف عبد الله الدلائي

عن مصادر دو كاستري

حوادث القرصنة وكتبت الى الامير عبد الله الدلائي تعرب له عن اغتباطها
بربارة سفرائه ، وتثنى على حكمتهم ولباقتهم .

وقد تم في 22 أكتوبر 1659 تحضير مشروع تعديل المعاهدة ويتلخص في
ست نقط :

(1) تثبيت معاهدة 22 مارس 1657 .

(2) حماية رعايا البلاد الواطئة من أى عمل عدائي قد ينالهم من القراصنة
السللاويين .

(3) اتخاذ الجانبين موقفا وديا عند اللقاء .

(4) تحديد الاجراءات التى يجب على ضباط البحرية الهولندية اتخاذها
عند زيارة السفن السللاوية فى عرض البحر .

(5) الزام قناصل البلاد الواطئة المقيمين فى الموانئ الاسبانية بحجز كل
سفينة سللاوية يقتادها الضباط الهولنديون ، وردها الى اصحابها .

(6) تبادل المصادقة على هذه الوثيقة فى غضون ستة أشهر .

وقد وقع السفراء الثلاثة هذه الوثيقة ، كما وقعوا المذكرتين السابقتين
وكل الوثائق والرسائل المقدمة الى الولايات العامة . وكان الناطق باسمهم
طيلة المدة التى قضوها فى لاهاي هو ابراهيم الدك الذى «سجل مذكرات على
الورق ، ولم يكن يمل من الحديث عن العجائب التى شاهدها فى هذه البلاد .
وقد أجريت على السفراء نفقات باهظة على حساب الدولة ، ومع ذلك فانهم
كانوا يعملون دائما على اختصار الوقت ليتمكنهم الرجوع فى أقرب وقت ممكن
الى بلادهم ..» (57)

والى جانب هذه المفاوضات السياسية اشتغل السفراء بمسألة الطبيب،
« L'OCULISTE ISHAAC SASBOUT » وأمضوا عقدة مع طبيب العيون اسحاق ساسبوط
ليتوجه الى الدلاء من أجل معالجة السلطان محمد الحاج . ولكن
عذا الطبيب تراجع فى التزامه ، وأبدى كثيرا من التعتن والتذلل والاعتذار
بمرض زوجته ، فاستبدله السفراء بطبيب آخر أكثر منه كفاءة وخبرة ، يسمى
جوهن دونكارت « JOHAN DONKART » وهو جراح ماهر أجرى عليه اختبار
على حول العلاج الذى يطلب منه القيام به . وذلك أمام أكبر جراح فى البلد ،
وبعضور أمير طبيب للعيون . وقد باشر جوهن بمهارة فائقة عملية استئصال
السادة لشيخ هولاندى مريض قبل أن يتوجه الى المغرب .

(57) الطبيب الهولاندى اوليفى دابير ، الكونط دو كاسترى ، مصادر لم نشر لتاريخ المغرب ،
سلسلة البلاد الواطئة 6:604

وفردا ند المربك الذي قد تفتخرونه على قتله ومخدرته منه قبل يوم السبت وهو اليوم الاول
 من شهر الله المحكم رمضان تسعة وستين والربع بل بدع يسير، وتتم فرائضكم اشك
 انتم تزلزلون به الامور جازية وخصرها القبيحة التي احضرواكم اليها على نكاحها ليس
 ما لله في الجسد الخلق وحقق ابلح من صفة سبع وستين والربع والاصحفة التي تصح في الشهر
 يوم بعد وقتل صدره حاد الامه ليس الخبر من العباد وراشتم سرور الله جرمي من المراتب ما
 بيننا وبينكم من المهادنة والمصالحة والى كور الرضا من ذكركم بلا ما عتداكم به اسباب المهادنة
 ولما تمناه وهذا المحاذير المذكور في رؤوسكم على علمكم لتجربوا معكم وتعلموا صوابه في
 المحفوز التي بيننا وبينكم وحقيقه من الحاجة مهت لبعضكم في صفة يصعب لكم
 المحاذير بجداتكم كليله ببعثكم ويرجعوا اليكم في بيان قتال الله على مير محترمين
 وهذا الغرض من غيوبكم فيه تحقيق زجائيد وراشتم لعل لزلزلون ونحو ما وخصها
 بل محاذير من غيبكم مع قرب غيركم لئلا ياتي ففد فيكم من المصالحات والامتنان بالامور
 بل ذلك اختصصكم به من المزية التي ملاكم كذا في عاداتكم لئلا يالكم غيوبكم منكم ان العمل
 لروية المحاذير وانما الصنع ونصية وليس لكم انتم في مفاصل الاما ليس لكم فيكم ربط الله
 وكل ما يعرض لكم من المغمض والمطرب بعز من ذكركم فيكم فضاء وبيانكم بغير
 لرغاء الله والاسلاك وبمعل رمضان المحكم سنة تسع وستين والربع ما الله خيرها
 اسر من حفر ثلث العلية صلا حاكمها الله واسير

٢

الرسالة التي وجهها عبد الله الداعي الى دول البلاد المنخفضة
 مع سفره عام 1069 هـ (1659 م) وهو في أعلاها طابع هذا الایه

وأخيرا خصصت الولايات العامة مقابلة لوداع السفراء المغاربة، وقررت أن تقدم لهم هدايا فتعطي كل سفير سلسلة ذهبية، وميدالية، وكتابا في وصف مدن البلاد الواطئة المتحدة، وتحملهم هدية للامير عبد الله الدلائي، هي عبارة عن كتاب مماثل بغلاف أكثر زخرفة وتنميقا. ورجت الولايات العامة أن يعترف هؤلاء السفراء بحسن الاستقبال الذي حظوا به في البلاد الواطئة، ويعملوا في بلادهم على تسهيل قضايا الرعايا الهولنديين. ولما علمت الولايات العامة في 25 أكتوبر بنبا خروج السفراء من لاهاي، المقرر يوم 27 من نفس الشهر، أمرت الوكيل ديهايد بتشجيعهم عند مغادرتهم العاصمة، وكلفت الأمين هيسلت بإرفاقهم إلى لندن. ثم أرسلت مبعوثا عنها في 31 أكتوبر إلى أمستردام ليقدم الهدايا المذكورة إلى السفراء المغاربة الذين كانوا يتأهبون لمغادرة البلاد الواطئة. ولكن سفرهم تأخر إلى ما بعد 2 دجنبر 1659. ولما وصل السفراء إلى شواطئ المغرب وجدوا الثورة قائمة ضد الدلايين في العدوتين وبلاد المغرب، واضطروا إلى النزول في تطوان «المدينة الوحيدة التي ظلت وفيئة للدلايين» (58).

هـ) قضية تنصر أمير دلائي

شغلت قصة تنصر أمير دلائي بال الاوربيين مدة طويلة، وتبدلت في ثانيا عشرات الرسائل بين الشخصيات والهيئات الكاثوليكية في ايطاليا واسبانيا وفرنسا. وظهر أثر ذلك في الادب الاوربي فألفت مسرحيات في هذا الموضوع مثلت في مدارس اليسوعيين بألمانيا وبولونيا وغيرهما. وهذه القصة ان دلت على شيء فانما تدل على مدى بعد صيت الدلايين وانتشار سمعتهم في الاوساط الاوربية. ويبدو أثر الاختلاق والتلفيق واضحا في أخبار هذا الامير الدلائي المزعوم. وسأذكر باختصار هذه القصة كما أوردتها الكونت دو كاستري (59) ما دامت المصادر العربية لم تعرفها ولم تتحدث عنها بشيء؛ في سنة 1651 أعلن في جزيرة مالطة (60) عن ركوب حجاج مغاربة في سفن انجليزية، وخروجهم من ميناء تونس قاصدين مكة المكرمة، وفي الحين

(58) من رسالة وجهها السفراء المغاربة إلى الولايات العامة في 20 يوليوز 1660. دو كاستري، سلسلة وثائق البلاد الواطئة، 620:6

(59) دو كاستري، وثائق فرنسا، السلسلة الاولى، 203:1 وما بعدها

(60) مالطة إحدى جزر البحر المتوسط تقع غربي تونس، وقد سلمها ملك اسبانيا شارل كان (1500 - 1558) إلى فرسان جزيرة رودس سنة 1530 لمقاومة الاتراك في البحر ثم صارت مالطة مستعمرة انجليزية منذ مستهل القرن التاسع عشر وأحرزت على الاستقلال سنة 1962 ضمن دول الكومنويلث

أبحرت من الجزيرة سفن شراعية كبيرة للتجذيف GALERES بقيادة الضابط البحري بلطزار ديماندولص BALTHAZAR DE-MENDOLS وهو راهب كاثوليكي يشتغل بالقرصنة في البحر الأبيض المتوسط ضد المسلمين . واعترض بلطزار طريق السفينة الانجليزية وأسر كل من كان على ظهرها من الحجاج ، واقتادهم إلى مالطة حيث أودعهم سجن الميناء BAGNE الذي يدخل إليه المحكوم عليهم بالإشغال الشاقة (61) وكان من بين هؤلاء الأسرى شخص ممتاز يعمل على إخفاء حقيقته ، حتى لا يقع التتالي في ثمن فدائه . وقد استطاع هذا الأسير أن يحصل من باي تونس على أربعين ألفا من نقود ايكوس ECUS (62) المحددة لتحريره هو وزملائه . وعندما أخذ هذا الشخص الممتاز يتأهب للسفر إلى تونس يوم II يونيه 1656 حدثت صعاب غريبة منعتهم من ركوب البحر ، واضطر للمبيت عند الرئيس ديماندولص « DEMENDOLS » الذي كان يوليه كثيرا من العطف . وفي الليل حدثت المعجزة ! ورأى في منامه حلما عجيبا دعاه إلى الردة ، وأعلن في صباح الغد رغبته في التنصر . ولما مثل بين يدي الرئيس الأكبر بول ديلاسكارى LE GRAND MAITRE PAUL DE LASCARIS CASTELLAR عرف بنفسه ، وقال انه أمير مغربي اسمه محمد من أبناء سلطان الدلاء . فعلم الديانة المسيحية في بيت اليسوعيين بواسطة ترجمان يسمى جان باري « JEAN-PARIS » وعمد في مهرجان كبير يوم 31 يوليوز 1656 وأخذ اسم الضابط الذي أسره وصار يسمى « بالطارار لويولا مانديز » « R.P. BALTHAZAR LOYOLA MENDEZ » وتطور أمر هذا المتنصر ورسخت قدمه في الكاثوليكية حتى أصبح راهبا كبيرا وداعية للديانة المسيحية ، وانتدبته هيئة المبشرين لنشر الدعوة النصرانية في بلاد الهند ، وتقرر أن يبحر من لشبونة في بلاد البرتغال ويعرج في طريقه على مدينة الجديدة لنشر الدعاية المسيحية في أوساط المغاربة قبل التحاقه بالهند . وهنا تتكرر معجزة تعذر ركوب البحر

(61) كانت مثل هذه السجون معروفة في المراكز القرصنية ، وتسمى في المغرب بالمطامير أو الأهرام وقد ذكر المؤرخ محمد بن علي الدكالي في كتابه عن الرباطات انه وقف في الدار البيضاء على هري عظيم مشرف على المرسى قرب ضريح سيدي بلوط ، وقد نقشته بحيطانه وأقواسه الحجرية ورؤوس سواربه أسطر بالخط البرتغالي تتضمن أسماء متسن من الأسرى اختطفهم قرصان سلوى لأسباب مجهولة من ميناء لشبونة بالبرتغال في دولة السلطان محمد بن عبد الله العلوي ، وأودعهم هذا السجن المؤبد . وراد المؤرخ الدكالي أن الفرنسيين نقلوا أنقاض هذا الهري إلى الشكنة العسكرية خارج الدار البيضاء ، وأعادوا بناء الهري على الصورة التي كان عليها من قبل .

(62) ايكوس ECUS عملة فضية قديمة ، أول من ضربها الملك الفرنسي سان لوي (1215-1297) وهي تساوي ثلاث ليرات « LIVRES » في أقل حالات صرفها . وهناك أيضا نوع آخر منها يساوي مئة ليرات

205

et coram pro gaudium suum
continuo non agnoscit et
sanguine. ad Galat.



SCHEINRAE
DAT TAZITA
HAHNOLE
HAMED SE
Für den h
nisa Mah
Sigen
von
gulari De
t. ne
Le p
para, Ch
te du
sion, L
del ene
Serg
Matth
Alca
apost

على الراحب بلطازار لوايولا !! ويرجع من لشبونة ليسلك في سفره طريق البحر ، ولكنه لم يكد يصل الى مدريد حتى توفي بالطاعون في 15 شتنبر 1667. ذلك هو مجمل الحياة المسيحية المعروفة للراحب بلطازار لوايولا ، أما أصله وحياته السابقة في الاسلام فليست الا مجرد رواية وتخمين - باعتبار المصادر الاوربية نفسها - ولم تسفر الابحاث التي أجريت في مالطة وروما وفلورنسا ومدريد وغيرها من المدن التي دخلها هذا الراحب عن أي برهان يثبت صحة نسبه الدلائي ، أو حقيقة حاله فيما قبل الاسر . وقد عاد الاوربيون الى افتراض انه حفيد للسلطان محمد الحاج بعد أن كانوا يقولون انه ابنه مباشرة . وزعموا أن هذا المنتصر كان ابنا لمحمد بن محمد الحاج الذي خلف اخاه أحمد في اماره فاس من عام 1664 الى 1670/1654 - 1660 . وادعوا ان المنتصر تولى اماره فاس مدة بعد وفاة والده في انتظار أن يصير سلطان المغرب في يوم من الايام .. وكل هذه الافتراضات باطلة إذ كان الامير محمد بن محمد الحاج ما يزال حيا في سنة 1651 التي أخذ فيها هذا الاسير المنتصر ، بل ان محمد بن محمد الحاج لم يتول اماره فاس الا بعد ثلاث سنوات من تاريخ الاسر ، وامتدت حياته الى سنة 1660 . هذا بالاضافة الى أن أسرة الدلائيين في ذلك العصر كانت من الشيرة والنباهة بحيث لا يخفى فرد منها على المؤرخين والنسابة المغاربة . وقد عاصر الدلائيين خصوم ومنافسون كثيرون من السعديين والعلويين وشيعتهم ، ما كانوا ليسكتوا عن التشهير بهم لو كان أمر المنتصر حقيقة واقعة . ونحن نعلم أن خصوم الدلائيين عيروهم بأصلهم البربري ، وقبحوا عليهم اطعامهم الضيوف . وتصدرهم المجالس وارتقاءهم المناظر بعد الضعة والخمول ، فكيف كانوا يفضون الطرف عن سبة التمسح والمروق من الدين لو كانت !

ويرى المؤرخ السلوي محمد بن علي الدكالي (63) أن هذا المنتصر ليس الا علجا من مماليك الدلائيين ، ادعى عندما أسر انه أمير دلائي لتحصل له الخطوة عند النصاري ، أو لينجو من العقاب الصارم الذي كان يتعرض له كل مسيحي ثبت عليه انه اعتنق الاسلام . ويعتقد المؤرخ السلوي ان هذا المنتصر هو مملوك الحاج ابراهيم الخياط خديم الامير عبد الله الدلائي الذي أسره الهولنديون في سفينة الرئيس على مرشيك وباعوه في جبل طارق . وهذا لا يصح لما عرفنا من أن أخذ سفينة الرئيس مرشيك كان يوم فاتح شتنبر 1957 ، في حين كان أسر المنتصر قبل ذلك بست سنوات ، أي خلال سنة 1651 . على أن حوادث الاسر كانت متعددة ، والاسرى من المماليك وغيرهم كثيرون ، ولا

بعد أن يكون على أي حال هذا المتنصر من قدماء العلوج المسيحيين الذين سبق أن ملكهم بعض المسلمين من الدلائيين أو غيرهم ، كما يظهر ذلك عن ملامح الراهب بلطازار لوايولا ماندين (64) .

3 - الدلائيون في فاس

لما استولى محمد الحاج على مدينة فاس (عام 1051 - 1041) عقب مقتل الجاعد العياشي ، ولي عليها القائد أبا بكر التاملي ، واستند القضاء الشرعي إلى أحمد الأزموري (65) والفتيا إلى محمد بن سوادة (66) . وكانت فاس إذ ذاك تشمل على ثلاث مدن متميزة : المدينة الجديدة البيضاء أو فاس الجديد ، وعدوة الاندلس وعدوة القرويين أو فاس القديم . وكان يتولى أمر كل من العدوتين رئيس من أعيانها . وقد توارث آل اللريني الاندلسيون رئاسة عدوة الاندلس بفاس ، وأول من ولاه الدلائيون أو أقروه في هذا المنصب من أفراد هذه الأسرة هو عبد الكريم الليريني . ولم تترغم أسرة معينة - على ما يظهر - عدوة القرويين ، والحاكم الذي تولى أمرها على عهد الدلائيين هو ابن الصغير . وكانت مقاليد المدن الثلاث بيد المتولى على فاس الجديد دار الإمارة ومعقد الديوان ، ويعتبر قائدا العدوتين مساعدين له يزوران في قصره كل صباح ، ويتشاوران معه في مهمات الأمور قبل الرجوع إلى مقر عملهما لمباشرة الأعمال العادية وتنفيذ الخطة المتفق عليها .

وهكذا كان أبو بكر التاملي القائد المسؤول عن مدن فاس في السنوات العشر الأولى من إمارة الدلائيين (1051 - 1060/1041 - 1050) وهو وإن استقر في فاس الجديد ، فإنه لم يتمكن قصر الإمارة الذي تركه الدلائيون لأبناء الشرفاء السعديين احتراماً منهم لآل البيت النبوي الكريم . ولم يغادر السعديون هذا القصر إلا على يد السلطان الرشيد بن الشريف (67) وعرفت

(64) انظر صورة الراهب بلطازار في المرحلة رقم 15

(65) القاضي أحمد بن محمد بن علي الأزموري ، الشيخ ، السحوي الفقيه كان أعجوبة الدنيا في الحفظ والفهم كثير الاستشهاد في التدريس . توفي في جمادى الثانية 1057/يوليوز 1047 انظر ترجمته في : محمد الكتاني ، سلوة الأنفاس ، ج 2 ، ص 70

(66) الفقيه محمد بن محمد بن أبي القاسم ابن سوادة . استاذ الزاوية الدلالية . تقدمت ترجمته في الباب الثالث . وقد ولاه الدلائيون بعد ذلك القضاء في فاس عام 1057/1047

(67) أبو القاسم الزياني ، رسالة البلدين ، ص 479 . وورد في كناسة الجعدي وزير السلطان اسماعيل (ج 2 ، ورقة 176/ب) أن بنات الشرفاء السعديين خرجن من قصر الإمارة بفاس الجديد عام 1066 . وهكذا تنفق الروايات على بقاء السعديين في قصر الإمارة في معظم السنوات التي كانت فاس فيها تابعة للدلائيين . وإن كان الجعدي قد حدد لخروج الشريقات تاريخاً متقدماً قليلاً عما ذكره الزياني

فاس في هذه الفترة عهدا سعيدا امتاز بالطمأنينة والاستقرار ، لكن هذا الصفاء لم يلبث أن تكدر بسبب الخلاف الذي نشب بين القائد التاملي ورئيسي العدوتين وتطور الخلاف الى نزاع مسلح ، فقامت الحرب على قدم وساق بين المدينتين الفاسيتين الجديدة والقديمة ، وقطع القائد التاملي النهر عن المدينة القديمة وحرم خصومه من الماء وضيق عليهم الخناق ، فاستنجد أهل فاس القديم بمحمد بن الشريف صاحب سجلماسة الذي لبي دعوتهم مسرعا ، وقبض على القائد التاملي وزج به في السجن . غير أن محمد الحاج الدلائي ما كاد يعلم بحولية الامر حتى زحف الى فاس في جيش قوى من البربر ، والتقى بمحمد الشريف في المكان الذي يسمى (ظهر الرمكة) بضاحية فاس ، ولم يثبت ابن الشريف في المعركة الا يوما أو بعض يوم ثم رجع الى سجلماسة : فتحصن الفاسيون الذين كانوا معه في مدينتهم القديمة ، وضرب عليهم القائد أبو بكر التاملي الحصار مدة طويلة ، هلك أثناءها عبد الكريم الليريني رئيس عدوة الاندلس وغيره من أعيان البلد ، وأخيرا استسلمت المدينة ورجعت الى طاعة الدلائين .

(أ) أحمد بن محمد الحاج الدلائي أمير فاس

رأى السلطان محمد الحاج - بعد القضاء على الفتنة التي قامت في فاس - أن يولى على هذه المدينة ابنه الثاني أحمد . فأقامه نائبا عنه في مدن فاس الثلاث وما يليها من البلاد . واستقر الأمير أحمد الدلائي في المدينة البيضاء (فاس الجديد) ، واشتغل في أول عهده بتصفية الجو وتبعية رؤوس الفتنة الذين كانوا قد لجؤوا الى ضريح المولى ادريس ، واحتموا ببعض الشرفاء الجوطيين . وكان ضريح الشيخ محمد بن عباد (68) داخل باب الفتوح قد تهدم ولم يبق منه الا الجدار الشرقي ، فجدد الأمير أحمد الدلائي بناءه ، وجعل على القبر سقيفا . وأعطى كاتبه محمد (المدعو حم) الطاهري حق التصرف فيما يحمل لهذا الضريح من الهدايا والصدقات ، وكتب له بذلك ظهيرا بقي بيده وبيد عقبه . ولم يكن الأمير أحمد الدلائي رجل حرب وكفاح ، ولم تتوفر له صفات البطولة التي كان يتحلى بها أبوه وأخوه عبد الله . فكثر بسبب ذلك عيث القبائل المجاورة لفاس وفسادهم ، ولا سيما قبيلة الحياينة التي طغت ورجعت الى سالف عهدها في السلب والنهب . ولما لم يجد أهل فاس غناء في أميرهم

الشيخ محمد بن عباد النفزي الرندي تلميذ الشيخ أحمد بن عاشر السلاوي ، صدر امام القرويين وخطيبها ، ومؤلف الشرح المشهور لحكم ابن عطاء الله ، وغيره من الكتب في مختلف الفنون . كانت وفاته عام 1390/792 . انظر ترجمته مسهبة ، واخبار تجديد ضريحه في : محمد بن جعفر الكتاني ، سلوة الانفاس ، ج 2 ص 142/133

أحمد ، توجهت جماعة منهم الى والده في الدلاء تحمل اليه الفتاوى القاضية
بستروعية قتال الاعراب المحاربين ، وترجو منه أن يحمي فاسا من المعتدين
عليها . فكان ذلك سببا في الحملة التأديبية الكبرى التي قادها محمد الحاج
بنفسه ضد قبيلة الحياينة كما سبق . ولم يطل مقام الامير أحمد لدلائي فاس
فاس الا ثلاث سنتين وبضعة أشهر ، اذ توفي في ربيع الاول 1064/1651 .

(ب) محمد الدلائي يخلف أخاه في اماره فاس

يمتاز الامير محمد بن محمد الحاج الدلائي بالعلم والادب وحسن الخلق ،
وقد خلف أخاه أحمد في اماره فاس وما والاها من أعمال المغرب . وسار مع
الناس بسيرة حميدة ، وأمور سديدة (69) ولم تجد علينا المصادر بأكثر من
ذلك فيما يخص الأعمال التي قام بها هذا الامير في مدينة فاس ، اللهم الا ما
كان من تجديده ضريح ابن عباد الذي بناه أخوه أحمد ، وذلك «بعد أن احترق
بشعة ، ومات كثير من الناس ممن كانوا يطفئون النار» (70) وهذه البناية
هي الأثر الوحيد الذي بقي حتى اليوم مما شيده الدلائيون في فاس ، ونحن
لاستطيع بهذه المعلومات الضحلة أن نأخذ فكرة واضحة عن الامير محمد
الدلائي ، لكن يمكن أن نعتقد بأن حظه من الفروسية والنجدة والحكمة السياسية
لم يكن بأوفر من حظ أخيه أحمد . إذ لم يستطع خلال السنوات الست التي
قضاها في عمالة فاس أن يفرض احترام السلطة الدلائية في المدينة ولا في
خارجها ، وقام ثوار في الاقاليم الشمالية التي كانت تابعة له دون أن يحرك
ساكنا أو يحاول معارضتهم والضرب على أيديهم .

وكان للدلائين علاقة مصاهرة بأسرة الشرفاء القارديين (71) فأعطوهم
حق التصرف في فتوحات (72) ضريح أبي الحسن بن حرزهم (73) الأمر الذي

(69) سليمان الحوات ، البدور الزاوية ، ورقة 240/ب

(70) أبو عبد الله الضعيف ، تاريخ الضعيف ، ورقة 12/ب . وقد ذكر خير احتراق ضريح
ابن عباد وتجديده أيضا محمد بن الطبيب القادري في نشر المثاني الكبير ، ورقة 112/ب

(71) عرفنا في الباب الثالث أن أحمد بن عبد القادر القادري تلميذ الزاوية الدلائية تزوج بنت
الشاذلي أخ السلطان محمد الحاج . وتزوج بعد ذلك أخوه علاء بن عبد القادر القادري
- جد محمد بن الطبيب القادري صاحب كتاب نشر المثاني - بنت أحمد بن صالح الميوريني
الذي تولى قيادة فاس من قبل الدلائين

(72) المراد بالفتوحات الهدايا التي تقدم لضريح الولي من مال وشمع وزيت وماشية الخ

(73) أبو الحسن بن حرزهم (بكر الحاء وسكون الراء ، بعدها زاي مكسورة) حرف اسمه الى
(حرازم) . عالم كبير ، وصوفي شهير ، ولد ونشأ في فاس . وتعلم على القاضي أبي
بكر بن العربي ، والشيخ أبي يعزى . توفى في شعبان 559/يوليوز 1164 ، وابنه محمد
هو المعروف اليوم بسيدي حرازم . في الحمة ذات المياه المعدنية الشهيرة بضاحية فاس

انار حتى بعض الاسر الفاسية فأخذت تكيد للدلائيين وتعمل على التخلص منهم . ولم يكن هؤلاء وحدهم خصوما للنظام القائم ، وانما كان يشاطرهم هذا الرأي كل الذين أصيبوا بسوء في حوادث قمع الثورة الاخيرة ، وهم كثيرون . وداخل هؤلاء الخصوم رئيس احدى الفرق العسكرية الدلائية المربطة في فاس ، وهو القائد أبو عبد الله الدريدي ، وربط معه رئيس عدوة الاندلس أحمد بن صالح الليريني علاقات المصاهرة ، وتم التثامر على اغتيال الامير محمد الدلائي بالسسم (ربيع الثاني 1070/1659) . وقد حمل جثمان الامير محمد الى الدلاء ودفن في الزاوية القديمة . واستخلف السلطان محمد الحاج على فاس حفيده أحمد بن عبد الله (74) وكان ما يزال حدثا صغيرا ، فرجع بعد قليل الى الدلاء ، ومعه كل ما كان في قصر عمه بفاس الجديد من العيال والحشم والعبيد . واستقدم السلطان محمد الحاج الى الدلاء جماعة من أعيان فاس تزيد على مائة رجل فوبخهم على غدرهم بولده محمد ، وزج بهم في السجن أياما ، ثم بعثهم لفاس الجديد مكبلين فذبحوا جميعا (75) ومهدت هذه المذبحة السبيل أمام القائد الدريدي الذي أعلن نفسه حاكما على فاس الجديد ، وآزره في ذلك صهره لليريني في عدوة الاندلس ، وابن الصغير رئيس عدوة القرويين ، وقطعت فاس بذلك صلتها بالدلائيين . وسنرى في الباب التالي التطورات التي طرأت على العلاقات بين الدلاء وفاس ، ونهاية هؤلاء الرؤساء الثلاثة .

4 - آثار الدلائيين

(أ) المباني في الدلاء وفاس

شيد الدلائيون كثيرا من المباني سواء في العهد الاول الذي انحصر اهتمامهم فيه بالناحياتين الصوفية والعلمية ، أو في عهدهم السياسي الاخير . وكان من أبرز مآثرهم العمرانية الاولى الزاوية الدلائية القديمة التي أسس مسجدها الشيخ أبو بكر الدلائي حول عام 974/1566 ثم بنى فيها المدرس والنور والاسواق حتى صارت قرية أهلة بالسكان ومركزا علميا ممتازا . وبنى الشيخ أبو بكر أيضا بالقرب من الزاوية الدلائية جسرين على نهر أم الربيع يسمى أحدهما قنطرة (أمسدل) - بتشديد الدال المفتوحة - والآخر قنطرة (مرض الفان) أي مطحنة الخنازير . ولما أفضى الامر الى محمد الحاج الدلائي

(74) أحمد الدلائي هذا هو الذي سيتزعم وثرة البربر أيام السلطان اسماعيل
(75) أبو عبد الله الضعيف ، تاريخ الضعيف ، ورقة 1/8 ، انظر تفاصيل محنة أعيان فاس في سليمان الحوات ، البدور الضاوية ، ورقة 205

أسس في سفح الاطلس المتوسط عام 1048/1638 مدينته العظيمة التي جعلها على مثال مدينة فاس بأسوارها الفخمة المسننة ، وعمياعها المتدفقة في جميع المنازل بواسطة أنابيب تحت الارض ؛ وشيد في وسطها القصر والديوان . فكانت عاصمة الامارة الدلانية زهاء ثلث قرن . ثم بنى محمد الحاج بالقرب من مدينته ثلاثة جسور على روافد نهر أم لربيع يظن أنها هي قنطرة (أسيف بايت زمرور) وقنطرة (خلاطة) - بتشديد اللام - وقنطرة تاحيزونست أي المرجاء . وكلها «في غير الطريق الرئيسية بين مراكش وفاس بل هي في طريق ثانوية تخرج بالمنتجعين من الاراضي الجبلية للازاغرة فلذلك لا تعرف إلا عند الأهالي ..» (76) وسنرى في الباب التالي السلطان الرشيد بن الشريف بسط معاول الهدم على الزاويتين الدلائيتين ليتركهما قاعا صمغيا إلا آثارا بسيطة استطاعت أن تغالب نواثب الدهر . وكان لمحمد الحاج الدلائي كثير من الآثار العمرانية في مدينة فاس أخنى الزمن كذلك على أكثرها حتى لم يعد الآن مرفقا منها - فيما أعلم - إلا صريح ابن عباد داخل باب الفتوح ، وهو اليوم غير مسقوف لم يبق منه إلا لباب والصور الخارجي (77) . «وبنى (محمد الحاج) السقاية التي بفاس الجديد قرب باب السبع ، وبنى المقبرة التي بها مولاي عبد الله مدفون ، وبنى المدرسة التي هنالك ، والقبعة التي على سيدي عبد الرحمن الشريف بباب عجيسة . ودار الضيوف التي على نهر وادي الجواهر» . (78)

ب) النقود الاشقوبية

إذا كنا لانعرف أصلا لكلمة (أشقوب) التي تنسب ليها النقود الاشقوبية ولا ندري ان كانت محرفة عن الشقوب التي هي - لغة - كل مهباة بين جبلين أو صدى في كهوف الجبال ، فإنا لانستطيع كذلك أن نجزم بأن الدلائيين هم الذين ضربوا هذه السكة لعدم العثور على نص صريح في الموضوع . على أن القرائن التاريخية تؤيد أن هذه النقود دلانية ، فقد ظهرت الاشقوبية عام 1068/57 - 1658 ووقع التعامل بها في المغرب ولا سيما في فاس التي كانت تحت نفوذ الدلائيين . وظلت منذ هذا التاريخ السكة الرسمية في البلاد إلى أن حلت محلها النقود التي ضربها السلطان الرشيد بن الشريف عام 1080/69 - 1670 .

(76) أحمد بن قاسم المنصوري ، تاريخ زيان ، فصل «القناطير والآثار على نهر أم الربيع» مخطوط المؤلف غير مرقم

(77) أنظر الملوحة رقم

(78) عبد الودود التازي . نزهة الاخيار المرضيين ، ورقة 4/1 . وفيما يخص (دار الضيوف) التي على نهر وادي الجواهر ارجع إل ص 25 من هذا الكتاب



ضريح ابن عباد داخل باب الفتوح بفاس
من بناء الامير محمد الدلائي

تصوير المؤلف

وكانت النقود الاشقوبية هذه مربعة الشكل . مصنوعة من فضة مخلوطة نحاس . ووزن الدرهم الاشقوبي عشرون حبة وأربعة أسباع الحبة من حبوب السعير المعمول بها في الوزن (79) أى أقل من نصف الدرهم الشرعى الذى وزن خمسين وخمسة حبة . والاوقية الاشقوبية ثمانون فلسا من النحاس . والدرهم ثلاث موزونات وثلاث ، فى كل موزونة أربعة وعشرون فلسا . ثم صارت الموزونة تعدل ضعف ذلك أى ثمانية وأربعين فلسا أشقوبيا «الى أن طغت الرشيدية سنة ثمانين فطرحت السكك كلها ولم يبق معاملة الا بالرشيدية ، وصارت (الاشقوبية) تجوز فى أربعة وعشرين فلسا عند ضرب الفلوس المستديرة فى جمادى الثانية سنة احدى وثمانين وألف ...» (80)

الباب السادس

نهاية الزاوية الدلائية

1 - بدء انتفاض الاطراف على الدلائيين

(أ) ثورة الخضر غيلان في الشمال

(ب) زوال نفوذ الدلائيين من فاس

(ج) قضية البلديين في فاس

2 - الثورة ضد الدلائيين في سلا والرباط

(أ) عوامل الثورة

(ب) حصار عبد الله الدلائي في القصبة

(ج) هل حاول الدلائيون تسليم القصبة الى دولة أوربية ؟

3 - القضاء على الزاوية الدلائية - تخريبها

(أ) ظهور السلطان الرشيد بن الشريف العلوي

(ب) استيلاء الرشيد على فاس

(ج) معركة (بطن الرمان) - تخريب الزاوية الدلائية

١ - بدء انتفاض الاطراف على الدلائيين

(١) ثورة الخضر غيلان في الشمال

الخضر غيلان مغربي من بني جرفط القبيلة العربية التي تسكن بين العرائش وتطوان ، وليس هو من الموريسكيين المهاجرين من الاندلس كما يدعيه بعض الاوربيين . كان غيلان من أكبر مساعدي المجاهد العياشي والمقدم على الغزاة في بلاد الهبط ، ثم اعتصم بجبال الريف بعد موت رئيسه العياشي ، وظل يراقب الدلائيين ويتربص بهم الدوائر ، الى أن وافته الفرصة خلال عام 1652/1653 فانقض على مدينة القصر الكبير واستولى عليها ، وقتل فيها على بن أحمد الذي اغتال المجاهد العياشي . وأخذ الخضر غيلان يوسع دائرة نفوذه شيئاً فشيئاً ، ويغير على المدن والقبائل الخاضعة للدلائيين ، ويصول ويجول في المنطقة الواقعة بين القصر الكبير وفاس . ولما وقعت قبيلة شراكة في وجهه ، وكانت من أقوى القبائل في شمال فاس واشدّها شوكة ، حاربها الى أن قلّ حذتها ، وأوقع بها هزيمة منكرة ، وانتهب حطبها وخيامها ، «فدخلوا فاسا مسلوبين منتصف جمادى الاولى عام 1070» (١) وقد انتشر نفوذ غيلان في مناطق الشمال ، خصوصاً عند قبائل الهبط التي كان يرأسها في حركات الجهاد أيام الرئيس محمد العياشي وانضم اليه جماعة من الفاسيين الناقمين على الوضع القائم في مدينتهم ، واجتمع عليه أعراب الخلط وغمارة وسائر القبائل التي كانت ترغب في التخلص من سيطرة الدلائيين ، أو تسعى في الانتقام منهم على ما ألحقوا من أذى بمجاهدي الغرب ورئيسهم العياشي .

أقلقت أخبار الثورة في الشمال بال السلطان محمد الحاج الدلائي ، فأخذ يهيئاً للملاقاة خصمه غيلان في معركة حاسمة . ولم يكده ينتهي شهر الصيام من عام 1070/يونيه 1660 حتى خرج محمد الحاج من مدينة الدلاء على رأس جيش جرار من البربر ، قوامه 80.000 رجل ، وتقدم يغذ السير الى أن وصل الى مولاتي بوسلهم في بلاد الغرب . وهناك على ضفة وادي بوحريرة أحد روافد المرجة الزرقاء ، وجد الخضر غيلان ينتظره ، وقد اعصوبت عليه قبائل الغرب من أنصار المجاهد العياشي القدماء ، ودارت بين الفريقين معركة رهيبة ، لم تغن فيها وفرة جموع الدلائيين عنهم شيئاً ، فولوا الادبار ، ولادّوا بالفرار . وقد مرت فلولهم المهزومة ببلاد الغرب وتامسنا تحمل الى الناس البرهان الواضح على الانتكاسة الخطيرة التي أصابت امارة الدلاء ، والضعف الفاضح

الذي نزل بها ، فازدرت بها العيون ، وزالت عيبتها من القلوب . وكانت افادة الخضر غيلان من هذه المعركة الفاصلة مزدوجة ، فبالإضافة الى الاسلاب التي امتلات بها أيدي أتباعه وأنصاره ، تألق نجمه من جديد ، وانتشر ذكره في أوساط القبائل . واستطاع أن يستبد بشمال المغرب كله في ظرف وجيز ، ولم تمتنع عليه الا مدينة تطوان ، فقاومه حاكمها المقدم عبد الكريم النقسييس الذي ظل وفيًا للدلائيين الى آخر حياته . ولم يستطع غيلان أن ييسط نفوذه على تطوان الا بعد أن أيس حاكمها الجديد أحمد بن عيسى النقسييس الحفيد (2) من وصول نجدات الدلائيين اليه . وانبرم الصلح بين الطرفين عام 1072/1662 - 1661 على أن يظل أحمد النقسييس حاكما لتطوان ويقدم لغيلان عددا معيناً من الجنود يساعده في حركاته الجهادية .

ورأى الخضر غيلان أن يعزز موقفه ، ويضمن المكاسب التي حصل في الشمال ، بالتحالف مع المسيحيين الذين كانوا يحتلون الثغور المغربية المحيطة به ، فاتفق مع الحاكم الإسباني لمدينة سبتة (المركيز دي لوص اركوس) « MARQUISE DE LOS ARCOS » وعقد معه في أوائل سنة 1661 اتفاقية يقدم غيلان بمقتضاها الى حاكم سبتة 10.000 من الجنود المشاة ، و 2000 من الفرسان على أن يدافع عنه المركيز ضد جميع خصومه (3) . وظل غيلان في نفس الوقت يحافظ على علاقاته الطيبة مع انجلترا ، وأبى أن يعارض في نزول الانجليز بطنجة عندما قدمت الاميرة البرتغالية (كاترين) هذه المدينة مهرا لزوجها شارل الثاني ملك انجلترا ، ولم يتدخل غيلان في ذلك بالرغم من الحاج الاسبانيين - مراعاة لمصلحتهم الخاصة طبعاً - وحشهم اياه على أن يحول دون تنفيذ هذا المشروع بصفة مباشرة (4) .

وقد توطدت أواصر الصداقة بعد ذلك بين غيلان والانجليز ، فساعده في حربه ضد الدلائيين ، في نفس الوقت الذي كان الاسطول الانجليزي يتصل بالامير الدلائى المحاصر في القصبية ، ويقدم له المؤنة والذخيرة أملا في أن يسلم اليه هذا الحصن . ولم تكن أطماع الانجليز في الاستيلاء على قصبية سلا وليدة

(2) هناك مقدمان من حكام تطوان يسمى كل منهما أحمد بن عيسى النقسييس - أولهما أحمد الجعد الذي كان يحارب النصارى في سبتة أيام السلطان أحمد المنصور الذهبي . وكانت وفاته عام 1031/1622 . والثاني هو أحمد بن عيسى النقسييس حفيد أحمد الاول ، وقد تولى حكم تطوان عام 1071/1660 - 1661 . وظل بها الى أن قبض عليه السلطان الرشيد ابن الشريف العلوي عام 1078/1667 . انظر تفاصيل اخبار هذين المقدمين عند محمد داوود ، تاريخ تطوان ، القسم الثاني من المجلد الاول ، ص 236 وما بعدها

(3) الكونت دو كاستري ، مصادر لم تشر لتاريخ المغرب ، سلسلة فرنسا الثانية ، 24:1

(4) نفس المصدر ، ص 23

هذا التاريخ فحسب ، وإنما حاولوا أن يستولوا عليها لأول مرة من يد
الموريسكيين المحاصرين من طرف المجاهد العياشي . وكاد الاميرال (بلاك)
« L'AMIRAL BLAKE » قائد الاسطول الانجليزى أن يستلم القسبة من
أيديهم لولا أن تأخر ورود التعليمات اللازمة من حكومته ، بسبب الاضطرابات
الداخلية القائمة اذذاك فى انجلترا . وبعد أن تمكن الانجليز من مدينة طنجة
أبرموا مع غيلان سنة 1664 معاهدة ود وتحالف سعيًا وراء تحقيق مطامعهم فى
الاستحواذ على قسبة سلا التى كانت قد دخلت تحت نفوذه ، ثم بعد سنتين
عززوا هذه المعاهدة بأخرى توطد أواصر الصداقة والتعاون بين الطرفين .
وهكذا أصبح المجاهد الثائر الخضر غيلان شخصًا وديعًا مسلمًا لخصومه
السابقين ، بل حليفًا للأجانب الذين يحتلون بلاده ، يوقع معهم معاهدات الود
والتعاون ، رغبة منه فى تثبيت نفوذه ، ومساندته للتغلب على منافسيه من
بنى قومه . وكانت نهاية غيلان - عفا الله عنه - القتل على يد السلطان
اسماعيل العلوى عام 1673/1084 .

ب) زوال نفوذ الدلائيين من فاس

ظلت فاس خاضعة للدلائيين نحو عشرين سنة (1051-1070 1641-1660) تحت
أمر القائد أبى بكر التاملى ، ثم الاميرين الدلائيين أحمد ومحمد كما
سبق . وبعد ذلك خالفت فاس الدلائيين ؛ واجتازت الثورة الفاسية خلال
السنوات الست التالية ثلاث مراحل :

المرحلة الاولى (من عام 1070 الى عام 1073 / 1660 - 1663) وفيها انفصلت
فاس عن الدلائيين ، تحت تأثير ثورة الخضر غيلان بالشمال . وقد التحقت
طائفة من الفرسان الفاسيين بمدينة القصر الكبير لساندة ثورة غيلان بينما
أخذت طائفة أخرى تعمل للقيام بانقلاب داخلى فى فاس . وجاءت المذبحة
الرعبية عقب وفاة الامير محمد الدلائى ، فأحدثت أثارًا كبيرة واستياء عميقًا فى
نفوس الاسر المكتوبة فى رجالها وأبنائها وأقاربها ، وفى نفوس السكان عمومًا ،
حتى أن الامير الصغير أحمد بن عبد الله الدلائى الذى عينه جده السلطان
محمد الحاج نائبًا عنه فى فاس ، رأى أن الظروف لم تعد مواتية لاقامته فى
هذه المدينة التى أصبحت تتأجج حقدا على أسرته ، ففكر راجعًا الى الدلاء .
وهكذا انفسح المجال أمام القائد أبى عبد الله الدريسي (5) ليتزعم أمر
فاس الجديد ، ويعمل باتفاق مع رئيسى العدوتين فى المدينة القديمة على

(5) أبو عبد الله الدريدى كان رئيس جماعة من اخوانه دريد من العرب الهلالية فى ديسوان
السعديين الى أن دخلت فاس فى طاعة الدلائيين . فانخرط الدريدى وقومه فى جندهم
وطلبوا يرايطون فى هذه المدينة مع حاميتها الى أن تاروا على الدلائيين عام 1070/1660

الاستقلال بالامر في هذه المنطقة ، وقطع كل علاقة لهم بالدلائيين . ولم تمض سنتان على هذا الانفصال حتى قام الدلائيون بمحاولة استرجاع العاصمة الادريسية ، وقاد الامير عبد الله الدلائي جيشا قويا زحف به الى فاس (رمضان 1072 / ماي 1662) وحاصرها عشرة ايام دون أن تفتح له ابوابها ، أو يجرؤ قوادها على مبارزته وقتاله . ولم يجد عبد الله بدا من الرجوع على عقبه بعد أن أهلك حرث القاسيين ، وأفسد زرعهم خارج المدينة .

المرحلة الثانية (1073 - 1074 / 1663 - 1664)

عادت فاس في هذه الفترة تلقائيا الى طاعة الدلائيين . إذ لم يكن للدريدي ومن معه من الرؤساء المستبددين من الكفاءة السياسية والحربية ما يؤهلهم للذود عن المدينة وأهلها ، ولرد عادية المغيرين عليها . خصوصا في تلك الفترة التي كانت الفوضى ضاربة أطنابها في المغرب بصفة عامة ، ولاسيما في المناطق التي أخذ ظل الدلائيين يتقلص منها . وكثر عيث قبيلة الحياينة وقسادها ، وضاق الفاسيون ذرعا ببغيها ، فخرجت جماعة منهم الى الدلاء ، فعنذر للسلطان محمد الحاج عما بدر منهم من عناد وعصيان ، وترجوه أن يعيد الأمن والطمأنينة الى مدينتهم التي أصبحت تعيش في جو من الخوف والاضطراب . ولعلا خرج السلطان محمد الحاج الى قرية آزرو (صفر 1074 / شتنبر 1663) وضرب خيامه فيها حيث مكث نحو شهر ينظر في شؤون الرعية ، ويتخذ الاجراءات الكفيلة بتأمين السبل وحفظ النظام في الاقاليم التابعة له . وجاءته وفود القبائل ، «وخرج شرفاء فاس وعلماؤها ، وخطيبها وأعيانها ، بقصد التهنئة له والتسليم عليه ، والاستعفاء من اذية جنوده . فأكرمهم وجزى وفادتهم ، ورجعوا الى فاس مكرومين (كذا) مسرورين . وأقام هنالك في اصلاح احوال الرعية وتمهيد البلاد الى الشتاء ، ورجع الى الدلاء . وكان رجوعه أول ربيع الاول ، فانحط القمح والاسعار بسبب اقامته هناك ، وأمنت الناس والطرق من القطع والنهب والقتل ...» (6)

وقد ولي السلطان محمد الحاج على عدوة فاس الاندلس أحمد بن صالح المبريني ، وابن الصغير على عدوة فاس القرويين ، وأسند القضاء الى الفقيه ابي عبد الله المرى القلمساني .

ج) قضية البلديين في فاس (7)

البلديون أو المهاجرون (كذا) هم اليهود الذين أسلموا في فاس بعد الفتنة الكبرى التي استتبعحت فيها دماؤهم وأموالهم بهذه المدينة عام 1275/674 - 1276 ، وقد كف السلطان يعقوب بن عبد الحق المريني (657 - 1259/685 - 1286) أيدي الناس عن البلديين وأسكنهم المدينة البيضاء (فاس الجديد) التي كان أسسها في تلك السنة واتخذها دار ملكه . واندمج البلديون في حياة المسلمين واشتغلوا بحرفهم ، وعمروا أسواق المدينة . لكن ظهر متهم الغش والخيانة في البيع والشراء فمنعوا من تعمير الأسواق في فاس وظلوا منبوذين هكذا طيلة أيام السعديين .

وقد شغلت مسألة البلديين الفاسيين علماء المغرب ذعرا طويلا ، وبلغ عدد الفتاوى التي أقرت منعهم من مزاولة التجارة في أسواق المسلمين اثنين وخمسين ، بينما أفتى علماء آخرون بعدم مشروعية حرمان هذه الطائفة من المسلمين من الكسب والاتجار - مهما كان أصلها - لان الاسلام يجب ما قبله . وألف الشيخ محمد بن أحمد ميارة (8) كتابا سماه : نصيحة المفترين ، وكفاية المضطرين ، بالتفرقة بين المسلمين بما لم ينزله رب العالمين ، ولا خبر به الصادق الأمين ، ولا ثبت عن الخلفاء المهتدين . « جمع فيه فتاوى من قال بالإباحة ، وأسقط فتاوى من قال بالمنع ، وهو الأكثر عددا وعدالة وعدة ، ثم اتبع تلك الاجوبة بما ظهر له بحسب رأيه من الاخذ والقياس . وذلك الاخذ أكثره خطأ ، والقياس غير محكم » (9) .

وفي هذه الفترة التي نؤرخها (1073 - 1074) قام البلديون بمحاولة الرجوع الى الاتجار في أسواق فاس ، وشكوا أمرهم الى القاضي أبي عبد الله المري وقدموا له فتاوى الفقهاء الذين يبيحون مشاركتهم سائر المسلمين بالبيع والشراء ، وأعطوه هدية له وأخرى للسلطان محمد الحاج الدلائي ، وطلبوا من القاضي أن يستأذن لهم السلطان على أن يجعلوا لهما خراجا سنويا مقابل

(7) ألف أبو القاسم الزياني كتابا سماه قصة المهاجرين المعروفين اليوم بالبلديين بفاس . ذكر فيه تاريخ اليهود في فاس منذ أسسها المولى إدريس الثاني ، وسيرة من أسلم منهم الى عصره . ويحيط باسم مؤلف هذه القصة غموض . إذ نجد بعض النسخ غفلا من اسم المؤلف ، بينما ينسبها البعض لاحد الفاسيين . ويرى الاستاذ محمد ابراهيم الكتاني أن مما يشكك في نسبتها للزياني كونه بربريا ينكر ما يراه العرب لانفسهم من فضل على غيرهم . وتقرظه لكتاب في الانتصار للبلديين إذ لو كانت فكرته ضدهم ما قرظه .

(8) الشيخ محمد ميارة استاذ الزاوية الدلائية وصاحب الشرح المشهور على المرحد المعين تقدمت ترجمته في الباب الثالث . وقد تحامل عليه الزياني في قصة المهاجرين وقال عنه ان أصله يهودي .

(9) أبو القاسم الزياني ، قصة المهاجرين . ص 481

ذلك . فبعث بالهدية والموافقة الى الدلاء غير أن محمد الحاج كان يعلم تاريخ الفتاوى فى القضية خصوصا من والده الذى كان مقيما مدة بفاس يقرأ على القصار ، لانه ثبت عليهم الغش مرارا . فكتب محمد الحاج الى المرى يخبره بالنع ، وكتب لقائده أحمد بن صالح بتفصيل القضية ، وأمره الا يترك المرى بفعل ما أراد هو والمهاجريون . فجمع القائد أحمد بن صالح أعيان فاس وقرأ عليهم كتاب الأمير فساروا الى المرى ووبخوه ومنعوه من القضاء أياما ، ولولا خوفهم من محمد الحاج لقتلوه ونهبوا داره ، لاجل ما كان بين الفريقين من البغضاء القديمة (10) .

المرحلة الثانية (1074 - 1076 / 1664 - 1666)

لم تكد ترجع وفود الفاسيين من أزرو ويرد خبر ارتحال السلطان محمد الحاج الى مدينة الدلاء ، حتى ظهرت نغرة الانفصال من جديد عند القائد الدريدى والى فاس الجديد . غير أن سكان المدينة الادريسية لم يوافقوه على ذلك ، وظلوا على وفائهم للدلائيين سواء منهم أهل عدوة فاس الاندلس أو عدوة فاس القرويين . وكان الذى يتولى أمر معارضة الدريدى والوقوف فى وجهه هو صهره رئيس الاندلسيين أحمد بن صالح الليرى . وقد كون القائد الدريدى عصابة من المقاتلة للقيام بأعمال اللصوصية والنهب فأخذ يغير على قبائل بسيط سايس وقراها ومداشرها ، ويصل الى زرهون ومكناسة الزيتون وباتى بامتعتهم وأموالهم ومواشيهم الى فاس الجديد ويبيعها . وكثر القطع والنهب والقتل بسبب ذلك ، وانقطع السفر فى الطرق . ويخرج أهل فاس العليا (11) الى لقائه بالطبول والغوائط (12) وكثر النكير عليه بفاس الادريسية من الاشراف والفقهاء وأعيان الناس (13) .

انقطعت الصلات بين مدينتى فاس القديمة والجديدة ، وتطور الخلاف بينهما الى القتال ، وجرت خطوب هلك فيها عدد كبير من الناس . ورأى السلطان محمد الحاج الدلائى أن يردع الدريدى الشاثر ، فجهز كتيبة قوية من فرسان قبيلة مجاط أرسلها الى بلاد سايس ، فترصدت للدريدى وعصابته حتى اذا خرجوا من فاس وابتعدوا عنها هجم عليهم المجاطيون وحكموا السيوف فى رقابهم ولاذ أفراد العصابة بالفرار وتبعهم فرسان مجاط يطاردونهم الى أبواب فاس ، وبقوا يحاصرونهم فى المدينة الجديدة أياما . وشكر القائد

(10) أبو القاسم الزبائى ، قصة المهاجرين ، ص 480

(11) المراد بفاس العليا (فاس الجديد)

(12) (الغوائط) فى اللغة الدارحة المغربية هى نوع من المزمار الشعبية والمفرد (غيطة)

(13) محمد القادري ، نشر الثانى الكبير ، ورقة 119/ب

المجاطى أهل فاس الادريسية على وفائهم وعدم انسياقهم مع العصاة ، وظل على اتصال بهم طيلة مدة الحصار الى أن رجع الى الدلاء . وبقي أهل فاس القديمة على ولائهم للدلائيين الى قيام الدولة العلوية كما سنرى فى فصل آت .

2 - الثورة ضد الدلائيين فى سلا والرباط

(ا) عوامل الثورة

لم تكن هناك خلافات - على ما يظهر - بين الامير عبد الله الدلائى وبين رئيسى العدوتين وسكائهما ، بل بالعكس كانت الثقة متبادلة بين الامير ومساعديه ، فهو ينسبهم عنه فى المفاوضات مع الاجانب ويدافع عن مصالحهم لدى الدول الاوربية ، ولم يكن عبد الله الدلائى يرهق كاهل المواطنين بالأتاوات والمغارم لاستغنائهم بالضرائب المفروضة على الصادرات والواردات فى الميناء ، ولا يؤديها فى الغالب الا التجار والبحارة الاجانب . هذا بالاضافة الى العمل التجارى الضخم مع أقطار شمال افريقية الذى يشترك فيه كل من الامير الدلائى وأعيان العدوتين ورؤساء السفن . فما هى ياترى الاسباب التى دعت الى الانقلاب فى سلا والرباط ؟ وكيف تم تنظيم الثورة والامير الدلائى حاضر يراقب الامور عن كثب ؟ للإجابة عن هاذين السؤالين ينبغى أن نرجع الى الوراء قليلا لتذكر الحالة التى أدت الى تدخل الدلائيين فى شئون العدوتين خلال عامى 50 - 1051 / 40 - 1041 . فعندما كان المجاهد العياشى يحاصر المورسكيين فى القصبة جمع محمد الحاج الدلائى من حوله رؤساء قبائل الغرب الذين كانوا ينافسون العياشى ، ووقع اغراء الاعراب للثقاعس عن نصره المجاهد واغتياله . وتم للدلائيين ما أرادوا من السيطرة على بلاد الغرب كلها ، ولكن هذا الانتصار لم يكن فى الحقيقة الا عابرا ، كما لم يكن خضوع القبائل الا ظاهرا اذ كان حب العياشى وتقديره متمكنا من نفوس مساعديه وأنصاره ، فلم يستسلم قط عبد الله العياشى ولا الخضر غيلان ، وظلا يناصبان الدلائيين العداء جهارا ، ويناوشانهم فى كل مناسبة . هذا الى ما كان من وحشة المورسكيين ونفرتهم من الامير عبد الله الدلائى بعد أن حاصرهم فى القصبة وطردهم منها وانتزع من أيديهم السلط الحقيقية غير تارك لديوانهم الا مسائل ثانوية تافهة . فقد كان هناك اذن خصوم للدلائيين من الاعراب والمورسكيين اغراهم انتصار الخضر غيلان فى الشمال فجمعوا شتاتهم ونظموا الانقلاب فى جو من التكتم التام . ولم تتحدث المصادر العربية عن هذه الثورة التى قامت فى العدوتين الا عرضا وبإشارات خاطفة ، ولم نتعرف على بعض التفاصيل الا بواسطة المراسلات التى وجهها قناصل الدول الاجنبية المقيمون فى سلا آنذاك

الى حكوماتهم ، ولاسيما القنصل الهولاندى دافيد دوفرييس الذى عاش تلك الأحداث ، وعبر نهر أبى رقرق تحت وابل الطلقات النارية للشوار (14) .

(ب) حصار عبد الله الدلائى فى القصبة

فى يوم هادىء من أيام شهر جمادى الاولى عام 1070 / فبراير 1660 بينما كانت الحالة تسير سيرها العادى فى العدوتين ، والبحارة يشتغلون فى المرفأ ليخرجوا الى عرض البحر سفينة محملة بالسلع فى ملك أمير سلا وأعيان التجار لتتجه الى الجزائر ، وفى نفس الوقت الذى كان الامير الدلائى يستقبل القناصل فى قصره المطل على نهر أبى رقرق ، اذا بالمدافع تقصف قصفا مزعجا متواليا . والبنادق العديدة تطلق نيرانها دفعة واحدة ايذانا بنشوب الثورة . وكانت القبائل العربية المجاورة لسلا والرباط على موعد مع هذه الإشارة ، فأعلنت العصيان على الفور ، وحملت السلاح ضد الدلائيين . وقام الرباطيون بمحاصرة الامير عبد الله فى القصبة بينما أخرج السلاويون مدافع العياشى الضخمة ونصبوها على ضفة النهر وبدؤوا يطلقون النار على القصبة ، ولم تتمكن مدافع الرباطيين من اصابة حامية الحصن لانخفاض أرضهم فكروا التراب الى أن جعلوه عاليا كالابراج ، وبدؤوا يصلون القصبة بنيران مدافعهم . وكان مع الامير عبد الله الدلائى داخل الحصن ألفان من جنود البربر ، ردوا بالمثل على هذا الهجوم المفاجىء ، وصوبوا مدافعهم شمال النهر وجنوبه وقاوموا فى نفس الوقت السلاويين والرباطيين . ولم تتضرر مدينة سلا لبعدها عن مرمى مدافع القصبة ، بينما هلك كثير من الرباطيين بالقنابر التى كانت تقذف بها مدافع الدلائيين وسط الشوارع والساحات . وبلغت أخبار الانقلاب الى السلطان محمد الحاج الدلائى فجيش الجيوش وقصد سلا لكنه وجد الخضر غيلان قد سبقه الى الميدان ، ومن حوله أعراب الغرب ، وكانت الدائرة على محمد الحاج ، وبقي ابنه عبد الله محاصرا فى القصبة ثمانية عشر شهرا أظهر خلالها بطولة فادرة وجلدا كبيرا .

(ج) هل حاول الدلائيون تسليم القصبة الى دولة أوربية ؟

تقول بعض الروايات الاوربية ، ان عبد الله الدلائى لما طال عليه الحصار فى القصبة ، وأيقن أن أباه لن ينجده ، لجأ الى الاوربيين ليمدوه بالميرة والذخيرة ويساعدوه على فك الحصار . وتتضارب هذه الروايات ، فيزعم بعضها أن عبد الله الدلائى طلب المعونة من حاكم سبتة الاسباني المريكز ديلوص اركوص

(14) انظر نص الرسالتين التى بعث بهما دوفرييس الى الولايات العامة حول ثورة العدوتين فى : دو كاسترى ، مصادر كم تشر . سلسلة البلاد الواطئة . 613:6 - 616

واقترح عليه أن يسلم قسبة سلا الى ملك اسبانيا فليب الرابع ، مقابل أن يحمل فقط الى الجهة التي يريد النزول فيها من شواطئ المغرب لكن اسبانيا التي كانت مرتبطة بحلف صداقة مع الخضر غيلان ، أخبرته بهذا الاقتراح ، فثار عليها برفضه لما كان يعلم من حرج موقف خصمه (15) وتقول رواية أخرى أن عبد الله الدلائي أرسل الى حاكم طنجة الانجليزي الكونت ديطيفيو « Le Conte de TEVIOT, Gouverneur à Tanger » يطلب منه الزاد والمعونة وكان هذا الحاكم يخشى غيلان ويعرف رغبته في الاستيلاء على مدينة طنجة ؛ لذلك رحب بمبعوثي الامير عبد الله الدلائي ، وبعث اليه بسفينة محملة بالطعام والذخيرة الحربية . فمكنت هذه الاغاثة القسبة من أن تتحمل الحصار مدة طويلة . ثم جاء أسطول انجليزي بمدد آخر الى القسبة ، فاقترح الامير عبد الله الدلائي على قائد هذا الاسطول أن يسلم اليه قسبة سلا مقابل ألف قطار من مسحوق البارود ، وألف بندقية (16) . على أن التعليمات السرية التي وردت على حاكم طنجة الكونت ديطيفيو من حكومته في 21 دجنبر 1663 (جمادى الاولى 1074) لم تشر الى هذا العرض المزعوم ، وانما طلبت منه أن يمتلك قسبة سلا حالة ما اذا طلب منه الدلائي ذلك مقابل شروط معقولة ، وان يبالغ المجهود حتى لا يقع هذا الحصن في يد الخضر غيلان (17) ؛ ويبدو أن كلتا الروايتين لا أساس لهما من الصحة ، أما الاولى التي تقول بمدد الامير عبد الله الدلائي يده الى الاسبانيين فان ذلك مناف للمعاداة الصريحة القائمة بين الطرفين باستمرار . وما زلنا نذكر جهاد هذا الامير ضد الاسبانيين في المعورة ، ومحالفته للدول الاوربية المعادية لاسبانيا ، كبرلندا ، وانجلترا ، وفرنسا ، ولم يثبت أنه هادن الاسبانيين أو عاملهم بالتجارة أو غيرها فكيف يتصور أن يلجأ الامير الدلائي الى عدوه اللدود في أخرج الظروف يرجو منه العون والنصرة ؟ وفيما يتعلق بالمساعدة الانجليزية ، يبدو من المعقول جدا أن يتوجه الامير الدلائي الى هذه الدولة التي تربطه بها معاهدة 19 غشت 1657 ولا سيما وقد كانت طنجة أقرب المراكز التي يمكن أن يستنجد بها . لكن مسألة تسليم القسبة الى الانجليز مقابل كمية من الذخيرة الحربية تنقصها الحجة والبرهان . ولا يمكن الاعتماد على ما جاء في التعليمات السابقة التي وردت على الكونت ديطيفيو ، لانها انما تتحدث عن احتمال تقدم الدلائي باقتراح تسليم القسبة الى انجلترا لا عن وقوع ذلك بالفعل . هذا بالاضافة

15) « De Castries, Sources Inédites de l'Histoire du Maroc, Pays Bas, T.V.P. XXVII. »
16) « Mission Scientifique du Maroc, Villes et tribus, (Rabat et sa Région) T.I. P. 84 »
17) « Archives Marocaines, T. XVIII, P. 29. »

أن الأمير عبد الله الدلائى كان قد خرج من القصبية قبل ورود هذه التعليمات بنحو عامين ونصف اذ استطاع أن يفلت من الحصار المضروب عليه فى شهر شوال 1071/يونيه 1661 ويغادر الحصن خلسة الى تامسنا على ظهر سفينة انجليزية (18) بعد أن أسند القيادة الى أحمد الجنوى الذى تابع مقاومة الحصار الى فصل الربيع من عام 1074/1664 . وكان الرئيس غيلان قد مل هذا الحصار الطويل ، فأرسل أخاه الطاهر فى ثلاثمائة فارس ليوقع اتفاقا مع رؤساء مدن أبى رقرق الثلاث كى يقتسموا بالسوية جميع المداخل «وفى 3 ماي 1664 قطعت القصبية كل علاقة مع الزاوية الدلائية ودخلت فى حماية غيلان وقد أقر أحمد الجنوى فى منصبه ثم سميوه فمات» (19) .

وهكذا ترك الدلائيون مكرهين مدن أبى رقرق بعد أن ظلوا فيها نحو ربع قرن ، كانوا فيه أصحاب الحكم المطلق والسلطان الذى لا يحد ، ونعموا بكثير من الثراء والجاه ، ورعبتهم الدول الأجنبية وخطبت ودهم عن طريق المعاهدات ، ولقوا نفس المصير المحزن الذى لقيه العياشى على يديهم ، فذاقوا ألم الحصار أعواما ، وتركوا فى الميدان ألوف القتلى واكتفوا من الغنية بالاياب.

3 - القضاء على الزاوية الدلائية - تخريبها

(1) ظهور السلطان الرشيد بن الشريف العلوى

كان للشريف بن على جد الملوك العلويين الحاليين منزلة رفيعة ، وحظوة كبيرة عند السجلماسيين ، وكان له أولاد عديدون ، أكبرهم المولى محمد الذى نزعهم بلاد تافيلالت ودرعة منذ منتصف القرن الحادى عشر للهجرة (السابع عشر للميلاد) بعد أن طرد منها أبا حسون السملالى ، وجرت بينه وبين الدلائيين من أجل تحديد مناطق النفوذ وقائع حربية عديدة سبقت الإشارة اليها . ولما توفى الشريف بن على (رمضان 1069/يونيه 1659) خرج ابنه الرشيد من تافيلالت فازا من أخيه السلطان محمد بن الشريف ، لمنافسة كانت بينهما . وظل الرشيد يتنقل فى جبال الاطلس الكبير والمتوسط الى أن وصل الى الزاوية الدلائية ، وأقام بها أياما . وتقول بعض الاساطير أن أحد الدلائيين أخبر الرشيد بأنهم عرفوا من بعض الاخباريين (20) أن اخلاء زاويتهم سيكون على يد سلطان يسمى الرشيد ، وطلب منه أن يغادر الدلاء عاجلا مخافة أن يصيبه

(18) دوكترى . مصادر لم تشر . سلسلة البلاد الواطئة . ج 5 ص 27

(19) نفس المصدر والجزء . ص 28 . وأحمد الجنوى هذا لعنه من أبناء الامين سعيد الجنوى الحاكم السابق لمدن سلا وخليفة الامير عبد الله الدلائى

(20) براد بالاخباريين الكهان الذين يطلعون على احداث المستقبل وينبئون بالغيب



أقرب مثال لصورة السلطان الرشيد بن الشريف العلوي

أدى من رؤسائهم بسبب ذلك . ولم تكن هذه هي المرة الأولى التي حل فيها الرشيد بن الشريف بالزواوية الدلائلية ، فقد سبق له أن أقام بها مدة يسدرس العلم أيام الطلب (21) وزارها مرة أخرى مع اخوته عندما سجن أبو حسون السملالي أباهم الشريف بن علي في سوس ، وكانوا يرغبون في وساطة الشيخ محمد بن أبي بكر الدلائي لاطلاق سراح والدهم الأسير .

خرج الرشيد بن الشريف من الزواوية الدلائلية ، وسار إلى فاس وتازا ، وانتهى به المطاف إلى حصن اليهودي الثري ابن مشعل في أرض بشي يزناسن شمال غربي وجدة ، «فقتله وأخذ أمواله وذخائره وفرقها فيمن تبعه وانضاف إليه ، فتقوى بذلك عضده وتوافر جمعه وتناقل الركبان حديثه» (22) وسارع السلطان محمد بن الشريف إلى ملاقاته أخيه الرشيد حين بلغه اجتماع قبائل المغرب الشرقي عليه ، وكان اللقاء بين لآخرين في بسيط انجاد (23) غربي وجدة ، ولم تكن تنشب المعركة حتى خر السلطان محمد بن الشريف صريعا محرم 1075 / غشت 1664) وانضم جنده إلى أخيه الرشيد ، فتقوى أمره وتقدم إلى تازا فملكها بعد حروب عصبية ، وصفا له المغرب الشرقي كله ، وبإيعازه أهل على السمع والطاعة . ثم قصد سجلماسة ، وكان قد تزعم أمرها ابن أخيه محمد الصغير ، فحاصرها سبعة أشهر إلى أن فتحها وانبسط نفوذه على شرق المغرب وجنوبه .

(ب) استيلاء الرشيد على فاس

لما علم الفاسيون نبأ ظهور الرشيد بن الشريف وانتشار نفوذه، عقدوا حلفا مع جيرانهم الحيانية والبهاليل وغيرهم من القبائل العربية ، ليقفوا في وجهه ويمنعوا عليه ، «وأمر رؤساء فاس عامتها بشراء الخيل والعدة والاكثار منها ، ووظفوا على كل دار مكحلة (بندقية) ومن لم توجد عنده مكحلة منهم يعاقب . فاشتمروا من ذلك فوق الكفاية ...» (24) وحاول الفاسيون أن يغزوا السلطان الرشيد في تازا ويبادروه بالحرب قبل أن يتوجه إليهم ، لكنهم

(21) عبد الرزود التازي ، نزعة الاخيار المرضيين ، ورقة 7/ب

(22) محمد الصغير الافرائي ، نزعة العادي ، ج 1 ، 301 - 302

(23) ذكر محمد الحجوي في رحلته الخطية ، ص 78 بسبط انجاد فقال وهو سهل مشحون بين الجبل الشمالي اعلى جبل بشي يزناسن ، والجبل الجنوبي وهو من جبل درن اعلى جبل بشي يزناسن والركارة ومنى يعلى وابنداه غربا من قصبة عيون سيدي ملوك إلى وجدة شرقا . وسكان هذا السهل عرب الشجع والمهايا وأهل انجاد أولاد أحمد بن ابراهيم والكل عرب رحالة أصحاب الخيام

(24) أحمد الناصري ، الاستقصا ، ج 7 ص 33

ما كادوا يقابلون محاربه حتى انهزموا من غير قتال وطاردهم جند السلطان الى
قطرة نهر سبو خارج مدينة فاس . وقد قضى الرشيد عام 1065/1076 -
1065 في حصار فاس وقتالها دون جدوى ولم يستطع الدخول اليها الا بعد
ان عقد اتفاقا سرىا مع بعض اعيانها الذين مهدوا له السبيل ، وضمملوا خصومه
وابعدوهم عن المدينة ، في أخبار طويلة (25) هذا مجملها :

كان للرشيد وزيران يعتمد عليهما ، هما أخوه الحران ، وابن أخيه أحمد
ابن محرز ، وقد تصحاه بأن يتخذ واسطة يكون بينه وبين أهل فاس . ودلاء
على أحمد بن الشيخ عبد الرحمان الفاسى صاحب الزاوية التى بحى القلقيين
لما كان له من الوجاهة عند قومه . فأرسل اليه الرشيد بعض خاصته سرا
ووعده ومناه . فقبل أحمد الفاسى أن يقوم بالدعوة للعلويين ، واتفق مع طائفة
من اعيان المدينة الادريسية على التخلص من أحمد بن صالح الليرينى حاكم
المدينة من قبل الدلائيين . وبذلك اتجه السلطان الرشيد لحصار فاس الجديد
واستطاع بمساعدة بعض السكان أن يصعد على السور من جهة الملاح ويدخل
الى المدينة ويقبض على رئيسها أبى عبد الله الدريدى . واتفق ابن صالح مع
أهل فاس القديم على أن يسير هو الى السلطان محمد الحاج الدلائى لياتى
بجيش من البربر يساعدهم على مدافعة خصمهم ، وخرج الحاكم الليرينى ليلا
فى عشرة من القريسمان من باب الفتوح واتجه نحو خولان (26) فى طريق صفرو
ليلتحق منها بمدينة الدلاء . غير أن الرشيد الذى أشعر بذلك اعترض طريقه
فى ألفى فارس وقبض عليه فى منتصف الليل ، ثم أصبح على أبواب المدينة
القديمة يعلن للفاسيين أسره للحاكم ويطلب منهم أن يبايعوه على أن يحسن
معاملتهم ، ويصفح عن اساءتهم . فلم يجد الفاسيون بدا من الاستسلام
والخروج الى السلطان الرشيد ، فبايعوه وقدموا له مراسم الولاء والطاعة .
وبعد ذلك قتل ابن صالح شر قتلة فى جماعة من أتباعه وأصحابه ، وانهبت
أموالهم وأمتعتهم ، وبيعت عقاراتهم وضمت الى بيت المال ، بعد أن شهد نحو
20 من العلماء باستغراق ذممهم . وكافأ السلطان الرشيد داعيته أحمد الفاسى
بأن صرف اليه فتوحات أبى الحسن بن حرزهم بعد أن انتزعها من يد القادريين
وكان للدلائيين بالقرب من فاس مركزان عامان ، أحدهما مدينة صفرو التى
يحاورها برابرة آيت يوسى ، والثانى مدينة مكناس التى يرايض على أبوابها
برابرة آيت ولال . وقد هجم السلطان الرشيد أكثر من مرة على صفرو دون
جدوى ، وأمكنه أخيرا أن يستولى على مكناسة الزيتون وينتصر على الولائيين .

(25) ذكر هذه الاخبار مفصلة عبد السلام بن الخطاط القادى فى التحفة القادرية . 150:2 وما بعدها
(26) بلاد خولان من التى فيها حمة سيدى حرازم بضاحية فاس

د) معركة (بطن الرمان) - تخريب الزاوية الدلائية

في الوقت الذي توالى فيه انتصارات السلطان الرشيد بن الشريف العلوي كان أمر محمد الحاج الدلائي في ادبار ، فقد بلغ من الكبر عتيا وأصاب مرض السادة احدى عينيه وفقد أبنائه ما عدا عبد الله ، ولم يكن اخوته وبنو عمه أبطال حرب وكفاح ، وانما كانوا رجال علم ودين ، فضعفت القيادة الحربية للدلائين وان بقيت قبائل الاطلس الباسلة وفيه لهم . وماذا يا ترى يستطيع رجل بلغ الثمانين من عمره أو قاربها أن يعمل في الميدان ؟ وماذا يمكنه أن يصنع في ترتيب الجيوش وتجهيزها وقيادتها ؟ الحقيقة ان كل شيء كان خلال عام 1668/1078 ينذر بقرب حلول الكارثة بالزاوية الدلائية . فبعد أن انتزع الخضر غيلان المناطق الشمالية وبلاد الغرب من يد الدلائين ، جاء السلطان الرشيد واستولى على المغرب الشرقي ومدينتي فاس ومكناس . وعبثا حاول محمد الحاج أن يقاوم هذا التيار الجارف ، فخرج على رأس جنده من البربر وقصد خصمه الرشيد في سهول سايس ، والتقى الجمعان على ضفة نهر يومزورة أحد روافد وادي فاس «فتقاتلا قتالا خفيفا نحو ثلاثة أيام ثم رجع محمد الحاج الى الدلاء» (27) .

تجلى للسلطان الرشيد في هذه المناوشات ضعف الدلائين وعجزهم ، فتوجه اليهم في جموع كبيرة ، ولم يعترض طريقه أحد حتى أشرف على الزاوية الدلائية ولم يعد يفصل بينه وبينها الا نحو 25 كلم . فوجد الدلائين مجمعين على حربه في سهل (بطن الرمان) (28) بقيادة أحد أبنائه محمد الحاج (29) . ودارت المعركة الفاصلة بين الدلائين والعلويين في الايام الاولى من عام

(27) محمد القادري ، نشر الثاني الكبير ، ورقة 124/ب

(28) يختلف الزاوية الدلائية موضعان يحمل كل منهما اسم الرمان . ففي شمال الزاوية الدلائية طريق خيفرة يقع السهل الذي تسميه قبائل زيان (بورمان) وهو الذي ترجح أن المعركة دارت فيه ، لوقوعه على الطريق الطبيعية التي يمكن أن يسلكها الرشيد من فاس الى الزاوية الدلائية . ويوجد بجنوب مدينة الدلاء في طريق قصبة تادلة مكان يسمى (بطن الرمان) تقوم فيه اليوم قرية زاوية الشيخ . ويبعد أن يكون جيش العلويين قد سلك طريق الغرب التي تبلغ مسافتها ضعف مسافة الطريق الاولى . لاسيما وان بلاد الغرب ونامسا وتادالا لم تكن قد دخلت بعد في طاعة السلطان الرشيد ولا يمكن أن نفترض اختلاط الاسمين على بعض المؤرخين لان الامام اليوسى وهو البربري الذي لا تخفى عليه مواقع بيته ولا تلتبس عليه أسماؤها قد عبر في **الحاضرات** عن ميدان المعركة ببطن الرمان ، وعنه نقل ذلك سائر المؤرخين . فلم يبق الا أن نفترض أن (بورمان) كان يسمى «الداك ببطن الرمان» أو أن اليوسى تصرف قليلا وأدخل كلمة (بورمان) في قالب عربي لم يبق حيا من أبناء محمد الحاج في هذا التاريخ الا عبد الله . بينما تعبر جل المصادر عن قائد معركة بطن الرمان بأنه أحد أبناء محمد الحاج - الا أبا القاسم الزياني فإنه قال في الترجمان . (ص 373) «فلقى محلة أهل الدلاء مع ولد محمد الحاج وهو عبد الله»

1668/1079 ولم يصمد البربر الا قليلا ثم تراجعوا مهزومين ، فتبعهم الرشيد الى أن نزل على أبواب مدينة الدلاء . ويصف لنا أبو علي اليوسى عن مشاهدة هذه الفترة العصبية من حياة الزاوية الدلائية المحتضرة ويذكر حال السلطان محمد الحاج بقوله : «...فدخلنا عليه وكان لم يحضر المعركة لعجزه من كبر سنه ، فاذا بالفل يدخلون ، فدخل عليه أولاده (30) وأخوته ، وأظهروا جزعا شديدا وضيقا عظيما ، فلما رأى منهم ذلك قال لهم : ما هذا ؟ ان قال لكم حسبكم فحسبكم ، يعنى الله تعالى . وهذا كلام عجيب ، واليه يساق الحديث . والمعنى ان قال الله تعالى لكم حسبكم من الدنيا فكفوا راضين مسلمين » (31)

ثم خرج محمد الحاج لملاقاة السلطان الرشيد وسأله عما يريد فأجاب الرشيد بأنه يريد الملك . فقال محمد الحاج : (هو الآن فى محله) وبأيعه ودفع له بعض المال . وقد مكث الرشيد فى الدلاء شهرا ونصف شهر (8 محرم - 22 صفر 1079/17 يونيو - 30 يوليو 1668) واستولى على ما كان فى عاصمة الدلائين من مال وذخيرة وخيل وسلاح ، وأخذ ما فى الخزائن من الكتب والوثائق ، وما فى الحظائر من الماشية والدواب ، ولم يترك للدلائين الا ما لا غنى لهم عنه وأمرهم بالرحيل الى فاس ثم أعمل المعاول والفؤوس فى مباني المدينة ، وهدم ما استطاع أن يهدمه منها وتركها خرابا موحشة . ثم صعد الى الزاوية الدلائية القديمة وفعل بها ما فعل بالزاوية الحديثة وكانت مبانيها أقل مثانة وصلابة فهدمها كلها وطمس معالمها ، وتركها قاعا صفصفا كأن لم تغن بالأمس ، ولم يترك منها الا القبتين المشيدتين على ضريح الشيخ أبى بكر الدلائى وابنه محمد فى جوف المسجد .

(30) لم يبق لمحمد الحاج من الاولاد فى هذا التأريخ الا عبد الله . ولعل اليوسى يقصد بالاولاد ما يشمل الاحفاد ايضا

(31) الحسن اليوسى ، المحاضرات ، ص 85 - 87

الباب السابع

أثر الدلائيين في خارج زاويتهم

1 - خروج الدلائيين الى فاس

- (أ) تغريب الدلائيين الى تلمسان
- (ب) ثورة أحمد الدلائي على السلطان اسماعيل

2 - العلماء الدلائيون في فاس ومكناس

- (أ) محمد المسمناوي الدلائي شيخ الجماعة بفاس
- (ب) تلاميذ الدلائيين في فاس

3 - الكتب التي ألفها الدلائيون

- (أ) جدول مؤلفات الدلائيين
- (ب) جدول الكتب التي ألغت في الدلائيين

4 - بقايا البيت الدلائي

- (أ) مساكن قبيلة مجاط اليوم
- (ب) أحفاد الدلائيين في فاس والدار البيضاء والرباط

234

1 - خروج الدلائيين الى فاس *

لما استولى السلطان الرشيد على الزاوية الدلائية ، أخرج منها جميع من كان فيها من السكان وأجلاهم عنها ، فرجع العلماء والطلبة والتجار الى مساقط رؤوسهم ، وتفرقوا في جبال الاطلس وعلى ضفاف ملوية ، أو في بلاد تادلا وضواحي مراکش . وتوجه الدلائيون ، ومعهم الامام اليوسى ، بأمر من السلطان الرشيد الى فاس ، ولم يحدد لهم مكانا معيناً يقيمون فيه بهذه المدينة ، فسكنوا حيث أمكنهم السكن ، واختلطوا بعامّة الناس ، وكان لهم كثير من الاصدقاء والاصهار من بين البيوتات الكبيرة في فاس ، مثل القادريين والطاهريين وغيرهم . وقد أقرهم السلطان الرشيد في منازلهم التي اختاروها بعد رجوعه من مراکش ، ثم بدا له في شهر رمضان من نفس السنة (1679) أن يخرج طائفة من الدلائيين الى ضريح أبى الحسن بن حزم (حرازم) بظاهر فاس ، حيث بقوا هناك الى آخر السنة ، فعفا عنهم وسمح لهم بالدخول الى المدينة (1) ماعدا محمد الحاج وبنيه فإنه أمرهم بمغادرة المغرب والالتحاق ببلاد الجزائر .

(أ) تغريب الدلائيين الى تلمسان

خرج محمد الحاج وعشيرته الاقربون الى تلمسان في مستهل عام 1669/1680 ونزلوا بحرم العباد الذي فيه ضريح الشيخ أبى عدين الغوث . وهناك أسطورة تقول ان محمد الحاج اغتم كثيرا عندما وجد نفسه حاملا مهملا لم يعبأ به أحد من التلمسانيين ، كانه لم يكن الى زمن قريب سلطانا نافذ الامر عزيز الجانب ، فقال لبعض ذويه : « كنت وجدت في بعض كتب الحدّثان أنى أدخل تلمسان ، فظننت أنى أدخلها دخول الملوك ، فدخلتها كما ترون »! (2) وكانت مدينة تلمسان خاضعة اذذاك للاتراك العثمانيين الذين تربطهم بالدلائيين أواصر الود والصداقة . وقد رأينا في الباب السادس بعض جوانب

* يشتمل هذا الباب على استطرادات موجزة خارجة عن نطاق عصر الزاوية الدلائية . لكنها ضرورية للالام بالتطورات الطارئة على أبناء هذه الزاوية حتى عصرنا الحاضر

(1) ذكر أحمد الناصري في الاستقصا ، 39:7 أن السلطان الرشيد بعد اخراج الدلائيين الى ضريح الشيخ ابن حزم « فعفا عن الجميع وردهم الى بلادهم الا ... وهذا سبق قلم لانه لم يسمح لأحد من الدلائيين بالرجوع الى بلادهم خصوصا أيام الرشيد . وربما وقع اللبس بقضية آل زاوية آيت عياش ، فهم الذين غرّبهم الرشيد الى فاس . ثم أذن لهم المولى اسماعيل بالرجوع الى ديارهم على أثر توليه الملك . على أن محمد القادري نصر فسي نشر الثاني الكبير . ورقة 127/ب على أن الرشيد سمح للدلائيين في « آخر العام » وردهم الى فاس جميعا »

(2) أحمد الناصري ، الاستقصا ، 37:7

التقارب الدلائى التركى ، ولاسيما فى ميدان التبادل التجارى ، والتعاون فى
الجهاد البحرى ضد المسيحيين ، فكان ميناء سلا مفتوحا باستمرار فى وجه
قراصنة الجزائر العاملين فى المحيط الاطلسى ، يأخذون منه المونة والدخيرة ،
ويحملون اليه غنائمهم للبيع ، أو يلجؤون اليه من عواصف المحيط الهروج
أو من غارات الاعداء ومطاردتهم . كما كانت موانئ الجزائر كثيرا ما تستقبل
السفن التجارية للامير عبد الله الدلائى ، ومراكب المجاهدين السلويين
والتطوانيين . وزاد فى التقارب بين الدلائيين وأتراك الجزائر ، اتفاقهم فى
خصومة العلويين ومناصبتهم العدا . فمنذ طلوع محمد بن الشريف من
تافيلالت الى المغرب الشرقى فى أواسط القرن الحادى عشر الهجرى ، وهجومه
على تلمسان وتوغله فى بلاد الجزائر ، والعثمانيون يعانون ضروب المحن
وصنوف المتاعب من جراء تمرد الجزائريين عليهم ، بما أذكاه فيهم السلطان
العلوى من روح الثورة والمقاومة . فكان الأتراك يتميزون غيظا على محمد بن
الشريف ولا يستطيعون محاربتة لاغاله فى الصحراء ، ثم جاء الرشيد بن
الشريف فركز نفوذه أولا فى بنى يزناسن وبسيط أنكاد ووجدة ، وتضايق
العثمانيون من اجتماع قبائل الحدود عليه والتفافيا حوله ، وسيمتد الخلاف
بين العثمانيين والعلويين الى أيام السلطان اسماعيل ليتطور الى معارك
طاحنة .

هكذا يبدو أن الظروف كانت مواتية بعض الشيء للدلائيين فى منقاهم
بتلمسان ولو أنهم فارقوا الأهل والوطن ، وتركوا النفوذ والصولة ، وتجردوا
من الثروة والجاه فانهم وجدوا فى ولاية الامر بالجزائر أصدقاء يواسونهم
ويعترفون بمجدهم التليد . لكن سوء الطالع وعثر الجد لاحقا للدلائيين حتى
فى بلاد الغرب ، فعاملهم التلمسانيون بما يعاملون به حكاهم الأتراك من
النفرة والجفاء ، وعدوهم خصوصا عملا بقاعدة (صديق العدو عدو) . وطالما
تعرض الدلائيون فى السنوات الخمس التى قضاها بتلمسان الى تهجمات
السكان وايدائهم ، فبالإضافة الى أنواع المضايقات والاهانات ، لم يتورع
التلمسانيون عن سلب كل ما وصلت اليه أيديهم من مال الدلائيين ومتاعهم ،
بل وقتل من تمكنوا من سفك دمه منهم . وقد توفى محمد الحاج الدلائى بعد
سنتين من مجيئه الى تلمسان (4 محرم 1182/14 ماي 1671) فدقته ولده عبد
الله فى العباد بالقرب من ضريح الامام السنوسى ، ثم توجه الى الحجاز لاداء
فريضة الحج ، وبقي فى بلاد الشرق العربى نحو عامين ولعله كان يبحث
خلالها عن مكان ملائم يمكن أن ينتقل اليه بأهله ، فى مصر أو غيرها من
الأقطار الاسلامية . ولا عبرة بما يدعيه بعض المؤرخين الاوربيين من خروج

عبد الله الدلائلي بأهله وذخائره أسرته إلى مصر عند استيلاء السلطان الرشيد على الزاوية الدلائلية وإقامته هناك إلى أن أدركته الوفاة ، فإن ذلك محض افتراض تنقصه الحجة والبرهان ، ويحافيه الرأي والمنطق ، بل تناقضه الوثائق الصحيحة ، واجتماع المؤرخين المغاربة . فقد عرفنا في الباب السابق أن السلطان الرشيد العلوي حينما تصدى لحرب الدلائيين لم يمهلهم ولو فترة قصيرة ، فبعد أن تغلب عليهم في بطن الرومان طاردهم إلى مدينة الدلاء ، وأخرجهم منها على التو إلى فاس بعد أن استولى على جميع ذخائره ، من مال وسلاح وماشية وغير ذلك . فكيف ياترى يمكن لعبد الله الدلائلي أن يخترق الحصار ، بعد الانهزام والانكسار ، أو يفلت بالذخائر من أيدي جنود الرشيد الذين كانوا يتطعمون إلى الاستحواذ على ما للدلائيين من سلاح وكراع ! اللهم إلا أن نفترض وقوع ذلك قبل مجيء الرشيد ؛ وهذا يعني أن الدلائيين كانوا قد بلغوا درجة الانهيار واليأس ، الأمر الذي يتنافى وخروجهم في تجمع عظيم لملاقاة خصمهم على مسافة 25 كلم من الزاوية . وما كان أحراهم - لو صح هذا الافتراض - أن يخرجوا جميعا وفي مقدمتهم الشيخ الهرم محمد الحاج ، إذ لا عقل أن يقر بطل الأسيرة الشاب عبد الله تاركا وراءه أباه العاجز وحريمه عرضة لهجوم الخصوم .

على أن جميع المؤرخين المغاربة الذين تعرضوا لذكر أخبار الدلائيين لم يسيروا إلى هذا الفرار المزعوم ، بل على العكس من ذلك نرى من اهتم منهم بتفاصيل هذا الحادث التاريخي ينص على أن عبد الله الدلائلي كان لا يزال في الزاوية الدلائلية عند استيلاء الرشيد عليها «وخرج فيمن خرج من الزاوية مع والده عند تخريبها وسار معه إلى تلمسان» (3) .

وهناك وثيقة تاريخية هامة تؤيد وجود عيال عبد الله الدلائلي في تلمسان خلال عام 1085/1674 ، وتنص على أنه رجع في هذه السنة من المشرق إلى عاصمة الجزائر حيث بقي ينتظر اتحاد الثورة القائمة في تلمسان ليلتحق بأهله في هذه المدينة . ورد ذلك في الرسالة التي بعث بها أحمد بن عبد الله الدلائلي إلى السلطان اسماعيل بن الشريف معتذرا عن تخلفه بتلمسان ، بعد أن رجع أهله إلى فاس : «...الأعلام لسيدنا بعذري عن التخلف . فليعلم مولانا السلطان نصره الله أن موجه مامعي من عيال أبي فكرهت أن أفتات عليه وهو غائب ، فلم أزل أستدنيه حتى بلغ الجزائر . ولما خرج برسم الوصول إلى

العباد حرم القطب الغوث أبى مدين نفع الله به ، وجد هذه الفتنة بين يديه
فتأخر حتى يسكن هرجيا ، ويخمد وهجيا . (4)
وكانت الفتنة التى تحدث عنها أحمد الدلائى عظيمة فى تلمسان ، كما
كان اعتمادها والقضاء عليها من طرف الأتراك أعظم وأشد . وقد سلم الدلائيون
منها إذ عاد أكثرهم الى فاس قبيل نشوب الثورة باذن من السلطان اسماعيل
(جمادى الاولى 1085 / شتنبر 1674) وأوصى عبد الله الدلائى فى الجزائر
فائد الحملة التأديبية التركية التى توجهت الى تلمسان ، وطلب منه أن يجنب
جنوده مساكن أهله فى حرم العباد . وجاء عبد الله الدلائى فعلا الى تلمسان
بعد سكون البيعة ، ومكث فيها الى أن توفى أواخر عام 1676 / 1086 ودفن
بحوار والده محمد الحاج بالعباد ، ورثاه ابنه أحمد بقصيدة بليغة مؤثرة
تستل على 52 بيتا ، جاء فى مطلعها :

إلا هل فتى مثلى كتيب أرسله وأشكوه قلبا دمه بلابله
يطارحنى أحزانه وهمومه يسائلنى عن محنتى وأسائله (5)

(ب) ثورة أحمد الدلائى على السلطان اسماعيل

أحمد بن عبد الله بن محمد الحاج الدلائى شخصية فذة تمثل آخر أبطال
الدلاء وفرسانها الشجعان . بدت كفءات الحربية فى وقت مبكر من عمره ، وولاه
جده محمد الحاج أمر فاس ، وهو ما يزال حدثا فى مقتبل العمر كما سبق ،
وزعم بعض الرواة أنه هو الذى قاد الدلائيين فى معركة بطن الرمان ، وسبق
أهله الى تلمسان فمهد لهم السبيل وهيا المقام . وليست الغرابة فى شخصية
أحمد الدلائى آتية من بطولته المبكرة ، وتفوقه فى التدبير والحرب ، أو من
عليه الجرم وأدبه الرفيع ، فقد سبقه الى هذه لميادين أبوه وجده وكثير من بنى
عنه . وإنما الغرابة فى أن أحمد الدلائى كان فى نفس الوقت بطلا مغوارا وعالما
كبيرا وأديبا ممتازا ، لا أعالى اذا قلت انه أشجع الدلائيين وأشعرهم على
الإطلاق . والمرء قد يمتاز فى إحدى الناحيتين الأدبية أو العسكرية ، وقد
يشارك فيهما معا ويكون عاديا فى الأمرين ، أو يتغلب عليه أحد الاتجاهين على
حساب الآخر . أما أن يبرز تبريزا تاما فى الميدانين ، ويجمع عن جدارة بين
الحسنيين ، فذلك ما لايجود به الدهر الا نادرا ولا نجده الا عند أبى فراس
الهمداني وأحمد الدلائى . وأديبنا البطل المغربى جدير بأن تتناول آثاره

14 انظر نص الرسالة فى ملحق رقم 10
15 انظر نص القصيدة عند سليمان الحوات ، البذور الضاوية ، ورقة 206/ب - 207/أ

بالدرس والتحليل أقلام الباحثين ، وسيجدون في (تلمسانياته) ما يضاهي (الروميات) .

وقد تخلف أحمد الدلائي في تلمسان ، ولم يعد مع الدلايين الذين دخلوا الى فاس متعللا بالقيام على شؤون عيال أبيه عبد الله المتغييب في الشرق . ولما كثرت الاقاويل في شأنه وبدأت الشائعات تتحدث عن الثورة ، خاف أحمد على أهله المقيمين في فاس أن يلحقهم أذى بسبب ذلك ، فكتب الى السلطان اسماعيل يطريه ويطمئنه ، ويبين له الاعدار التي عاقلته عن الالتحاق بالمغرب . وقد أكدت الاحداث أن أحمد الدلائي لم يكن صادقا في اعتذاره ولم يقصد من الرسالة التي وجهها الى السلطان سوى كسب الوقت اللازم لتدبير شؤون الثورة وتنظيمها بمساعدة أتراك الجزائر . واتخذ أحمد الدلائي من خروج السلطان اسماعيل من العاصمة واشتغاله بحرب ابن أخيه أحمد بن محرز (6) في مراكش فرصة لاشعال نار الثورة ، فدخل الى المغرب في أوائل عام 1677/1688 وقصد الدلاء ؛ وهناك التف حوله برابرة الاطلس المتوسط وملكوا بلاد تادلا بعد أن هزموا المخازنية ومن معهم من الاعراب المناصرين للعلويين . ولما علم السلطان اسماعيل بخبر الثورة بعث بجيش يتألف من ثلاثة آلاف فارس تحت امره القائد يخلف ، لكن أحمد الدلائي سرعان ما قضى على هذا القائد وكثير من جنده ونهب محملته وخيله . ثم بعث السلطان بفرقة أخرى من الجند لقيت نفس المصير . «وشن البربر الغارات بعد ذلك على من جاورهم من القبائل الى سايس ، ووقعت معركة رابعة بحوز مكناسة بين جيش فاس والبربر ، مات فيها من كبراء الجيش عدد كثير ، ولجؤوا الى مدينة مكناس ، وحدث الخوف بأحوازها» (7) وقد اختفى الدلائيون وأنصارهم في فاس محتمين بحرم المولى ادريس وسيدى أحمد الشاوي ، وبعث الامام اليوسى الى أحمد الدلائي يلومه ويستعطفه ، بقطعة شعرية جاء فيها :

أبا العباس كنت المرتجى في تلاف في تجاف وارتجاف
وكنت أخال أن الود كأس شربناه على الانصاف صاف ..
ورأى السلطان اسماعيل أن الامر جد لا تنفع معه الكتاب والسرايا ،
فاخذ يستعد لمنازلة خصمه العنيد بنفسه ، وأرسل الى جميع الاقاليم يطلب

(6) أحمد بن محرز بن الشريف كان وزيرا لعمه السلطان الرشيد . وبايعه المراكشيون والموسيون بعد وفاة الرشيد . ثم دخلت فاس وكثير من قبائل الغرب في طاعته . وجرت بينه وبين عمه السلطان اسماعيل معارك كثيرة . وأخيرا حاصره السلطان في مراكش نحو سنتين ونصف الى أن قتل غدرا في منتصف عام 1677/1688 . وحمله عبده وأنصاره الى تارودانت حيث دفن .

(7) انظر تفاصيل أخبار ابن محرز في : عبد السلام القادري ، **التحفة القادرية** ، ص 332 وما بعدها .
سليمان الحوات ، **البدور الضاوية** ، ورقة 215/ب

المساعدة بالجند والسلاح وخرج الرماة من فاس وغيرها بعد أن استعدوا استعدادا كبيرا ، والتحقوا بالسلطان في مراكش . ودام تجهيز هذه الحملة العظيمة نحو ستة أشهر ، ثم زحف السلطان اسماعيل الى البربر في 5 صفر 1089/30 مارس 1678 . ولم يكد يقطع وادي العبيد حتى وجد جيش أحمد الدلائي في انتظاره « فكانت الحرب بينهما سجالا ، وأظهر كل فريق قوته وما هو له مريد ووقعت حروب بين الفريقين لم يسمع بمثلها في المغرب ، ولا خبر بها من ورخ (كذا) من أمره كل أمر عجيب ... » (8) وانتصر أخيرا السلطان اسماعيل بعد أن سقط في ميدان القتال عدد كبير من الجانبين ، ومات من رماة فاس أربعمائة ، وبلغ مجموع القتلى من البربر ثلاثة آلاف . أمر السلطان اسماعيل أن تقطع رؤوس سبعمائة منهم ، ويعث بها الى فاس مع قائد هذه المدينة عبد الله بن حمدون الروسي . وكان يوما مشهودا في العاصمة الادريسية كومت فيه رؤوس الثوار ، وأطلقت المدافع ، وزينت الاسواق ، وفرح الناس بانتهاء الفتنة . أما أحمد الدلائي فانه التجأ الى جبال آيت يسرى الوعرة في الاطلس المتوسط ، « وبقي بين ظهرائهم ، وكلمتهم بيده ، وأمره نافذ فيهم نحو من عام وخمسة أشهر وأيام » (9) الى أن توفي يوم الخميس 21 محرم 1091/23 فبراير 1680 . وتتضارب الروايات في سبب موته ، فيزعم البعض أنه أصيب بالوباء الذي كان منتشرا في تلك الايام بينما يقول آخرون انه اغتيل بأمر من السلطان اسماعيل ، دس له السم ابن بركة كبير آيت يسرى وابن راحة كبير آيت مقداد في جبال هسكورة .

2 - العلماء الدلائيون في فاس ومكناس

ما كاد العلماء الدلائيون يستقر بهم المقام في فاس ، بعد اخلاء زوايتهم ، حتى حنوا الى المناظر من جديد وأخذوا يشتغلون بالتدريس كما كانوا يفعلون في الدلاء ، وانتشروا في مساجد المدينة الادريسية ومدارسها يعقدون المجالس العلمية ، ويفيدون الطلبة الذين أقبلوا عليهم اقبالا عظيما . وكان عدد العلماء الدلائيين الذين تصدروا للتدريس في بادئ الامر يربو على عشرة ، فيهم المحدثون والفقهاء واللغويون والنحاة والادباء ، وفيهم المشاركون في كثير من هذه الفنون كمحمد الم رابط الدلائي ، ومحمد الشاذلي الدلائي ، والحسن

الرئيسي (II) ، واشتغل بالتدريس الآداب وفوائد اللغة في فاس من العلماء الدلائيين أحمد بن المستاوي ، ومحمد بن أبي عمر ، وأحمد بن الشاذلي ومحمد بن عبد الله بن محمد الحاج وكلهم من أحماد الشيخ محمد بن أبي بكر الدلائلي . كما توجهت طائفة أخرى من أعلام الدلائيين إلى مكناسة الزياتون واستوطنتها طيلة حياتهم ، منهم الشيخ عبد السلام بن الشاذلي الذي تولى الإمامة والخطابة بجامعة الأعظم وانتصب للتدريس والافتاء فيها ، وتخرج على يده جماعة من علماء العاصمة الاسماعيلية ثم انفصل المؤرخون عن أسمائهم ، إلى أن توفي بالطاعون عام 1679/1090 فخلفه في الإمامة والخطابة بجامعة مكناس الأعظم أخوه الطيب بن الشاذلي ، وكان مثله عالما كبيرا وزاعدا عابدا ، اشتغل كذلك بالتدريس والافتاء في النوازل الحقبة . وكان المعتمد في هذا الميدان إلى أن أدركته الوفاة عام 1695/1107 .

وقد عانى العلماء الدلائيون في فاس ألم الغربة أولا ، ووقع التضييق عليهم في الحرم التي لجؤوا إليها طيلة عهد ثورة أحمد الدلائلي ، لكن ذلك كان آخر محنة أصابتهم في فاس ذاقوا بعدها حلاوة العيشة الحرة التي لا قيود فيها ولا حصار وانسجموا مع الفاسيين . وهذا لا يعني أن العلماء الدلائيين قد انحطت قيمتهم العلمية أو هيض جناحهم ، بل كان لهم مزيد من الخطوة والشفوف منذ الأيام الأولى التي وطئت أقدامهم أرض فاس حتى أن السلطان الرشيد كان يوليهم كثيرا من الاجلال والتقدير ويحضر بنفسه المجالس العلمية التي كان يعقدها الحسن اليوسفي في القرويين ، ويجالس في قصره اليوسفي ومحمد المرباط الدلائلي ويتحدث اليهما في غير كلفة ولا احتراس . وما زلنا نذكر دخول اليوسفي يوما وهو مريض على السلطان الرشيد الذي ضحك من تناول اليوسفي شراب الريحان ، ونصحته بأخذ سويق الشعير الذي هو دواء أبناء البادية . وأنشد السلطان الرشيد يوما معرضا بمحمد المرباط الدلائلي الحاضر في المجلس هذا البيت :

ومن تكذ الدنيا على الحر أن يرى
عدوا له ما من صداقته يسد
فقال المرباط : «يا أمير المؤمنين إن من حسن حظ المرء أن يكون خصمه عاقلا»
فاستحسن الرشيد والحاضرون بداهته وحسن اجابته .

(10) عادت الامام اليوسفي في جملة الدلائيين - وإن لم يكن منهم - لارتباطه بصبرهم وطول مقامه في الراوية الدلائية تلميذا وأستاذا ، وزوجه وانجابه الأولاد فيها ، والمقاربة البربرية الصنهاجية التي تربط بين اليوسفي والمعالين ، حتى أن السلطان الرشيد عامله - من بين سائر العلماء الغريباء في الدلائل - بما عامل به الدلائيسي أنفسهم ورحله معهم إلى فاس

وقد سلك السلطان اسماعيل مع العلماء الدلائيين نفس الخطة التي سلكها معهم أخوه الرشيد من قبل ، فأحاطهم بمظاهر الاجلال والاحترام ، وولى منهم الشيخ محمد الم رابط الخطابة بالمدرسة المتوكلية (II) وهي أهم المدارس بقاس . ثم أسند هذا المنصب الديني الهام بعد وفاة الم رابط الى أخيه محمد الشاذلي الذي بقى يخطب ويدرس في المدرسة العنانية أعواما عديدة ، وخلفه فيها بعد موته محمد بن عبد الرحمن الدلائي الذي عده المؤرخون آخر خطباء المغرب ، لانه بالاضافة الى غزارة علمه وجمال خلقته وأناقته بزمته ، كان «صيتا فصيحاً جهورى الصوت حلوه . وله تأليف فى الخطب لم يؤلف مثله . وجميع الخطباء عيال عليه» (I2) . ثم نقل السلطان اسماعيل محمد بن عبد الرحمن الدلائي للخطابة فى مسجد الشرفاء الذى هو ضريح المولى ادريس الثانى ، فكان الناس يقصدون هذا المسجد من كل أنحاء المدينة ويزدحمون للانصات الى هذا الخطيب المفعوه . وتأثر المؤرخ محمد بن الطيب القادري فى صغره بأحدى هذه الخطب ، وقال فى ترجمة ابن عبد الرحمن الدلائي : «... ولم أدرك القراءة عليه ، لكن رأيتة مرة واحدة فى صغرى يخطب على منبر جامع الشرفاء ، وصوته يسمع فى نواحي المسجد ، اذ كان صيتا جدا» (I3) .

وقد تطور مركز الدلائيين فى فاس بسرعة ، ولم يعد أعلامهم يضاهون العلماء الفاسيين فحسب ، بل بذوهم وغبروا فى وجوههم ، «واحتلوا الصدارة من الارستوقراطية الدينية والفكرية فى فاس» (I4) اذ تكونت طبقة جديدة من العلماء الدلائيين ولدوا فى فاس ونشئوا بها ، فكانت صلتهم بالمدينة أقوى وأمتن من صلة آبائهم ، وسلمت عقولهم من التفكير فى الغربية ، وأفندتهم من الحنين الى الزاوية المتهدمة ، الا ذكريات عابرة غير ذات أثر . وتم بذلك انصهار الدلائيين وامتزاجهم التام بالفاسيين . ومن أشهر هذه الطبقة من الدلائيين محمد بن أحمد بن الشاذلي الذى كان اماما فى اللغة والادب ، مبرزا فى العروض والقوافى منفردا بهذا الفن فى فاس ، وعنه أخذ كل من تعاطى الاوزان الشعرية فى العاصمة العلمية فى عصره . وقد بدأ شرح رائية الامام البيهقي فى رثاء الزاوية الدلائية لكنه توفى قبل اتمامه ، عام 1137/1724 - 1725 . فأكملة ابن عمه القاضى محمد البكرى الدلائي الذى كان اماما خطيبا فى ضريح المولى ادريس ، مدرسا بجامع القرويين ، متوليا القضاء والفتيا فى

(II) المدرسة المتوكلية هي المدرسة العنانية المشهورة بحى الطالعة بقاس

(I2) سليمان الحوات ، البدور الفضاوية ، ورقة 248/ب

(I3) محمد بن الطيب القادري ، نشر الثانى ، 217:2
(I4) LEVI PROVENÇAL, LES HISTORIENS DES CHORFAS, p. 300.

فاس ، وألف فى النوازل الفقهية وفى الادب ، وكانت وفاته عام 1174/1761 .
ثم تولى قضاء فاس من بعده ابنه أحمد البكرى ، وكان مثله فقيها أدبيا « يعنى
بأيام العرب وأشعارها وحكمها وأمثالها ، ويحفظ من ذلك قدرا كثيرا ، مع
معرفة بالتاريخ والحساب .. » (15) واستدعاها السلطان محمد بن عبد الله
ليعلم ابنه عبد السلام فى تارودانت ، وسماه قاضيا فى هذه المدينة ، فاشتغل
بالتدريس والخطابة فى مسجدتها الاعظم ، واستفاد منه كثير من طلبة الاصقاع
الموسمية الى أن توفى هناك عام 1198/1784 .

واتصلت حلقات العلماء الدلائيين فى فاس الى النصف الاخير من القرن
الماضى . ونجد الشيخ محمد المكي الدلائى الذي عاش الى عام 1241/1825 -
1826 يعتبر امام المعقول والمنقول فى فاس . صاحب الشيخ أحمد التجانى وأخذ
عنه الطريقة ولازمه طيلة حياته الى أن بلغ على يده درجة عالية من الصفاء
الروحي . وقد كتب السلطان سليمان بن محمد بن عبد الله (1206 - 1238/
1792 - 1822) ظهيرا بتوقيع هذا العالم الدلائى ، بعث به الى كاتبه فى فاس
أحمد الرفاعى ، والى القاضى العباس بن سودة يقول لهما : « .. فنامر كما أن
تقر (كذا) الفقيه العلامة سيدي المكي الدلائى فى مسجده الكائن بحومة رقاق
الرواح على حاله من الامامة والتدريس لحفضه (كذا) لكتاب الله العزيز
واعتنائه (كذا) بمجالس الدرس وعلى ما بيده من ظيائر أسلافنا الكرام وغيرهم
المتضمنة لتوقيعهم واحترامهم فعلينا الاقتداء بمن مضى والاخذ بما أخذهم كما
تلقوا ذلك بالقبول والرضى وعلى هذا يكون عملكما والله يعينكما والسلام .
وفى ثالث صفر الخير عام احدى (كذا) وعشرين ومائتين وألف » (16) وقد
ألف فى ترجمة الشيخ محمد المكي الدلائى ابنه محمد كتابا سماه : **بغية الرائي**
بالتعريف بالشيخ أبى عبد الله سيدي المكي الدلائى . وسنتحدث بشئ من
التفصيل عن أهم شخصية دلائية برزت فى فاس ، وهى شخصية الامام محمد
المسناوى الذى انتهت اليه رئاسة العلماء فى فاس دون منازع ، وأصبحت له
السيادة المطلقة فى التدريس والافتاء والتأليف .

محمد المسناوى الدلائى شيخ الجماعة بفاس

أبو عبد الله محمد المسناوى بن أحمد بن محمد المسناوى بن الشيخ
محمد بن أبى بكر الدلائى . ولد فى الدلاء عام 1072/61 - 1062 وجاء به والده
الى فاس بعد تخريب الزاوية الدلائية وهو ابن سبع سنين فدرس على علماء

(15) سليمان الحرات . البدور الضاربة . ورقة 246/1

(16) محمد بن المكي الدلائى ، بغية الرائي . ورقة 4/ب

أمر له وغيرهم من القادرين والفاسيين . كما أخذ عن الإمامين الحسن البصري
وعبد الملك التجموعتي ، وبقي ينهل من معين العلم ويعمل إلى أن تخرج عالما
كبيرا .. وقد أعطى ملكة التدريس والفتيا ، وسلم له أعيان عصره مرتبتها
العليا ، وانفرد برئاسة العلم في وقته وعصره . كان المرجع في معضلات
المشاكل سواء من طرف السلطان المولى اسماعيل أو من طرف علماء الوقت (17) .
وامتاز محمد المسناوي زيادة على علمه الواسع بجمال الخلقة وحسن
السمت وكثرة الوقار . فكان لباسه بالغ الحد في النظافة والاناقة ، وكلامه غاية
في اللطف والنبيل ، ومجلسه محاطا بالهيبة والسكون ، لا يجرؤ أحد أن يعبت
أو يلهو في حضرته ، ويحضر دروسه العالية علماء المدينة وطلبتها على السواء ،
.. وإذا أخذ في تقرير مسألة يأتى على وجوه احتمالاتها ، ولا يدع شيئا مما
يقع في نفوس الحاضرين من مؤولاتها ، مما يقتضيه بحث المعقول والمنقول ،
مع وجود التحرير التام .. (18) واشتغل محمد المسناوي بتدريس جميع
العلوم المعروفة في عصره واهتم في مقتبل عمره بالفقه ، والبلاغة ، والمنطق ،
والادب ، والتاريخ ، وكان يواظب على اقراء تلخيص المفتاح للخطيب القزويني
بالشرح الصغير لسعد الدين التفتازاني ، و مختصر الشيخ السنوسي في
المنطق . ثم انقطع آخر حياته لتفسير القرآن الكريم ، وقراءة صحيح الإمام
البخاري . وتكاثر عدد تلاميذ الإمام المسناوي في فاس ، وغصت رحاب
القرويين بالآخذين عنه وتعلمذ له كل من كان يتعاطى العلم بالطلب أو التدريس
وأصبح شيخ الجماعة باتفاق . وقد قال عنه بروفيسال بحق : «ان أكثر
كتاب التراجم في القرن الثامن عشر يعدون من تلاميذه» (19) . ولم يقتصر
نشاط الإمام المسناوي على التدريس فحسب ، وإنما اشتغل في نفس الوقت
بالتأليف ، وتمتاز كتابة هذا الإمام بالدقة في التعبير مع السلاسة والوضوح .
وقد خلف تراثا فكريا هاما يدل على عقل جبار ، وذكاء وقاد ، وتحرر في التفكير
غريب في ذلك العصر . وما بالك بفقيه مالكي يعتبر شيخ الجماعة بفاس
والاستاذ الاول في القرويين ، يجرؤ على نقد المذهب ومخالفة ما تواضع عليه فقهاء
المالكية من سدل اليدين في الصلاة ، ويؤلف كتاب نصرة القبض والرد على من
انكر مشروعيته في صلاتي النفل والفرض . على أن قوة ادراك الإمام المسناوي
وسعة أفقه العلمي إنما تظهران بجلاء في كتابين صغيرين من مؤلفاته تعرض

(17) محمد بن الطيب القادري ، نشر الثاني ، 204:2

(18) نفس المصدر نفس الصحيفة

(19) E. LEVI-PROVENÇAL, LES HISTORIENS DES CHORÉAS, P. 301.

فيهما لمبحثين فقهيين هامين ، هما الذمة ، والتوكيل . وقد سمي الاول منهما
مرف الهمه الى تحقيق معنى الذمة ، وركبه على سابقه ، ومقصدتين ، ولاحقه .
 تكلم فى السابقة عن معنى الذمة لغة وشرعا ، وفى المقصد الاول عن تعريفى
 ابن عبد السلام وابن عرفة للذمة ، ولخص فى المقصد الثانى ما للشهاب
 القرافى ، وابن الشاط فى الموضوع وبحث معهما فى بعض الامور ، وذكر أربع
 مسائل : (1) تعريف الذمة اعتمادا على ما للقرافى وابن الشاط ، (2) شروط
 الذمة ، (3) الفرق بين الذمة وأهلية المعاملة والتصرف ، (4) البحث فى أن الذمة
 وأهلية المعاملة هل هما من خطاب الوضع أو من خطاب التكليف ، وجعل اللاحقه
 فى مسأله السؤال المرفوع اليه فى الموضوع . أما الكتاب الثانى فهو
تقييد كاشف عن أحكام الاستنابة فى الوظائف . جعله فى ثلاثة مباحث .
 المبحث الاول فى التوطئة للمقصود بالذات ببيان ما تصح فيه النيابة ويجوز
 التوكيل وما لا يصح فيه ذلك ولا يجوز . ويشتمل على سابقه فى معنى النيابة
 والاستنابة والوكالة ، ومطلب فى حكم ذلك ومجمله ، وما يتعلق به ويساويه
 من أجله ، ولاحقه فيما يلتحق بها سبق وينبنى عليه ، من بيان ما يصح نقل
 ثوابه الى الغير وما لا يصح نقله اليه . المبحث الثانى فى المقصود بالذات من
 حكم الاستنابة فى الوظائف التى عليها مرتب معلوم . وينقسم - كالأول -
 الى طائفة : فى الارزاق والاجارات والاوقاف ، وما بينها من اتلاف واختلاف .
 ومقصد فى حكم الانابة فى الوظائف التى يؤدى عنها أجر ، ولمن يكون أجرها
 حينئذ هل للمستنيب أو للنائب . وتابعة : فى الكلام على ما تبع ذلك من
 الثواب الآجل ، وحكم فائده أيام العطله العاجل . وذكر فى المبحث
 الثالث أو الخاتمة كلام فقهاء المذاهب الأخرى غير المالكية فى موضوع الاستنابة
 ليتسع مجال نظر القارىء ويطلع على الخلاف العالى وأسواره .

وقد كاد الامام المسناوى يتعرض لمحنة شديدة على يد السلطان اسماعيل ،
 لولا أن تدخل بعض رجال البلاط لصالحه وأثبتوا براءته . ذلك أن الامير محمد
 العالم ابن السلطان اسماعيل كان من أخص تلاميذ الامام المسناوى وأقربهم
 اليه . ولما ثار محمد العالم فى مراکش بقى يرأسل أستاذ المسناوى واغتم
 بعض منافسى الشيخ هذه الفرصة فأوغروا صدر السلطان عليه ، واتهموه
 بإطلاعه على خطة الامير الثورية وممالأته اياه على ذلك . غير أن أنصار الامام
 المسناوى أكدوا للسلطان أنه كان ينهى تلميذه محمد العالم عن الثورة ،
 واشدوا له قوله :

مبلا فان لكل شيء غاية والدمر يعكس حيلة المحتال
فالمدر ليس يلوح ساطع نوره والشمس ظاهرة السنا في الحال
فاذا توارت بالحجاب فعند ذا يبدو يبدو تعزز وجمال (20)

فاستحسن السلطان ذلك وتحقق من براءة الشيخ. وعاش الامام المسناوي
حصا وستين سنة مقبلا على العلم ، وعلى العلم وحده . كان يتنقل من
التدريس بالقرويين أو المدرسة العنانية الى البحث في المشاكل الفقهية
وتدوينها في الكتب ، أو الى ارشاد الناس الذين يستفتونه في الاحكام
والعاملات . وقد جمعت فتاوى المسناوي في مجلد ضخيم ظل المرجع اليهم لرجال
النضاء والفتيا حتى اليوم . ولم تنحصر شهرة هذا الامام داخل اسوار فاس ،
بل انتشرت في المغرب كله ، وقصده العلماء من سائر النواحي يأخذون عنه
ويستجيزونه ، فأجاز عددا كبيرا منهم (21) ولما أحس المسناوي بدنو أجله
نظم قصيدة يضرع فيها الى الباري عز وجل وأوصى أن يشيع بها الى قبره ،
ومنها :

يا رب عطفنا على مسمى أتى به القوم للمقابر
فجاء فردا بغير زاد وخلف الاهل والعشائر

وقد جرى عمل الناس في فاس بعد ذلك بقراءة هذه القصيدة عند تشييع
المرء . وتوفي الشيخ المسناوي يوم 16 شوال 1136/1724 فكان موته مأثما
للمدينة كلها ، وشييعه جميع السكان في محفل رهيب الى مدفنه في قبة سيدي
العائدي خارج باب الفتوح ، وكسروا النعش الذي حمل عليه ، وأخذ كل واحد
قطعة صغيرة من الخشب تبركا بالامام المسناوي الصالح . ورتاه ابن عمه
محمد البكري بقصيدة مطلعها :

أي القلب أن يسلمو ودمعي تحدر فكم فكفته أبغى بذلك تستمرا (22)

(20) محمد اكسوس ، الجيش العرمم ، ورقة 66/1 . وهذه الابيات من قصيدة تتكون من 53 بيتا ،
مطلعها : أهدي السلام معبر الاقيال ومشيعا باليمن والاقبال
كان الامام المسناوي بعث بها الى تلميذه الامير محمد العالم يسوس في جملة المراسلات
الادبية بينهما

(21) أنظر بعض اجازات المسناوي لعلماء عصره في : سليمان الخوات ، البدور الضاوية ،
ورقة 186/ب وما بعدها

(22) أرجع في ترجمة محمد المسناوي الى : محمد القادري ، نشر الثاني ، 204:2 - 208 ، ومحمد
الكتاني ، سلوة الانفاس ، 44:3 وما بعدها . وسليمان الخوات ، البدور الضاوية ،
ورقة 182 وما بعدها . والي اليازغي ، حدائق الازهار ، الابيات 136 - 148 ، والسلي
الطيلي ، الدرر البهية ، 342:2 ، والي :
LEVI PROVENÇAL, LES HISTORIENS DES CHORÉAS, pp. 301-302.

ب) تلاميذ الدلائيين في فاس

يصعب على المرء أن يحدد عدد التلاميذ الذين تخرجوا على يد الدلائيين في فاس ، لاسيما وقد تعاقب عدد وافر من علماء هذه الاسرة على التدريس في العاصمة العلمية زهاء قرنين ، وكاد يكون جميع العلماء الذين عاصروا الامام المسناوي الدلائى من تلاميذه . غير أنه ينبغي أن أشير اشارة خاطفة الى طائفة قليلة من الاعلام الذين كان للدلائيين فضل تكوينهم وتثقيفهم ، وساقصر على ذكر بعض تلاميذ ثلاثة من العلماء الدلائيين الاولين : محمد الشاذلى ، ومحمد الم رابط ، ومحمد المسناوي .

أما محمد الشاذلى فمن أشهر الآخذين عنهم في فاس المؤرخان الكبيران الاخوان القادريان عبد السلام والعربى . ويعتبر عبد السلام القادري (1110/1698) (23) من أشهر المؤلفين في تراجم العلماء والشرفاء والصالحين ، ومن تأليفه العديدة كتاب ترجم فيه لوالد شيخه الشاذلى الدلائى وجده سماه : **نزهة الفكر في مناقب الشيخين سيدى محمد ووالده سيدى أبى بكر** . وكان العربى بن الطيب القادري (1106/1695) نسابة ثقة كأخيه مشاركا في كثير من العلوم الدينية كالحديث والفقه ، ومن تأليفه كتاب **في وفيات أولاد الشيخ عبد القادر الجيلانى** . كما أخذ عن الشاذلى الدلائى أيضا أبو العلاء ادريس النجرة - الكبير - (1137/24 - 1725) امام القراء في فاس وشيخ الجماعة بالمغرب صاحب الفهرست المسماة **عذب الموارد في رفع الاسانيد** ، التى ترجم فيها لشيخه في المغرب والمشرق .

ومن تتلمذ لمحمد الم رابط الدلائى في فاس محمد بن عبد الرحمن بن عبد القادر الفاسى (1134/21 - 1722) مؤلف **المنح البادية في الاسانيد العالية** ، وفيه يقول عن الم رابط : «شيخنا الامام النحوى الخطيب أبو الرضى محمد بن الفقيه الصالح أبى الاحسان محمد بن الولي الشهير أبى بكر .. الم رابط ، سمعت منه أوائل الكتب الستة ، وسيرة ابن سيد الناس ، وأجازني فيما له وكتب لي ذلك بخطه ..» (24)

وأبو العباس أحمد بن على الوجارى (1141/28 - 1729) الامام اللغوى الكبير الذى كادت تكون كل دراساته على الشيخ الم رابط ، ثم انتصب للتدريس في فاس مدة طويلة وتخرج على يده أكثر علماء البلد . ولم يؤلف الوجارى كتابا في حياته ، وانما ترك تقايد كثيرة جمع ما يتعلق منها بالنحو في مجلد صغير .

23 الأرقام المكتوبة بين قوسين في هذا الفصل ترمز الى سنة الوفاة
24 محمد بن عبد الرحمن الفاسى ، **المنح البادية** ، ص 6

وأخذ عن الامام محمد المسناوي الدلائى فى فاس خلق كثير ، فى مقدمتهم المؤرخ الشينى محمد الصغير الافرانى المراكشى (1140/27 - 1728) صاحب الايدى البيضاء على التاريخ المغربى ، ومؤلف أشهر الكتب وأوثقها فى تاريخ الدولتين السعدية والعلوية ، مثل **نزهة الجادى فى أخبار ملوك القرن الحادى** ، و**صفوة من انتشر من صلحاء القرن الحادى عشر** ، وفيهما يذكر شيخه المسناوي وينقل عنه . وأبو عبد الله محمد العلمى الحوات (1160/1747) قاضى شفشاون ومؤلف كتاب **تحفة المعاصر فى بعض صالحى تلامذة أبى عبد الله محمد بن ناصر** ، وهو والد أبى الربيع سليمان الحوات صاحب **البدور الضاوية فى أخبار السادات أهل الزاوية الدلائية** . ويروى سليمان الحوات فى هذا الكتاب كثيرا من أخبار الدلائيين عن والده رواية مشافهة مستمدة من الدلائيين أنفسهم أو يقتبس من كتاب **تحفة المعاصر** ، كما تتلمذ للمسناوي أحمد بن عبد الوهاب الوزير الغسائى (1146/33 - 1734) الأديب المنشئ المترسل البارع صاحب التأليف الكثيرة ، ومنها **رسالة فى التعريف بالشيخ المسناوي** . ومحمد بن الطيب العلمى (1134/21 - 1722) الأديب الكبير الذى فتن أهل فاس بشعره وألف كتاب **الانيس المطرب فيمن لقيهم مؤلفه من أدباء المغرب** ، وفيه يذكر شيخه المسناوي الذى كان ينافح عنه فى مساجلات أدبية ، ويرد على انتقادات بعض الأدباء لقصائد العلمى (25) . وأبو عبد الله محمد بن الحسن الكندوز (1148/35 - 1736) امام اللغة والنحو فى عصره ، وأستاذ محمد بن الطيب القادري صاحب كتاب **نشر المثانى** . ويعتبر أبو عبد الله محمد بن الطيب الشرقى (1170/56 - 1757) من ألمع تلاميذ المسناوي ، تربطه بالشيخ زيادة على العلم رابطة الدم ، وقد برز الشرقى فى علوم اللغة تبريزا تاما وأخذها عنه علماء المغرب والمشرق ، وألف فى اللغة كتابا عظيمة ، مثل **المسفر عن خبايا المزهرة** الذى شرح فيه كتاب السميوطى فى علوم اللغة ، و**الحاشية الكبرى على قاموس الفيروزبادى** فى أربعة مجلدات ضخمة ، ومنها **استمعة تلميذه الشيخ مرتضى فى كتابه تاج العروس بشرح القاموس** . ومن أشهر المحدثين والفقهاء الذين تلمذوا للامام المسناوي محمد بن عبد الرحمن ابن زكري (1144/31 - 1732) العالم المتري صاحب **شرح البخارى** و**القصيدة الهمزية** التى عارض بها عمريه الامام البوصيرى الشهيرة ، و**شرحها فى مجلدين** . ومحمد بن عبد السلام بنانى (1163/49 - 1750) العالم المتصوف الرحالة صاحب **شرح الاكتفا للكلاعى** فى ستة مجلدات ، و**شرح الزقاقية فى الاحكام الفقهية** و**شرح الحزب الكبير للشاذلى** . ومحمد بن قاسم

جسوس (1182/68 - 1769) المحدث الكبير الذي طال عمره وكثر تلاميذه حتى عد شيخ الجماعة في فاس . ومن تأليفه شرح مختصر خليل في تسعة مجلدات . ومحمد بن حمدون بناني (1140/27 - 1728) فقيه فاس وعالمها الكبير الذي كان إليه المرجع في الفتيا وتحقيق الوثائق . وأبو العباس أحمد بن مبارك السجلماسي (1156/43 - 1744) الحافظ الكبير والفقيه الذي كاد يبلغ درجة الاجتهاد ، وهو مؤلف كتاب **الذهب الابريز في مناقب سيدي عبد العزيز** - الدباغ - . وكذلك كان الامير محمد العالم بن السلطان اسماعيل من اخص تلاميذه الامام المسناوي واقرب الناس اليه ، لازم دروسه مدة طويلة الى أن تخرج على يده عالما مشاركاً في اللغة وقواعدها ، والفقه والاصول ، وأديبا ماهرا يجيد الشعر والترسل . وظل الامير محمد العالم على اتصال دائم بأستاذه المسناوي حتى بعد نزوحه الى تارودانت (26) وقد مدح هذا الامير أستاذه المسناوي بقصيدة بعث بها اليه من مراكش أيام قيامه بالثورة في هذه المدينة ، فأجابه المسناوي عنها بقصيدة أخرى مطلعها :
أنسيم الرياض بالاسحار عاجك اليوم أم شجي الاوتار

3 - الكتب التي ألفها الدلائيون

اهتم الدلائيون بالتأليف منذ بروزهم في الميدان العلمي . وأول من دون منهم كتاباً هو الشيخ محمد بن أبي بكر الدلائي الذي جمع أربعين حديثاً نبوياً على نحو ما فعل الامام النووي وغيره من المحدثين ، وأضاف الى كل حديث قصة تناسب موضوعه من قصص الوعاظ والزهاد . ثم ألف أبناء الشيخ محمد بن أبي بكر الدلائي وأحفاده كتباً كثيرة في الحديث والسيرة النبوية ، والفقه ، والاصول ، واللغة ، والنحو ، والصرف ، والادب ، والانساب وغير ذلك من المواضيع المختلفة . وقد وصلت اليها - لحسن الحظ - جل مؤلفات الدلائيين ، ولم يعد الدهر الا على أقلها . غير أن بعضها ما يزال مبعثراً كالدواوين الشعرية التي توجد منها نتف هنا وهناك ، والتي لو جمعت ودرست على الوجه اللائق لكونت مادة أدبية طريفة ومشرفة للمغرب في نفس الوقت . وقد كانت كتب الدلائيين تحدث دوا عظيماً في الاوساط العلمية ، يردد صدها المغرب كله ، وحتى المشرق أحياناً ، كما حدث عندما ألف محمد

(26) كانت نهاية الامير محمد العالم مجزية ، إذ ثار على والده السلطان اسماعيل واستولى على مراكش عندما كان نائباً عنه في إقليم سوس . ثم تغلب عليه أخوه زيدان وحمله فقيداً الى والده بمكناس . وقيل أن يصل الى العاصمة بعث السلطان اسماعيل من قطع يد محمد ورجله من خلاف في وادي بهت - بين الخميسات ومكناس - وحمل محمد العالم في حالة مزرية الى مكناس فلم يدخلها حتى مات عام 1116/4 - 1705

المرباط الدلائى كتاب نتائج التحصيل فى شرح التسهيل ، فى أربعة مجلدات .
فقد سارت بذكره الركبان ، وطلبه علماء المشرق ، وبيعت بعض نسخه فى
مصر بأثمان باهظة ، وقرظه من علماء الازهر الامامان أحمد شهاب وعبد القادر
ابن الجلال المحلى .

وقد أثبت هنا - فى جدول - ما وقفت عليه من أسماء مؤلفات الدلائيين ،
وبينت المكتبات العامة أو الخاصة التى توجد فيها ، الا كتب قليلة لم أعرف
شيئا عن المكان الذى توجد فيه وضعت أمامها علامة استفهام (؟) على أمل
العثور عليها فى الخزانة الملكية أو فى غيرها من مكتبات الخاصة ، وأردفت
ذلك بجدول آخر ذكرت فيه الكتب التى ألفت فى الدلائيين ، دون أن أثبت فيه
ما ألفه الدلائيون أنفسهم فى ذويهم ، مكتفيا بإيراد ذلك فى الجدول الاول .

(أ) جدول مؤلفات الدلائيين

اسم الكتاب	المؤلف	مكان الكتاب
------------	--------	-------------

الحديث والسيرة

1	أربعون حديثاً	محمد بن أبي بكر الدلائلي	مخطوطة خ. ح. 1295 ج *
2	الزهر الندي في الخلق المحمدي	محمد بن عبد الرحمن الدلائلي	مخطوطة خ. ح. 157 د
3	زهر الحقائق و خلاصة الحقائق من سيرة سيد الخلائق وما يستتبع ذلك من النكت والدقائق	" "	مخطوطة خ. ح. 306 ك
4	فخر الثرى بسيد الورى	" "	؟
5	شرح الشفا للقاضي عياض	الشرقي بن أبي بكر الدلائلي	؟
6	شرح ثان للشفا	أبو عمر بن محمد الدلائلي	؟
7	شرح ثالث للشفا	محمد بن عبد الرحمن الدلائلي	؟

الفقه والاصول

8	تأليف في النوازل الفقهية	محمد البكري الدلائلي	؟
9	تقييد كاشف عن أحكام الاستنابة في الوظائف	محمد المساوي الدلائلي	مخطوطة خ. ح. 579 ج و 1995 د
10	المعارج المرتقاة الى معاني الورقات	محمد المرابط الدلائلي	مخطوطة خ. ح. 276 ك طبع في تطوان
11	نصرة القبض ، والرد على من أنكر مشروعيته في صلاتي النفل والفرض	محمد المساوي الدلائلي	؟
12	نوازل المساوي	" "	طبع على الحجر بفاس عام 1345 هـ في 208 صفحة
13	تأليف في الاصول	الشرقي بن أبي بكر الدلائلي	مخطوطة خ. ح. 579 ج
14	صرف الهممة الى تحقيق معنى الذمة	محمد المساوي الدلائلي	؟
15	شرح مختصر ابن الحاجب	أحمد الحارثي الدلائلي	؟

اللغة وقواعدها

16	حاشية على المطول للتفتازاني في البلاغة	الشرقي بن أبي بكر الدلائلي	في غ. ح. 9 د في مكتبة خاصة بسوس
17	نتائج التحصيل في شرح التسهيل 4 مجلدات	محمد المرابط الدلائلي	؟

* خ. ح. ترمز الى الخزانة العامة بالرباط - قسم الوثائق
** ذكر المؤرخ بوجندار في مقدمة الفتح (ص 150) أن شرح التسهيل هذا موجود في مكتبة
الجامع الاعظم بالرباط - وهي تابعة للخزانة العامة - كما أخبرني الاستاذ الحسن
البيوعمانسي أنه وقف على هذا الشرح بخط الامام أبي العباس الصوابي في رباط
ماسة بسوس

اسم الكتاب	المؤلف	مكان الكتاب
فتح اللطيف على البسط والتعريف	محمد المرباط الدلائي	طبع على الحجر بفاس عام 1316
في علم التصريف	محمد والبكري الدلائبان	مخطوطة ج. ع. 248 ك
شرح رائية اليوسى فى رثاء الزاوية الدلالية	محمد المرباط الدلائي	؟
شرح الفية ابن مالك فى مجلدين		

الادب

البركة البكرية فى الخطب الوعظية	محمد المرباط الدلائي	توجد اولها فى مكتبة ابن غازى بمكناس
تأليف فى الادب	محمد البكري الدلائي	؟
تأليف فى الخطب	محمد بن عبدالرحمن الدلائي	؟
تحريك الساكن وتهيج الشوق الكامن الى زيارة طيبة ومن بها ساكن رحلة حجازية نظمية	" "	؟
الدرة الدرية فى محاسن الشعر وغرائب العربية	محمد المرباط الدلائي	مكتبة خاصة بطنجة
ديوان شعر	" "	" "
ديوان شعر	محمد بن محمد المرباط	مخطوطة خ. ع. 3179 ك
زهرة الوسائل فى المدح والرسائل	" "	مخطوطة خ. ع. 3312 ك
كراسة من ديوان	أحمد الحارثي الدلائي	مخطوطة خ. ع. 2678 ك
فتح الانوار فى بيان ما يعين على مدح النبي المختار وهو كتاب فى الموسيقى والامداح النبوية	محمد بن العربي الدلائي	و 74 ك

الانساب

بغية الرائي فى التعريف بالشيخ	محمد بن محمد المكي الدلائي	مخطوطة خ. ع. 2996 ك
أبي عبد الله محمد المكي الدلائي	بعض اقارب المساوي	مكتبة ابن غازى بمكناس
تحفة القاصد النواوى فى التعريف بالشيخ عبد السلام المساوي	الدلائي	مخطوطة خ. ع. 960 د
ترجمة الشيخ محمد العراق	محمد بن العربي الدلائي	مخطوطة خ. ع. 537 د
التعريف بالاشراف الادارسة الجوطيين	محمد المساوي الدلائي	و 1032 د
التعريف بالشيخ ابي العباس اليمنى	" "	مخطوطة خ. ع. 471 د
تقييد مشتمل على فروع بنى عمران	" "	و 1914 د
تقييد فى الاشراف الذين لهم شهرة بفاس	" "	مخطوطة خ. ع. 1632 ك
عهد المقل القاصر فى نصرة الشيخ عبد القادر	" "	مخطوطة خ. ع. 487 د
	" "	مخطوطة خ. ع. 579 د

اسم الكتاب	المؤلف	مكان الكتاب
39 جواهر السماط في مناقب عبد الله الخياط	محمد المستاوي الدلائى	الخزانة الاحمدية بقاس
40 درة التيجان ولقطة المؤلف والمرجان	محمد بن عبد الرحمن الدلائى	مخطوطات خ. ع. 408 و 522 د و 1180 و 1234 ك
41 نتيجة التحقيق في بعض اهل الشرف الوثيق	محمد المستاوي الدلائى	طبع على الحجر بقاس

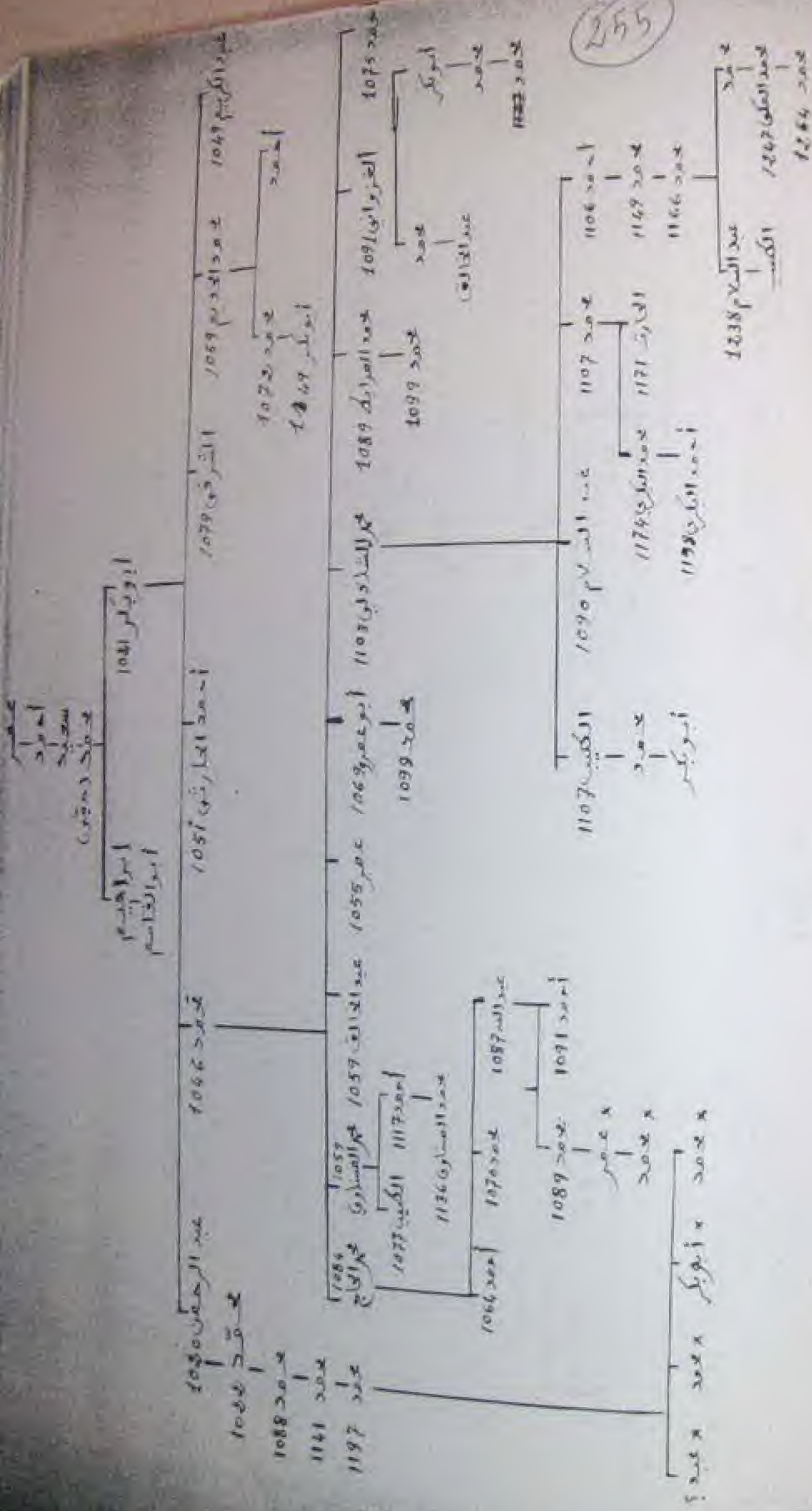
مواضيع مختلفة

42 تقايد جيدة في فنون مختلفة	محمد المستاوي الدلائى	كانت عند مؤلف السلوة
43 جواب على ما يقع في زمان المسغبة من كثرة السؤال	محمد الدلائى	مخطوطة خ. ع. 1081 د
44 منتهى سرى واشراقى في مسامرة الشريف العراقي	محمد البكرى الدلائى	؟
45 الفهرست	محمد بن ابي بكر الدلائى	يوجد طرف منها بمكتبة الاستاذ محمد ابراهيم الكتاني
46 فوائد في التصوف	محمد المستاوي الدلائى	مخطوطة خ. ع. 984 د
47 شرح نظم الراصد . لابي حامد العربي القاسى	محمد المستاوي الدلائى	؟
48 كناسة علمية	" " "	الخزانة القاسية

درة التيجان . رجز في نحو 500 بيت ذكر فيه محمد بن عبد الرحمن الدلائى شرفاء المغرب وقد شرحه محمد بن أحمد القاسى شرحا مفيدا في مجلد وسط . ورد في نقيب الشرفاء الادارسة الجوطيين عبد الرحمن بن عبد القادر الجوطى على ابن عبد الرحمن الدلائى وشيخه عبد السلام القادري صاحب كتاب الدر السنى . لانهما رفعوا نسب الاسرة العالمية الى جوطية . وذلك في أرجوزة من 105 بيت مطلعها :
سلام داخل حى النبى عليك يا محمد البكرى
وانتصر للدلائى مؤرخان كبيران هما محمد بن الطبيب القادري الذى نظم أرجوزة تشمل على 603 بيتا سماها الصوارم الفتكية . ونظم أبو القاسم الزياتى أرجوزة أخرى من 99 بيتا مطلعها :
حمدا لمن أنزل في الذكر الحكيم اكرمكم اتفاقا لله العظيم

(ب) جدول الكتب التي ألفت في الدلائيين

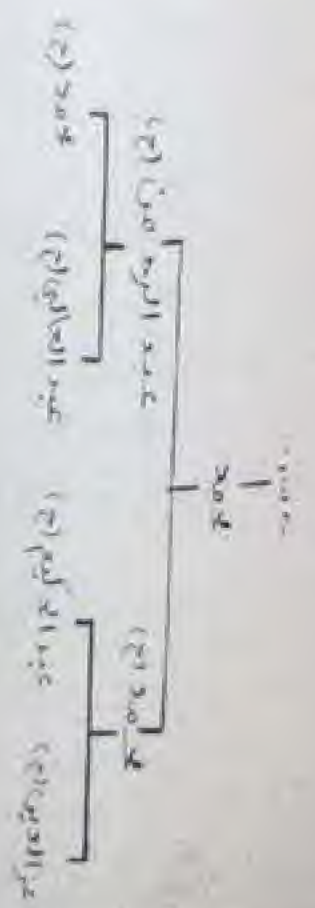
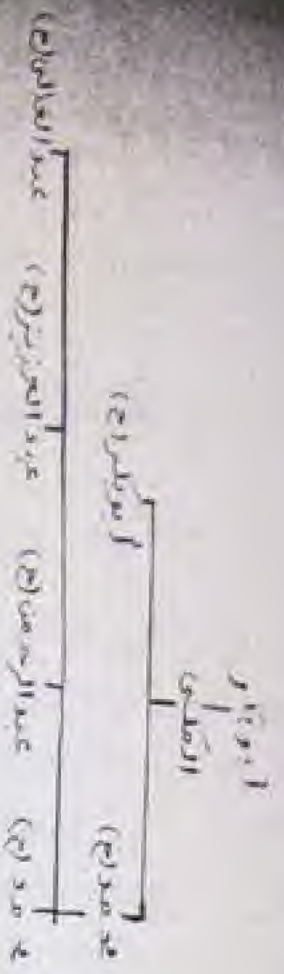
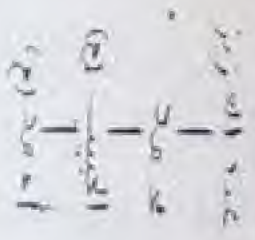
اسم الكتاب	المؤلف	مكان الكتاب
1 البذور الضاوية في التعريف بالسادات أهل الزاوية الدلائية	سليمان الحوات	مخطوطات خ. ع. 261 د و 1454 د و 394 د ك
2 اختصار البذور الضاوية	أحمد البوعزاوي	؟
3 اختصار ثان للبذور الضاوية	محمد إبراهيم الكتاني	خزانة المؤلف
4 اختصار ثالث للبذور الضاوية	العابد القاسي	الخزانة القاسية
5 تأليف في أسانيد الشيخ محمد ابن أبي بكر الدلائي	الحافظ أحمد القاسي	؟
6 تأليف في ترجمة محمد المسناوي الدلائي	محمد حمزة العياشي	في سجل الخزانة الحمزاوية
7 تأليف آخر في ترجمة محمد المسناوي الدلائي	أحمد بن عبد الوهاب الوزير القسائي	نقله برمته سليمان الحوات في البذور الضاوية 261 د ورقة 184/ب وما بعدها
8 حقائق الازهار الندية في التعريف بأهل الزاوية الدلائية البكرية	محمد بن أبي بكر اليازغي	مخطوط خ. ع. 261 د
9 ديوان يشتمل على قصائد في مدح الشيخ محمد بن أبي بكر الدلائي	مجهول	مخطوط خ. ع. 3312 ك
10 نزهة الاخيار المرضيين في مناقب العلماء الدلائيين البكرين	عبد الودود بن عمر التازي	مخطوط خ. ع. 1264 ك
11 نزهة الفكر في مناقب الشيخين سيدي محمد ووالده سيدي أبي بكر	عبد السلام بن الطيب القادري	الخزانة القاسية
12 القصيدة الرائية في رثاء الزاوية الدلائية	الحسين اليوسي	مخطوط خ. ع. 163 د
13 شرح درة التيجان	محمد بن أحمد القاسي	مخطوط خ. ع. 1432 ك
14 شرح رائية اليوسي في رثاء الزاوية الدلائية - في ستة أسفار ضخام	محمد بن المهدي ابن سيده	خزانة أبناء المؤلف في قاس



جدد لي اتصالاً لا يفترق اليك لا نبنيك اليك منة مني القوم من الصالحين (صلى الله عليه وسلم) وقوله: كتابه الشريف ليدركه من هذا

وہی کہ وہاں سے آئے ہوئے ہیں اور ان کے پاس سے

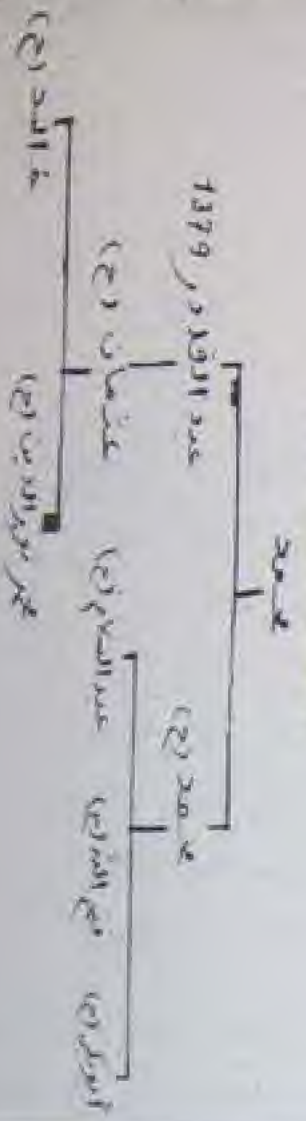
فروع آل سعود



فروع آل سعود



فروع آل سعود



256

وقد أسس آل سعود الدولة السعودية الحديثة، والبريد

لهم وقد علق وثائقهم بسلامة الدولة، وليس القدر، وقد وجد

4 - بقايا البيت الدلائي

(أ) مساكن قبيلة مجاط اليوم

عرفنا في الباب الاول أن أصل الدلائيين من مجاط ، وهي قبيلة بربرية من صنهاجة (27) التي كانت تسكن في القديم أقاصي الصحراء المغربية حيث لا يزال بعضهم هنالك حتى اليوم يكتبون بالحروف البربرية القديمة . واستوطن المجاطيون الذين طلّعوا الى المغرب قديما ملوية العليا ثم انتشروا في جبال الاطلس ، وعمرت طائفة منهم - مع أربع قبائل أخرى - مدينة محمد الحاج الدلائي في أواسط القرن الهجري الحادي عشر . وبعد انتهاء الامارة الدلائية وفشل الثورات البربرية تفرق المجاطيون في البلاد . وتوجد اليوم في المغرب ثلاث قبائل يطلق على كل منها اسم مجاط : (28)

أولا - مجاط ناحية مكناس ، ويقيمون على بعد نحو 10 كلم من هذه المدينة في طريق الحاجب . ومن أشهر عشائريهم بنو محمد ، وبنو يحيى ، وسرفاء بوفكران .

ثانيا - مجاط ناحية مراکش . وتشتمل على فرقتين : مجاط التحتية ، وتقع مساكنهم على بعد نحو 30 كلم من مراکش في طريق الصويرة . وتكتنف مجاط التحتية قبائل الودايا شمالا وشرقا ، وقبيلة أحمر غربا ، وآيت يموور جنوبا . وأما مجاط الفوقية فيسكنون في نجد الدير على ضفاف نهر (أسيف المال) جنوبي مساكن اخوانهم التحتيين ، ويبعدون عن مراکش بنحو 70 كلم في طريق أمزميز . وتجاور مجاط الفوقية قبائل مزوضة وكدميوة ، وهي تابعة من الناحية الادارية لدائرة ايمينتانات .

ثالثا - مجاط سوس . وهي أهم هذه القبائل الثلاث ، تسكن غير بعيدة عن تازروالت حيث زاوية الشيخ الشخير أحمد بن موسى السملالي . وتكتنفها شمالا قبيلة ايدا وسملال وجنوبا افران (بالاطلس الصغير) وشرقا آيت عبد الله ، وغربا آيت رجا . وتتبع اداريا دائرة بوزكارن . وينفق المجاطيون

(27) يقال ان كلمة (سيكالي) هي تحريف لصنهاجة . فهل هذا يعني أن السيكاليين هم مغاربة صنهاجيون اصودت بشرتهم بتأثير الطقس الحار الذي يعيشون فيه وبامتزاجهم مع جيرانهم السودانيين ؟

(28) عرض الأستاذ عبد الوهاب بن منصور في هامش كتاب الغز والصولة ، (134:1) لقبائل مجاط فذكر أن هناك اليوم بالمغرب أربع قبائل مجاطية ، جعلنا واحدة منها بحوز مراکش وأخرى بحوز شوشاوة . كما عد زاوية سيدي أحمد بن موسى من جملة عشائر المجاطيين القاطنين بحوز شوشاوة .

السوسيون على زاوية الشيخ أحمد بن موسى التي يعتبرونها مدرستهم الخاصة ، فيصرفون من زكواتهم على من بها من الطلبة والمحتاجين حتى اليوم لذلك يحيط السوسيون جميعهم قبيلة مجاط بكثير من التقدير والاحلال ويعتقدون أن حقول المجاطيين لا تمحل حتى في السنين المجذبة .

(ب) أحفاد الدلائيين في فاس والدار البيضاء والرباط

كانت أسرة الدلائيين كبيرة في فاس ، وتشعبت فروعها خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر (18 - 19م) حتى غدت كالندوة العظيمة ، ثم بدأ عدد أفراد هذه الأسرة يقل الى أن لم يبق منهم في مستهل قرننا الحاضر بفاس الا بضعة رجال «أهل مروءة ودين غير أنهم لا علم عندهم وإنما يحترفون بحرفة معاشية من تفسير كتب ونحو ذلك..» (29)

واليوم تعيش في فاس خمس أسر دلائية ليس لها من اتصال بالدلائيين القدماء الا (الحيازة) والانتساب اليهم بالتواتر على الالسننة ، حتى ان بعض الناس لما رغب في امتلاك مقبرة الدلائيين الشهيرة بالكفادين في زقة باب الحمراء قرب وادي الزيتون داخل باب الفتوح بفاس (30) استغل ضعف هؤلاء الدلائيين المادي والمعنوي فاشتراها منهم - عن طريق الاحتيال والاكراه حسب زعمهم - وأشهد عليهم البيع الواحد تلو الآخر . ومهما يكن من أمر فإن تملك مقبرة للمسلمين خصوصا مقبرة تضم أجداث علماء أعلام ، وتحويها الى موقف للسيارات ثم الى ما لا تعلم ، منكر يجب تغييره ، وبهتان لا ينبغي السكوت عنه . وكان بعض الدلائيين قد انتقل في أواسط القرن الماضي الى السكنى برباط الفتح . ونشأ منهم في هذه المدينة أديب صوفي هو محمد بن العربي الدلائي . كان يلزم دروس الشيخ أحمد دنية ويحضر مجالسه الحديثية والفقهية ، ويشتغل في نفس الوقت بالتجارة في سوق العطارين . وقد مدح محمد بن العربي الدلائي شيخه دنية حينما ختم صحيح البخاري بقصيدة مطلعها :

لما في سماء المجد والسعد طالع وأسفر عن وجه السعادة ساطع

(29) ادريس الفصلي : الدرر البهية . 2: 345
(30) سبق للاستاذ عبد السلام بنسودة أن استذكر ذلك في أحد الأعداد الأولى لجريدة «الرائ العام» التي كانت تصدر بالدار البيضاء . ولمعرفة أسماء بعض العلماء الدلائيين الذين دفنوا في مقبرة الكفادين وتراجهم يمكن الرجوع الى سلوة الانفاس ، ج 2 . من صحيفة 80 الى صحيفة 100



زاوية محمد بن العربي الدلائي في الدار البيضاء
 - الزاوية الحراقية -
 من تصوير المؤلف

ثم مدحه لما ختم مختصر الشيخ خليل بقصيدة أخرى مطلعها :
خليلي حدثني حديث أحبتي فذكرهم أنس لأهل المحبة (31)

وصاحب محمد بن العربي الدلائى بعد ذلك الشيخين الصوفيين الشهيرين
العربى الدرقاوى ومحمد الحراق ، وسلك على يدهما طريق القوم الى أن بلغ
درجة المشيخة . وأسس فى الرباط الطريقة الحراقية وعنه أخذها كثير من
الناس ، منهم العالم أحمد بن عاشر الحداد الذى شيد أركان هذه الطريقة فى
الرباط من بعده . ولمحمد بن العربي الدلائى أزجال كثيرة فى طريقة شيخه
محمد الحراق ، وأناشيد صوفية حسنة ، وشعر كثير أغلبه فى مدح الرسول
عليه السلام . وقد ألف محمد بن العربي الدلائى كتابين ، أحدهما فى مدح
الرسول الكريم بطريقة السماع أو الألحان الموسيقية ، سماه **فتح الأنوار فى**
بيان ما يقين على مدح النبی المختار ، ذكر فيه أن أركان (السماع) ثلاثة لا بد
لكل منشئ من معرفتها وهى الشعر المتغنى به ، والطبع المترنم بلحنه ، والوزن
المفروق ذلك الترنم فى قلبه . ثم أتى بعد ذلك بالبحور الشعرية وتفاعيلها
مختصرة ، والطبوع الموسيقية مجملة ثم مفصلة . والكتاب الثانى الذى ألفه
محمد بن العربي الدلائى فى **ترجمة الشيخ محمد الحراق** ، ذكر فيه نسب
الشيخ ومشاركته فى العلوم ولاسيما علم الباطن ، وعرض لرسائله الى اخوانه
ومريديه ، وخصص فى الأخير بابا لقصائد الحراق وتوشيحاته ومقطعاته
مرتبة على البحور ، مبتدئا بالطويل :

أطلب ليلي وهى فيك تجلت وتحسبها غيرا وغيرك ليست ..

ثم انتقل الشيخ محمد بن العربي الدلائى الى مدينة الدار البيضاء حيث
أسس زاويته المشهورة فى البقعة التى كانت وهبت للشيخ الحراق ، غير بعيدة
عن المسجد العتيق بطريق دار المخزن فى المدينة القديمة ، وأخذ يلقي فيها
الأوراد ويعمر حلق الذكر بالسماع على الطريقة الحراقية . وكانت الدار
البيضاء فى ذلك الوقت (أواخر القرن 13 هـ / 19 م) خالية قفوة ليس فيها الا
المسجد العتيق المجاور لدار المخزن اذا أقيمت فيه صلاة الجمعة لا يجتمع العدد
الأدنى الذى لاتصح هذه الصلاة الا به وهو اثنا عشر رجلا . وتزوج الشيخ
محمد بن العربي الدلائى فى الدار البيضاء ، وظل يحن الى مسقط رأسه
الرباط ، ويتردد عليه من حين لآخر الى أن توفى فى 15 شوال 1285 / 1869
ودفن بركن الصحن الاول عن يمين المستقبل داخل زاويته فى الدار البيضاء .

(31) انظر نص القصيدة وترجمة ابن العربي الدلائى فى: محمد دلية، النسخات النادرة من الأدب

وخلفه ابنه الصالح عبد السلام الدلائي ، وكان مثله عالما ورعا يتجنب الظهور ويميل إلى الانعزال عن الناس . سلك سبيل والده في التصوف والانقطاع إلى العبادة والذكر وتربية المريدين إلى أن توفي عام 1310/92 - 1893 ودفن بجوار والده في زاويتهم . وما يزال حتى اليوم بعض أقرباء محمد بن العربي الدلائي يعيشون في الدار البيضاء والرباط ، وليس بأيديهم من الوثائق ما يوصل عيود نسبهم بالدلائيين القدماء .

هكذا تفرقت قبيلة مجاط العظيمة أيدي سبأ ، وقل أفراد البيت الدلائي المجيد بعد كثرة ، وافتقروا بعد غنى ، وارتحل عنهم العلم بعد طول إقامة ، ولله عاقبة الأمور .



السيد محمد بن محمد بن حسن الدلاثي
- تاجر في فاس -

اللوحة رقم 23



مقبرة العلماء الدلائيين الشهيرة بزقة باب الحمراء بفاس

- تحولت الى موقف للسيارات !! -

من تصوير المؤلف

الخاتمة

لقد تعاقبت على الزاوية الدلائية أطوار الحياة الطبيعية ، من نشوء وترعرع وارتقاء ، ثم تقهقر وفناء ، في أمد قريب لم يجاوز قرنا واحدا ، وهو عمر قصير بالنسبة للمؤسسات الدينية والعلمية التي يفرض فيها أن تخلد خلود الدين والعلم . لاسيما وقد تم تأسيس الزاوية الدلائية في موقع جبلى هام بعيد عن العاصمتين المغربيتين فاس ومراكش ، على يد شيخ أصيل في هذه البيئة تتوافر لديه كل المؤهلات التي تضمن التفاف الناس حوله ، فلم يختلف اثنان في صلاح الشيخ أبى بكر الدلائى ، ولم يعرف عنه قومه المجاطيون وجيرانهم الزيانيون والتادليون الا النسك والعبادة منذ حداثة سنه ، والزهد في الدنيا والاعراض عن زخرفها الزائل على ما آتاه الله من بسطة في الرزق . ولم يمت هذا الشيخ حتى كانت الزاوية الدلائية قد سارت بذكرها الركبان ، واشتهر أمرها في المغرب كله ، وقصدها الناس من جميع الجهات ، ومن بينهم علماء كبار استطابوا المقام فيها شهورا وأعواما ، وازدهرت بهم المجالس العلمية ازدهار حلقات الاذكار بالمريدين . وخلف محمد بن أبى بكر أباه على رأس الزاوية الدلائية ، وكان عالما كبيرا له خمسة من الاخوة بضاعتهم العلمية غير مزجاة ، تصدروا للتدريس جميعا فنفت سوق العلم في الدلاء ، وتكاثر فيها الطلبة الذين أووا الى مدارس كبيرة بلغت حجراتها ألفا وأربعمائة ، واتسعت المكتبة العلمية الدلائية التي كانت تستنسخ لها الكتب النادرة في المشرق والمغرب الى أن بلغ عدد الكتب فيها عشرة آلاف مجلد . ويكفى الزاوية الدلائية فخرا أن يعد من تلاميذها الامام الحسن اليوسى صاحب المحاضرات والقانون ، وأحمد المقرئ صاحب نفح الطيب ، ومحمد العربى الفاسى مؤلف مرآة المحاسن ، وأضرابهم من فطاحل العلماء ، وأن تنجب من أبنائها عشرات الاعلام في مختلف ميادين المعرفة ، مثل محمد بن أبى بكر الدلائى شيخ الحفاظ بالمغرب ، وابنه محمد المرباط ، امام اللغة والنحو في عصره ، وأحمد ابن عبد الله الدلائى أشعر قومه وأعلمهم بالآداب .

وشاء القدر أن يتولى أمر الزاوية الدلائية في منتصف القرن الحادى عشر الهجرى (السابع عشر الميلادى) رجل طموح من هذه الاسرة المجيدة ، بهمه يريق الجاه والسلطان وأعماه حب الرياسة ، فانغمر في ميدان السياسة . وكانت له مؤهلات كثيرة للنجاح ، من عصبية صنهاجية قوية ونفوذ وروح كبير وثروة طائلة ، الى رجاحة عقل وحسن تدبير وبطولة نادرة . وملك السلطان محمد الحاج الدلائى أهم البلاد ، وامتد نفوذه فشمط وسط المغرب وشماله وغربه ، ودخلت في طاعته سلا ، والرباط ، ومكناس ، وفاس ،

وتازا ، وتطوان ، وأسس بالسفح الغربي للأطلس المتوسط مدينته العظيمة التي ورثت عن زاوية الدلاء الأولى اسمها وعلمها ونفوذها الروحي . وقد انضوى تحت لواء الدلائيين المجاهدون البحريون أو القراصنة السلويون ، وأقام عبد الله الدلائي في قسبة سلا نائبا عن أبيه السلطان محمد الحاج في حكم مدن أبي رقراق وما يليها من بلاد الغرب ، وفي الاتصال بممثلي الدول الأوروبية الكبرى التي كان لها قناصل قارون في سلا وتطوان يمثلونها لدى الأمير الدلائي ، ويفاوضونه في موضوع العلاقات التجارية ، والمشاكل الناتجة عن القرصنة البحرية وخاصة مسألة الأسرى وفدائهم . وكان لاسطول الجهاد المغربي وزنه الراجح أيام الدلائيين ، يرهبه الأوروبيون أكثر من رعبتهم الاسطول التركي في الجزائر ، ويسعون بجد في مهادنة الدلائيين والتحالف معهم ، رغبة منهم في المحافظة على سلامة أساطيلهم التجارية التي كانت تمر عبر البحرين الاطنطيقى والمتوسط . وأمضى عبد الله الدلائي عدة معاهدات مع هذه الدول ، ساعدت على نشاط الحركة التجارية في الموانئ المغربية ، واستغنت الخزينة الدلائية بالضرائب الجمركية المفروضة على الصادرات والواردات ، وتزود الجيش الدلائي بالعتاد الحربي الحديث المجلوب من أوروبا . ووجه الدلائيون سفراءهم الى هولاندا ، فكانوا محل تقدير واعجاب ، واستطاعوا أن يحلوا كثيرا من المشاكل العويصة التي ظلت معلقة بين البلدين طوال سنين عديدة .

لكن بالرغم من تمكن سلطنة محمد الحاج وانتشار نفوذه لم يستطع أو لم يجرؤ على أن يوحد المغرب كله تحت سلطته ، واكتفى بنوع من التعايش السلمي مع بقايا السعديين في مراكش ، ومع العلويين في تافيلالت ودرعة ، وأبي حسون السملالي في سوس . وبذلك أصبح لا يعدو أن يكون مجرد حاكم مقاطعة - وإن اشتملت على أهم أقاليم البلاد - وعدا سلطانه غير شرعي بالرغم من المبيعات التي حملها اليه علماء المدن والقبائل وأعيانها وفي مقدمتهم أهل فاس ، إذ لم يكن من الطبيعي ولا من الممكن أن يظل المغرب مقسما الى مناطق نفوذ تحت سيطرة أربعة من السلاطين بلغ التنافر بينهم متناه ، بل كان هذا النوع من حكم ملوك الطوائف مظهرا من مظاهر الضعف والانحلال في البلاد . ومرضيا خطيرا أصاب الأمة أن لم تشف منه أدى بها الى الهلاك . وكان لابد أن يتغلب أحد المتزعمين الأربعة على منافسيه لتخلص له البلاد كلها ، أو أن ياتى زعيم جديد قوى ينتزع السلطة من أيديهم جميعا . والحقيقة أنه كانت للدلائيين في السنين الأولى لامارتهم قوة حربية كبيرة تمكنهم من القضاء على منافسيهم في يسر . وقد حاربوا فعلا السعديين والعلويين وأحقوا بهم

هزائم نكراء ، لم يكن من الصعب معها الاجهاز عليهم والتخلص منهم نهائيا
لولا نسبهم الشريف .

وكان ظهور السلطان الرشيد العلوي في المغرب الشرقي واستيلائه على
فاس ومكناس بداية النهاية بالنسبة للزاوية الدلائية . وفي الايام الاولى من
عام 1668/1079 غادر الدلائيون زاويتهم الى فاس ، والحسرة تملأ أفئدتهم ،
والدموع تترقرق من مآقيهم ، تاركين وراءهم الدور والقصور ، والمال والسلاح ،
والعز والجاه . وأعمل السلطان الرشيد معاول الهدم في الزاويتين الدلايتين ،
القديمة والحديثة ، فخر بهما وطمس ما استطاع أن يطمس من معالمها ،
وتركهما خاويتين على عروشهما تعشش فيهما البوم وتنق الغربان باكية
سوء طالع الدلائين وعثر جدهم . ثم بعد النكبة والغربة أدرك العلماء
الدلائيون منزلة رفيعة في العاصمة الادريسية ، وزاحموا علماءها على منابر
التدريس والخطابة في المساجد والمدارس الى أن أصبحوا يحتلون الصدارة في
هذا الميدان . وتولى كثير من الفقهاء الدلائين خطة القضاء والافتاء في فاس
ومكناس وتارودانت ، ودرس علماؤهم في هذه المدن وفي غيرها كمراكش ،
وتعلمد لهم كثير من الناس من جميع الطبقات ، حتى الامراء العلويون مثل
محمد العالم بن السلطان اسماعيل ، وعبد السلام بن السلطان محمد بن عبد
الله . وخلف الدلائيون تراثا علميا هاما يتمثل في عشرات الكتب التي ألفوها
في مختلف الفنون ، وفي آثارهم الادبية الرائعة المبعثرة في ثنايا الكتب
والكراسات والمجاميع في المكتبات العامة ودور الخاصة ، والتي لو جمعت
و درست على الوجه اللائق لكونت دواوين أدبية ممتعة .

وصفوة القول أن الزاوية الدلائية أدت رسالتها الاولى على أحسن وجه ،
وظلت نبعاً فياضاً يكرع منه رجال العلم والدين طيلة قرن كامل . ولم ينجح
الدلائيون في ميدان السياسة لأن البيئة الروحية التي كونتهم لم تعد لهم
ليكونوا ملوكاً ذوي بطش وسلطان فحاولوا أن (يصوفوا) السياسة وقنعوا
بالرقعة التي انبسط نفوذهم عليها تاركين حوز مراكش للشرفاء السعديين ،
وما وراء جبل العياشي للشرفاء العلويين ، ولم يحاربوا أبا حمون السلالتي
لأنه من سلالة الصالحين ، ثم ملكوا فاساً فلم يسكنوا قصر الامارة حتى
لايزعجوا الشريفات السعديات . وظل الدلائيون هكذا حائرين بين المصادة
والروح والدين والدنيا الى أن جاء السلطان الرشيد بن الشريف العلوي الذي
قبض على الامر بيد من حديد ووحد المغرب كله تحت سلطته ، فرد الى
الدلائين رشدهم وحملهم الى فاس ليتابعوا أداء رسالتهم العلمية والدينية كما
أدأها آباؤهم الاولون .

ملحق رقم (1)

ظهير السلطان محمد الشيخ السعدى

بتعظيم الشيخ سعيد بن أحمد الدلائى *

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على مولانا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما .

عن أمر عبد الله تعالى مولانا أمير المومنين ، المجاهد فى سبيل رب العالمين المؤيد المنصور بالله ، القائم بأمره ، الشريف الحسنى أدام الله عزه وأيد ملكه آمين ، محمد الشيخ بن محمد ، انا جددنا بحول الله وقوته لحامل أمرنا العلى المبارك الكريم اسماء الله وخلد مآثره ، وهو ولينا فى الله سبحانه ، الذى نعظم قدره ، ونلتزم تبجيله وإيثاره ، السيد الافضل الولى الاكمل ، المبارك الخير الصالح ، الاستاذ المعلم الناصح ، سيدى سعيد بن أحمد الدلائى ، وصل الله كرامته ، ووالى بمنه سعادته ، تجديدا تاما ، له خاصا ولاخوانه عاما ، على ما بأيديهم من ظواهر أسلافنا الكرام ، وغيرهم رحمهم الله ، المتضمنة لشرفهم وتوقيرهم واحترامهم ، ومحاشاتهم من سائر كلائفنا (1) ووظائفنا المعهودة لغيرهم ، بعد أن تصفحنها فألقينها مؤسسة المبنى ، ومستقيمة اللفظ والمعنى ، فى غاية ما يكون من التحقيق والتعظيم والرضى ، من غير تغيير ولا تبديل ، ولا تحريف وتحويل . وتركتناهم على ما كانوا عليه من التصرف فى بلادهم المعروفة من غير اعتراض لهم فيها ولا نزاع من أهل دائرتنا . ولنعلمهم كافة عبدا وحرا ، وقائدا ووزيرا ، بأننا ألبسناهم لباس التوقير والاجلال والاحترام ، وتوجناهم بتاج العز والاكرام ، فلا سبيل لخلق عليهم كائن من كان . ومن حاد عن أمرنا هذا أو خالفه فلا يلومنا الا نفسه . وعليهم بطريق المسكنة (2) والوقوف على ما تعود منفعة ومصلحته لدارنا العلية بالله ولا بد والسلام . وكتب فى سادس محرم الحرام عام ثلاثة وخمسين وتسعمائة .

* سليمان الحوات ، البدور الضاوية ، ورقة 1/7
 (1) الكلائف جمع محرف عن الكلف ، والمفرد : كلفة . وهى ما كان يفرضه الملوك على رعاياهم من ائاة أو خدمة خاصة ، ويقال للكلفة أيضا نائية
 (2) المراد بطريق المسكنة طريق التصوف وتسمى أيضا طريق الفقر لأن المتصوفين الصادقين ينصرفون عن الدنيا ويزهدون فيها

ملحق رقم (2)

قصيدة الاستاذ أحمد بن قاسم المنصوري بمناسبة زيارة أطلال الزاوية

الدلائية *

طالما تشوفت لزيارة رجال الدلاء بمقرهم الاول بالدلاء ، الى أن اقترح على الصديق الحميم الاديب النشيط سيدي محمد حجي المفتش بوزارة التربية الوطنية أن أرافقه لزيارة الزاويتين الدلائيتين ، الاولى التي كانت ينبوع رجالاتهم ومقر عرفانهم في أول مستقرهم بتلك البلاد الزياتية من فخذ آيت اسحاق وحيث مدفن علمائهم وعظمائهم ، والثانية التي صارت دار علم وصلاح ومملكة بعد ، وهذه جاءت يسار الطريق الرئيسية من مراكش لقاس على نحو 65 كلم من قصبة تادلا . وتعرف الآن بزاوية آيت اسحاق . أما الزاوية الاصلية الاولى الآنفة الذكر ، فقد جاءت شرقي هذه بنحو 12 كلم في شعاب جبال الاطلس الزياتي ، يسلك الذهاب اليها في شقة بمشقة من ثنايا وشعاب ، وتلال وعقاب ، تذكرك فيما أنشده الامام ابن حجر عند زيارته لقبر الشيخ الاكبر محيي الدين ابن العربي حيث يقول :

قطعنا في زيارته عقابا وما بعد العقاب سوى النعيم

يسر الله هذه الزيارة عشية يوم الاربعاء 25 حجة 1381 هـ 30 ماي 1962 م وعندما وقفنا على تلك الآثار وهاتيك الديار التي كانت طافحة بالمعارف زاخرة بالصالح والدين والكرم ثم ما عالت اليه من اطلال خربة ، وبلاقع ينقع الغراب وينعب فيها البوم ، هاج القريحة ذلك المشهد الغريب والمنظر الرهيب . ومن جهة أخرى أعادت لي تلك الزيارة ذكرى أيام الصبا والشباب التي مرت لي ببلاد زيان وأطلسها الفيتان ، وهذا ما تترجم بعضه هذه القصيدة :

ذكرت الصبا وعهده بمراجع مضت بين هاتيك الربوع الروائع
عشية مرت بي النجائب خلصة خلال ثنايا شاهقات الطوائع
ثنايا (بكرض الخير) 1 تسمى وأسده 2 ثنايا «زيان» 3 لالنقا 4 والجارع 5

* نشرت هذه القصيدة في جريدة الميثاق ، لسان رابطة علماء المغرب ، العدد 12 من السنة الاولى بتاريخ فاتح ربيع الاول 1382/2 غشت 1962 ، ص 4 تحت عنوان : على اطلال الزاوية الدلائية

- (1) بكرض الخير : عقبة يصعد بها الذهاب لزيارة هذه الاضرحة ، ومعنى بكرض بالعربية عقبة .
- (2) أي عقبة الخير والمراد بالخير رجال تلك الزاوية
- (3) والمراد بأسده الشعبة التي جاءت شرقي هذه الاضرحة المسماة (أفا أزم) بالبربرية أيضا ومعناها بالعربية شعبة الاسد
- (4) زيان هي القبيلة المشهورة وفيها جاءت الزاويتان في فخذ آيت اسحاق
- (5) النقا : رملة مستوية
- (6) والجارع : رملة مستوية لاتثبت

فعدت بي الذكرى لا يامها الالى
زمان شبابي (6) ينثنى بمراجع
مراجع كان الجود يهوى (8) حياها
وينهمر العرفان من جدرانها انهمار ربها من غزير الينابيع
وينصب رقرق المحابر دفقة
من اودية أم الربيع يمددها
ركم رعت في خصب عرفانها
بها فتية بالدين كان هيامها
عرانين (I2) في أنسابها من برابر
اعزاء في أحسابها ، ان يهب بها
وفي ليلها تعشو (I4) المحارب هجدا
ولما أتيت اليوم شوقا أحجها
وقد خلد التاريخ ذكرى رجالها
وقلت اذا ما فاتني من زمانها
بها قد ثوى المجد الرفيع يساق (I6)
بفوح شذاها من أبي بكر الرضى (I7)
محمد (I8) من قد طبق الافق جوده

مضت ، وليال ، ما ترى برواجع
سقتها غواد (7) بالغيث الهوامع
بمغنى الدلاء يا لها من مراجع
كما انصب رقرق المياه الدوافع
شبوكة 9 واسرو 10 لانضوب الوقائع II
ذوو الثوايا الحسان في حسان المراتع
وبالعلم شيب مثل كهل وبافع
لصنهاجة أولى السيوف الشعاع (I3)
غيوث لدى النكب ليوث الوقائع
قيامها قعودا جافيات المضاجع
وفي حجتى حجتى جميل الطبايع
رجال يراع أو رماح شوارع (I5)
لقاء ففى تلك القباب السواطع
العلا والمعالي وهى جد روائع
وقطب رحي ذا البيت دون مضارع
بعلم ومال ، فهو جم الصنائع

(6) كانت نشأة الشاعر بريان بمدينة خنيفة . ولد بمكناس ولكن جاء به والده الى المعسكر الذى كان يرأسه بخنيفة قبل سابع الولادة ، وما برحها حتى هاجمهم الفرنسيون فى حملة الاحتلال

(7) الغوادى جمع غادية السحاب التى ينشأ صباحا أو مطرة الغداة

(8) يهوى يسيل لا ينثى شئ

(9) شبوكة : واد ينحدر من جبال شرقى مدينة خنيفة وهو احد روافد أم الربيع

(10) اسرو : واد ينحدر من شرقى خنيفة ، فى حين ينشط أم الربيع من جبال غربي خنيفة . وينصب واد شبوكة فى اسرو ويذهبان بضعة كلمترات فيصبان فى أم الربيع ، ولجرى هذه فتمر ازاء الزاوية بكلمترات

(I1) الوقائع : جمع وقعة نقرة فى الجبل يستنقع منها

(I2) العرنين : السيد الشريف

(I3) الشعاع : الطوال

(I4) تعشو : تقصد ليلا

(I5) الرماح الشوارع : المسددة

(I6) يساق : يفاخر

(I7) أبو بكر هو قطب هذه الاسرة علما وصلاحا ودليا ، ولد سنة 943 وتوفى سنة 1021

(I8) محمد فتحا هو النجل الابن الذى ملا الدنيا علما وعملا وقبضا ونوالا وصلاحا وولد حوال سنة 967 وتوفى سنة 1046

فجوزي ، ثم كان خير مضاجع
هوادي (19) العشايا أو هبوب المطالع
رأيت الليالي قد رمت بفونج
وعزة هاتيك القصور اللوامع
باطلال يوم تنعبن وبلا قم
يلد مذاقا أو يسوغ لجارح
وغصت بدمع من مآق مشايخ (21)
رويدك ، ذاك الدهر رب الفواجع
فلا تعتبن فالعتب ليس بنافع
فكن بقضاه خير راض وطائع

وإبر برور الصالحين بوالد
سقتهم غواد رائحات تسوقها
فلماذا رأيت ؟ اذ أتيت لروضها
رمتها فهدت من شوامخ ركنها
تبدل ذاك القائق الحسن نضرة
وعاد رحيق شربها رنقا (20) فما
فشاب نواصي الزاثرين بلوعة
ألا أبا الملتاع منها تحسرا
عزاه ، فما ينفك بالقوم غادرا
وسلم ، قضاء الله حتم ونافذ

(19) هوادي الليل : أوائله

(20) رنقا : كدرا

(21) مشايخ : موافق ومساعد

ملحق رقم (3)

أحدى القصائد التي كان يلقيها شاعر الزاوية الدلائية أحمد الدغوي في مواسم عيد المولد النبوي الشريف بين يدي الشيخ محمد بن أبي بكر يمدحه في آخرها بالكرم وأحياء الشريعة واتباع السنة *

رحلوا وقاطن شوقهم لم يرحل
فألفت من جسدي الذبول لفقدهم
فعلى الطلول تزايد الزفرات من
يا ربع أين طباء حيك والمها
يا ربع ويحك أين من بنقائهم
أجري الضوامر مدلجين حداتهم
ألفوا السهاد من الرقاد وحالفوا
وسرت بهم تجتاب كل مضلة
وغدت بهم تختال كل مفازة
لم لا وقصدهم الذي فضلت به
وطيب طيبة حيث حل تعطرت
الهاشمي الأبطحى محمد
خير الأوائل والأواخر من له
وكذا إليه الجذع حن وأن من
ومن الزلال العذب على محافظا
وشكا البعير إليه فرط عنائه
والضب أفصح معلنا بشنائه

وسروا بلبى بين تلك الأرحل
أسفا ومن خلدي ذهول الليل (1)
حرقى على عبرات دمعي الهمل (2)
وجأذر بهم جيبك كم حلى (3)
يزهو نقاك كأنه لم يعطل (4)
متحملي الاثقال أي تحمل
قطع الوهاد بكل حرف هوجل (5)
عيس أين شرف يفوق ويعتلى (6)
من ركبهم حظيت برفعة منزل
أعلام مكة كل معنى أفضل
كل العوالم وهو أكرم مرسل
هادي الأنام وسيلة المتوسل
نطق الجهاد رضى بأفصح مقول
شوق لوطاته بمحضر محفل
من بين أنمله جرى بمسلسل
وشكا الغزال إليه خيفة هوجل
والذئب سلم جيرة بتدليل

سليمان الحوات . البدور الضاوية . ورقة 44/ب وما بعدها

- (1) في النسخ المخطوطة (الدهول الليل) وهو لا يستقيم من ناحية القواعد النحوية لذلك اقترحت أن يكون الأصل (ذهول الليل) . ولعل الشاعر يرى في تغريد الليل ما يراه غيره في سجع الحمام من تعبير عن الحزن وأثر المدهول
- (2) تزايد : مضارع حذف إحدى تاءيه . والهمل - يضم الهاء وتشديد الميم المفتوحة - جمع هامل . من هملت العين إذا قاضت دموعها
- (3) المها : مفرد مهاة وهي البقرة الوحشية . والجؤذر - يضم الجيم ويضم الدال وتفتحها - ولدها . ويضرب بهما المثل في حسن العيون
- (4) النقا : مصدر نقي أي نظف وظهر . والنقا من الزمل : القطعة لنقاد محدودة . وهو جريد هنا مطلق المكان
- (5) الحرف : الناقة الضامرة أو العظيمة . والهوجل من التوق : السريعة في سيرها
- (6) مضلة - يفتح الميم ويفتح الضاد وكسرهما - أرض يقل فيها السائر . والعيس : كرام الأبل أو البيض التي يخالط بياضها مراد خفيف . ويقال للحمل عيس والناقة عيساء

وأرى انشقاق البدر أوضح آية
ويكفه صم الحصا لآخي الحصا
ومن الدليل على علاه سموه
أم الملائكة الكرام معظما
ما زال يصحبه السعود صعوده
حتى دنا من قاب قوسى الاصطفاء
لولا ما حصل الوجود لواجد
لولا ما عرف الاله ولم يدن
ماذا يحاول من ثنائك حادث
بك أقسم الجبار جل جلاله
يا مصطفى الرحمن أنت حبيبته
ها أنت أمتع من يلاذ به حمى
كن لى بحقك منقذا مما دهى
وادم لوارث. سرك السر الذى
يعبى شرائعك الزكية حافظ
نعم الامام سميك العلم الذى
وعليك من صلوات ربك دائما
تهدل ديمتها على ربع بسه

لذوى الشقاق لو اهتمدوا بتأمل
ة مسبحا أبدى العجاب لو اجتلى
ليلا على أعلى العلا شرفا على (7)
والمرسلين وساد كل ميجل
والله يزلفه بكل تفضل (8)
بمنزل عنه الوجود بمعزل
لولا سبيل رشادنا لم تعقل
بتبتل لله حلف تبتل
بعد الثناء من القديم الاول
وعليك صلى فى الكتاب المنزل
ها أنت أنجح مأمّل لمؤمل
ها أنت فى الدارين أكرم مؤمل
من أجل متوقع ومعجل
أورثته أبدا يزيد وخول
السنن السنّية ذو العطاء الاجزل
يسمو السماء سناؤه بك اذ حلى
أهمى سحائبها السوامى الهطل (9)
كملت سعادة جيلنا لا تأمل

(7) (على) فى آخر البيت مضارعه يعلى ، كفرج يفرج ، بمعنى ارتفع وسما ، والإشارة هنا الى قضية المعراج وصعود الرسول الى سدرة المنتهى
(8) السعود مفعول به ثان مقدم للمفعول يصحب - الرباعى - والفاعل هو صعوده
(9) صمير (سحائبها) يعود على السماء وهى مفهومة من السياق غير مذكورة ، والسوامى جمع سامية ، والهطل - بضم الهاء وتشديد الطاء المفتوحة - جمع هطل أى نازل متتابع ، والسوامى والهطل وصفان للسحائب

ملحق رقم (4)

(أ) حزب الفلاح لمحمد بن سليمان الجزولي *

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم باسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الذي لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك في الملك ولم يكن له ولي من الدن وكبره تكبيرا ، الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله لقد جاءت رسل ربنا بالحق . جزى الله عنا سيدنا ونبينا محمدا صلى الله عليه وسلم أفضل ما هو أهله (ثلاثا) ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة انك أنت الوهاب (ثلاثا) أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق (ثلاثا) باسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم (ثلاثا) سبحان ربى العظيم وبحمده ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم (ثلاثا) أستغفر الله العظيم الذى لا اله الا هو بديع السماوات والأرض وما بينهما من جميع جرمي وظلمي وما جنيت على نفسي وأتوب اليه (ثلاثا) لا اله الا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم (تسعا) لا اله الا الله سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم . ثبتنا يا رب بقولها ، وانفعنا يا رب بفضلها ، واجعلنا من أختيار أهلها ، واحشرنا في زمرة قومها (ثلاثا) آمين آمين آمين رب العالمين .

(ب) الصلاة المشيشية لعبد السلام بن مشيش العلمى :

اللهم صل على من منه انشقت الاسرار ، وانفلقت الانوار ، وفيه ارتقت الحقائق ، وتنزلت علوم آدم فأعجز الخلائق ، وله تضاءلت الفيوم فلم يدركه منا سابق ولا لاحق ، فرياض الملكوت بزهر جماله مونة ، وحياض الجبروت بفيض أنواره متدفقة ، ولا شيء الا وهو به منوط ، اذ لولا الواسطة لذهب - كما قيل - الموسوط ، صلاة تليق بك منك اليه كما هو أهله . اللهم انه سر ك الجامع الدال عليك ، وحجابك الاعظم القائم لك بين يديك . اللهم الحقني بنسبه ، وحققني بحسبه ، وعرفني اياه معرفة أسلم بها من موارد الجهل ، وأكرع بها من موارد الفضل ، واحملني على سبيله الى حضرتك ، حملا محفوقا بنصرتك ، واقذف بى على الباطل فأدمغه ، وزج بى فى بحار الاحدية ، وانشلني من أوحال التوحيد وأغرقني فى عين بحر الوحدة حتى لا أرى ولا أسمع ولا

العربى الفاسى ، مرآة المعاصرين ، ص 54 وما بعدها
لم أعلق على نصوص هذا الملحق لاشتغالها على آيات قرآنية وأحاديث وإشارات صوفية يصعب تحليلها فى هامش صغير مكثفيا بتصحيح النص تاركا النوح للتفسير والكتب المؤلفة فى الموضوع كشرح ابن زكري للصلاة المشيشية وهو مطبوع

أجد ولا أحس إلا بها ، واجعل الحجاب الاعظم حياة روحي ، وروحه سر حقيقتي
وحقيقته جامع عوالمى ، بتحقيق الحق الاول ، يا أول يا آخر ، با ظاهر يا باطن ،
اسمع ندائى بما سمعت به نداء عبدك زكرياء عليه السلام ، وانصرنى بك لك ،
وأيدنى بك لك ، واجمع بينى وبينك ، وحل بينى وبين غيرك . الله ، الله ، الله
ان الذى فرض عليك القرآن لرادك الى معاد . (ربنا آتنا من لدنك رحمة
وهي لنا من أمرنا رشدا) .

(ج) السبعات العشر :

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم باسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب
العالمين الرحمن الرحيم ملك يوم الدين اياك نعبد واياك نستعين اهدنا الصراط
المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين (سبعا)
- بتكرير البسملة ، وأما التعوذ ففي الاولى فقط - سورة الناس (سبعا) .
سورة الفلق (سبعا) . سورة الاخلاص (سبعا) . ثم سورة الكافرون (سبعا) .
- بالبسملة فى الجميع مكررة مع كل واحدة - آية الكرسي (سبعا) . سبحان
الله والحمد لله ولا اله الا الله والله أكبر ، ولا حول ولا قوة الا بالله العلى
العظيم (سبعا) . اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على ابراهيم
وعلى آل ابراهيم وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على ابراهيم وعلى
آل ابراهيم انك حميد مجيد (سبعا) . اللهم اغفر لى ولوالدى وللمؤمنين
والمؤمنات والمسلمين والمسلمات ، الاحياء منهم والاموات (سبعا) . اللهم افعل
بى وبهم عاجلا وآجلا فى الدنيا والآخرة ما أنت أهله ، ولا تفعل بنا يا مولانا
ما نحن أهله ، انك غفور رحيم ، جواد كريم ، رؤوف رحيم (سبعا) .

(د) العشرات التسع :

أشهد أن لا اله الا الله أشهد أن محمدا رسول الله (عشرا) . صلى الله
عليه وعلى آله وصحبه وسلم (مرة واحدة) . أعوذ بالله من الشيطان الرجيم
(عشرا) . باسم الله الرحمن الرحيم (عشرا) . اللهم صل على سيدنا محمد
النبي الامى وعلى آله وسلم (عشرا) . أستغفر الله ان الله غفور رحيم (عشرا) .
لا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم (عشرا) . لا اله الا الله وحده لا شريك له ،
له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير (عشرا) . سبحان الله وبحمده
سبحان الله العظيم (عشرا) . الحمد لله رب العالمين (عشرا) . الشكر لله رب
العالمين (مرة واحدة) . حسبنا الله ونعم الوكيل (سبعين مرة) .

ملحق رقم (5)

لشاعر الزاوية الدلائية أحمد الدغوشي في إحدى ختمات الشيخ محمد
ابن أبي بكر الدلائي لصحيح الامام البخاري *

بخاري من تارجهما الهباء
وليس المسك والكافور الا
أمتكر فضلها أحسدت أرضا
تنبه ويك ان الى بخاري
أمير المؤمنين أولى انتقاد
كان كتابه والكتب منه
فمنه به سميا بل سرييا
ونفس وجوده لما ادلهمت
وقاء علاك من بالارض طرا
ميت الجبل محيي العلم نصحا
فمن عن حجه أقصته منا
فمكة حننا ومنى مائنا
وان لطيفة الغرا لطيبا
على انا بجاهك وهو باب
نؤمل أن نبلغ لا حرمانا

بخار دون مخبره الكباء (1)
شدا هو من تضوعها شفاء
تقر لها وتحسدها السماء
لجامع جامع صبح انماء (2)
به حسن انتقاء واتقاء (3)
تمد سمية والاولياء (4)
تمد الاولياء بما تشاء
دياجي النازلات هو الضياء
فأنت من الشقاء لهم وقاء
كما أحيا ميت القحط ماء
مأثمه وأفعده القضاء
وكعبتنا وزهرنا الدلاء
يعطر منه ناديك الهواء
مفاتحه لبغيتنا الرجاء
هنا وهناك يغتم الدعاء

- سليمان الحوات ، البدور الضاوية ، ورقة 3/6 ب
- (1) الكباء - بكسر الكاف - غود البخور . والهباء : الغبار . ولعل معنى البيت أن جو مدينة بخاري التي هي مسقط رأس امام المحدثين أبي عبد الله البخاري أطيب رائحة من غود البخور لذلك عبر الدغوشي عن الامام البخاري
- (2) يسمى كتاب البخاري في الحديث جامع الصحيح . بأنه (جامع جامع)
- (3) يلقب البخاري بأمرير المؤمنين في الحديث . ويشير بالانتقاد الى ما قدم له البخاري من نقد رجال الاسناد بتعديلهم وتوجيههم لتفسير الاحاديث الصحيحة من غيرها
- (4) الضمير في (كتابيه) و (سمية) يعود على البخاري . والمعنى أن سائر كتب الحديث تستفيد وتستمد من صحيح البخاري ، كما أن سائر الاولياء والصالحين يستفيدون ويستمدون من معنى البخاري أي مثيله في الاسم . وهو يقصد محمد بن أبي بكر الدلائي

ملحق رقم (6)

إجازة الامام محمد بن قاسم القصار لمحمد بن أبي بكر الدلائى *
الحمد لله وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما .

يقول كاتبه محمد بن قاسم بن محمد بن علي القصار القيسي الغرناطي
صلا وأبا ، القصار لقباً ، عفا الله عنه وعمن دعي (كذا) له . كان من نعم الله
على لقاء الفقيه المتفطن الصالح مربى طلبة العلم والدين ، الكثير الاحسان
للمضعفاء والمساكين ، حاج بيت الله الحرام سيدي محمد بن ولي الله باتفاق ،
شهير ذكره في الآفاق ، سيدي أبي بكر بن محمد أبقاه الله فخرا للاسلام ،
رفعا للفقراء والايتام ، آمين . فطلب من محبه إجازة فقلت له :
أجزت لكم مروينا مطلقا وما لنا سائلا أن نتحققوا بدعاء

وسمع من لفظي صحيح البخاري رضي الله عنه وأجزت له جميعه ، والموطأ
ورقة الستة ، ومسنند أحمد وسائر مصنفات الحديث الشريف ، وما في
الأوراق قبله (I) وجميع ما اشتملت عليه فهارس ابن الزبير (2) والزبير
العراقي (3) وابن حجر (4) والشيخ زكريا (5) وسيدي يحيى السراج (6)

- * سليمان الحوات ، **البدور الضاوية** ، ورقة 1/30 و ب . وقد نقلها من خط الامام القصار
(1) يشير بذلك الى فهرسته الجامعة لاسانيده اذ هي التي كانت الإجازة عقبها . وفي قسم الوثائق
بالخزانة العامة بالرباط مخطوطة (رقم 71 ج) تشمل على فهرست الامام القصار
(2) علي بن الزبير السجلماسي الحافظ المشارك ، أخذ عنه الامام القصار ثم تنقلت له مباشرة
الشيخ محمد بن أبي بكر الدلائى . توفي ابن الزبير في قاس عام 25/1035 - 1026
(3) أبو الفضل زين الدين عبد الرحيم بن الحسين العراقي ، المعروف بالعراقي الكبير ، من
أكبر حفاظ الاسلام ، ومسندي الحجاز ومصر والشام . وهو شيخ الحافظ ابن حجر ،
توفي بمصر عام 3/806 - 1404
(4) الحافظ ابن حجر حجة الاسلام أبو الفضل شهاب الدين أحمد بن علي بن محمد ابن حجر
المسقلاني ، مؤلف كتاب **فتح الباري شرح صحيح البخاري** ، والإصابة في تمييز الصحابة
توفي بمصر عام 1448/852
(5) الشيخ زكريا الانصاري قاضي القضاة بالديار المصرية ومسندها . شيخ الاسلام صاحب
التأليف العديدة . وقد طال عمره وأخذ عنه كثيرون . توفي عام 19/925 - 1520
(6) يحيى بن أحمد النفزي المعروف بالسراج حافظ قاس والمغرب الذي التفت اليه رئاسة الحديث
وزوايته . له فهرست جامعة لاشياخه . توفي عام 2/805 - 1403

والنيسابوري (7) وابن غازي (8) ومشيخة ابن النجار (9) وأجزت له جميع مروياتي بأنواعها ، وجميع مالي . وكتب محمد المذكور أول ربيع الثاني عام اثني عشر وألف (10) مسلما على من يقف عليه وسائلا دعاءه . وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما .

- (7) هناك محدثون كثيرون ينسبون إلى نيسابور أولهم الإمام مسلم صاحب الجامع الصحيح وقد أورد منهم كحالة في معجم المؤلفين عشرات لم أستطع تغيير المذكور منهم قسم سلسلة الإمام القصار
- (8) أبو عبد الله محمد بن غازي العثماني المكاسي ، تزيل فاس وشيخ الجماعة بها . ألف في مختلف العلوم ، وله فهرست جامعة لأشباحه توفي بفاس عام 2/805 - 1403
- (9) الحافظ محمد بن محمود البغدادي المعروف بابن النجار أحد الحفاظ الكبار ، له عدة تأليفات
- (10) لم أقف على تاريخ وفاته
- (11) كانت وفاة الإمام القصار في نفس العام 1012/1004 - وبذلك تكون هذه الإجازة قد كتبت قبل موته بضعة أشهر فقط

ملحق رقم (7)

إجازة الشيخ محمد الم رابط الدلائى للحسن اليوسى *

أما بعد حمد الله مؤهل أهل اصطفاائه للاقتداء بسيد البشر، ومنهل خاصة لوليائه مناهل السنن والآثر، الميسر لهم من طرق الإجازة مدارجها، ومن أعالي الأسانيد معارجها، حتى اجتلوا من سماء معارفها أثمارها، ومن أدواح عوارفها أثمارها، ووقفوا بعرفات العرفان، فتدفقت لهم جداول الاحسان، والصلاة والسلام على سيدنا محمد واسطة عقد النبيين، وصفوة خلاصة الصديقين، وعلى أهل بيته الأطهار، وحماة دينه الانصار، وبعد فإن اتصال الأسانيد غاية يتجارى لاجتيازها ذوو النباعة من فضلاء الامصار، ويتبارى فى الامتياز بشرفها الكبراء فى عامة الاعصار، حتى لقد ركبوا فى طلابها الثنائف (1)، واقتحموا فى ابتغائها المخاوف، ورفضوا الاوطار والاطوان، ومجروا المعاهد والاخوان، وكيف وهى العروة التى مدار العرى عليها، والمآثرة التى مرجع المآثر اليها، وقد سلك ذلك السنن الصدر الرئيس، فارس الاملاء والتدريس، شيخ الجماعة بالديار البكرية، والعضرة الدلائية، فى التدقيق المعهود، أبو الحسن بن مسعود، صاحب النباعة الشامخة، والنزاهة الباذخة، والجلالة العليا، والهمة التى تبط بالثريا، المتمسك من الرواية بأسبابها، ومن الدراية بأهدابها، من ألقت اليه المعارف زمامها، وجمعت السيادة ما وراءها من المجد وأمامها، يرغب الى أن أجيزه، وأناسيع تبرزه، فأجبت مراده، وبأدبرت اسعاده، فأجزته إجازة تامة، مطلقة عامة، فى كل ما يصح لى وعنى روايته، يرفع فى أندية الإجازة بئنه ورايته، من كل مقرو ومسموع، ومفرد ومجموع، ومنشور ومنظوم، وماتور ومفهوم، على الخصوص والعموم، على نهج الرواية المعلوم، مما أحاطت به فهرسة الامام ابن عازى بروايتنا اياها عن شيخ الاسلام أبى عبد الله محمد العربى بن أبى المعاسن يوسف الفاسى، عن أبى عبد الله القصار عن أبى النعمان رضوان ابن عبد الله (2) عن أبى محمد عبد الرحمن بن على الشهبير بسقين (3) عن

* فهرست اليوسى، مخطوط الخزائن العامة بالمرباط، رقم 1234 ك، ورقة 67

(1) التالف جمع تنوفة وهى البرية التى لا ماء فيها ولا آيس
(2) أبو النعمان رضوان بن عبد الله الجنوى، المحدث الكثير الرواية، رحالة أهل زمانه، توفى بفاس عام 991 هـ - 1583 م
(3) أبو محمد عبد الرحمن بن على المعروف بسقين، الفقيه المحدث الراوية، رجل الى الشرق وأخذ فيه عن جماعة من المحدثين، توفى عام 49/450 - 1550

مؤلفها أبي عبد الله بن غازي . وفهرسة أبي العباس المنجوز (4) والامام المنتوري (5) وابن الزبير ، وحدثه بذلك عن مولانا المحدث الزاهد العارف بالله عبد الهادي بن عبد الله الحسني (6) ، عن والده الامام (7) وعن القصار وأبي العباس المعروف بابا السوداني (8) وأبي العباس أحمد بن محمد الشهير بابن القاضي وغيرهم من مشايخه ، واجازة الشريخين أبي محمد عبد الهادي ، وأبي عبد الله العربي إياي ، وهما عامتان في كل ما يحملانه أو يقولانه أو ينقلانه ، وأجزت له أن يروي ذلك عنى ، وأذنت له فيه اذنا تاما تلقاه لفظا وكتابة منى على شرطه المعتبر ، عند أئمة الاثر . قال ذلك وكتبه بيده متلفظا بالاجازة أواخر شهر الله الحرام مفتتح عام تسعة وسبعين بموحدة قبل العين ، وألف ، محمد بن محمد بن أبي بكر الدلائي عفا الله عنه بمنه آمين .

- (4) أبو العباس أحمد بن علي المنجوز المكناسي الاصل ، الفاسي المولد والنشأة والوفاة . كان أحفظ أهل زمانه وأعرفهم بالتاريخ متباركا في جميع الفنون الاخرى من معقول ومعقول له تأليف عديدة وفهرست جامعة . توفي عام 86/995 - 1587
- (5) أبو عبد الله محمد بن عبد الملك القيسي المعروف بالمنتوري (بكسر الميم) من أشهر الحفاظ المحدثين . توفي عام 30/834 - 1431
- (6) أبو محمد عبد الهادي بن الامام عبد الله بن علي بن طاهر الحسني المجلداسي . كان من أهل العلم والدين ، وهو مؤلف كتاب فلك السعادة ، الدائر في فضل الجهاد والشهادة توفي بالحرم الشريف عام 46/1056 - 1647
- (7) الامام عبد الله بن علي بن طاهر الحسني السجلداسي . كان له باع كبير في العلم والعمل والدين واتباع السنة . توفي عام 34/1044 - 1635 ببلاد مدغرة من أعمال سجلماسة
- (8) أبو العباس أحمد بن أحمد المدعو بابا السوداني الصنهاجي . ألف نحو 40 تاليفا ، منها كفاية المحتاج ، وفيه ترجم لنفسه . ابتلى في بلاده لما احتلها جيش المنصور الذهبي . وسبق أسيرا في القيد الى مراکش . ثم أطلق سراحه مع قومه . وقد تلمذ له كثير من علماء المغرب قبل أن يرجع الى السودان حيث توفي عام 26/1036 - 1627

ملحق رقم (8)

رسالة بعث بها أحمد المقرئ من القاهرة الى شيخه محمد بن أبي بكر الدلائى حينما مر محمد الحاج بمصر لدى رجوعه من الحج عام 1041/1631 *

خليلى ان جئت الدلا وجرى ذكرى لدى حضرة الشيخ الرضى ابن أبى بكر
نتيجة سر الاولياء محمد معرف كليات فضل بلا نكر
فاخبره أنى لم أحل عن وداده ولم يوهن البين الملم قوى صبرى
ولا ما أقاسى فى اتقاء غوائل يكيد بها ظلما ذوو الضغن والمكر
أناس نسوا حد الزمان وفتكه بمن راح من راح الغواية فى سكر
فسل سيدى حسن الخلاص لحائر وختما بحسنى كى ينير به فكرى
يا مفردا علما اهتدى الجمع السالم بالألأله ، وتشتت فى رياض ولأله
غصون آلأله ، وروى مسدد رأيه عن جابر سعيه عن علأله ، وما يسنده فى
مجالس املاأله . أهدي اليك يا بركة الزمان ، وبقية الناس بهذا الاوان ، الذى
حار فيه من يروم الامان ، وغلقت فيه الرهان (1) ، ولم يثنى لولا وجودك
بضمان ، من ارتاب فى حال غريمه ومان ، تحية تنافح خلالك ، وتصافح
- أبقى الله جلالك - ظلالك ، وتؤدى بعض حقك الذى راق مرأى اجتلاأله .
وأنهى الى معاهدك الشريفة ، ومشاهدك المربعة الوريقة ، على بعد الديار ،
وجرى بعض الاغراض على الاختيار ، أن العبد المخلص على ما تعهد ، من الود
الذى به القلب يشهد .

سلوا عن محبة الرجال قلوبكم فتلك شهود لم تكن تقبل الرشى
وقد مهد فى ديار الغربية فرشاً ، وسلم لاحكام الاقدار ، فى هذه الدار ، الكثيرة
الاقدار ، ولم يسلك منهج من عائد الدهر وقصد به تعرشاً . والدهر ذو ألوان ،
ولبعض أفعاله على غيرها عوان ، فى امراره واحلاله . فأما الشوق الى سيدى
وولبى فلا يستوفى وصفه القلم واللسان ، وحدث عن مسند أحمد (2) بما
سئت من طرق هى مع غرابتها حسان . وأما الحال ، فى الحل والترحال ، فقد
لبست من الصبر أحسن بزة ، كبر ورقة حالة وفراق أحبة أعزة ، محن لو أن
أقلها يرمى به جبل لهره . اللهم غفرا ، وشكرا لا كفرا . حج الفقير مرارا
خمسا ، وأضحى فى بعض مجاورا وأمسى ، واستجلى من طيبة المشرفة على
ساكنها الصلاة والسلام فى سبع مرار بدرا وشمسا ، وجاور هناك ، ودرس

* مخطوط الخزائن العامة بالرباط رقم 471 ك . ص 47 - 53
(1) غلق الرهن فى يد المرتين (من باب فرج) : صار ملكا له بسبب عجز الرامن عن افتكاكه
(2) يورد المقرئ هنا بكتاب المسند للإمام أحمد بن حنبل ، وهو يقصد نفسه واشتياقه الى شيخ الدلائى .

وصنف وأضاء فكره الحالك ، ونطق لسانه في الحضرة النبوية ، بالمطالب
الدنيوية والاخروية همسا ، ومما من الله به عليه أنه ألف بالحضرة فتح المتعال ،
في مدح النعال و أزهار الكمامة ، في أخبار العمامة وكل منهما مجلد كبير ،
فاح منه عنبر وعبير ، وحاز ان شاء الله الشرفين ، بالتصنيف في هذين
الطرفين ، الذين أحاطا بالذات الطاهرة ، وكان تصنيف كتاب العمامة تجاه
الرأس الشريف لمناسبة باهرة ، وكان قصد العبد أن يرسل بهما الى سيده
قبل هذا التاريخ فقدر الله أن بعض كبراء الدولة أخذهما ، ولم يبق والله
عندي الا الاصل فقط . وكانت اقامة ابن سيدي (3) في مصر قليلة ، لم يمكن
في مدتها كتبهما . ولعل الله ييسر في ذلك بعد . وقد ختمت كتاب العمامة
برجز اشتمل على زبدته وقد وجهته اليكم صحبة هذا المکتوب ، وهو مکتوب
بالمدينة المشرقة على صاحبها الصلاة والسلام ، ثم زرت بيت المقدس ثلاث
مرات ، ومواطن الانبياء والصحابة والتابعين لهم باحسان بالشام كرات ، ثم
عدت في هذا الوقت الى مصر بقصد الرحلة بالعيال الى الشام ، والله المسؤول
في تيسير الامر ، ورفع الاصر (4) . وما ذكرت بعض هذا الا على وجه
التحدث بنعم الله ذي الامتنان ، لا على وجه التفاخر الذي ينبغي للموفق أن
يصرف الى غيره العنان ، نعم بقلبي ياسيدي سلمكم الله حسرة جلّت ، وخيرة
حلت ، خلفته في كربة في بلاد غربة وتخلت ، وهي أمر البنت التي بفاس ،
وقد ضاقت وحق لها من أجلها الانقاس ، اذ لم يمكن اليها الوصول ، وتعسر
مجيئها الى على وجه محكم الوصول . والقصد من بركات سيدي شمولها
بالنظر ، والاعانة على تزويجها بلائق ممن حضر ، وهذا غاية المقدور ، بل
ومنتهى المرام ونفثه مصدور ، وكم حسرات في نفوس كرام . وقد أرسلت
اليها مع النجل الاجل سيدي محمد شكر الله سعيه ، وأدام صونه ورعيه ،
سبعة وثلاثين ريالاً كبيرة ، جهد مقل تراكت عليه لولا تثبيت الله أمور
مبيرة (5) ، والقصد ارسالها اليها بغور بلوغه في السلامة ، واذا أبرم القدر
شيئا فلا عتاب ولا ملامة ، وقد أرسلت الى الاصهار والفقهاء سيدي عبد
الواحد (بن) عاشر وسيدي محمد بن سودة ببيع الكتب على طريقة الاذاعة
والاظهار والتداء عليها في محل الرغبات ، ومظان الطلبات ، ودفع ثمنها في
مؤن هذه البنت ، التي بوجودكم عليها أمنت . وأما أمها فقد كنت ملكتها
أمرها (6) قبل فلم ترض ، والآن وقد غلب الظن أنني لا أقدر على القيام بما لها
من فرض ، اذ قدومي متعسر ، والعكس غير متيسر ، ولا يليق تأخير العصر الى

(3) الانساره الى محمد الحاج ابن الشيخ محمد بن أبي بكر الدلائل

(4) الاصر : الثقل والذنب

(5) المبيرة : المهلكة . من البوار . والفعل أبار بمعنى أهلك

(6) عليك المرأة أمر نفسها عبارة عن أن يجعل الزوج حق الطلاق بين يدي زوجها لنفسك

العصمة الزوجية ان شامت

الاصفرار ، ولا الهروب من مواقف الابطال والفرار ، ولا ضرر ولا ضرار ، والعزم عدم الاغترار ، فلها طلبة مملكة ان شاءت ، وقد صدرت منهم فعلة احزنت ، وفلانة ساءت ، وهي بيع بعض الكتب التي تعبت في تحصيلها ، وجعلت تصحيحها نتيجة العمر ، ومن جملتها ابن غازي والعيني على الانفية وغيرهما مما لا يحجل فضله حتى الغمر ، واخبرني بعض الجوراريين والتواتيين بحضرة النجل أنها عنده بتوات (7) ، وذكر لي علامات في هذا الكتاب بخطي والدهر بردها غير موات ، فهل يعدل الكتب شئ ، وما بعد الرشيد الا الغي ، واذا كانت نفائس الكتب تباع خلسة ، فبيعها بالمال العام أنقى للخدمة ، وما أظهرت مثل هذا لسيدى الا لعلمى أنه الثقة الواثق الالوف ، بل سيدى واحد العصر المعداد بالالوف ، ولا يفتى ومالك بالمدينة ، اللهم احفظ مقام سيدى ودينه . فليكن ما سطرته على شريف علمه ، وان أسأت فليحفظني برده حله ، فلا عطر بعد عروس ، والمشاهدة قد ينوب عنها ما في سطور الطروس ، وقد اوصيتهم أن يكتبوا ما بقى من الكتب في زمام ، ويرسلوه لسيدى لعله يختار منها ما يراه وهو الامام ، الذي به التمام .

.. والواصل لسيدى العقيدة التي من الله بنظمها وهي اضاءة الدجوة بعقائد أهل السنة وقد كتب من هذه العقيدة بالعزمين واليمن ومصر والشام أكثر من ألفي نسخة كتبت خطي على أكثرها ودرستها بمكة وبيت المقدس ودمشق ومصر والاسكندرية ورشيد وغرة ، ولله المنة ، والعزم على شرحها الآن متوفر . وأما قصيدة العمامة ، الموجبة مع هذه فهي خاتمة أزهار الكمامة ، وأرسلتها مع ما فيها من الإصلاح تبركا بكونها كتبت بحضرة صلى الله عليه وسلم في تلك الاوراق غير الورقة الاولى فانها كتبت بمصر بدلا من التي بالمدينة لعذر اقتضى ذلك . والقصد استمطار الدعاء ، من تلكم الحضرة - علم الله - لا التبجح بذلك على وجه الرياء ، والاعمال بالنيات ، ولم تر من سيدى مكتوبا مع النجل العريض ولا ندري ما بسبب ذلك .

كما حسنته الا ذنوب

اذا كان المحب قليل سعد

وكل ما يفعل المحبوب محبوب ، أستغفر الله فسيدى أجل من أن يعاتب ، وما الفرق بين المعبود في الشهادة والمكاتب ، وقد أكثرت على سيدى فليسمع ويصفح والسلام معاد على حضرة مقامه ورحمة الله وبركاته . وكتب عن عجل أو آخر شهر ربيع النبوي سنة واحد وأربعين بعد الألف وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما .

ملحق رقم (9)

أبو حامد محمد العربي الفاسي يمدح شيخه محمد بن أبي بكر
الدلائي *

أدار بذات السدر في الجانب الشرقي
واني لمن عيني عليك سحائب
وقفت على الرسم المحيل فشاقني
فما برحت مزن الغمام حوافلا
تساجلني أنى لها دون حامل
وتذكرني ، لو كنت أنساهم ، الصبا
وساجعة تفتن في نغماتها
وأحسبها مثلي اذا قلت قد بكت
فما أذرت الدمع السفوح وشملها
ولي مقلة تهمل كأن شؤونها
ودون أفيراخي تنائف نيفت
وشمل على حكم الشتات مبدد
وعندي أفيراخ هنا ، وسواهم
فعندهم شق وآخرها هنا
تناءت بنا الاقطار حتى كأننا

سقاك الحيا مادام صوب الحيا يسقي
تسبح اذا شحت بها أعين الودق (1)
فأبكي واستدعي العهاد واستسقي (2)
لحمل من الربيع في ربيعها تلقى
ولي حامل الذكرى لاهلي والشوق
تهب بمسراها (ومؤتلق) البرق (3)
على الفتن اللدن الوريق من الورق
وأين بكاهها من بكائي على لفق (4)
جميع وفرخاها لديها على لمق (5)
شآبيب قدفاضت من الواكف الشرقي (6)
على العشر للساري من أفق الى أفق (7)
وقلب على تلك التفاريق في فرق (8)
هناك ، وكم فلق لقلبي وكم فرق (9)
وما أن يكاد الشق يبلغ بالشق
حروف بأقطار البيوت من الوفق

* سليمان الحرات ، البدور الضاوية ، ورقة 170 - 171

- (1) الودق : المطر . وسبح : نزل وهطل . عكس شح بمعنى انحبس
- (2) الرسم المحيل : آثار الديار القديمة التي أتت عليها أحوال وأعوام
- (3) في النسخ المخطوطة (مؤتلي) ويظهر أنها محرفة عن مؤتلق
- (4) اللفق - بكسر اللام وسكون الفاء - الجزء والشقة من شقني الملاءة . يقال للرجلين لايفترقان هما لفقان . واللفق الذي افتقده الشاعر وبكاه هو ابتأوه كما توضحه الآيات التالية
- (5) أذرت العين الدمع : صبته . واللمق مصدر لمق اليه - من باب نصر - اذا نظر اليه
- (6) الشآبيب جمع شؤبوب وهو الدفعة من المطر . والواكف : السحاب . وآخر كلمة في هذا البيت في النسخ المخطوطة (الشرق) ولعلها محرفة عن الشرقي
- (7) التنائف مفردا تنوفة وهي القفر التي لا ماء فيها ولا أنيس
- (8) الفرق - بفتح فسكون - الانشقاق والتصدع
- (9) اللفق والفرق - بكسر فسكون - الجزء والقسم من الشيء . يقول الشاعر ان قلبه مصروف كثيرا ، بعضه مع ابتائه هنا ، وبعضه مع غيرهم هناك .

وانسى ضرب من الفال أنها
ولم يبق منى الشوق الا حشاشنة
وعان على ما لقيت ولم يهن
بغير على أن يروع سربهم
والى بأحوال الزمان لعارف
ولست على أبنائه الدهر عاتبا
والى أنا الطاوى على اليأس كشبه
وأعجز نفسى ان يمل بى وصلها
ولا أنسى ان صمم العزم جانحا
وان سرت عن من لى عليه ولادة
اذا لم تكن بالغرب أرض تقلنى
وما قيد النفس الشروود سوى الذى
نفس عن نفسى وأنس غربتى
وسن لى الآمال حتى حسبته
فيجمع لى الشمل الشتيت ويلا
وناهيك بالشيخ الامام محمد
بجيت توافى الحلم والعلم والندى
مفلىد أعناق الرجال قلائدا
اليه طوى عرض البلاد مشرد
اليك اليك أبى العار حامى ال
فأنتم بنو الشيخ أبى بكر الذى
وما كان ذاك الشيخ يسلم جاره
وقد كان حقا عنده نصر جاره
بقبش وذاك الارث فيكم مؤبد

لجمع، وهل جميع يحاول بالفرق (10)
وللشوق ما يفنى وللشوق ما يبغى
على الذى لاقى الاحبة من ضيق
وأن يشربوا بعد الصفاء من الرنق (11)
فأونة يحلى وأونة يعقى
وان وكسوا حظى وان غمضوا حقه
اذا بان لى أن الرجاء من الحسق
على ظما منى الى المورد الطريق
الى وطن أو ساكن فيه أو على
كفانى فيه مالك الخلق والرزق
بعزة نفس كانت الارض بالشرق
أجاز وأجرى سيبه دائم الدفق
وفرج لى كرى وحل عرى خنق
تزف الى مسرعات على طرق
الفتيت ويلقى الله برا بما يلقي
امام الهدى الهادى الانام الى الحق
وحيث تساوى القول والفعل فى الصدق
من العرف تقليد الجمائم بالطوق
نجبا بدماء مستجيرا من البوق (12)
لذمار مجير الجار من كدل ما يشقى
حمى وسما بالمجد والدين والخلق
ولو لاه الاملاك مع سائر الخلق
وأنتم لعمري وارثو ذلك الحق
ولله سر فيكم دائما يلقي

(10) الإشارة فى هذا البيت والذى قبله الى اصطلاحات علم الوقى وسر الاسماء . فالشاعر يقصد
نفسه وأهله بالحروف الموزعة على مربعات جدول الوقى ، غير أنه يتفاهل بأن يجمع مع
ذويه كما يجمع حروف الجدول . ثم يتساءل كيف يمكن جمع الشمل وهو يعنى فى
الابتعاد والافتراق

(11) الرنق - بفتح فسكون - الماء الكثير
(12) البوق - مصدر باق القوم عليه - من باب نصر - اذا اجتمعوا فقتلوه ظلما . ويشير الشاعر
فى هذا البيت الى قراره من الشيخ المأمون السعدي الذى سلم مدينة العرائش الى
الاسبانيين وأرغم العلماء على أن يفتوه بمشروعية تصرفه الطائش . ارجع فى هذا
الموضوع الى صحيفتى 113 - 114 من هذا الكتاب

ملحق رقم (10)

رسالة بعث بها أحمد بن عبد الله الدلائي الى السلطان اسماعيل يعتذر
عن تخلفه بتلمسان *

باسم من يضع الملك حيث يشاء ، فاختار له على علم قريشا . يتفيا
(تحت) ظلال الدوحة النبوية ، ويتنسم عرف أزهار عوارفها المصطفوية ،
ويترقى الى حيث النجوم الشوائك ، والمعالى أرائك . من تحمر من هيبه جلالة
الانفاس ، على حدود الاطراس ، ويتشرف بلشم يمين طالما ازدحمت على تقبيلا
الاملاك ، وانجابت لحسن صنيعة عن بنى الآمال الاحلاك . أبقاها الله آخذة
بيد من زل به الزمان ، ولحل ربقة كل عان . ولتقيل أفواه واعطاء نائل
وامساك هندی وحبس عنان ، وشيد لراقمه في كنف الدولة الهاشمية كنفاً (1)
واستوهب له منها عفوا لا يعقب ندامة ولا خوفا . دولة مولانا الذي ملك البواطن
بحسن بشره وعفوه ، والظواهر بشدة بأسه وسطوره ، محيى الدولة ،
ودريئة (2) الابطال عند الجولة ، قاهر الملوك ، وواسطة عقد السلوك ، من دانت
لهيبته فتاكة الاقطار ، وترنمت لمآثره حداة القطار ، ظل الله على بريته
الظليل ، أبو الفتوحات مولانا اسماعيل . لازالت رياح العز تنشر خوافق
الويتة وراياته ، والنصر يتلو في مآزق الحروب محكم آياته . وليت شعري بم
أحى ذلك المقام النبوى ، والجناب العلوى ، وأى عبارة أرتضيها للافصاح عن
قدره ، أو تقوم بمواهب حقه وبره ، وغاية جهدى يستغرقه عفوفضائله ، ولو
كنت سحبان وائل ، ويخجله أسير فواضله ، حتى أكون فى الفياهة كباقل .
ان قلت تحية كسرى فى السنا وتبع (3) ، جف القلم استحياء من سلوك هذا

سليمان الحوات ، **البدور الضاوية** ، ورقة 114/1 وأحمد بن الحاج ، **الدور المتكلم**
الاستحسن ج 6 ، ورقة 34/ب . وكان السلطان اسماعيل بن الشريف قد كتب الى
الدلائيين المبعدين فى تلمسان عام 1085/1074 يأذن لهم بالرجوع الى المغرب ، فالتحقوا
مسرعين بفاس ماعدا أحمد هذا فإنه ظل بتلمسان ، إذ كان يدير أمر الثورة مع أتراك
الجزائر . ولما ألح عليه قومه فى الدخول الى المغرب حسما للمشائعات التى تضر بهم كتب
هذه الرسالة الى السلطان معتذرا وطالبا منه كتابا بالعفو يبعث به الى والده عبد الله
فى الجزائر

- (1) يعنى الكاتب نفسه بقوله «لراقمه» . وكنف الدولة : حوزها وظلها ، وكنف الثانية - ملحق
- (2) الكاف وسكون النون - الحفظ والصون
- (3) الدريئة : آلة كالتروس يتقى بها المحاربون الطعن والضرب . ويصفى الكاتب السلطان اسماعيل
بالشجاعة والاقدام حتى كأنه ترمى يدرا عن أبطاله مهالك الحروب
يشير الكاتب هنا الى أعلام ضرب بها المثل قديما . فسحبان وائل عرف بالفصاحة فى الجاهلية
والاسلام حتى قيل انه أخطب العرب . وباقل بن عمرو الأيادى اشتهر فى الجاهلية بالى
والفهاة أى العجز عن الكلام . وكسرى أتو شروان أعظم ملوك فارس عرفه العرب عن
طريق أمرائهم فى الحيرة وضربوا المثل بجلاله ورفعة شأنه . وتبع واحد التبايع ، وهم
ملوك اليمن القدماء المعروفون بحضارتهم وشدة بأسهم

الجميع . وأولى ما يحيى به ذلك المقام الذى اتخذ الافلاك مهادا ، والنجوم وسادا ،
بالعبادة التى أضاء الشرع نبراسها ، وأدار على أمته كاسها ، وأغفل الله عنها
الأمم وأجناسها ، وخبأها لهذه الامة المحمدية تكرمة لها فلم تستنشق أمة
غيرها وردها ولا آسها . سلام على سيدنا ورحمة الله تعالى وبركاته ، ورضوانه
الاعم وتحياته . من عبد له يخر على طرف بساطه لاثما ، ويقضى من حقوق
الخدمة فرضا لازما . أحمد بن عبد الله . أوجبها الى الحضرة الكريمة التى
ينلقى فيها الصادر . الوارد بالبشائر ، ويسلو فيها الغريب الخائف بحسن
ملاطفتها عن الاهل والعشائر ، الاعلام لسيدنا بعذرى عن التخلف . فليعلم
مولانا السلطان نصره الله أن موجه ما معى من عيال أبى فكرهت أن أفات (4)
عليه فى عياله وهو غائب ، فلم أزل أستدنيه حتى بلغ الجزائر . ولما خرج
برسم الوصول الى العباد حرم القطب الغوث أبى مدين نفع الله به وجد هذه
الفئة بين يديه (5) ، فتأخر حتى يسكن هرجيا ، ويحمد وهجيا . ولا يصغى
مولانا نصره الله الى أقوال الوشاة فينا ان بلغه غير هذا ولا يقبله ، فان الله
سبحانه وتعالى لم يقبل فى مولانا أقوالهم ، ولا وافق شهواتهم وأغراضهم .
ولو وافق أغراض البعض فى البعض ، ما أدى نفل ولا فرض . ولا يضيق علينا
مولانا من عفوه ما وسع أهل المغرب . فقد مددنا الى سيدنا أكف الضراعة ،
مستشفعين اليه بجده صاحب الشفاعة ، يمن علينا بعفو يزيل أوجاسنا ،
ويسكن جأشنا ، أبعثه الى والدى فان أحب فذلك هو المطلوب ، والامل المرغوب .
والأركبت الى سيدي عزما يحكى الرياح فى الجيوب ، فقد طالت فى انتظاره
الغربة ، ونالتنى من ذلك كل كربة . والله سبحانه المسؤول ، أن يبلغنى ما
أرجوه بكم من كل مطلوب ومسؤول ، فانا عبدكم المتشرف بخدمتكم والنيات
الذى أنبت تحت رباب سحابكم (6) .

ولكن ما يقضى فسوف يكون

والله ما فارقتم على قلى لكم

والسلام على سيدنا ورحمة الله وبركاته .

(4) أفات عليه : استجد بالراى دوله
(5) يشير الكاتب الى احدى الثورات التى قام بها التلمسانيون ففرض عليها الأتراك بغير
شديد . ولم يصيب الدلائيين المقيمين فى حرم العباد بلمسان شر هذه الفئة لأن عبد
الله الدلائى الذى كان اذ ذاك فى عاصمة الجزائر أوصى قائد الحملة التركية المتوجهة
الى تلمسان أن يحتب جنوده مساكن الدلائيين
(6) الرباب - بفتح الراء - السحاب الابيض

مصادر الرسالة

أورد في الشبطين التاليين أهم المصادر العربية والافرنجية التي رجعت إليها ، وهي مرتبة على أسماء المؤلفين بحسب حروف الهجاء (الترتيب المغربي) مع ذكر سنة وفاة المؤلفين الاقدمين .

١ - المصادر العربية

ابن ابراهيم (I378/I959) عباس المراكشي .

١ - الاعلام بمن حل مراكش وأغमत من الاعلام ، 5 أجزاء (فاس I937/I356) .

ابن أبي زرع (حوالي I319/719) أبو العباس أحمد .

٢ - الانيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس جزآن (الرباط I936/I355) .

ابن بطوطة (I376/777) محمد بن عبد الله اللواتي الطنجي .

٣ - تحفة النظر في غرائب الامصار وعجائب الاسفار ، (الطبعة الاولى بمطبعة وادي النيل في القاهرة عام I287) .

ابن الحاج (I819/I235) أحمد بن محمد بن حمدون السلمي .

٤ - الدر المنتخب المستحسن في مآثر مولانا الحسن ، (مخطوط مكتبة الشيخ خير الدين الزركلي بالرباط) .

ابن حزم (I063/456) أبو محمد علي بن سعيد الاندلسي .

٥ - جمهرة أنساب العرب ، (تحقيق ليفي بروفنسال - مصر I948) .

ابن خلدون (I406/808) عبد الرحمن .

٦ - كتاب العبر - القسم الاخير المتعلق بالدول الاسلامية بالمغرب ، جزآن (نشره البارون دوسلان في الجزائر I847/I263) .

ابن زيدان (I946/I365) عبد الرحمن العلوي .

٧ - اتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس ، 5 أجزاء (الرباط I929/I347) .

٨ - المنزع اللطيف في التلميح لمفاخر مولاي اسماعيل بن الشريف ، مخطوط الخزانة العامة بالرباط 595 ج ، (المطبعة الملكية بالرباط) .

٩ - العز والصولة في معالم نظم الدولة ، (المطبعة الملكية بالرباط I961/I381) .

ابن الزيات (I230 - 29/627) يوسف التادلي .

١0 - التشوف الى رجال التصوف (نشره ادولف فور بالرباط سنة I958) .

ابن مرزوق (1380/782) الخطيب محمد (الأكبر) التلمساني .

11 - **المسند الصحيح الحسن في مآثر مولانا أبي الحسن** ، (مخطوط الخزانة العامة بالرباط III ق) .

ابن علي (1945/1364) محمد الدكالي السلاوي .

12 - **الاتحاف الوجيز بأخبار العدوتين المهدي لمولانا عبد العزيز** ، (مخطوط الخزانة العامة بالرباط 42 د) .

13 - **كتاب في الرباطات** ، (مخطوط مكتبة ابن غازي بمكناس) .

14 - **كناسة علمية** ، (مخطوط الخزانة العامة بالرباط 91 ج) .

15 - **مجموع فيه أخبار الدلائمين** ، (ميكرو فيلم الخزانة العامة بالرباط 36) .

ابن عسكر (1578/986) محمد بن علي السريفي الشفشاوني .

16 - **دوحة الناشر لحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر** ، (المطبعة الحجرية بفاس - بدون تاريخ) .

ابن القاضي (1616/1025) أبو العباس أحمد بن محمد المكناسي .

17 - **جذوة الاقتباس فيمن حل من الاعلام مدينة فاس** (المطبعة الحجرية بفاس) .

18 - **درة الحجال في غرة أسماء الرجال** ، جزآن ، (نشرهما ي . س . علوش بالرباط سنة 1934) .

19 - **لقط الفرائد من حقائق الفوائد** ، (مخطوط الخزانة العامة بالرباط 270 ك) .

ابن سودة (معاصر) عبد السلام المري .

20 - **دليل مؤرخ المغرب الأقصى** ، (تطوان 1950/1369) .

أكنوس (1877/1294) محمد بن أحمد المراكشي .

21 - **الجيش العرمم الخماسي في دولة أولاد مولانا علي السجلماسي** (مخطوط الخزانة العامة بالرباط 965 د) وهي النسخة التي اعتمدها . وقد طبع على الحجر بفاس عام 1336 هـ .

أعلاق (كان حيا أواخر القرن 13 هـ / 19م) عبد القاهر بن محمد بن أحمد بن الحسن

22 - **الخبر عن ظهور الفقيه العياشي بهذه البلاد وذكر سبب قيامه بوظيفة الجهاد** ، (مخطوط الخزانة العامة بالرباط 91 د) .

البنالي (1819 - 18/1234) أحمد بن عبد السلام .

23 - **تحلية الآذان والمسامع بنصرة الشيخ أبي زكريا العلامة الجامع** (مخطوط الخزانة العامة بالرباط 650 ك) .

البستاني (1883/1301) المعلم بطرس .

24 - **دائرة المعارف للبستاني** ، II مجلدا ، (بيروت 1876/1293) .

25 - **الاغتياب بتراجم أعلام الرباط** ، (مخطوط الخزانة العامة بالرباط 1287 د) .

26 - **مقدمة الفتح من تاريخ رباط الفتح** ، (مطبعة الجريدة الرسمية بالرباط 1345 هـ) .

النازي (31/1247 - 1832) أبو محمد عبد الودود بن عمر .

27 - **نزهة الاخيار المرضيين في مناقب العلماء الدلائيين البكرين** (مخطوط الخزانة العامة بالرباط 1264 ك) .

جنون (معاصر) أبو محمد عبد الله الطنجي .

28 - **النبوغ المغربي في الادب العربي** ، 3 أجزاء ، الطبعة الثانية (بيروت 1961) .

29 - **خل وبقل** ، (المطبعة المهدية بتطوان ، بدون تاريخ) .

الحافي (كان حيا عام 1747/1160) أحمد بن عاشر بن عبد الرحمن السلاوي .

30 - **الفهرست** ، (مخطوط الخزانة العامة بالرباط 4121 ك) .

الحجوي (1956/1376) محمد بن الحسن الثعالبي .

31 - **الرحلة** ، (مخطوط الخزانة العامة بالرباط 123 ح) .

32 - **الفكر السامي في تاريخ الفقه الاسلامي** ، 4 أجزاء ، (الرباط -

فاس 1345) .

الحجوي (معاصر) محمد المهدي

33 - **حياة الوزان الفاسي وآثاره** ، (الرباط 1935/1354) .

الحوات (بعد عام 1817/1233) أبو الربيع سليمان بن محمد العلمي الشفشاوني .

34 - **البدور الضاوية في التعريف بالسادات أهل الزاوية الدلائية** ،

(مخطوط الخزانة العامة بالرباط 261 د) .

35 - **ثمرة أنسى في التعريف بنفسى** ، (مخطوط الخزانة العامة

بالرباط 1264 ك) .

داود (معاصر) أبو عبد الله محمد التطواني .

36 - **تاريخ تطوان** ، (تطوان 1959/1379) .

الدلائي (1636/1046) محمد بن أبي بكر .

37 - **الفهرست** ، (مخطوط مكتبة الاستاذ محمد ابراهيم الكتاني

بالرباط) .

دبئية (1939/1358) أبو عبد الله محمد بن علي الرباطي .

38 - **النسمات الندية من نشر ترجمة أحمد دنية** ، (الرباط 1355 هـ) .

الزركلي (معاصر) الشيخ خير الدين . 10 أجزاء ، (الطبعة الثانية بدون ذكر

39 - **الاعلام** ، قاموس تراجم .

تاريخ ولا مكان الطبع) .

الزياني (1055/45 - 1646) عبد العزيز بن الحسن المهدى .

40 - **الجواهر المختارة فيما وقفت عليه من النوازل بجمال غمارة** ،
(مخطوط الخزانة العامة بالرباط 66 ج) .

الزياني (1249/1833) أبو القاسم .

41 - **البستان الظريف في دولة اولاد مولاي الشريف** ، (مخطوط
الخزانة العامة بالرباط 1577 د) .

42 - **الترجمان المغرب عن دول المشرق والمغرب** ، (مخطوط الخزانة
العامة بالرباط 658 د) .

43 - **الترجمانة الكبرى التي جمعت اخبار العالم برا وبحرا** ، (مخطوط
الخزانة العامة بالرباط 659 د) .

44 - **قصة المهاجرين المعروفين اليوم بالبلدين بفاس** ، (مخطوط
الخزانة العامة بالرباط 270 ك) .

الكتاني (1323/5 - 1906) جعفر بن ادريس .

45 - **الرياض الربانية في الشعبة الكتانية** ، (مخطوط الخزانة العامة
بالرباط 497 ك) .

الكتاني (1345/26 - 1927) محمد بن جعفر

46 - **سلوة الانفاس ومجاذبة الاكياس بمن اقبر من العلماء والصلحاء
بفاس** ، ثلاثة أجزاء ، (المطبعة الحجرية بفاس 1310 هـ) .

الكتاني (1382/1962) عبد الحى

47 - **فهرس الفهارس والاثبات ومعجم المعاجم والشيخات والمسلسلات
جزآن** ، (فاس 1346) .

الكتاني (1350/1931) عبد الكبير بن هاشم .

48 - **روض الانفاس العالية في بعض الزوايا الفاسية** ، (مخطوط
الخزانة العامة بالرباط 6412 ك) .

مؤلف مجهول

49 - **تاريخ الدولة السعودية الدرعية الناكمدونية** ، (نشره جورج كولان
في الرباط 1353/1934) .

مؤلف مجهول

50 - **التعريف بأحمد الششتري** ، (مخطوط الخزانة العامة بالرباط
1419 د) .

المعبي (1111/1699 - 1700) أبو عبد الله محمد .

51 - **خلاصة الاثر في اعيان القرن العاشر** ، (مصر 1284) .

النصوري (1384/1964) أحمد بن قاسم .

52 - **تاريخ زيان** ، مخطوط خزانة المؤلف بوادي زم .

المنوتى (معاصر) محمد بن عبد الهادى المكناسى .
53 - ركب الحاج المغربى ، (نطوان 1953) .

المقرى (1632/1041) أحمد بن محمد التلمسانى .

293

54 - أزهار الرياض فى أخبار عياض ، 3 أجزاء ، (مصر 1939/1358) .

55 - نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين
ابن الخطيب ، أربعة أجزاء ، (المطبعة الأزهرية بمصر 1302 هـ) .

المشرفى (1895/1313) العربى بن على المعسكرى .

56 - الحسام المشرفى لقطع لسان الشاب الجعفرى الناطق بغرافات
الجعسوس سبى ، الظن الكنسوس ، (مخطوط الخزانة العامة
بالرباط 2276 ك) .

ميارة (1662 - 61/1072) محمد بن أحمد .

57 - اختصار الدر الثمين والموارد المعين فى شرح المرشد المعين ،
(مصر 1348) .

الناصرى (1897/1315) أحمد بن خالد السلاوى .

58 - الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى ، 9 أجزاء (الدار البيضاء 1954) .

59 - طلعة المشتري فى النسب الجعفرى ، جزآن ، (المطبعة الحجرية
بفاس) .

الناصرى (1716/1128) أحمد بن محمد بن ناصر الدرعى .
60 - الرحلة الناصرية ، جزآن (المطبعة الحجرية بفاس 1320 هـ) .

الناصرى (كان حيا عام 1745/1158) محمد المكى بن موسى الدرعى .
61 - الدرر المرصعة بأخبار أعيان درعة ، مخطوط الخزانة العامة
بالرباط 265 ك) .

الصومعى (من رجال القرن العاشر) عبد الرحمن .
62 - التشوف الصغير ، (مخطوط الخزانة العامة بالرباط 1103 د) .

الضعيف (كان حيا عام 1820/1236) أبو عبد الله محمد الرباطى .
63 - تاريخ الدولة السعيدة ، (مخطوط الخزانة العامة بالرباط 758 د) .

العكارى (1746/1159) على بن محمد - الحميد - الرباطى .
64 - مناقب الشيخ سيدي على العكارى أو البدور الضاوية فى ذكر
الشيخ وتلاميذه وبناء الزاوية ، (مخطوط الخزانة العامة
بالرباط 88 د) .

العلمي (1135/22 - 1723) محمد بن الطيب

65 - الانيس المطرب فيمن لقيه مؤلفه من أدباء المغرب ، (المطبعة الحجرية بفاس 1315)

علوش (معاصر) ي. س. وعبد الله الرجراجي

66 - فهرس المخطوطات العربية المحفوظة بالخزانة العامة بالرباط ، جزآن ، (الرباط 1958)

عمار (معاصر) علي سالم

67 - أبو الحسن الشاذلي ، جزآن ، (مصر 1952)

عنان (معاصر) محمد عبد الله

68 - نهاية الاندلس وتاريخ العرب المتنصرين ، (مطبعة مصر - بدون تاريخ)

العياشي (من رجال القرن 12هـ/18م) أبو محمد عبد الله بن عمر

69 - الاحيا والانتعاش في تراجم سادات زاوية آيت عياش ، (مصور الخزانة العامة بالرباط 1433 د)

العياشي (1090/79 - 1680) أبو سالم الرحالة

70 - الرحلة العياشية أو ماء الموائد ، جزآن ، (المطبعة الحجرية بفاس 1316)

الفاسي (1052/1642) أبو حامد محمد العربي بن الشيخ أبي المحاسن

71 - مرآة المحاسن من أخبار الشيخ أبي المحاسن ، (المطبعة الحجرية بفاس 1324/1906)

الفاسي (1179/65 - 1766) محمد بن أحمد بن محمد بن عبد القادر

72 - المورد الهني بأخبار مولاي عبد السلام بن الطيب القادري الحسني ، (مخطوط الخزانة العامة بالرباط 1234 ك)

73 - شرح درة التيجان ، (مخطوط الخزانة العامة بالرباط 1432 ك)

الفاسي (1134/21 - 1722) محمد بن عبد الرحمن بن عبد القادر

74 - المنح البادية في الاسانيد العالية والمسلسلات الزاهية والطرق الهادية الكافية ، (مخطوط الخزانة العامة بالرباط 1249 ك)

الفاسي (1109/97 - 1698) محمد المهدي

75 - تحفة أهل الصديقية بأسانيد الطائفة الجزولية الزروقية ، (مخطوط الخزانة العامة بالرباط 76 ج)

76 - ممتع الاسماع في ذكر الجزولي والتباع وما لهما من الاتباع ، (المطبعة الحجرية بفاس 1313 هـ)

الفاسي (1685/1096) عبد الرحمن بن عبد القادر

77 - ابتهاج القلوب بخبر الشيخ أبي المحاسن وشيخه المجلوب
(مخطوط الخزانة العامة بالرباط 326 ك)

78 - الاقنوم في مبادئ العلوم ، (مخطوط الخزانة العامة بالرباط 15 ك)
79 - تحفة الاكابر بمناقب الشيخ عبد القادر - الفاسي - (مخطوط
الخزانة العامة بالرباط 2330 ك)

80 - شرح العمل الفاسي ، مخطوط الخزانة الملكية بالرباط رقم 821

الفضيلي (1899 - 98/1316) ادريس بن أحمد العلوي .

81 - الدرر البهية والجواهر النبوية ، جزآن ، (المطبعة الحجرية بفاس)

الفشتالي (1623/1032) عبد العزيز .

82 - مناهل الصفا في تاريخ دولة الشرفا ، ميكرو فيلم الخزانة العامة
بالرباط رقم 779 .

القادري (1773/1187) محمد بن الطيب .

83 - نشر المثاني لاهل القرن الحادي عشر والثاني ، جزآن ، (المطبعة
الحجرية بفاس 1892/1310) .

84 - نشر المثاني الكبير ، جزآن ، (مخطوط الخزانة العامة بالرباط
2253 ك) .

القادري (1792 - 91/1206) عبد السلام بن عبد الله الخياط .

85 - التحفة القادرية ، في مناقب عبد الله الشريف الوزاني ورجال
الشاذلية عموما . جزآن ، (مخطوط الخزانة العامة بالرباط
2321 ك) .

86 - تقايد تاريخية ، (مخطوط الخزانة الملكية بالرباط 248) .

السوسني (1963/1383) محمد المختار .

87 - المعسول ، 20 جزءا ، (الدار البيضاء 1960/1380) .

88 - خلال جزولة ، جزآن ، (المطبعة المهدية بتطوان بدون تاريخ) .

الشتنواني (معاصر) أحمد ومن معه .

89 - دائرة المعارف الاسلامية ، (مصر 1933/1352) .

الولالي (1715/1128) أحمد بن يعقوب .

90 - مباحث الانوار في أخبار الاخيار ، (مخطوط الخزانة العامة
بالرباط 2305 ك) .

اليازغي (1823 - 22/1238) محمد بن أبي بكر .

91 - حدائق الازهار الندية في التعريف بأهل الزاوية الدلائية
البكرية ، (مخطوط الخزانة العامة بالرباط 261 د) .

الحمدى (19/1132 - 1720) محمد بن أحمد بن الحسن .

92 - **واسطة العقدين فى ترتيب الكناشيتين** ، جزآن ضخمان جدا كانا مجزأين من قبل فى 10 أجزاء ، (مخطوط الخزانة العامة بالرباط 330 ك) .

اليعربى (27/1140 - 1728) محمد الصغير المراكشى .

93 - **روضة التعريف بمفاخر مولانا اسماعيل بن الشريف** ، (المطبعة الملكية بالرباط 1382/1962) .

94 - **نزهة الحادى بأخبار ملوك القرن الحادى** ، جزآن ، (طبعة أنجى 1888) .

95 - **صفوة من انتشر من صلحاء القرن الحادى عشر** ، (المطبعة الحجرية بفاس) .

اليوسى (1690/1102) أبو على الحسن بن مسعود .

96 - **المحاضرات** ، (المطبعة الحجرية بفاس 1317 هـ) .

97 - **الفهرست** ، (مخطوط الخزانة العامة بالرباط 1234 ك) .

98 - **تأليف فى العكاكزة** ، (مخطوط الخزانة العامة بالرباط 1224 ك) .

99 - **مجلة البيئة** ، الرباط ، السنة الاولى ، 1963 .

100 - **مجلة تطوان** ، تطوان ، السنوات 58 - 59 - 1963 .

297

- Archives berbères et bulletin de l'Institut des Hautes Etudes Marocaines
Hesperis, (Paris, 1925 et suiv.).
- CH. ANDRE JULIEN,
Histoire de l'Afrique du Nord de la conquête arabe à 1830, (Paris, 1952).
- E. LEVI-PROVENÇAL,
Les historiens des Chérifs (Paris 1922).
- GEORGES DRAGUE,
Esquisse d'histoire religieuse du Maroc, (Paris 1951).
- HENRI TERRASSE,
Histoire du Maroc, T. II, (Casablanca, 1951).
- JACQUES BERQUE,
Al Youssi, problèmes de la culture marocaine au XVII^e siècle, (Paris 1958).
- JEAN-LEON L'AFRICAIN,
Description de l'Afrique, Nouvelle édition traduite de l'Italien, par
A. Epaulard, 2 volumes, (Paris 1956).
- Le comte HENRY DE CASTRIES,
Les sources inédites de l'histoire du Maroc - de 1530 à 1845, (Paris 1905
et suite) Angleterre, France et Pays-Bas.
- M. HENRY LAVOIX,
Catalogue des monnaies musulmanes de la Bibliothèque Nationale, (Paris
Imprimerie Nationale, MDCC CI).
- Mission Scientifique du Maroc,
Archives marocaines, (Paris, 1904 et suiv.) T. XXVIII.
- Mission Scientifique du Maroc
Villes et tribus du Maroc, (Paris 1918 et suiv.), Rabat et sa région T. I.
- M. TH. HOOTSMA et co-auteurs,
Encyclopédie de l'Islam, (Paris, 1913 - 1942).
- ROGER COINDREAU,
Les corsaires de Salé (Paris 1948).

298

فهرس اللوحات المصورة

رقم اللوحة	رقم الصحيفة
1	حرجة تواجه القادم الى الدلاء وتستتر بقايا مسجد أبى بكر
2	صحن مسجد أبى بكر فى الزاوية الدلائية القديمة
3	بقايا صومعة مسجد أبى بكر فى الزاوية الدلائية القديمة
4	واجهة ضريحى الشيخين الدلائيين أبى بكر ومحمد
5	منظر عام لزاوية آيت اسحاق المبنية على أنقاض الزاوية الدلائية
6	الباب والقبلة لمسجد زاوية آيت اسحاق - الزاوية الدلائية الحديثة -
7	مكتب قائد زاوية آيت اسحاق فى موقع المسجد الاعظم
8	بقايا أسوار داخلية يظن أنها كانت تحيط بقصر السلطان محمد الحاج
9	بقايا قنطرة وادى أهل آزمور بجوار الزاوية الدلائية الحديثة
10	الصفحة الاولى من أحد كتب خزانة الزاوية الدلائية
11	المناطق التى شملها نفوذ الدلائيين بالمغرب
12	مناظر العدوتين فى منتصف القرن السابع عشر
13	رسالة من حكام سلا الى هولاندة عام 1053/1643
14	اقتراحات مضادة بعث بها عبد الله الدلائى الى هولاندة
15	السفارة المغربية فى لاهاي عام 1069/1659
16	رسالة عبد الله الدلائى التى يعتمد فيها سفره الى هولاندة
17	صورة الراهب بلطازار لوابولا منديز الذى يزعم الاربيون أنه محمد الدلائى
18	صحيفة بخط المؤرخ محمد بن على يرد فيها على ادعاء تنصر أمير دلائى
19	ضريح ابن عباد داخل باب الفتوح بفاس من بناء الأمير محمد الدلائى
20	أقرب مثال لصورة السلطان الرشيد بن الشريف العلوى
21	زاوية محمد بن العربى الدلائى فى الدار البيضاء - الزاوية الحراقية -
22	محمد بن محمد بن حسن الدلائى تاجر فى فاس
23	مقبرة العلماء الدلائيين الشهيرة برفقة باب الحمراء فى فاس

جدول الخطا والصواب

300

في الكتاب بضعة أخطاء مطبعية لا تخفى على القارئ منها :

مصحفة	سطر	بدلا من	اقرا
50	16	صعبة	صعبة
	26	المتجر	المتجر
52	11	الاخذ منه	الاخذ عنه
	13	المعرفة	المعروفة
37	20	الطريقة	الطريقة
	21	الصلحة	الصالحة
	22 - 29	بتامكورت	بتامكورت
73	8	وبقيت	وبقية
88	12	محاسن	محاسن
89	6	اعتدله	اعتدلت
100	26	47	147
114	27	0120	1020
123	8	العقلى	العقلى
125	12	بتاليه	بتالف
144	21	يتقلب	يتقلب
145	10	الفها	الفها
	21	الكتانى	الكتانى
146	28	وتغاذهم	وتغاذلهم
151	16	جمع	جمع
153	8	1638 -	1638 -
160	7	نجد	نجد
168	25	(4)	(5)
176	31	الطب	الطلب
188	17	الذ	الذى
208	23	15	17
211	28	وتره	لذرة
212	30	رقم	رقم 19
222	9	الثانية	الثالثة
238	16	كفاته	كفاته
272	3	فلماذا	فلماذا
274	15	يحيى	محيى
281	1	المنجوز	المنجور
282	22	عنوان	عنوان
283	21	واخلاله	واخلاله
	24	نفته	نفته
286	7	الياء	اليها
		كشحه	كشحه



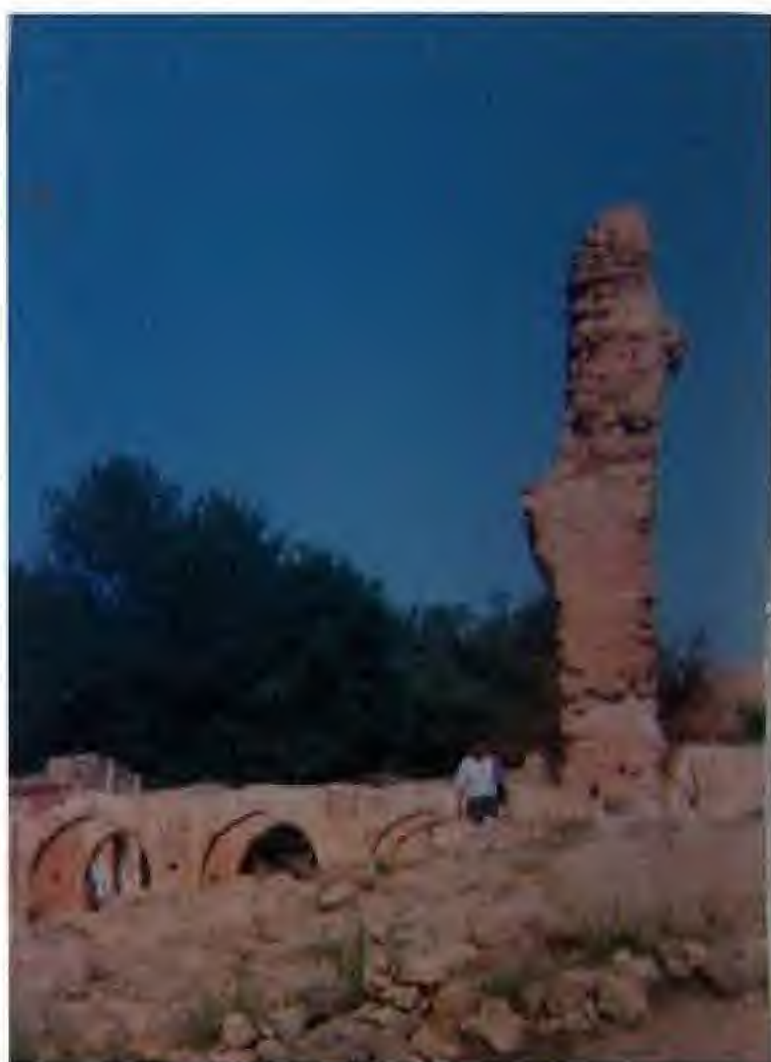
1991



1990



1990



1991



1991